الميلودي شغموم

الأعمال الكاملة

الجزء الأول

1 الروايات

منشورات



وزارة الثقافة

الميلودي شغموم : الأعمال الكاملـــة
الجزء الأول : الروايـــات
الإيداع القانوني : 2004/1524
ردمــــك : 9981-822-72-8
منشورات وزارة الثقافـة - 2005
سحـــب : مطبعة دار المناهل

الميلودي شغموم

الأعمال الكاملة

الروايات

الجزء الأول

جزيــرة العيــن

التعريف بجزيرة العين

روى العامل المهاجر المسمى قندال، الهارب من عيون جزيرة العين، قال:

جزيرة العين ...

جزيرة العين سهل وجبلان. كل جزيرة العين سهل وجبلان. السهل، اغفروا لي تشبيه مكبوت، صدر امرأة أهملتها الأيام.

الجبلان رمانتان، وبلغة المكبوت، نهدا مراهقة لأول مرة تصوم رمضان.

الصدر والنهدان حديقة استراحة للأبطال الغزاة، خمارة القراصنة وكلاب البحر.

جزيرة العين أيها السادة معلقة من جبليها بين الرغبة الخضراء وصدإ الذي كان، ينساب السهل نهرا، صليبا، سيفا قاطعا بين الجبلين.

جزيرة العين جنة وجهنم.

جزيرة العين كأهلها وحدة متناقضات من أغرب ما يوجد في هذا الزمان البركان.

الناس فيها طائفتان:

قوم يمشون فوق، على الهواء والماء، ارتفعوا حتى أصبحوا يشرفون على كل شيء.

وقوم يمشون تحت، داخل الخنادق والممرات التي لا ترى الشمس، ظلوا ينحدرون حتى أصبح الغرباء يعتقدون أنهم ليسوا آدميين وأن ليس بينهم وبين الحيوان أي فرق في طريق الحياة.

لذلك كتب علماء الأجناس والحضارات عنهم قائلين:

« في جزيرة العين شعب يؤكد أن أصل الإنسان خنزير».

وثار ضد ذلك جماعة من شباب-شيوخ أهل العين متهمين أولئك العلماء بقصر النظر وعدم التفريق بين ما هو طبيعي وما هو مكتسب مفروض.

غير أننا لا نريد أن نناقش ذلك الآن، نريد فقط أن نعرف بجزيرة العين.

قلنا إنها قومان، قوم تحت، وقوم فوق.

وهو شيء غير غريب، فالغريب أسماء سكان جزيرة العين.

أسماء الجماعة الأولى غاية في الجمال:

سعادة وراحة وسهرات للنساء، قادر وسالم وعظيم للرجال.

أسماء الطائفة الثانية بالغة الابهام:

مقبرة ومقصلة ومزبلة للنساء، متابع ومفصول وجائع للرجال.

ملابس الأولين لها هي أيضا أسماء، غريبة ككل الأسماء: محفظة وعربة وقصر للنساء، كرش وجيب وضوء للرجال.

ملابس الطائفة الثانية بدون أسماء، ولا غرابة في ذلك،حتى بيوتهم ليست لها أرقام، وأعمالهم غير محددة على وجه التدقيق، وليس فيهم في الواقع رجال أو شيوخ أو شباب.كل الرجال شيوخ، وكل النساء عجائز.

البنت تولد امرأة والطفل رجلا.

لذلك لم يعد أحد يتكلم هناك عن الشباب إلا من باب المجاز.

كذلك بطونهم تتشابه كما تتشابه عيون أهل آسيا، بطونهم صغيرة جدا لا تكاد ترى أو تميز.

لهذا وذاك انتفى عندهم مفهوم الوقت، فمنهم من خرج إلى عمله منذ ألف عام دون أن يصل إليه حتى الآن.

ومنهم من بدأ يأكل منذ قرون ومازال لم يشبع، ومنهم من نـــام منــذ فصل الشتاء الماضي فاستيقظت المسبتات وما زال هو خارج دائرة الزمن.

ومنهم من دخل إلى نفسه ولم يخرج منها بعد.

ومن أخرج يده من جيبه منذ داحس والغبراء ولم يعدها إليه بعد.

ومنهم من نسي الحليب والضحكة والصابون، ومن نسي شعر رأســه أو لحيته منذ ولد.

الناس في هذه الطائفة لا يولدون، يقذفون فقط فيجدون أنفســهم فجــأة شيوخا وعجائز.

حتى قاموسهم اللغوي فقير جدا، أفقر قاموس في العالم لأنه لا يحتوي إلا على ثلاث مفردات: « آح. تفو. قلب».

وهم بذلك أعجوبة لغوية في هذا الزمن الثرثار. أما الكلمة الأخيرة من القاموس فهي فعل، والفعل لا يقبل الصرف إلا في المستقبل. ولم يستطع أحــد من الزوار أن يعرف سبب تلك الظاهرة اللغوية.

لقد كلف كبير الجزيرة شخصا يدعى دوسوسير لدراسة هذه الظاهرة. لكن هذا الأخير لم يكن عارفا بعلوم الأولين:

لذلك أقاله كبير الجزيرة وكلفه بكتابة رسائله الخاصة (غير الرســمية) وكلف بدراسة تلك الظاهرة اللغوية الغريبة شخصا غريبا يدعى زند هاريوح.

وقد كان هذا الأخير عالما مساعدا لانشتاين ومعروفا في الجزيرة كلها بأبحاث عظيمة لم يدرك أحد بعد مضمونها.هكذا قدم.

غير أنه رجل معروف بغزارة علمه، وهذا وحده، كيفما كان علمــه، يؤهله لان يقع عليه اختيار كبير الجزيرة.

إلا أن كبير الجزيرة ما لبث أن اكتشف لديه مواهب أخــرى نــادرة. (ولم يتساءل أحد في بداية الأمر عن علاقته بمعلم كان يحمل نفس الاسم).

لذلك عينه أستاذا لمادة دفن الجماجم بالجامعة، بالإضافة إلى منصبه القديم، ومنصبه كرئيس لجمعية الرفق بالخبز والسكر، وعضوية جماعة المحافظة على بنايات السجون القديمة والمقابر العتيقة، ومهامه كمستشار بديوان رئيس الوزراء في شؤون الحلاقة وغسل الموتى بالطرق العتيقة وتعبيد الشوارع. كل الشوارع المؤدية إلى رؤوس الرعية حتى تسهل خدمتهم أكثر.

وهذا بالضبط ما أظهر فيه زند هاريوح براعة كبيرة إذ قام بربط الأعصاب داخل كل رأس بمجموعة من الأسلاك وأنشأ مصلحة خاصة بتحريك الأسلاك داخل رؤوس المواطنين فما لبثت تلك المصلحة أن أصبحت وزارة يعمل بها مئات الموظفين وأصبح هو وزيرا يحمل اسم « وزير الأسلاك الوطنية». ودر اختراعه العجيب هذا ما لا يحصى من الأموال إذ بدأت حكومات الجزر الأخرى تتنافس على شراء خبرة جزيرة العين في مجال الأسلاك الوطنية.

ولم تكن هذه أول وزارة غريبة في الجزيرة.

فقد كانت عندهم وزارة تسمى « وزارة الكلام ».

وأخرى تسمى « وزارة الاستراحة ».

وثالثة تسمى « وزارة الختان».

ناهيك عن المصالح كمصلحة « الدخان».

وعن الأقسام المتخصصة كقسم « اللصوص المتدربين».

وقسم « أطول حفلات التاريخ» وقسم « إرشاد النائمين إلى علم فرويد وابن سرين»، وغير ذلك مما سنراه بعد حين.

قصة زند هاريوح مع الثلاجة

حدثنا السيد زند هاريوح في حالة من حالات سكره قال: « كل شـــيء بدأ بالحب. ثم بدأ الغضب. وأخيرا الكراهية، والكراهية لا يمكــن أن تعــيش بدون خوف».

كل شيء يطلب ضده أو نقيضه. ماذا تطلب الكراهية بعــد الخــوف؟ ماذا يطلب الخوف؟ فكروا أنتم في ذلك.

أما أنا فقد فكرت فقط في الحالة الأولى:

الحب الذي يصير كراهية ثم خوفا.

ويجب أن اعترف بأني المسؤول الأول، وربما الوحيد أيضا عن ذلك.

فرغم أنه لا يوجد بين الناس شخص واحد يستحق أن تتحمل صفعة يد واحدة من أجله أو تدخل السجن أو تقدم للمحاكمة.

ورغم أن الناس يريدون من يقوم مكانهم بكـــل شـــيء فـــإذا أصـــيب بمكروه لا يقومون بأضعف الإيمان من أجله أو من أجل أولاده.

ورغم أن الناس لا يفعلون أكثر من الانتقاد في المقـــاهي والحفـــلات ورغم أن الناس لا يقابلون حبك لهم إلا بالنقـــد القاســـي كأنـــك خـــادمهم أو باللامبالاة أو السخرية وأحيانا برفعك إلى مســتوى القديســين لكـــي تصـــبح موضوع قصص يتسلون بها، ورغم أنهم يخافون أكثر مما يجب ويريدون من الآخرين أن يكونوا غير هيابين أو حتى متهورين أكثر مما يجب.

ورغم أنهم في أعماقهم يحسون بلا جدوى ما تقوم به ويمضون فـــي الإيماء إليك بأنهم معك، ورغم أنهم لا يفكرون إلا فـــي مصـــالحهم الخاصـــة وحاجياتهم المباشرة الضيقة ويقيمون كل فعل من تلك الزاوية المعوجة.

رغم كل ذلك ليسوا مسؤولين عن هذا التحول.

أبقى وحدي المسؤول عنه. أنا المسؤول الوحيد عنه لأني ربطت مستقبلي بمستقبلهم، مصالحي بمصالحهم وقضيت جزءا مهما من حياتي في هذا الاتجاه.

لكن عندما اتيحت لي الفرصة للتفكير في ذلك توصلت إلى أنهم ليسوا معي، أنهم مهتمون ببناء الدور وشراء الأراضي واقتناء السيارات والمتاع ولو كان ثمن ذلك هو الجوع.

كنت وحدي معهم، دون أن يكونوا معي متمسكا بخرافة غرستها في فكري بعض الجرائد وبعض المهووسين.

قيل لي آنذاك:

هؤلاء مثلك انتهازيون، استهلاكيون، طوباويون قابلون وغير قابلين.

انظر إلى الآخرين. كل شيء يفعل يجب أن يفعل من أجل هؤلاء الآخرين الذين لا يجدون حتى ما يأكلون.

فكرت:

هؤلاء خائفون أكثر من سابقيهم، فلماذا أظل رابطا مستقبلي بالخائفين؟

قيل:

إنهم فقط غير واعين.

قلت:

ولماذا تريدون أن أقضي عمري كله في توعية الأخرين؟ومنذ ذلك الحين ما فارقتني صورتهم.

خائفون، منافقون، انتهازيون، طوباويون، استهلاكيون، قابلون وغير قابلين، يتكلمون كالأنبياء ولا يفعلون، بل ما فارقتني صورتي.

رجل متعلق بوهم، وكلما تقدم العمر تضاءل الـوهم، ومـات دون أن يجد ما يشتري به كفنا. تلك بداية التحول، تحول الحب إلى كراهية وخـوف، كرهت نفسي فخفت منها، وكرهت الآخرين لأنهم يحبون أن ينتقموا من أمثالي وينسون الآخرين، آلة صنع أمثالي. لكني لم أكره في الواقع غير نفسي، غيـر عجزي وعجزهم عن تحقيق ما كان يراودنا من أحلام.

ثم جاءت اليد التي أيقظتني:

« سيدي زندهاريوح أهلا بك كعاطف على حزبنا. أما لقب مناضـل فأنت لم تستحقه في يوم من الأيام. لذلك نرجو أن تكف عـن الادعـاء بأنـك مناضل بحزبنا ».

كرهتم أيضا، لكني كتمت ذلك خوفا.

قلت:

« أليسوا على حـق، أنا مثل أي واحد من الناس غيـر الملتـزمين، فلماذا كنت أدعي الالتزام حتى الآن؟ ».

انتهازي تقولون؟ وهل أعي هذا حتى أقول لكم أنكم على صـواب أو خطأ ؟

لقد أدركت حقيقتي منذ ذلك اليوم. خمس سنوات لـم أقابـل خلالهـا الصدفة الحقيقية إلا مرة واحدة فتمسكت بها تمسك الأعمى بعصاه.

عندما تبدأ الصدفة، أيها السادة، يجب أن تصبح احتمـالا حقيقيـا ثـم حتمية. إن للصدفة دلال امرأة جاهلة وعقلية فتاة دانماركية. بل الحيـاة كلهـا مجرد امرأة يجب أن نعرف نفسيتها حتى نسهل السيطرة عليها.

خلال خمس سنوات، وحتى قبل ذلك بكثير جدا، كنت مجرد معلم.

مجرد رقم في وزارة المالية.

مجرد اسم لا هوية له.

مجرد آلة قبلت بالجنون مستقبلا وبالفقر حاضرا حين اختارت مهنة لا تليق إلا بنوع من النساء، ذلك النوع المترجل.

كنت إذن واحدا من الخماسين الجدد، هؤلاء الذين إذا ألفوا الخماسة فقدوا كل إمكانية أخرى للعيش، هؤلاء الذين قال عنهم شاعر كاذب لم يقل كلمة واحدة صادقة طول حياة.

كاد المعلم أن يكون رسولا.

ويمضون هم عمره في التساؤل:

لماذا قال كاد ورسول ولم يقل غير ذلك ؟ إن في الجواب عظمة هذا الشاعر الذي لم يجد الزمان قط بمثله.

أما أنا، بيني وبينكم، فلو أدركت ذلك الشعرور لقلت له: كاد المعلم أن يكون كلبا.

ينبح في القسم طول النهار، ينبح في البيت لأنه يحمل معه القسم إلى البيت، ينبح في الشارع لأنه لا يكف عن الكلام مع نفسه في الشارع.

هب ! هب !

لكنه في القسم مضطهد، وفي البيت مضطهد، وفي الشارع مضطهد، أينما حل المعلم فهو مضطهد.

هل يمكن أن يوجد معلم واحد يعاني من سوء التغذية وكابوس الاضطهاد ويكون معلما حقيقيا، يكون المعلم حقا، معلما مثالي الأخلاق، معلما قدوة، معلما يفكر، يعطي، سنة كاملة، شهرا كاملا، أسبوعا كاملا ؟

يكذب الشاعر على الخديوي.

يكذب على الشعب.

يكذب على المعلم.

ويقول عنه المعلم:

هذا أمير الشعراء.

هل هذا معلم حقيقي، نبي أيها السادة ؟

إن لم تعجبكم لفظة كلب فاسألوا الحطيئة يصفه.

أما أنا فلم يعد لي شأن بالمعلمين، لم يعد يهمني شأن أي واحد، كل واحد مسؤول عن نفسه فقط، وعن الجماعة التي ينتمي إليها أحيانا إذا كان ذلك يرضيكم أيها السادة.

أما الحقيقة فكل واحد مسؤول عن نفسه، أو هكذا صرت بعد أن قابلت ذلك الرجل. إنه نقابي، وقل إذا شئت قيدوم النقابيين.

قلت له وفي فمي نصف دجاجة من ثلاجته (وكانت بي بقية من الماضي)

-يجب أن نقدسهم: العاطلين، والتلاميذ، والبغايا وكل الساقطين.

-لا تنس: العمال والفلاحين، لكن الحب غير التقديس يا عزيزي- التقديس لا يكون إلا لله تعالى.

يبقى الحب له ولعباده التائهين.

غير أن الحب نوعان: حب الخير للنفس وحب الخير للآخرين. فما حب الآخرين ؟

قلنا أن تحب لهم الخير، طبعا لكن ينبغي أيضا أن تقودهم إليه، أن ترشدهم إليه على الأقل.

هذا الحب يكون قاسيا أحيانا، قاسيا جدا، يناقض الحب نفسه. لكن ماذا تستطيع أن تفعل ؟

إن كل شيء يهددك بالسقوط في ضده، ومضطر أحيانا أن تجمع بين الشيء وضده.

إن حب الخير للناس معناه أن توجههم إليه، تنقذهم بحدة إن حادوا، أن تشتمهم إن ضلوا، أن ترغمهم على السعي إليه إن تقاعسوا، أن تضـــربهم إن اقتضى الأمر ذلك.

خذ حبك لولديك. إن الحب غير العطف. أن تحب ولـــدك معنـــاه أن تعمل بكل الوسائل على بناء مستقبله، أن تكون قاسيا معـــه، ألا ترحمـــه، أن ترغمه.

في هذا الحب –الإرغام دائما نوع من الكراهية.

لكن الحب كله نوع من الكراهية.

الحب – العطف ضعف، الحب– الكراهية وحده القوة.

لذلك لا يستطيع أن يقودهم إليه إلا الأقوياء.

خذ مثلا آخر، مثلا من احد أولئك الذين خبروا ضعف النـــاس، مكـــر الناس، خبروا خبايا الناس.

سيدنا أمير الجائعين، أكبر القادة النقابيين، ذلك العارف الذي لا يجـــود بمثله زمان، إنه يقول لنا باستمرار، وكأنه من قوة إيمانه بما يقول يهدد.

أولئك الأجلاف لا يستحقـــون حتى التضحيـــة بصفعة علـــى الخـــد، بكلمة ســـب، فهل يمكن أن نضحي من أجلهم بأغلى ما يملك إنســـان: الحرية والنفس ؟

–سبحان الله أنا أيضا فكرت في هذا، اقتنعت به منذ زمان.

–إذن لقد بلغت، لقد وصلت، أينعت أيها الرجل العظيم.

–الحق أني ظللت تائها حتى صادفتك، وقد عرفت حين عرفتك.

لقد طفت كسقراط على كل الفئات. وها قـــد صـــرت أعـــرف حـــين عرفتك.

أنا العدم قد وجدت حين وجدتك.

أنا الليل أنرني، أنرني هكذا باستمرار أنار الله بهديه فكرك، أنر عقلي كما أنارت بطني المقروح ثلاجتك.

لعلكم تتساءلون أيها السادة إن كنت أنا الذي أتحدث.

طبعا أنا الذي أتحدث، بل معدتي التي تتحدث.

اسألوا الجائعين عما تقوله المعدة الفارغة ثم أشبعوهم واسألوهم عما تقوله وهي مملوءة.

يقول المثل الشعبي: عندما تملأ المعدة تقول للرأس غن.

كلما فتحت الثلاجة طيلة ذلك الشهر الذي رافقته خلاله أبدأ أتحدث، أفكر، لأول مرة في حياتي بلا ألم في الرأس أفكر.

لذلك أقول لكل المعلمين:

هذا الرجل يعرف كيف يصبح مفكرا بدون وجع في الرأس.

ضعوا ثقتكم فيه، إن له الآن خبرة عشرين سنة في التفكير بدون صداع.

إذا شئتم السر منذ الآن فهو: الثلاجة. اختاروا رجلا له ثلاجة واتبعوه.

أرجو أن تضعوا ثقتكم فينا، لقد اخترنا لكم الثلاجة لتفكروا أحسن.

عندما تنحنوا على الثلاجة ستتعرى مؤخرتكم، لا تكترثوا لذلك. إنه الثمن، لكل شيء ثمن كما تعرفون.

تقولون قواد ؟ انتهازي قولوا ذلك للقواد أو الانتهازي، هل حاولتم مرة واحدة في حياتكم أن تقوموا بهداية بغي أو مقامر أو سكير ؟

هذا الصنف الذي أنتمي إليه مصنوع من خشب فولاذي، آخر مبتكرات العصر.

لقد تركنا لكم الكنيسة وأخذنا فقط ما لقيصر.

اسخروا ما طاب لكم ذلك، اشتموا، إلعنوا الدنيا التي احتضنتنا، أمهاتنا اللائي ولدننا.

إننا من خشب فولاذي. والدنيا لا يمكن أن تسير إن لـــم يكـــن علـــى رأسها قياصرة. نحن ضروريون لكم، ومنكم أتباع كثيرون لنا ينافقونكم.

حتى أنتم مقنعون مثلهم. لو رفعتم أقنعتكم مرة واحدة لاكتشفتم أن كل واحد منكم يحبس داخله قيصرا أو عدة قياصرة. أنتم أيضا قياصـــرة، لكـــنكم فاشلون إنكم تسجنون قياصرتكم داخل أنفسكم. ونحن مضطرون إلى أن نسجن بعضكم داخل الحيطان من أجل ضمان الأمان لقياصرتنا.

الدنيا لا يمكن أن تسير بملايين القياصرة خاصة إذا كانوا مختلفين في الرأي منذ الولادة.

كيف أصبح لزند هاريوم حريم؟

روى عن ظهادر زوجة زندهاريوح أنها قالت في جمع من النساء.

كان حبيبي موضوع رغبة كل النساء. رغم مسحة ذبول يتميز بها المعلمون ظل آية من آيات هذا الزمان.

حبيبي قمر الزمان، أجمل ما فيه الأنف القيصري والشعر المتموج كالبحر. أما العينان فمصباحان، وكل النساء أرانب يأسرهن الضوء. ليست فيهن واحدة تقوى على تحمل الضوء، ذلك السحر.

لذلك كنت دائما أحس بالغيرة، غيرة لم يقض عليها إحساسي بأني زوجة أجمل رجل في المدينة. سألته مرة، وكنت دائما أسأل مثل هذا السؤال:

قل لي، يا قمر الزمان، هل تحبني حقا أم أنا مجرد خادمة أو أم أخرى في بيتك ؟ قل لي إن الغيرة تأكل قلبي وأخشى أن تأتي على عقلي فأرتكب حماقة قد تؤدي إلى موتك.

–لم نعد أطفالا يا امرأة، اتقي الله في وفيك.

إن الحب في هذه المرحلة يصبح شيئا لا يعبر عنه بالكلام، الحب دائما لا يمكن أن يعبر عنه بالكلام.

في هذه المرحلة قد يأخذ وجه الكراهية أو صورة الصراع، لكنه عند الفراق، عند أول خطوة نحو الفراق، يكتشف نفسه، ويعود أقوى مما كان، نعود في صمت وألم نعيش داخله.

يكون هذا الألم كالسعادة أو شيئا يشبه السعادة، ما يعبر عنه بالسعادة.

والحقيقة أن الإنسان لا ينسى إلا الحب الذي بلا ألم، أما الحب الذي يصحبه الألم، كيفما كان نوع هذا الألم، فهو كالشر لا يمكن أن ننساه.

الإنسان يظل يجري دائما وراء ما لم ينله. وفي الحب المقترن بـــالألم دائما شيء لم ننله.

–إعفني من كلام الكتب، إني أخشى أن تخونني عندئذ سأقتلك أو أدس لك السم في الطعام أو الشاي.

–يا امرأة. قد يكون وقع خيانتي إذا ما تمت ثقيلا، جارحا ككل خيانة.

لكن الخيانة العادية لم تقتل الحب يوما داخل البيوت، قد تضعفه، لكنها لن تقتله، إنها أحيانا تقويه.

–إنك تخرف. لن أمكث معك حينئذ دقيقة واحدة.

ستصبح في عيني هذه كلبا أو دودة، شيئا مدنسا كاليد الملوثة بجريمة، حينئذ سأقتلك، ماديا أو معنويا، لا يهم.

–بل ستظلين تجرين ورائي حتى تشعرين بأنك استرجعت الذي ضاع منك أثناء الخيانة.

إن الخيانة تشعرنا دائما بأن هناك شيئا ناقصا أو غير موجـــود فينـــا، شيئا يجب أن نخلقه، أي نكمله.

تلك هي الضربة التي توجه إلينا في الخيانة. أما أنت فلســت قــاردة على فعل شيء.

–سترى إن حدث ما أخشاه، لن تعرفني حينئذ، أصبح امرأة أخرى.

–اسمعي يا هذه، لماذا لا نضع في اعتبارنا كــل الأشــياء الممكنـــة الوقوع، فإذا ما حدثت لم تسؤنا ؟

إن الخيانة شيء قد يحدث لأتفه الأسباب، وهو يحدث باستمرار أثنـــاء لحظات ضعف كل إنسان، ولا ينكره إلا من يعتبر الحياة خطا مستقيما بـــدون اعوجاج أو يعتبر الحياة حركة منتظمة في خط مستقيم.

حذار يا هذه من فهم الأشياء بطريقة ميكانيكية.

-أما أنا فلن أخون، لقد نذرت نفسي لك وحدك، أقصد لك وللأولاد.

-العني الشيطان. دعيني من كلام يوحي به الوسواس الخناس. إنـــي جائع وأريد أن أنام.

-كل شيء يتغير يا أخوات.وهـــذا الـــزمن لا يـــرحم أحـــدا خاصـــة الضعفاء.

لم أتغير فتجاوزني الزمن.

كثيرات مثلي تجاوزهن الزمن فانتهين كما تنتهي بعوضة.

ما أشد قساوة هذا الزمن، بل ما أتعس من عاش في هذا الزمن.

-ما أتعس نساء هذا الزمن.

يصبح المعلم قاضيا أو عميد شرطة أو مسؤولا كبيرا، يفتح مســـتقبل الجاه أمامه أبوابه، وتظل المرأة كما جاءت من وراء البقرة أو النعجة أو بيت أبيها.

يشعر المعلم أن المرأة لم تعد تحسن اللبس، لم تعد تحسن الطـــبخ ولا الكلام ولا تربية الأولاد. يشعر بالخجل حين يراه الزملاء مع امرأة جاءت من وراء البقرة أو النعجة أو بيت لا يدخله النور والهواء.

يبدأ انتحار المرأة داخل البيت أو الشارع.

يبدأ انتحار الرجل خارج البيت أو الشارع. تنتحر المرأة كالشـــمعة أو كالبركان.

ينتحر الرجل كاللقلاق الذي أصبح حمامة، كعبد في خدمة حـــريم أو كهارون الرشيد.

ويأكلنا هذا الزمن. هذا الزمن جرافة بلا قلب ككل مؤسسات جزيـــرة العين.

يجب أن تتعلم البنات، أن يجدن عملا قبل الزواج، ألا يقبلن بأي حجة ترك العمل من أجل التفرغ للبيت. البيت مقبرة كل النساء.

ولكن، هذا التعلم، هذا الوظيف يصبحان أيضا مقبرة أخرى للنساء.

هل يمكن أن تكون المرأة امرأة في مثل هذا الزمان ؟ من المسؤول عن ضياع الرجال والنساء معا ؟

لا أنا، ولا أنت، يا حبيبي يا قمر الزمن.

إنها الجرافة.

وقد تكون الثلاجة. أكيد إنها الثلاجة.

وضعوا لك ثلاجة في بيت ذلك النقابي الحقير، ثلاجة في مركز النقابة المتآمرة. ثلاجة في كل الأجهزة العميلة. وضعوك وسط الثلاجة فما عدت تفكر بغير لغة الثلاجة.

ما أقصر الطريق المؤدي من النقابة إلى الرأس الذي تحركه جرافة الزمن.

هذه النقابة أيضا جرافة. ما أقصر الطريق منها إلى الرأس حين يكون الرأس جائعا وساذجا وغاضبا.

حركوك فكنت كركوزة نموذجية تلعب دور النقابي العميل ثم دور النقابي القائد ثم دور الوزراء الذين بلا اختصاصات في حكومة جزيرة العين الموقرة.

وعندما تصبح الكركوزة وسط كراكيز أخرى يجب أن تلعب الأدوار المقررة سلفا وأن تبرع في ذلك. إنها قواعد اللعبة.

آنذاك يفرض على الكركوزة أن تهجر كل عالمها القديم. كل ارتباطاتها السالفة التي لا تساعد على البراعة في اللعب.

وعندما تصل إلى هذا الحد يتنكر لها العالم القديم بدوره، يبقـى لهـا الجديد، ترتمي في أحضانه بكل ثقلها.

يجب على كل امرأة أن تحترس من هذا، أن تمنع زوجها من التحول إلى كركوزة. في ذلك نهاية الجميع، ماذا أقول لكن يا أخوات ؟ القصة طويلـة وأنا لا أعرف من أين أبدأ.

عاتبته عندما خطا أكثر من خطوة نحو عالمه الجديد وقلت:

-استغفر الله، إنه شيطان.

-أريد فقط أن أضمن لكم مستقبلا أحسن.

آنئذ أعود، أتخلى عن كل شيء.

-أعرف كيف أتصرف. لست أول من فعل ذلك.

-احذر أن تجرفك العادة. إن الإنسان يتعود بسرعة فـي مثـل هـذه الأحوال. وإذا ما حصل هذا هدمت مستقبلنا ومستقبلك.

-إنها يا امراة مجرد لعبة. يكفي أن يكون الإنسان ذكيا قليلا ليربحها. أعدك بأني سأربحها. هل ينقصني الذكاء ؟

-وما معنى أن تكون ذكيا في ممارسة هذه اللعبة التي بدأت تلعب منذ مدة ؟

هل تملك الكركوزة أن تكون ذكية ؟

-معنى الذكاء هنا أن تقف عند الحد الذي تكسب فيه كثيرا ولا تعـود إلى اللعب مرة أخرى.

-قلت ذلك مرارا عندما بدأت تراهن على الخيول ولم تنفذه.

-لعبة سباق الخيل شيء آخر، أنت لا تفهمين.

-بل أفهم. أفهم أنك ستخسر لأن خيوط نفسك لم تعد بيدك.

أنت الآن مجرد كركوزة تحركها يد مجهولة مع كراكيز أخرى في أياد مجهولة وأخرى معروفة.

هل هذا الزواج الجديد أيضا جزء من اللعبة ؟

-هو الذي سيجعلني أكسب. بدونه لن أكسب شيئا لأن لها أخا في الوزارة.

-كان الأول أيضا جزءا من اللعبة، والثاني، والثالث، أما هذا فلن أسمع به.

-لكن لا بد أن يتم.

-لم يعد يهمني غير أولادك. ترسل إليهم شهريا صدقة لا تسمن ولا تغني من جوع.

ها قد أصبحت لا تراهم وصاروا يكرهون رؤيتك، ويريدون أن يغيروا حتى اسمهم العائلي. وبالمناسبة هل تعرف عدد النكت التي ألفت حولك؟ من ألف هذه النكت ؟

إنها نكت تبكينا، تعذبنا، وأنت لست هنا، أنت مجرد كركوزة تتباهى بأنها من خشب فولاذي. تكلم، لماذا أنت ساكت؟

ماذا أقول لكن يا أخوات ؟

إنها قصة طويلة لا أعرف من أين أبدأها. لقد تركني وخرج وما عاد إلينا منذ ذلك اليوم.

زندهاريوح يصبح وزيرا للبترول

حدثنا المقربون لزندهاريوح أنه كتب إلى زوجته الأولى يقول:

« عزيزتي،

ألم أقل لك إن كل شيء سهل عندما نتقن اللعبة ؟

ها أنا أصبح وزيرا لأضخم ثروة في البلاد كلها، هل هناك ثروة أضخم من ثروة البترول، هل هناك من يكثرني كفاءة ؟

لعلك تتساءلين:

ما طبيعة تلك الكفاءة التي أهلتك لمنصب خطير كهذا ؟

الجواب في خبرتي النقابية. رشحني ذلك الرجل العظيم وزكتني النقابة.

سألوا القيادة.

هل يصلح ؟

أجابت:

لن تجدوا أحسن منه حتى خارج الوطن.

سألني كبير الوزراء:

هل تلمس في نفسك الكفاءة للقيام بهذا العمل الخطير ؟

سألت:

أي عمل تعنون يا سيادة الكبير؟

قال:

نهيء الظروف للتقنيين الأجانب وأطرهم العليا.

أجبت:

اطمئنَ. منذ اليوم انتهت أسطورة العمال. أعرف رؤوسهم سلكا سلكا وأعرف كذلك محطة الأسلاك المركزية وبجانبي القيادة النقابية.

ثم إني بمجرد تسلمي مهامي سأقوم بإنشاء محطات صغرى الكترونية في كل بئر أختار للسهر على كل وحدة منها رجلا من رفاقي قدماء المناضلين.

عندئذ ضرب على كتفي وقال:

هكذا نريدك، لا تدعهم يتحركون، إنهم يخيفون أصحاب رؤوس الأموال الأجنبية، إنهم كالجراد إن تحركوا قضوا على كل شيء هل تعرف أن وراءهم دائما دولا أجنبية، الصين وروسيا بصفة خاصة ؟

تعجبت في البداية:

كيف تكون لهم اتصالات بدول أجنبية ؟

لكني قلت محاولا إخفاء جهلي:

آه طبعا، هذا شيء مؤكد إنهم يحملون فكرا شردوعيا تسرب إليهم من تلك الدول الأجنبية.

وقل لي يا سيدي الكبير:

لماذا لا نختلق سببا ما ونهجم على تلك الدول الأجنبية فنستعمرها ونرتاح من شرها ؟

أجاب:

نؤمن بالتعايش. إذا كانوا هم بلا أخلاق فإن لنا نحن أخلاقنا. نحن الشعب الوحيد الذي له أخلاق في هذا العالم ويجب أن يظل ذلك من أهم مبادئنا. إن الصين وروسيا تقفان اليوم لأول مرة في صف واحد لدعم فريق يريد الإطاحة بحكومتنا: الأحزاب السياسية.

قلت:

إذن فإما أن هذين البلدين غبيان أو أن الأحزاب السياسية غبية. أكيد أن هؤلاء هم الأغبياء. إذا كانوا يريدون حقا الاستعمار، فلماذا لا يختارون الذي يدفع أكثر، يحمي أكثر، ينفع أكثر ؟

قال:

وهل تظنهم مثلك ؟ إنهم يرون، الأغبياء، أن الذي يدفع أكثر يستغل أكثر. وعندما ناقشت أحدهم مرة ادعى أن هذه المقارنة مغالطة لأنها خاطئة من الأساس. إنهم مجرد أغبياء يحركهم الحقد والغيرة.

يريدون أن يحكمنا الخماسون، أن نصبح جميعا خماسين، أي أن يعم الجوع والفوضى.

قاطعته:

نعم، قال الحكيم أفلوطين:

« ونحن من نحن في آخر الأمر ؟ »

أجابه الحكيم الكبير:

« أعرف نفسك بنفسك »

هذه المشكلة. أما نحن فقد علمنا منذ زمان. عرفنا من نحن، وما نريد وما ينبغي أن نكون ... اخترنا أنفسنا وأصدقاءنا. وجاء الباقي بسرعة لا تتصور.

يقولون إن المسألة ليست كذلك، إننا لم نختر ولم نختر، دعهم يقولون ما يريدون فإننا أدرى، أعقل، أذكى وأقوى.

قال كبير الوزراء:

وسفسطائي أيضا ؟ تبارك الله. إني فخور بك، لأول مرة يكون لي صهرا أفخر به. من قبل كنت أفكر بكلبي فقط.

إنما لا تنس أنك مدعو هذه الليلة إلى حفلة تكريم يقيمها على شرفك الوزير السابق للبترول. إن مثل هذه المناسبات ليست فقط فرصة لتبديد أموال الدولة، إنها مناسبة للتسلق. كن بهلوانا إذن طول السهرة.

شيء آخر:

لا تثق في أحد. إن هذه الدنيا غابة. كل من قال لك:

« هنيئا بوزارة البترول ».

« أجبه بغلظة»:

« وهل أنا حقا وزير البترول، إنني يا سيد مجرد وزير لعمال البترول، لعمال البترول وحدهم. أما البترول فله وزراؤه الكبار »

كلهم أغبياء. اطمئني يا عزيزتي، أنا ألعب على حبلين. ولا يهمني أيهما يدوم. إني دائما مع الذي يدوم. وإذا لم يدوما معا فأنا الذي أدوم.

كل شيء متوقف عن مدى ذكاء الفرد الذي يلعب هذه اللعبة.

تصوري الآن وضعية الفريق الثاني، العمال، بالأمس فقط كانوا يجرون ورائي، يرددون معي:

« لتسقط البروقراطية. لتسقط الرجعية. لتسقط البيادق».

وغدا سينحنون، سيضطرون إلى الانحناء زائدة عندما أمر، سيطلبون مني أن ألبي بعض مطالبهم بأدب، لن يستطيعوا أن يقوموا بإضطراب واحد، أنا خبير في تكسير الاضطرابات قبل أن تبدأ.

تعرفين الفرق بيني وبينهم: هم يريدون أن يطلعوا جميعا، وأنا لا أريد أن أطلع إلا وحدي، كل أمثالي يريدون أن يطلعوا وحدهم.

جربنا أن نطلع على أكتافهم. اكتشفنا أنها أكتاف هشة، تتكسر بسرعة كبيض الدجاج.

كان أحد أمرئنا القدامى يقول:

« أكتافهم صنعت للتزحلق وليس للصعود أو الوقوف، لا تتسلقوا عليها أبدا ».

باختصار: نعرفهم جيدا، وهذا هو الأهم.

حاولي الآن أن تتصوري ما يمكن أن يكون عليه شعور الفريق الأول، جماعة كبير الوزراء.

إنهم ولا شك فرحون باستقطابهم لبيدق جديد يسمى زندهاريوح.

زندهريوح في اعتقادهم خادم جديد يمكن أن يغسل حتى ثيابهم الداخلية إن شاءوا.

نحن أناس يا حبيبتي لا يمكن أن نخدم إلا أنفسنا، نتظاهر بخدمة الآخرين كي نتمكن من خدمة أنفسنا.

أحيانا يعرفون، يشكون، يصبحون على يقين. ولكن ماذا بإمكانهم أن يفعلوا ؟

إنهم في حاجة إلينا ما دمنا قادرين على لعب تلك اللعبة، نستغل نحن تلك الحاجة.

لا يهم من يكونون، صهري أو غيره. نختار دائما القوي الغالب.

عندما يضعف الفريق القوي ؟

أعرف أنك تطرحين مثل هذا السؤال. عند ذلك تبقى لنا جنيف. غير أن مثل هذا الحل لا نقبله، لا نتركه يأتي.

نترك الذي بدأ يضعف قبل السقوط، نساعده على السقوط بسرعة كي لا يجرفنا معه. نحسب حتى لأصعب الاحتمالات حسابه.

في هذه الحالة نتنازل على الجزء الأكبر مما نملك ونقول: قد تبنا، إن الله يقبل توبة التائبين.

وعلى كل حال فلن تكون هذه أول مرة نغير فيها الأحذية إن القاعدة الذهبية تظل دائما صحيحة.

« إن بعت نفسك لنفسك فلا تستح أن تبيعها للشيطان ».

أيتها العزيزة، إذا وصلك خطابي هذا فاحرقيه بعد قراءته مباشرة.

إلا أنني قبل ذلك أريد أن أحدثك عن حفلة تكريم.

الصراحة: لقد شعرت في البداية أني كلب، كلب من كلاب الدوار الحقيرة، وإن كل الحاضرين مثلي كلاب حقيرة، كلاب مريضة، مصابة بداء مجهول. وشعرت وأنا أتفحص وجوههم أنه قد بدأت تنبت لهم أنياب طويلة كتلك التي للكلاب، كتلك التي لدراكولا.

ورأيتهم يشرعون في عض الناس وفي عض بعضهم بعضا.

أولا أكلوني أنا ورفاقي الطالعين من تحت، ثم أكلوا بعضهم، وأخيرا دخلت كلاب من الخارج تحمل أسماء أجنبية وظلت تنبح حتى انطفأ الضوء.

لكن العانس قرصتني ففرحت وانتشرت بسمة باردة على شفتها العليا.

وحدها الشفة العليا ابتسمت حتى لامست الأنف الآسوي الذي بدا لي دائما كصالح في تمود.

لا أستطيع أن أتعرف على هذه المرأة إلا من خلال الابتسامة التي تكون على الشفة العليا.

لا أستطيع أن أراها.

بدون ذلك. قد أمر عليها ولا أعرفها.

قالت:

حبيبي زندهاريوح، ما بالك، هل تشعر بألم ؟ هل تحس بالتعب ؟ هل ضربك أحد ؟ هل سمعت شيئا أغضبك ؟ هل رأيت شيئا لم يعجبك ؟

واستمرت تلقي وابلا من الأسئلة دام أكثر من نصف ساعة، ثم وضعت رأسها فوق صدري (أو هكذا خيل إلي من فرط طولها) وأخذت تبكي.

حبيبي زندهاريوح، مسكين، مسكين شيري، مسكين زندا حبيبي، قل لي يا حبيبي.

هل تريد أن تذهب لتنام ؟ أحسن ما يمكن أن تفعله الآن هو أن تنام.

تفكر دائما في السرير. لا شيء غير السرير، عقل هذه المرأة في السرير.

ترى هل هي مجرد دمية صنعت لتمارس عملية المص؟

قلت:

أريد ويسكي.

ثم طبعت على خدها قبلة فذهبت لتأتي بالويسكي.

هل تذكرين أيتها الحبيبة يوم شربت خلال حفلة بيت جارنا كأسين من الشراب ؟ مرضت مدة أسبوع كامل. الآن أستطيع أن أشرب عشرات الزجاجات وأقوم كالتيس في الصباح إلى عملي.

من كان يعرف أن المعدة أيضا يمكن أن تتكيف ؟

عن إذنك، ها قد عادت العانس ومعها زجاجتان.

إني سأبيت الليلة بين النوم واليقظة: تمتصني الكأس وشفة العانس.

زندهاريوم يصبح أستاذا جامعيا

المبادئ الأخلاقية غير موجودة كمبادئ أخلاقية خالصة لأنها مجرد قوانين وضعية تمثل امتيازات متسترة.

وإذا وجدت فهي لا يمكن أن تطابق شيئا في الواقع لأنها ستكون مجرد مطلقات ميتافيزيقية.

وإذا أمكن أن تطابق شيئا في الواقع فإنها لا تكون قابلة للتطبيق من طرف واضعيها لأنها لا تتلاءم أبدا مع مصالحهم.

وإذا أمكن أن تطبق، فإن ذلك لن يكون إلا من طرف الأغبياء والضعفاء، خاصة الفقراء منهم.

وإذا وجد مثل هؤلاء الأغبياء والضعفاء فإنهم لن يكونوا بشرا لأنهم سيكونون حينئذ كالحيوان التي تخضع لقواعد وضعها مالكها كي يضمن حق ملكيته لها وما يجره عليه هذا الحق من امتيازات على الحيوان.

أما أنا فلست غبيا أو ضعيفا. إني الآن واحد من أكبر الأذكياء، واحد من الأقوياء. وهذا ما يعطيني الحق أينما ذهبت وفي كل ما أريد أن أفعل.

أريد أن أكون أستاذا جامعيا بكلية الحقوق وسأكون.

ماهي مؤهلاتي ؟

ماهي مؤهلات الأساتذة الذين يحملون أكبر الشهادات ؟ ثم، لماذا هذا الجدل العقيم ما دام القانون معي في أن أخرق القانون، ما دمت واحدا من الذين يضعون مبادئ الأخلاق.

تصوروا أننا نحن واضعي القانون والأخلاق، تصوروا أننا تصرفنا طبقا للقانون والأخلاق، ماذا سيحدث عندئذ ؟ ستبدو لنا تلك الأشياء المسماة

قانونا وأخلاقا أشبه بالكائنات الغريبة، كائنات قائمة بذاتها وكأنها ليست من خلقنا. سنكون إذن ضحايا استلاب، وفي حالات أخرى، ضحايا وعي زائف. هذا الوضع لا يمكن أن يطلبه منا إلا ضحية استلاب أو وعي زائف، ولسنا مستعدين للإنصات إلى هؤلاء لأنهم مرضى وطوباويون.

إننا أقوياء ولن نظل أقوياء إلا بخرق القانون ومبادئ الأخلاق.

تصوروا ماذا سنصبح إذا توقفنا عن خرق القانون ومبادئ الأخلاق:

نصبح ككل الناس، عامة الناس.

لن يقبل قوي واحد أن يصير كعامة الناس.

إنني لا أدعوكم إلى خرق القانون ومبادئ الأخلاق لإرضاء تلك الرغبة العنيدة في خرق القانون ومبادئ الأخلاق.

أدعوكم إلى ذلك لأن في خرق هذا النوع من القانون ومبادئ الأخلاق القوة، لأننا حين نفعل ذلك سنزداد قوة.

هل تعرفون كم يكسب أستاذ جامعي بكلية الحقوق سنويا ؟ لا أتحدث عن الراتب !

إنهم مثلنا لا يدخلون الراتب الشهري في حساب دخلهم السنوي. أتحدث عن بيع الكتب والمطبوعات.

حتى الأساتذة الذين لا يعرفون لغة الجزيرة أصبحوا يؤلفون بتلك اللغة. إنه مكسب وطني. هذا التأليف، بلغة الجزيرة، يجب أن يكون لنا شرف المساهمة في إنجازه.

هذه واحدة.

أما الثانية فهي في شرف ممارسة الأستاذية بالجامعة. هل هناك من يطمع في شرف أكبر من التدريس في الجامعات؟

إننا سنضيف إلى سمعتنا السياسية سمعة علمية، وقد نعار إلى جامعات خارج الجزيرة فتصبح تلك السمعة عالمية.

هذه الثانية.

هل حسبتم الآن دخل الأساتذة بكلية الحقوق خلال كل سنة؟ يكفي التقدير. احسبوا فقد الحد الأدنى. هكذا نعم هكذا.

هل لاحظتم بأنه يكاد يصبح دخل وزير أو رجل أعمال كبير ؟

هذه الثالثة أيها الأصدقاء.

وهي وحدها تكفي لإقناعكم بضرورة غزو كراسي التدريس بكلية الحقوق.

هناك رابعة لا أريد ذكرها إلا لمن سيكون زميلي في التدريس الجامعي.

أستطيع أن أذهب بدونكم. لكنني لا أريد. أريد أن نكون قوة، جماعة.

إنهم هناك جماعات. إنهم جماعات، جماعات، هل تدركون معنى وخطورة هذه الكلمة ؟

كل جماعة تعيث فسادا في عقول الطلبة، كل جماعة في حاجة إلى أن تقاوم.

أود لو أنكم ذهبتم معي جميعا حتى نطرد هذه الجماعات خارج الجزيرة. لتذهب إلى الدول التي تعيش على إفساد عقول الشباب.

هذه مهمتنا. لا يهم أن تغلق الجامعة بعد ذلك. لسنا في حاجة إلى خريجي جامعة متخصصين في التسلق والانتشال كأساتذتهم. إن الدنيا تفيض بالخبراء الأجانب.

أرجوا أن تكونوا قد فهمتم أن هذه المهمة الخامسة وأنها أخطر من سابقاتها.

أما المهمة السادسة فتتعلق بالطلبة. إنهم ما زالوا يطالبون بنقابتهم، وأساتذتهم لم يعد يهمهم أمر هذه الجمعية في شيء، بل أصبحوا أقوياء بعد القضاء عليها لكنهم مع ذلك لن يمانعوا من باب النفاق في إعادة الشرعية إليها، أي لن يكونوا معنا.

إن مهمتنا هذه خلق عناصر تتخصص في الدراسة بكلية الحقوق طول عمرها وتتكفل تحت رعايتنا بخلق منظمة موازية تنسي الطلبة المنظمة القديمة وتحارب هذه المنظمة التي قد يكتب لها الظهور من جديد.

سنطلب مساعدة مالية من الحكومة. لكننا ينبغي أن نجند الالاف، الأمر الذي يتطلب ميزانية ضخمة. لحل هذه المشكلة نرفع ثمن الكتب والمطبوعات كما يفعل الأساتذة عندما يشترون فيلا أو عمارة أو ضيعة. أما خطة الاقتحام فسنتحدث عنها قبل الاقتحام بأسبوع.

شيء آخر: لا تفكروا في ما ستقولون للطلبة. إنكم لن تنطقوا سوى ببضع كلمات كل ربع ساعة من الأسبوع أو الشهر، كما يفعل الأساتذة الحاليون مذكرين الطالب بالفقرات التي ستكون موضوع الامتحان، تلك الفقرات التي ستقرأونها في كتبكم ومطبوعاتهم.

الكتب والمطبوعات ؟ يتكلف بذلك موظفونا أو نأخذها من كتب الآخرين الموضوعة باللغات الأجنبية مع إضافة مقدمة صغيرة كما يفعل أساتذة الجامعة الحاليون.

إذن ترون أن هذه المهمة لا تتطلب أي استعداد أو إعداد خاصين.

إنها كالوزارة، تماما كالوزارة. وموعدنا بعد أسبوع في نفس الوقت والمكان.

قال الراوي:

اجتمعوا بعد ذلك مرات، لكن قرار الاقتحام لم يؤخذ.

وعندما لاحظ زند هاريوح أن الجماعة بدأت تيأس قال: لا تيأسوا، إن الفرصة ستحين عما قريب.

وكان الرجل يعرف ما يقول، فقد تمكن خلال الأسابيع الطويلة وبكامل السرية أن يؤسس عصابات للتخريب والفوضى قامت بالواجب على ما يـرام. وأمام ذلك لم تجد حكومة الجزيرة غير قرار إغلاق الكلية وإبعاد كافة الطلبة والأساتذة.

غير أن الخطة كانت تقتضي أن يقوم أفراد تلك العصابات بتحرير رسائل استعطاف للحكومة. وأمام هذا الاستعطاف الذي حرك قلب الحكومة، اجتمعت هذه الأخيرة برئاسة كبيرة الوزراء الذي افتتح الجلسة بالثناء على وزير التعليم السابق الذي أعطيت له مهمة جديدة.

قال الكبير:

ماذا نفعل الآن، نعيد أساتذتنا أم نحضر أساتذة من خارج الجزيرة ؟

لكنه لم يجد غير زندهاريوح بالسؤال، قال: يا كبير الوزراء، إن رأس الداء الأساتذة، إن قطعناه استرحنا، نتركهم حيث هم، وهذه قائمة بمن يخلفهم مع اعتذاري إن كنت أوجد في أول القائمة. ولمجلس الحكومة واسع النظر في هذه القضية.

ومع ذلك فإن زند هاريوح لم يترك أحدا من الوزراء يتكلم إذ استمر يشرح مهمات جماعته بالكلية، فكان أن وافق المجلس على اقتراحه بالإجماع مضيفا عبارة:

« وإن اقتضى الأمر نستدعي لمساعدتهم أساتذة من الخارج ».

وكان أول درس للسيد زندهاريوح.

تكلم في البوق أمام أكثر من ألفي طالب بالسنة الأولى.

حيا الله الشباب، وبعد...

أيها الأصدقاء الأعزاء المحترمون الكرماء المجدون الأذكياء. سترون أنني لن أسبب لكم أي إزعاج، وإنما سأكون مجرد صديق يكبركم سنا وعلما، وتجربة، وبناء على علاقة الصداقة التي ستجعل مني مجرد مرشد لكم فإني لن أعطيكم أي درس، سأطبع كل دروسي في كتب بأثمنة مناسبة، سأكتفي بإرشادكم ثم إن هذه الكلية ككلياتنا جميعا تعيش خارج المجتمع ولا يربطهما بالواقع أي رابط، إنها كالطائر الملقب بأمير السحاب كما جاء في قصيدة للشاعر بودلير. يجب أن نربط كلياتنا بالواقع كي يزول هذا الانفصام الذي يعيشه كل طلبتنا بدون استثناء.

إنها في حاجة ماسة إلى ثورة. نعم ثورة. ولن نتردد في القيام بهذه الثورة. نحن جميعا نواة هذه الثورة. كيف ؟.

الأمر في غاية البساطة.

بدل إعطائكم دروسا نظرية جدا يمكن أن تجدوها في أي كتاب كما يفعل، كان يفعل، أساتذتكم المتطفلون على المهنة، سنكتفي بإعطائكم دروسا حية حول فن الحياة، فن التسلق، فن السيطرة على الواقع. سنعلم الذين يريدون أن يصبحوا محامين كيف يكسبون الملايين دون أن ينطقوا بكلمة واحدة داخل المحكمة ودون أن يلبسوا ذلك اللباس الأسود الذي يخيف المتهمين.

سنعلم الذين يريدون أن يصبحوا قضاة كيف يستغنون عن رواتبهم الشهرية التي لا يمكن أن تكفيهم حتى في كراء مسكن يتوفر على الحد الأدنى من الشروط الضرورية.

سنعلم الذين يريدون أن يصبحوا عمداء شرطة كيف يمكنهم أن يناموا في بيوتهم ويسيروا الأمور بدون تعب وقلق زائد.

لدينا لكل واحد وصفة خاصة. إن التعليم يجب أن يكون تباينيا.

قد يتساءل بعضكم:

هذا فن معروف ومنتشر عند خريجي كلية الحقوق وكلية الطب وغيرهما من الكليات ؟ !

نعم، فن معروف. لكن تعلمه يقتضي وقتا طويلا من الممارسة والدهاء لأنه فن صعب ولأن ممتلكيه لا يبوحون بأسراره لكل من هب وذب.

نحن سنجعله في متناولكم بسرعة وفعالية وبالمجان.

إن طريقتنا تعتمد على روح الطريقة المعروفة بطريقة تعلم اللغات في خمسة أيام وبدون معلم، انتهت الحصة الآن.

لم يستغرق اللقاء الأول للأستاذ زندهاريوح بطلبته أكثر من عشرة دقائق.

وكان موعدهم معه بعد أسبوع.

انقضى الأسبوع. انقضى الشهر. انقضى شهران قبل أن يعود إليهم.

ومع ذلك عاد.

كان عنوان الدرس الثاني الذي دام خمس دقائق:

تعريف التسلق.

وبعد شهرين كان عنوان الدرس الثالث:

المذاهب الكبرى في فن التسلق.

وآخر العام كان عنوان الدرس الرابع:

علاقة فن التسلق بالسفسطة وعلاقته بالبهلوانية

وبعده مباشرة جاء الامتحان.

علقت النتيجة.

الناجحون: لا أحد.

زندهاريوح يصبح مفكرا

حدثنا حاجب زند هاريوح عن سيده بعد عملية جراحية قال:

كان يحدث نفسه باستمرار كأنه أصيب بالجنون، يترك فراشه أكثر من مرة أثناء الليل ليكتب في مذكرة صغيرة أشياء غامضة منها ما كتبه ذات ليلة، وهو أقل غموضا من كل الصفحات الباقية: « ليس للأقلام لون ».

للأقلام فقط حجم صارم يتحدى.

وليس للأقلام قلب، إحساس أو حرارة.

كل الأقلام باردة كالثلج، كالجليد، كالخشب المقطوع، كالشجر الميت.

كالعقل المعطل المنتصب العروق الجامدة.

كل الأقلام عقول معطلة منتصبة كالعروق الجامدة.

كل الأقلام قلوب صامتة تثير.

كل الأقلام هكذا.

باردة صامتة متحدية مثيرة مخيفة وغامضة كجثة.

كل الأقلام ميتة.

طول وجودي بغرفتي أثناء المرض لم يزرني أحد.

اكتفوا بالتلفون، التلفون مجرد صوت، صوت غريب بلا هوية. ليس للتلفون جسم.

طول هذه المدة فكرت في أشياء كثيرة، في الحب، في الموت، في الصراع من أجل الموت والحب، من أجل الجنون.

فكرت في مكتبي.

باب المكتب يبدو صغيرا، صغيرا جدا كمدخل قن. يريد، يأمرني بالانحناء، أن أتكوم وأصير أصغر من الدجاجة.

تريد الأقلام، تأمرني أن أتضاءل.

أن أصغر أمام وجودها كما يصغر من يتأمل جثة.

هذه الغرفة بدورها تبدو ضيقة. السقف لامس الأرض، الأرض ترتفع باستمرار نحو السقف، تتواطأ مع السقف، الهواء يفلت، يجري تحت الكراسي، تحت المكتب، داخل وبين الأوراق.

هل أقطع شيئا من رئتي أم أفتح النوافذ ؟

عالم الأشياء في الخارج يملك قوى مغناطيسية مؤلمة كتيار كهربائي.

كل الأشياء، كل ما يوجد بالفعل صارم، بارد، مخيف.

كل الأشياء صامتة.

ما لا يستطيع الإنسان هو الصمت.

لماذا لا تنطق الأشياء ؟

لا شيء يخيف، يغزو كيان الإنسان بأكمله، يعذب كالتيار الكهربـــائي، يلتهم الوجود البشري كالصمت.

ليس هناك ما هو أقوى، أبهم، أكثر سادية من الصمت.يحيلنا صـــمت الأشياء إلى ذرات حقيرة، إلى لا موجودات في الوجود.

في البدء وفي النهاية، لم يوجد غير صمت الأشياء.

لا توجد الأشياء إلا بصمتها.

ما أعظم غليلي الذي قال: عذبوا الطبيعة كي تبوح لكم بأسرارها !

ولم يكن أمرا غريبا أن يحاكم غليلي، فكل قوة تستمد قوتها من قـــوة صمت الأشياء.

ما أعظم المفكرين الذين يحدثون الفوضى في ظواهر الأشـــياء، فـــي جوهر الأشياء كي تخرج عن صمتها، كي نصبح أقوى من الأشياء.

عندما يتكلم إنسان، يتحدث شيء، يفقد الجزء الأكبر من قوتــه، مــن وجوده، نعرف من أين نبدأ عملية امتلاكه.

أضاف الحاجب:

وفي تلك الليلة وجدت رسالة إلى ولده تقول:

ولدي العزيز:

أنت وحدك تشبهني. لذلك قررت أن أجعل منك رجلا عظيمــا مثلــي وأطلعك على أمر خطير. اقرأ وع جيدا ما أقول: لقد ظهرت في زمننا جماعة من أصحاب اللحي الطويلة المهملة والرؤوس المحمولة بــلا تــوازن فــوق الأجساد يدخنون النكوتين الخالص ويشربون روح الكحول، مظهرها وطريقــة عيشها تدلك على أنها من ذرية الصعاليك الشــعراء. كلاهمــا يقنعــك بأنهــا جميعها تحمل بقية من لسان الحطيئة وبشار بن برد. قلبها يملأه الحقد والخبث كأنه قد من خشب أسود.الفرق بينها وبين أهل الصعلكة والمجون القدماء أنهــا تتشاجر فيما بينها كالحيوانات. لكنها عند الجد تعرف كيــف تتضــامن. لقــد أنكرت هذه الجماعة كل ما جاء به الفرزدق والأخطل وجرير وعبــد الحميــد الكاتب وابن المقفع.

ثم أنكروا نحو سيبويه وعروض الخليل وأعطوا لأنفسهم أسماء غريبة لم يعرفها أجدادنا العظام.

الشاعر، القصاص، الناقد، الفيلسوف، المؤرخ، الصحافي، وغير ذلــك من البدع.

ولم يكتفوا بذلك وحده، وإنما أنشأوا جمعية سرية ســموها «جمعيــة الكتاب»، وهي جمعية خطيرة على أمن الدولة نخشى أن يكون ممولها مــن الخارج.

إنها جمعية تقلق راحة الحكومة بالكلام وتريد أن تستقل عن أعلى سلطة في البلاد.

أمر هذه الجمعية يا ولدي يطرح علينا إجرائين:

أولا، إن نسحب منهم تلك الألقاب، وذلك بأن نخلعها على أنفسنا، وأن نستولي بعد ذلك على مقرهم ومكاتبهم بكل الفروع.

ثانيا، نجمع المعلومات الصحيحة والخاطئة على حد سواء حتى نتمكن من متابعتهم أمام القضاء بتهمة التآمر على أمن الجزيرة والتعامل مع المصالح الأجنبية.

ذلك ما يقتضي أن تتجند كما تجندت في السابق في مثل هذه الحالات. اجمع أكبر عدد من الفقهاء والمتعلمين وأشباه المتعلمين وسنرسل إليك بسرعة عددا كافيا من المختصين لتدريبهم على العروض وفن البديع وعلم الاقتباس من أعمال كبار الكتاب العالميين.

وأريد أن يخرج كل واحد من المتدربين بمجموعة من الأعمال الشعرية على طريقة الفرزدق والأخطل وجرير أو بمجموعة من القصص على طريقة ابن المقفع والهمداني أو مثل ذلك من المؤلفات التاريخية والفكرية العامة.

يجب أن تبعث إلينا بعد ذلك بكل تلك المؤلفات قبل متم شهر يوليو كي تتمكن وزارة المعارف من طبعها في الحين وتوزيعها على سكان جزيرة العين قبل بداية مؤتمر جمعية الكتاب حتى نجد ما نبرر به إعطاءهم ورقة العضوية وحق المشاركة في المؤتمر من أجل طرد أولئك الكلاب قبل أن يستفحل أمرهم ويكثر عددهم فتذب الفوضى وتفسد العقول.

أخبر الجميع أن تكاليف التدريب والتعويض على الجهد الفكري ستؤدى من ميزانية الدولة وأنه ستصرف لهم رواتب عشر سنوات مسبقا كي يتفرغوا لإغناء الأدب والفكر في الجزيرة.

أما عن الإجراء الثاني وما يقتضيه من تحريات فإن مخابراتنا ستقوم بالواجب، وعليك أن تظل على اتصال دائما معها لتزودك بالملفات.

اهتم قبل كل شيء بعلاقة أولئك الأشقياء بالأحزاب والحركات سياسية حتى نتمكن بسرعة من ضرب الجميع بتهمة التآمر والتعامل مع مصالح أجنبية. وقد نستغلها لمنع نشاط الأحزاب والحركات السياسية بتهمة احتضان وتشجيع عناصر فوضوية.

لقد فتحنا المجال للأحزاب إرضاء لأصدقائنا حكام وسادة الدول الأجنبية وحتى يتسهل الحصول على قروض مالية من الخارج.

لكنهم بدأوا منذ الآن يتحدثون عن مكسب الشرعية والنضال من أجل الديمقراطية.

وفي مثل هذا السلوك المراهق كما تعرف مس بسيادة الحكومة وكرامة الشعب، فيه مس بسيادة الحكومة لأنها هي التي تتفضل فتعطي أو تمنع، والديمقراطية أقل ما تعطيه الحكومة حين تحس بأن ذلك ضروري لوجودها أو لضمان أمن مسانديها، وفيه مس بكرامة الشعب لأن الشعب يعيش منذ وجد في ظل ديمقراطية أصيلة لم يعطها له غير حكومته رغم أنه لا يريد ويعلن صراحة أنه لا يريد ديمقراطية لأن المهم في نظره هو أن يجد الشغل والخبز.

أما إذا ثبت ما تدعيه الأحزاب فإنه سيكون وراء ذلك بدون شك أياد أجنبية تعيش في الماء العكر.

المهم الأهم يا ولدي أن تكون أهلا لثقتي فيك وأهلا لثقة زملائي الذين اقترحتك عليهم لتقوم بهذا الدور الخطر.

أما عن باقي الإجراءات فدعها لأبيك الأديب الفيلسوف وقل باختصار المفكر العظيم.

آه. نعم المفكر زند هاريوح. الأديب الفيلسوف الذي بإمكانه وحـــده أن يغتصب صمت الأشياء.

هل تريد الدليل ؟

إني الآن أؤلف كتابا عن الأبعاد الوجودية في هـــذا البيـــت الشـــعري القديم والمليء بالمعاني الفلسفية كي أظهر للجميع أن الأقدمين لم يتركـــوا مـــا يقوله المحدثون.

البيت يقول:

أرى الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه في اليدين.

وأنا بصدد كتابة قصيدة من ألف بيت أعارض فيها قصـــيدة الشـــاعر الجاهلي الملقب بالسياب، والتي فيها يقول:

مطر.

مطر، مطر، وكل عام يعشب الثرى ونجوع.

ما مر عام والعراق ليس فيه جوع.

ولمعلوماتك الخاصة أقول:

ستكون القصيدة المضادة مكتوبة بأحـــدث مـــا وصـــل إليـــه الشـــعر المعاصر من أساليب، عدم الالتزام بالبنيات اللغوية والمضمون.

وهي طريقة صعبة كما تعـــرف لا يتقنهـــا غيـــر نوابـــغ الشـــعراء الموهوبين. ولكي أشرح لك ذلك أعطيك مثالا بسيطا ومتواضعا مما كتبت.

خذ فاعلن. ماذا يمكن أن تعطينا ؟

طالع. هابط. خائف. جائع. ماكر. حاقد. تائه. مفلس.

نائم ماشيا.

آكل كبده.

لاشك أن في هذا الشعر العظيم نوعا من الغموض. إن الغموض يا ولدي من مقومات الشعر الحديث. قل لكل الذين سيكتبون من أصحابك.

كونوا غامضين تنجحون. كلما ازداد الشعر غموضا كلما كان أحسن. الشعر كالإنسان كلما كان غامضا، لغزا، كلما آثار الإعجاب أو شغل الناس.

وهكذا ترى أيها العزيز أني ... سأكون رائد حركتكم.

وعندما يتم لنا القضاء على جماعة الخماسين أغرقكم في الأسفار والحفلات كي تتفتحوا على عوالم أرحب وتتقدم مواهبكم أكثر.

وبعد ذلك أعينكم في مراكز حساسة بوزارة المعارف كي تزداد شهرتكم وتصبحوا متفرغين.

قال الراوي: من تقصي أخبار هذه الجماعة التي أسسها زند هاريوح، في الصحف والمجلات القديمة، تبين لنا أن هذه الجماعة لم تنجح إلا في الإذاعة والتلفزيون وبعض الصحف غير المقروءة، وتبين أنها غيرت اسمها الذي كان « جمعية الإبداع والأصالة» فأصبح جمعية « الفراشات الأنيقة والعطالة » . ولم يرد لها ذكر في الأخبار بعد هذه البسالة. وقرأنا عن الحادث في مذكرة زندهاريوح: « لأول مرة أفشل. أجد تكسير صمت الأشياء مستحيلا ».

زندهاريوم يتذكر طفولته

كتب زندهاريوح المفكر في مذكرته بتاريخ عشرة أكتوبر:عندما نفشل نبحث عن سلوى، عن تعويض، ولو بالجنون...

الإنسان كائن تعويضي. والماضي موجود دائما من أجل هذا التعويض...

الماضي كالمفكرين القدماء نستطيع أن نقوله كل ما نريد، الماضي وجد فقط لنقوله كل ما نريد...

لكننا بذلك نكذب على الماضي ونكذب على أنفسنا.

إن الماضي موجود فقط كأي شيء من الأشياء. وهذا ما بجعله قابلا لأن نقول عنه كل ما نريد...

الماضي لا يتكلم، صامت كالأشياء. عن ذلك تنتج كل أحاسيس الغربة والخوف والقلق.

نتصرف معه كإنسان عاجز في غابة يتخيل أن كل الأشياء، والحيوانات، أصدقاء له ويؤرقه مع ذلك شعور بأنها قد تغتاله، تتنكر له في أية لحظة.

ذلك أن حياة الإنسان لا يطبعها الاستمرار، لا تخضع لمبدأ الهوية.

يكون كائننا كالعنكبوت محاطا بخيوط وهمية غير صلبة قادرة مع ذلك على سجنه

وأما قبول الأمر الواقع...

كل الخيوط باهتة متقطعة.

وفي كلتا الحالتين إحساس بالغربة، ألم، غضب، حياته سلاسل نفي لانهائية.

ماضي الإنسان كالزمان، هو نفسه أصله الانفصال لا الاتصال.

تاريخ الفرد الواحد في حد ذاته مراحل منفصلة كحبات السبحة أو العقد.

لكن الفرق بينهما في أن مراحل؛ حبات، عمر الإنسان لا تتشابه كحبات السبحة أو العقد.

مراحل عمر الإنسان في تسلسلها كسلسلة الأعداد الطبيعية لا أحد منها يشبه الآخر، تاريخ الواحد منها ينفي اللاحق منه السابق.

لذلك ينظر الواحد منا إلى الماضي فلا يرى نفسه.

انظروا إلى صوركم القديمة منذ الطفولة، استمعوا إلى ما يحكيه عنكم آباؤكم أو أقاربكم وأنتم في مختلف مراحل العمر، هل عرفتم أنفسكم ؟

هل قبلتم تلك الصورة المتقطعة الباهتة ؟

إن الهوية مجرد إحساس، مجرد إحساس ضروري أصبح عادة

هي خيط وهمي إذن من خلق الذات.

يجد الإنسان نفسه غريبا عن ماضيه، يجد نفسه محاطا بالغربة، فالغربة وراءه وأمامه، عندئذ يبحث عن خيط لأن الإنسان يمكن أن يتحمل كل شيء إلا الغربة.

الغربة قاتلة ولا بد من خيط، أي خيط. لكن كل الخيوط هنا تبقى خيوط عنكبوت.

ومع ذلك يحيك الخيط، ويحاول، يفشل حتى حين يحس بالنجاح في حياكة الخيط، الإحساس بالفشل في مثل هذه الحالة مقترن دائما بالإحساس بالنجاح.

وعند نهاية المحاولة تبدأ الفاجعة:

إما بالاستسلام لوهم، ومثل هذا الإنسان يصبح غالبا سكينا إذا بقيت بالرأس هلك.

الماضي غريب. كذلك المستقبل. أين يقف الإنسان ؟ على ماذا يقف ؟

وإما بالمرض أو الجنون...

هل يكون الإنسان كائنا واقفا على رجلين من جليد ؟

هناك بالطبع إنسان وإنسان. هناك الإنسان الذي يكتفي بنفسه. يعيش لنفسه. هذا هو أمير الغرباء.

أما الآخرون فهم يجدون الاستمرار في أية جماعة ينتمون إليها.

لكل ذلك لا بد من الاحتفاظ بالأصدقاء، والرجوع إليهم ولو من حين لحين

وكتب صديق قديم لزندهاريوح في مذكراته، قال:

« دعاني زند هاريوح إلى حفلة شراب لم أكن أملك غير الذهاب إليها.

كان الضوء يتطاير من الكؤوس كما يتطاير من العيون. كل شيء يلمع وكأننا في معمل للزجاج لا تغيب عنه الشمس.

قال زند هاريوح:

الناس تحب الضوء، تحب أن يشع منها الضوء. انظر إليهم كيف يلمعون، يضيئون رغم أنهم في داخلهم باردون، يعيشون أزمات انقطاع التيار الكهربائي الداخلي.

ماذا تريد ؟ يكفي الإحساس، الإيحاء بأن المرء يلمع، يضيء كي يقوى على الاستمرار في الحياة.

أنت وحدك لا تلمع حين تشرب وحين لا تشرب.

مازلت كما جئت من البادية، باهتا كالخريف، مبهما كالحزن.

هل تذكر أيام الذبول؟ حدثني عن أيام الذبول.

إني نسيت ماذا كنت. تعبت في البحث عن نفسي داخل ركام من الذكريات الباهتة.

ثم أخذ زندهاريوح يبكي، فعرفت أي صنف من السكارى هو، لكنه عاد يصيح بعد قليل:

لماذا أنت صامت باهت، فائر في نفسك ؟

تكلم أيها الأحمق. أعرف. تريد أن تبدو قويا.

إن ذلك يعطيك نوعا من القوة الخفية التي لا يمكن أن تقهر، يعطيك القدرة على دخول نفسك. لكنه يمنعك من الدخول الحار إلى نفوس الآخرين.

يسمح لك فقط بممارسة تأثير سحري على الناس، غير أن كل الناس تكره مثل هذا التأثير لأنه يجعلهم يحسون بالنقص والضعة.

أيها الأحمق، مازلت أسير صمتك كما كنت من قبل. لكني مع ذلك لا أحبك، ولا أعطي أية قيمة لمفعول قوتك السحرية، أريد أن تتكلم، أن تضحك، أن تقول أي شيء يسليني.

إن كل هؤلاء، جميع المدعوين، لهم وظيفة واحدة تبرر وجودهم هنا: أن يسلونا.

نحن نقضي الليل والنهار. في خدمتكم، في التعب من أجلكم. من حقنا إذن أن تقضوا بعض الوقت في الترفيه عنا حتى نعود إلى أعمالنا. إلى مصالحكم أكثر نشاطا.

أصابتني الدهشة في البداية، تلك الدهشة الخبيثة التي تفرغ الذات لإحساس واحد، إحساس واحد مسيطر كاللاشيء.

يريد أن يهينني.

لكني تماسكت، لا يخيف هؤلاء سوى أن نبدو أقوياء مثلهم. أن نبدو أقوياء حيث يستطيعون أن يكونوا أقوياء. كان من الممكن أن استعطفه. لكن الاستعطاف لا يزيده إلا شعورا بالقوة الحمقاء.وبدأت أبحث عن النكت. أين غابت تلك النكت، مئات النكت التي اتخذه مؤلفوها موضوعا لها ؟ وقصائد الهجاء التي تدور بين الناس كالمطبوعات السرية ؟

لا بأس. أساله أولا. إن البداية تعطي امتياز للذي يبدأ الحوار:

ما هو المطلوب مني بالضبط ؟

قال:

طفولتي. حدثني عن طفولتي. إن للآخرين ذاكرة أقوى من ذاكرة الفرد فيما يخص طفولته.

قلت وقد ازداد حرجي:

يا سيدي ماذا أقول لك عنها ؟ ماذا يفيدك تذكرها ؟ الآن أنت من مشاهير التاريخ ومشاهير التاريخ رجال أقوياء برجولتهم لا بطفولتهم.

قاطعني:

إن أفلوطين قال « ونحن، من نحن في آخر الأمر ؟ » . هذا هو السؤال الذي كان يجب أن يطرحه أبو الهول. طفولتي ستعطيني عناصر مهمة للإجابة عن هذا السؤال. لكني مع الأسف لم أعد قادرا على تذكر شيء من الماضي. أنا فقط حاضر. لا ماضي ولا مستقبل لي. إن الحاضر نفسه لا يترك لنا الفرصة كي نتأمله. يصبح ماضيا بسرعة جنونية. لذلك دعوتك. أنت صديق صبايا. إبدأ إذن من البداية.

قررت أن أراوغه.

أما هذا، فلا. لا أحد، حتى أنت، يمكن أن يعرف كيف كانت البداية الحقيقية، وإذا ما كانت نطفة طائشة أم نورا خفيا. وأنا لم أكن معك في بطن أمك حتى أعرف ما بعد هذه البداية، ولا ما بعد الخروج إلى العالم مباشرة. يمكن يا سيدي إذا سمحت أن أحدثك عن طفولتك ابتداء من السن التي شرعت فيها في الخروج إلى ربوة الدوار لتلعب معنا.

يقول:

أي نعم. بكل تفصيل.

تابعت:

أذكر يا سيدي يا مولاي أنك كنت قويا كالثور يخاف منك كل أولاد الدوار. وأنا ماصرت صديقك إلا لأنك كنت أقوى مني وتدافع عني. فصاروا يسمونني زوجتك.

وهنا انفجر زند هاريوح.

يا كلب، يا حمار، يا ولد ... لعنة الله عليك أيها الخبيث. قل الحق أو أمرت بإعدامك فورا.

قلت:

لماذا ترفض طفولة وردية يتمناها كل الرجال ؟

قال:

اخرس أيها الثعلب وانطق حقا أو أمرت بقطع رأسك.

قلت:

الحق يا سيدي يا مولاي أنك كنت أكثر ضعفا من أضعف طفل في الدوار، كالدودة أو كالحمل المريض إذا سمحت لي بالمقارنة.

حينئذ رأيت الضوء في عينيه:

أما الآن فأنت مؤرخ أمين. تابع. ولا تخف.

قلت:

اطمئن يا سيدي، فأنا لست خائفا.

كان الشياطين أولاد الدوار يضربونك دون عطف، يتلذذون برؤية الدموع في عينيك الواسعتين كعيني بقرة.

كنت جميلا يا سيدي ونظيفا على عكس تلك الخنازير، كنا نقول:

هذا الغزل لا شك أن أمه جاءت به من المدينة، من نصراني أو يهودي وليس من أبيه الأقرع الذي يشبه الغوريل.

لذلك عشقناك جميعا وهمنا في حبك، كلنا بدون استثناء.

كنت جميلا كأبناء النصارى. هل تفهم معنى أن يكون طفل جميل مثل أبناء النصارى في الدوار ؟

كنا أحيانا كثيرة نأخذك إلى أي مكان ونعمل معك ما يعمل الرجال مع النساء. استغنينا بوجودك عن الحيوانات التي تركل في لحظة النشوى الكبرى.

كنا أقوياء، نقتتل من أجلك ومن أجل أختك التي ماتت بعد أن اغتصبها بوحشية البغل المسمى كرطال. أعلنا الحداد العام في كل الدوار. وانتقمنا لها من كرطال الذي حكمنا عليه بمغادرة الدوار وأهدرنا دمه.

كنا نحبكما، أنت وأختك رحمها الله.

ابتسم ابتسامة خبيثة وقال:

لا شك في ذلك، أيها الأشقياء. وماذا بعد ؟

سكتت قليلا ثم تابعت:

كبرت بسرعة غريبة، فأنت الوحيد الذي لم يكن يعاني من سوء التغذية. وكنا نعطيك جميعا ما نملك أو نأكل. نحرم أنفسنا من أكلة في البيت

لنحتفظ لك بها، نمنع على أنفسنا أكل الفواكه النادرة كي نحملها إليك. وكـان الحدث العظيم حين دخلت إلى المدرسة.

لأول مرة يدخل واحد من الدوار إلى المدرسة. ولأنك كنت هذا الأول فقد تبعناك جميعا لنحرسك أثناء الطريق، لأن المدرسة جد بعيدة، لأن الـدوار في غيابك يصير مظلما، لأن في رؤية شفتيك تتحركان لتفك سر الحروف لذة لا تعادلها أية لذة في الوجود، لأننا أحببناك، أحببناك، وكنت تبادلنا الحب حبا.

لولا ذهابك إلى المدرسة لما تعلمنا حرفا واحدا. كنت رائدنا وقـدوتنا. هل رأيت الآن كم كانت طفولتك مشعة ؟

كنت الشمس التي تمنحنا الدفء، الحياة، نحن الكائنات الحقيرة. أنـت خلقت لتشع، كنت مشعا في طفولتك وما زلت وستظل مشعا كالشمس.

أمثالك لا يكون للحياة معنى بدونهم.

أراد أن يوافقني قال:

طبعا، طبعا، وكيف كنت في المدرسة؟

أجبت:

دعني أذكر لك التفاصيل الأخرى المتعلقة بحياة ما قبل سن التمدرس.

اعترض غاضبا:

قلت لك حدثني عن طفولتي في المدرسة.

واعتذرت له وتابعت:

كانت المعلمة تناديك يا مولاي زند هاريوح.

« اقرأ يا مولاي زند هاريوح »

ثم يختفي أحدنا تحت طاولتك ويقرأ مكانك.

لم تقم بأي شيء في البيت. كنا نقوم بكل الواجبات المدرسية مكانــك. إنه الحب. كنا نحبك يا رجل.

لكننا لم نغتظ حين اكتشفنا أن المعلمة بدورها تحبك وأنها تخلــو بــك ساعات طويلة في القسم بحجة إعطائك دروسا إضافية.

ثم رأيناها عارية في بيتها ترتجف فوقك. كنا نظل في انتظارك حتــى تنتهي المعلمة المسكينة.

قلنا فقط:

زندهاريوح لم يخلق لنا وحدنا، الجمال لم يخلق لأحد، لقد خلــق لأن يحبه كل الناس، لأن يكون ملكا لهم جميعا.

ولقد سمعت فيما بعد ما أكد لي هذا حين صرت رجلا.

ابتسم الرجل القوي:

هذا شيء طبيعي. تابع الآن.

قلت:

خير الكلام ما قل ودل، لقد أصبحت معلما يحبك الأطفال أيضــا، ثــم رجلا تحبك كل النساء وكل الرجال، زعيما يعبده اتباعه، عالما ومفكرا يعشقه قراؤه. قمرا، وكل الناس أرانب يأسرها الضوء.

ضحك كما يضحك جنكيزخان في فيلم للأطفال:

إذن، لا غرابة في أني اخترت بعد ذلك مهنة النساء. لقد كنت امــرأة طول حياتي. ولا غرابة في أني ثرت على مهنة النساء، على وضعيتي كامرأة تحمل إسم رجل، وقررت أن أخلق الرجل الذي كان ميتا داخلي أعواما طوالا.

قلت:

نعم ما فعلت أيها الرجل العظيم، الإنسان لابد أن يصبح رجلا في يوم من الأيام.

لكنني إذا سمحت قلت لك:

في العالم نساء كثيرات في موقع الرجال، نساء يحكمن الرجال دون أن يصرن مع ذلك رجالا. إن الفرق بين الرجال والنساء لم يعد في لبس السروال أو قيادة سيارة أو الجلوس في مكتب.

ضحك من جديد ضحكة جنكيزخان:

أريد أن تروي الفصول الأخرى المتبقية من حياتي، تابع، ماذا بعد ؟

قلت: اعفني يا سيدي من قول أشياء إن تبدو لك تسؤك...

لكن ضحكته حاصرتني من جديد:

وهل في الوجود شيء من هذا القبيل، ألم تستمع بالإنسان البيونيكي ؟ أنا هو، أنا أول نموذج منه. غير أني لا أريد أن أتعب ذاكرتك هذه الليلة، أمامنا ليال طوال يا شهرزاد العزيزة !

بقي مع ذلك شيء آخر لابد أن تلتجئ بشأنه إلى ذاكرتك:

أعطيني عناوين بقية الأصدقاء القدماء الذين عاشرونا في الدوار.

قلت:

والله لا أستطيع. لا أعرف عنوان أحد منهم.

آنئذ رأيت الضحكة تصبح بسرعة ضحكة إنسان متحضر:

منصور، يا منصور.

ودخل الأسود:

ماذا يريد مولاي ؟

قال الرجل الذي تحضر:

ادخل الجماعة الموجودة بالحديقة !

رأيتهم واحدا واحدا، عرفتهم واحدا واحدا، كل أولاد الدوار كانوا هنا، شبه واقفين كالبهائم التي فقدت الذاكرة.

صاح السيد القوي:

أصحابك يا منصور !

وما أتم عبارته حتى دخل رجال غلاظ بلا وجوه.

قال متوجها بالأمر إلينا:

اخلعوا سراويلكم، أيها الأصدقاء وامشوا على أربع.

اعتبرنا أن المسألة مجرد دعابة في البداية لكن الرجال تقدموا نحونا كالأشجار المتحركة.

بعد ثانية كنا قد خلعنا سراويلنا وبدأنا نمشي على أربع، تماما كما أراد.

زندهاريوح يلتقي بمخلوقات غريبة

« ما يجعل الإنسان يبدو كائنا غريبا أمام الناس العاديين:

الجنون بشيء، أي شيء ».

زندهاريوح–من كتابه: طوق الهلاك.

حدثنا صحفي أجنبي جاء من بلاد يكثر فيها الجنون.

قال:

زار السيد زندهاريوح أحد السجون الكثيرة التي يشرف على إدارتها منذ سنتين. وفي هذا السجن الكبير الذي يشبه المغارة المتعددة الممرات التقى ببعض المخلوقات التي لم يصدق في البداية أنها تنتمي إلى العنصر البشري الذي يتكون منه أهل الجزيرة، ولم يكن يحلم أبدا قبل أن يصبح قويا بأنه يمكن أن يلتقي بمثلها على وجه الأرض.

كان أول هذه المخلوقات شخص يدعى سانا لاسينا، شاب بدون شباب في عينيه المتعبتين نور مخيف لم يطقه في البداية السيد زندهاريوح.

قال سانا جوابا عن سؤال لزندهاريوح:

أنا معتقل من أجل أفكاري السياسية وأنت أدرى مني بذلك.

سأله زندهاريوح باستغراب:

ماذا تعني بالأفكار السياسية؟

قال سانا في هدوء تام:

فكرا مخالفا لفكرك القذر العميل، فكرا من شأنه أن يضمن الكرامة لسكان الجزيرة وأن يحقق تنمية أسرع.

رد زندهاريوح:

أنت أيضا واحد من العملاء، أحد خيوط الدول الأجنبية.

قال سانا بنفس الهدوء:

الشعب يعرف من منا عميل، من يحبه، ومن يقتل أو يسجن من يحبه.

استدار زندهاريوح ونزل بصفحة ثقيلة على وجه سانا:

هذه ستعلمك ما هو ثمن التطاول.

جمع سانا ما تبقى من قوته وأرسل لكمة أضاءت كالبرق فوق أنف زندهاريوح.

وهذه تعلمك ما هو ثمن الكيد ضد الشرفاء.

لكن الحراس كانوا قد أحاطوا بسانا الضعيف كما تحيط الغربان بجثة.

بعد نصف ساعة انتبه زندهاريوح فرأى سانا بين الأيدي تجره كما تجر الكلاب المتعاركة أرنبا ميتا.

قال:

اتركوه الآن. أوصوا له بنفس الوجبة مدة أسبوع.

غير أنه قال لنفسه:

مستحيل أن يكون هذا الشخص واحدا من أهل الجزيرة. لا شك أنه عميل لدولة أجنبية، مؤكد.

ثم أسر في أذن أحد ملازميه:

يجب أن يبقى حيا حتىتأخذوا منه جميع المعلومات المتعلقة بالشبكة التي تكون قد تسللت من الخارج إلى الجزيرة.

عندئذ كانت قد فتحت له زنزانة ثانية.

أربعة أشخاص في سن ولده الصغير.

سأل:

هل هذه هي جماعة الأمعاء القوية التي حدثموني عنها؟

أجاب المدير:

أجل سيدي، مضربون عن الطعام منذ عشرين يوما، مات منهم ثلاثـــة وبقي فقط هؤلاء الأربعة.

انفجر زندهاريوح متعجبا:

منذ عشرين يوما ؟ ! هل يمكن أن يعيش مثل هؤلاء بدون طعام مـــدة عشرين يوما، بل مدة عشرة أيام ؟ خدعوكم أيها البلداء. كان الطعـــام يصـــل إليهم سرا !

قاطعه المدير:

عفوكم سيدي: معذرة أقصد، هل تشكون في كفاءة الحـــراس وفعاليـــة المراقبة الالكترونية ؟

ابتسم زندهاريوح:

لا أشك في شيء، أريد ألا تكونوا قساة مع هؤلاء الأطفـــال. إذا لـــم يعجبهم العدس أعطوهم الفول أو الحريرة. وإذا لـــم يعجـــبهم لا العـــدس ولا الحريرة أعطوهم البسكوي، أعطوهم البسطيلة. نعم البسطيلة والبســـكوي ... الخنازير لا يجدون في بيوتهم حتى الخبز والشاي، هنا نعطيهم العدس، ومـــع ذلك فهم غير راضين. ماذا يريدون، ماذا يريد هؤلاء المخربون ؟ أعطـــوهم العصا إن لم يعجبهم العدس !

تقدم المدير مترددا:

إنهم لا يريدون أي شيء، تلك طريقتهم في الاحتجاج على ما يسمونه بسوء المعاملة، المعاملة اللاإنسانية، يقولون، في السجن. يعتقدون يـــا ســـيدي إنها طريقة للمطالة بمحاكمتهم أو بإطلاق سراحهم.

اندهش زندهاريوح:

الاحتجتج ؟ المطالبة ؟ ومن سيسمعهم ؟

قال المدير:

يقولون الرأي العام. إن أخبارهم رغم كل الاحتياطات تصل إلى بعض الجرائد الأجنبية والوطنية.

ضحك زندهاريوح:

الرأي العام ؟ من يكون هذا الرأي العام ؟ أليس هذا هو الإسم الذي أطلقته على نفسها جماعة الخارجين عن القانون في العالم ؟ تكلم، تكلموا، هل تعرفون من يكون ؟ طيب. لا تعرفون أنتم دائما لا تعرفون. ابحثوا عنه وقدموه إلى المحكمة بتهمة التحريض على الفوضى. أعطيكم مهلة أسبوع. أريده، وإذا كان جماعة. أريدها حية أو ميتة لا يهم.

أما هؤلاء فيجب أن يأكلوا بالقوة، لابد أن يستمروا على قيد الحياة حتى يحين موعد محاكمتهم. إن رفضهم للأكل أقوى دليل على أنهم ليسوا من أهل الجزيرة، مؤكد أنهم هم أيضا مرتزقة جاءوا من الخارج حتى يتم لهم غزو المدينة من الداخل. ما أكثر أعداء وحساد هذه الجزيرة البريئة. تعالوا أنتم، أيها الحراس معكم أتكلم. خذوا هؤلاء الأربعة وأرغموهم على الأكل .إذا ظلوا متمنعين عن فتح أفواههم كسروها، بل احقنوا أمعائهم بالطعام.

ثم أمر بفتح الزنزانة الثالثة.

آه ! وما قصة هذا الصعلوك هو الآخر ؟

أجاب المدير:

متهم يا سيد بتأسيس جمعية للدفاع عن حقوق المواطنين.

ابتسم زندهاريوح ساخرا:

تقصد حقوقه، ولماذا لم يطلب منا حقوقه مباشرة دون أن يستعين بالآخرين ؟ أعطيني ملفه. آه. آه خريج جامعي ممتاز ! هذه نتيجة ارسالهم إلى الخارج، هذا جزاء الحكومة التي تصرف عليهم.

اسمع يا هذا:

ما رأيك في منصب مدير كبير الإدارات شريطة أن تجعل من جمعية الدفاع عن حقوق المواطنين جمعية للدفاع عن حقوق الدولة ؟ لقد درست في الدولة ... تقول ؟ يقول واحد من أكبر فلاسفتها: على المواطنين فقط واجبات وليس لديهم حقوق، هل قرأت كتب هذا الفيلسوف ؟

سكت الرجل الصعلوك ثم طلب من السيد أن ينحني قليلا. ولما أصبح وجه السيد على مسافة أقل من قدم من وجه الصعلوك أفرغ هذا الأخير كل ما في فمه من لعاب على وجه السيد الذي كان يفوح عطرا. لكن السيد تظاهر بأنه لم يفقد صوابه من فعل بصقة تشبه قذيفة مدفعية.

أخذ يقطع الزنزانة جيئة وذهابا. خلع معطفه، ثم قميصه وشرع في نوبة عض همجية لم يسلم منها عضو من أعضاء الصعلوك.

بعد حوالي ربع ساعة رجع إلى نفسه وبدأ يسترد أنفاسه.

أما المدير فظل حائرا يتقدم حينا ويتراجع حينا آخر. لكنه نطق عندما التفت زندهاريوح إلى الحراس يأمرهم بتعليق الصعلوك في الهواء الطلق إلى أن يجف من الدم والعرق.

لكنه ولدك، ولدك يا سيدي !

تمالك زندهاريوح نفسه.

ولدي، هل حقا أنت ولدي أيها اللعين ؟

حاول الشاب أن يجمع أنفاسه:

أنا شخص يريد أن يأكلك، سيأتي اليوم الذي نأكلك فيه طازجا.

التفت زندهاريوح إلى المدير:

ألا تخجل أنت ؟ أرأيت ؟ إنه ليس ولدي، ولدي لا يمكن أن يؤسس جمعية للدفاع عن حقوق الإنسان، يستحيل أن يكون لي ولد لا يشبهني، ثم إن هذا الصعلوك ينكر أن يكون ولدي.

أكد المدير في خجل:

بل ولدك، حالته المدنية تؤكد ذلك.

فكر زندهاريوح:

لا شك أنه ابن غير شرعي أنجبته ظهادر أثناء غيابي عنها كل هذه المدة. لكنه مع ذلك ولدي، يعتقد ذلك، وقد ينفعني. سأحتاج إليه عندما تهب الرياح من الجهة المضادة ! اسمع، أنت أيها المدير. هذا لا يمكن أن يكون ولدي، إني أعرف كل أبنائي. إنما لا تأخذوه إلى الهواء الطلق. اطلبوا له طبيبا أو احملوه إلى المستشفى. افتح الآن هذه الزنزانة.

قال لنفسه:

هل زنت ظهادر مع أجنبي فأنجبت هذا الصعلوك ؟ إن الجزيرة لا يمكن أن تنجب مثل هؤلاء المجانين إلا إذا كانت وراءهم مصالح أجنبية أو نطفة أجنبية أو إذا غرر بهم.

هذه جزيرة الأبرياء، جزيرة الصامتين.

لماذا لا تفتحون هذه الزنزانة ؟

تمتم المدير:

الأحسن ألا تدخل إليها سيادتكم. إن بها شخصا يدعي إنه عمر بن الخطاب، ويدعي أحيانا كثيرة أنه سقراط وأنه مكلف برسالة من طرف الالهة.

ضحك زندهاريوح:

وأنا معاوية، بل راسبوتين. افتح أيها البليد !

قال المدير وهو يحاول أن يفتح الزنزانة:

إنه تحفة نادرة. يقضي كل وقته في قراءة الانجيل والقرآن. لكن خطورته في أنه يدعو السجناء إلى الجهاد المقدس باسم كل الأنبياء، ويجد آذانا صاغية توصل تعاليمه مباشرة إلى قلوب مريضة ساخطة على الدنيا. تصور يا سيدي أنه يمارس اليوغا كأنه ثعبان جائع. إنه، أريد أن أقول شخص خطير.

علق زندهاريوح:

إذن، أنت أيضا في خدمة المخابرات الصهيونية أيها النبي الجديد.

رد الشاب ذو اللحية البيضاء:

لعنة الله عليك وعليهم إلى يوم يبعثون.

حاول زندهاريوح أن يظل متماسكا:

إذن أنت شيوعي. كيف تجمع بين الشيوعية وبين الدين؟

رد الشاب في هوء:

وأنت كيف تجمع بين قتل النفوس واستغلال الناس وبين الدين ؟

أنا أيا السفاح، لمعلوماتك الخاصة، لست نبيا جديدا أو بشيوعيا.

أنا مجرد إنسان لم يعد يطيق.

بدأ الخبث يغزو قلب زندهاريوح:

أعجب لك، كيف تثق في الله بعد أن تخلى عنك الله كل هذه المدة وتركتك الملائكته في السجن ؟

أجاب الشاب مرة أخرى دون أن يفقد هدوءه:

وهل يعرف أمثالك الله معرفة حقيقية أيها المارق حتى تفهم مثل هذه الأسرار ؟

ضحك زندهاريوح ضحكته المعهودة:

طيب، خذوه إلى الزنزانة رقم صفر حتى يقترب أكثر من ربه، لا، خذوه إلى زنزانة تحت الصفر كي يذوب في معبوده أكثر !

افتحوا الآن الزنزانة الأخرى:

ما قصة هؤلاء بدورهم ؟

أجابه المدير الذي يتبعه ككلب يتبع سيده:

إنهم يا سيدي مذ دخلوا السجن وهم يصرخون:

« يا سجناء العالم اتحدوا وكابروا فأنتم الفجر القادم ».

قال زندهاريوح في ارتياح:

لا تفتحوا. هؤلاء على الأقل واضحون. يعرفون من شعاراتهم. لكي يتحدوا أكثر أدخلوهم إلى طبقة أخرى تحت الأرض. انتبهوا جيدا. اجعلوا على الحراس من يحرسهم فإن من الممكن إن بقي هؤلاء بهذا السجن أن يفاجئكم الحراس بالشعار محورا:

يا حراس العالم اتحدوا وارحموا فأنتم تؤخرون الفجر القادم سنة كلما مات أحد السجناء، أو ما شابه هذا من أمراض هذه الجماعة الجرثومة. وماذا بقي ؟

أجاب المدير:

جماعات فوضوية من الأحزاب السياسية الشرعية وبعض الجماعات الأخرى مثل جمعية الكتاب ..

قاطعه زندهاريوح:

أعرفهم. شددوا الحراسة، لا ترحموا أحدا. إن بإمكانهم أن يحولوا هذا السجن إلى قيادة حزبية كما جرى في سجن انفرا وراس الدار ونكراش في الجنوب الشرقي من الجزيرة، هل هذا كل ما بقي ؟

تحرك المدير كالبقرة التي تحمل نظارات.

هناك يا سيدي الطبقات القريبة من جوف الأرض، والطبقات القريبة من الشمس، لكن عينكم لا تتحمل مثل هذه الأنحاء ذات المناخ الخاص، بالإضافة إلى أن وقتكم لن يسمح لكم بزيارة كل هذه الطبقات.

أكد زندهاريوح:

سأخصص لذلك يومين من الأسبوع المقبل، إذا أحضروا لي اللباس الخاص بزيارة هذه المناطق، بل اصنعوا انتم هذا اللباس.

قال الراوي: تلك الليلة كتب زندهاريوح في مذكراته:

«غريب أمر هذه الجزيرة. هل هي بركة ؟ هل هي بركة ذات سكون خادع. احذروا سكون الأشياء. لا تثقوا في السكون. لا شيء ساكن في الواقع وأنا لم أعد أطيق. القلب بدأ يتفتت، ترى هل هذا مظهر آخر للخوف ؟ ».

زندهاريوح يتغدى مع عمال المزرعة

« إذا قال لك إنسان:

يا كلب !

قل له:

هب ! هب !

فالناس يخافون من نباح الكلاب.

اقتنع حينئذ أنك صرت كلبا حقيقيا، أي كلبا يخيف. لا تهتم بما يسميه العالم بالكرامة أو السمعة، إن لكل شيء ثمنا. إن الذي يقبل أن يصير كلبا يصبح مثل البغي تماما».

من رسالة زندهاريوح إلى ابنه الكلب المبتدئ.

قال الراوي: حدثنا عامل مهاجر، عن أخيه، عن أخته أنها قالت:

« عندما أخبرنا صاحب المعلم أن المعلم سيتغدى معنا وأنه يجب أن يساهم كل واحد منا بأجرة يوم بهذه المناسبة تساءل العمال:

ماذا يريد منا هذه المرة ؟ الانتخابات ؟

لقد نجح نجاحا ساحقا يحسده عليه أكثر القادة شعبية في الدول الديمقراطية، تسعة وتسعون فاصلة تسعة وتسعون.

هل يريد شيئا آخر من عدوه المسيو فرنسوا ؟ لقد أهانه ونكل به فترك له المسيو فرنسوا كل أملاكه ما عدا الفيلاً ؟هل هو الطمع الطاعون ؟

لكنا نسينا الشيخة. إنه لم يعد يزور هذه المنطقة إلا ليرى الشيخة. الشيخة وحدها استطاعت أن تذله، أن تجعل منه حشرة. هؤلاء الأقوياء ضعفاء مع الشيخات. يصبحون أطفالا، قردة في حضرة شيخة جميلة تحسن الرقص والغناء وتحسن لغة القلوب.

ولكن لماذا هي بالضبط ؟ لماذا جعل منها امرأة تحكم المنطقة بأكملها ويأتمر حاكم المنطقة بأوامرها ؟

ربنا يحفظنا من سحر الشيخات وغنجهن !

غير أن السيد الكبير كان قد وصل إلى مزرعته وانتشرت بها آذانــه، فسكت الفضوليون.

ترجل وتوجه نحو الرجال يقبل وجوههم ونحو النساء يقبل أيديهن أمام اندهاش جميع الحاضرين بما فيهم مرافقوه.

وعندما اكتمل الجمع وقف يخطب بلغة غريبة:

أخواني أخواتي، هزني الشوق، فجئت إليكم على قلبي، جئت إليكم كما يعود كل ابن بلد حقيقي إلى بلده يملأه الشوق والعطف والمحبة التـــي أذكاهـــا فراق لا يرحم.

قبل كل شيء أخبركم بأن هذا اليوم عطلة بالنسبة للجميع، كفوا عـــن العمل ابتداء من الآن وستؤدى لكم أجوركم عن هذا اليوم السعيد.

أريد أن ترقصوا، أن تملأوا هذا الجو الحار غناء، إني أريد أن أفاخر بكم الوزراء، لا قيمة لوزير إلا بمقدار ما يلقاه به سكان مســقط رأســه مــن رقص وغناء.

عند ذلك التفتت امرأة إلى جارتها:

آه يا ربي ! ما نهاية هذه الملهاة ؟ لو أنه أدى لنا أجرة الشهر الماضي لأعفيناه من أجرة هذا اليوم السعيد.

لكن كلام المرأة التقطته بسرعة آذان زندهاريوح المنبثة في كل مكان وتم الاتصال الفوري بالمعلم زندهاريوح الذي أمر بإحضارها قبــل أن يرتــد إليه طرفه.

وكان له ما أراد:

يبدو أنك أيتها السيدة غير راضية عن العمل بمزرعتنا الآمنة. لا تخافي. سأمنحك زيادة ابتداء من العام القادم، إنك أرملة تعولين سبعة أولاد، إنك امرأة مجتهدة (وبصوت مرتفع):

عاشت المرأة المجتهدة.

رددت أفواه زندهاريوح:

عاشت المراة المجتهدة وعاش زندهاريوح أكبر المجتهدين.

قال السيد:

صفقت أيادي زندهاريوح بحرارة وتبعتها بعض الأيدي الخائفة في تثاقل.

أمسك زندهاريوح بيد المرأة ورفعها إلى السماء.

تسارع رجال الصحافة ونساء التلفزيون يعلقون في صخب يمطرون المرأة بسيل من الأسئلة باللغة اللاتينية. اكتفت المرأة بتحريك رأسها ذات الشمال وذات اليمين في عصبية.

أسر زندهاريوح في ذروة الصخب إلى أحد مساعديه:

لا أريد مثل هذه العاهر بمزرعتي.

ثم التفت مطالبا بالسكوت. وألقى خطبة مطولة بالتركية عن مشاريع قد خطط بنفسه لإنشائها على سطح القمر والمريخ، وشرح للعمال كيف ستدر عليهم مالا يمكن عده من العملة الأجنبية التي تتعامل بها جمهورية القمر والمملكة المتحدة بالمريخ وأنهم حينئذ لن يكونوا في حاجة إلى عمل.

بعد ذلك أمر بنحر الذبائح وأعطى الانطلاقة لبداية مباراة في تقطيع الأمعاء وأخرى في نتف الشعر وثالثة في الصمت ورابعة في الصراخ الحاد

وخامسة في الوقوف على القلب وكلف بعض مساعديه بإعطاء الانطلاقة لباقي المباريات ثم أشار إلى ممثلي الإذاعة والتلفزيون بأن يشرعوا في العمل.

قدم له براد شاي سعته عشرون كأسا.

مدد رجليه الطويلتين وبدأ طقس استقبال العمال مستفسرا عن أحوالهم ومشاكلهم كأنه يراهم لأول مرة، وكأنهم من عالم آخر لا يفتح عليه عينيه كل صباح ويغلقهما كل مساء.

دخل عليه في البداية العامل كالبار، وهو من ذلك النوع من الرجال الذين لهم صحة أسد وبنية جمل رغم أنهم لا يجدون دائما ما يأكلون.

قبل كالبار يد زندهاريوح كما يفعل سائر العمال وأراد أن يتكلم، بدأ يستعد ليتكلم لكن المعلم قال:

لا تتعب يا ولدي. أفهمك قبل أن تتكلم. أنت حقا قوي، ولم يخطئ أصدقاؤك الذين أطلقوا عليك اسم « السيد العضلات »، عندي لك منصب هام يعجبك. ستنضم إلى حرسي الخاص.

عندئذ تراجع « السيد العضلات » مذعورا ولم نسمع إلا هذه الكلمة:

آه !

ثم دخل رجل في حوالي الستين وقام بنفس الطقس.

قال المعلم:

عمر طويل، إن شاء الله، في خدمتنا. كيف الحال يا والدي العزيز ؟ تكلم، تكلم إنك لا يجب أن تخاف في حضننا.

تكلم، وإلا ...

نطق الرجل:

اتفوا !!

قال المعلم:

كذلك نريدك، عدوا لدودا يملأه الحقد على كل أعدائنا وخصومنا.

وأعطاه بلغة يمنية وأمره بالانصراف.

وعندما اقتربنا من الرجل لنعرف انطباعاته رأيناه يكلم نفسه كالمجنون ولم يفهم شيئا مما كان يقوله لها.

كانت قد دخلت امرأة في ذلك الحين على زندهاريوح، امرأة نحيفة كالعود، امراة كعود ثقاب ما كاد يراها المعلم حتى قال:

يا للرشاقة ! أكرم الله البادية، ما زالت نساؤها يحافظن على الرشاقة، على نحافة عود الخيزران.

إن هذا آخر يوم لك بمزرعتنا. أبشري. إننا سنحملك معنا إلى العاصمة لتساعدي خدم المطبخ. إنما حديثنا عن شعورك وأنت تعملين بمزرعتنا العامرة.

قالت المرأة النحيفة:

أقلب !

تساءل المعلم:

من ؟ من يقلب من ؟

قالت المرأة:

اقلب !

قال المعلم:

استحي يا امرأة، إننا في مهمة رسمية، وأيام القلب ستصبح كثيرة إذا ما ذهبت إلى العاصمة.

ثم غمز لها بعينيه اليسرى وأعطاها فرشاة أسنان وأمرها بالإنصراف.

وكان رجال الصحافة بالمئات يعلقون على معاني تلك الهدية الرمزية ومنهم من سمى هذا اليوم «يوم فرشاة الأسنان الحريرية».

غير أن السيد زندهاريوح كان أعلن أنه لن يستقبل غير الأطفال وأنه بعد ذلك سيتغذى وأنه يطلب من كل من له قضية أو طلب أو رغبة أن يكتبها على ورق البردي باللغة الفارسية ثم يسلم الرسالة في ظرف مختوم بخاتم السلامة من السم والديناميت إلى رئيس قسم المستعجلات والمهملات.

وأقسم أمام الجميع بشرفه المصون أن سيولي لكل رسالة من العناية ما يعرفون إن اقتضى الأمر التضحية بكل وقته الثمين.

عند ذلك تحركت أيدي وأفواه المعلم بالتهليل والصفير والتصفيق والدعاء.

ولما وضع أمامه طعام الغذاء أقسم أنه لن يتناول منه لقمة واحدة إلا إذا وضع مثله أمام كل العمال خاصة العاملات، ودخل بعد ذلك إلى خيمته ليتناول وحده ما جادت به جيوب العمال والعاملات.

والحق أنه لم يفعل ما فعل إلا بعد أن رأى موائد فارغة مثل مائدته الملأى بكل ما لذ وطاب توضع أمام جماعات العمال والعاملات في انتظار ما سيجود به من فضلات، خاصة عظام الغنم والدجاج والحمام. وحين أصابه داء الشبع الخبيث أحس بالرغبة في النوم من الدوار. حمل نفسه وبطنه ووقف يعتذر عن عدم تمكنه من إلقاء خطبة الوداع لأن الوقت صار مساء ولأن مهاما مستعجلة تنتظره في عاصمة جزيرة العين.

قال إنه سيعود قريبا جدا ليدشن بئرا جديدة للماء، وأوصى سائر العمال والعاملات بالطاعة والإخلاص في العمل لأن في ذلك طاعة وإخلاصا لله.

وبعد ربع ساعة من تقديم الاعتذار تحرك الموكب الرسمي فتحركت ألسنة زند هاريوح الكثيرة تتبعه بالزغاريد والغناء، وأعقبتها زغاريد باهتة من ألسنة أخرى مريضة.

نسي أهل المزرعة الحفل بسرعة لأنهم تعودوا على نسيان مثل هذه الحفلات بسرعة من لا ذاكرة له.

لكن ذلك السؤال الغريب ظل معلقا في الرؤوس:

لماذا جاء هذه المرة السيد زندهاريوح وقضى يوما كاملا مع العمال ؟

غير أن المساء جاء بسرعة فعرض التلفزيون فيلما عن الزيارة دام عرضه ثلاث ساعات. أما الإذاعة فقد خصصت كل حصة الزوال للتعليق عن أبعاد ونتائج الزيادة الزند هاريوحية. وغطى نبأ الزيارة الصفحات الأولى من الصحف الوطنية، ونفس الاهتمام لوحظ في برامج محطات الإذاعة والتلفزيون الجهوية.

قال الراوي: تلك الليلة كتب زند هاريوح في مذكرته الحمراء:

كل شيء على خير ما يرام في قبيلة أفرام. القبائل الأخرى التي بجوارها على خير ما يرام: قبيلة ميمان، قبيلة آهة، قبيلة كيسار، قبيلة فدار، الملعب جاهز ويمكن أن نبدأ !

« هل يملك الجرو القدرة على أن يصبح غزالا ؟ من يستطيع أن يحول قدر النهر المرسوم في جريه نحو البحار ؟ متى يدخل الاله إلـــى هذه الغابة الحمراء ؟ إلى «متى تظل أما تلد » للناب والمخلاب وغرفة الغاز ؟

إذا كنت ذئبا بين الذئاب ولم تصر بسرعة أسدا أكلتك الذئاب»

–زندهاريوح– من كتاب طوق الهلال مما لم يعد منه فكاك.

قال الراوي: ظن بعض الناس أن زندهاريوح من صنف ذلك العاشق المعتوه الذي قال لصاحبته ذات مرة:

حبيبتي ليتك حافلة وأنا طريق ! حبيبتي أنت القطـــار وأنـــا قضـــبان الحديد، منذ عرفتك بدأ هلاكي وهلاكك !

إن مما لا شك فيه، على الأقل حسب الوثائق التي لدينا الآن، إن السيد زندهاريوح قد عرف أثناء الفترة التي أصبح خلالها رجلا قويا أول حب حقيق بعد حبه القديم لظهادر.

وما عدا بعض الممثلات الأجنبيات وبعض الشيخات وبعض مراهقات الثانويات وبعض زوجات أرباب العمل الأجانب فإنه لم يعرف إلا حبا واحـــدا كبيرا وهو حب كلوبترا عارضة الأزياء المغولية.

لكن هذه السيدة وإن لعبت دورا كبيرا في تحديد ما تبقى من مســتقبل السيد زندهاريوح فإنها مع ذلك لم تحاول استغلال خضوعه المطلق لهـــا، لـــم تدفع محاولة الاستغلال إلى أبعد من إدخاله في بعض الأوســـاط التـــي كـــان

غريبا عنها وتقديمه إلى بعض الرجال من كبار الأطر في الجيش والشرطة بالخارج.

أما الباقي فقد كان كله من كتابته وإنتاجه وإخراجه. وإذا شئنا الدقة قلنا:

كل دور كلوبترا ومحيطها يتلخص في إعطاء الإحساس الأول، الفكرة الأولى. أما الباقي فمن صنع محلي خالص. والغريب حقا في هذه القضية هو أن الرجل كان يرى في علاقته مع كلوبترا أمارة نحس، ولكي يتحدى هذا النحس كان يجب أن تناديه بأنطنيو. غير أن الاعتقاد بأنه أنطنيو الحقيقي ما لبث أن ترسخ في نفسه ولم يعد يطيق أن يناديه أحد بغير هذا الاسم المحبب إلى قلبه.

ولعل هذا ما يبرر قول الناس بأنه من نوع ذلك العاشق المعتوه الذي تحدثنا عنه.

إن زندهاريوح لم يكن عاشقا معتوها، كان الرجل يعرف أن كل حب حقيقي قاتل، إن لم يقض على الإنسان كله، قضى على شيء معين أو أشياء معينة منه، ولكن في المقابل يخلق فيه شيئا جديدا، يوقظ فيه نائما أو يجعل منه إنسانا آخر.

وعلى هذا الأساس انخرط في حبه لكلوبترا، من باب «لكل شيء ثمن».

وفي الوقت الذي شك فيه بعض الناس في هوية كلوبترا كان الرجل قد خرج من مرحلة الشك إلى اليقين. غير أن الوثائق التي بين أيدينا غير كافية لتأكيد اليقين أو ذلك الشك.

لذلك يجب أن نبحث عن الأسباب الحقيقية في الداخل في انتظار أن تكشف الأيام عن الأسباب الخارجية.

الواقع أن خبرة زندهاريوح في النقابات والأحزاب والحياة السياسية للدولة علمته الكثير من الأشياء، جعلته يتوفر على حدس لا يخطئ في التنبؤ بأحوال الطقس السياسية، وقوت عنده ملكة الإقناع بحيث لم يجد صعوبة في إقناع ضابط جيش متقاعد وأربعة من رجال الشرطة الأذكياء بأن الحالة في الجزيرة جد خطرة وأن الحكومة لم تعد سوى حكومة صورية وأن الأحزاب أو الدولة الأجنبية لن تتردد في خلعها وإقامة سلطة أخرى مكانها.

وقد كانت هذه الفكرة قديمة في ذهن الرجل ظلت تختمر حتى آن أوان طبخها.لقد فكر في هذه المسألة لأول مرة حين رأى نفوذ الأحزاب يتزايد وأيقن أن المناورات والدسائس الكثيرة التي ساهم فيها إلى جانب أعضاء الحكومة لم تقض على الأحزاب كما كان منتظرا وأنها ضاعفت من قوتها الذاتية واكسبتها شعبية لا تطاق. ولقد استغرب كيف تكون السجون مملوءة كلها وأن تظهر مع ذلك حركات سياسية جديدة أكثر تطرفا وإيمانا بقضيتها وأن يتزايد أعضاء الحركات الموجودة منذ وجود الحكومة.

تبين له من هذا المد الخطير أن هناك دولا أجنبية تحسد الحكومة وتغار منها كما تبين له أن كل الأجهزة السلكية واللاسلكية، المادية والمعنوية، المصنوعة في الداخل والمستوردة، أصبحت غير ذات جدوى، عاجزة عن إيقاف هذا المد الذي أصبح يهدد الجزيرة والحكومة.

لكن هذا كله لم يكن ليثير الخوف في نفس الرجل ويشعره بالخطر فيما يخص وجوده ومستقبله الشخصي لو لم يكن مصحوبا بشيء آخر لم يفكر في إمكانه قط.

ذلك أن الحكومة بدأت تغازل بعض الأحزاب وشرعت في تلبية المطالب التي لم تكن تستطيع مجرد الاستماع إلى عرضها فيما سبق.

هذا ما أثار خوفه لأن تلبية بعض المطالب قد تؤدي إلى تلبية كل المطالب وفي نهاية المطاف إلى خلع الحكومة، وطرده منها، وتجريده من أملاكه.

لقد أقنعوه بأن تلبية تلك المطالب الصغيرة جدا هي مجرد هبة تمنحها الحكومة راضية وبدون أدنى ضغط ويمكن أن تسحبها عندما تشاء. غير أنه كان يعرف أن الحكومة لا تمنح شيئا من باب الصدقة. ورأى الأحزاب تنشر على الصفحات الأولى من جرائدها خبر انتزاع تلك المكتسبات معلنة بدون تحفظ أن النضال وحده يحقق المكاسب وأن بفضله يمكن تعزيزها وانتزاع أخرى، فما معنى أن تنشر الجرائد كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة ؟

أليس معناه أن الحكومة في طريق التنازل وأنها في حالة لا تحسد عليها ؟

أليس معناه أن الأحزاب والحكومة بصدد تحقيق نوع من الوفاق لن يكون إلا لصالح الأحزاب ؟

وإذا تم هذا من سيكون ضحيته ؟ طبعا زندهاريوح ورفاقه.

هكذا تكون قد تعبت يا رجل عمرا كله بدون فائدة. هل تقبل أن تعود من جديد إلى حياة الناس العاديين ؟ هل يعقل أن ينتظر مثلك إلى أن تصوب إليه الضربة من الخلف ؟ وهل هي ضربة واحدة ؟ ستكون ضربتين.

واحدة من الأعداء في الأحزاب والثانية من الأصدقاء في الحكومة.

ماذا يفيد المال وحده ؟ ألا يمكن أن يتبعوك إلى هناك ليأخذوك أنت ومالك ؟ سيقتلونك وأنت بلا جيش ولا شرطة. من سيحميك ؟ ليس لك غير نفسك ؟.

كما قتلت خصومك في الخارج يمكن أن يقتلك خصومك في الخارج أيضا.

يبقى أن تضرب الجميع، أن تسبق الجميع. أن تأكلهم قبل أن يفتحوا أفواههم لأكلك في هذه الأرض الغابة، إما أن تقتل أو تقتل. المهم في هذه اللعبة.

الإعداد، الضربة، الاختفاء، الظهور في لباس قديس.

في هذه الأرض الغابة، لا شيء أقوى من الضربة الأولى. الأقوياء وحدهم يعرفون متى وكيف يسددون الضربة الأولى، الضربة القاضية التي لا تخطئ النصر.

جربت الآن كل شيء، كل الجماعات بما فيه الكفاية. عرفت القوانين الحقيقية التي تتحكم في هذه الدنيا البحر.

الدنيا بحر، يا زندهاريوح، السمك الكبير يأكل السمك الصغير. عندما يبدأ في أكله تهرب صغار السمك الأخرى، تبقى كل الأسماك الكبيرة تنظر في حسد يعذبها، فقد تضايقه في البداية، تحاول خطفه من فمه، وهو يقترب من المعدة، وهو يدخل المعدة. لكنه بمجرد وصوله إلى المعدة واستقراره فيها، ينصرف الجميع عن الذي التهمه. يسود السلام من جديد بين أسماك البحر، يسود السلام قويا كالسكون القوي داخل البحر. لا تبقى إلا الأمواج التي تجر نفسها لتتكسر على صخور الشاطئ.

أنت سمك قوي في هذا البحر يا زندهاريوح. كن قويا أكثر مما أنت يتبعك الضعفاء، الأغنياء يتبعهم العاطلون. الأقوياء يتبعهم المنهزمون. يتبعك كل الضعفاء كل المنهزمين، كل العاطلين إذا أصبحت رئيسا بجمهورية العين.

ليس هناك شيء في هذه الأرض التي ملأتها الحيوانات الضامرة المقهورة، في هذه الأرض التي يقودها الدجالون المتملقون، في هذه الأرض التي لا يسمع فيها إلا كلام الشيخات والسماسرة، في هذه الأرض التي أخطأها الأنبياء واستباحت أعراضها الشياطين، في هذه الأرض التي يريد معدموها

أن يصبحوا سادة وأغنياء، هذه الأرض التي يحلم كل صغارها بأن يصبحوا عباقرة وعلماء، هذه الأرض التي تنتج من العنف والصخب أكثر مما تنتج من الملح والنفط والقمح، هذه الأرض البغي ذات الأنياب الذهبية التي تأكل صغارها وتتحطم بالكراهية والحشيش. هذه الأرض التي لا تبدع غير العقوق والجنون، هذه الأرض التي بلا عين ولا روح أو قانون، في مثل هذه الأرض الخراب، نحن في حاجة إلى مثلك يا زندهاريوح العظيم، ليس في مثل هذه الأرض شيء واحد لا تقدر عليه.

إنها أرض متخمة بالهزائم والجروح والدخان.

بضع طلقات من دبابة أو طائرة وها أنت سيد جزيرة العين بأكملها.

عندئذ يمكنك أن تفعل بها ما تريد، أن توقف كل ما يسبب لك الضيق. يمكنك أن تمنع الأطفال من الخروج من الأرحام، أن تدك خصي الرجال، أن تخيط فروج النساء أو تغلقها بالطين، أن تحاكم كل عاطل ومتسول وسجين بتهمة الجوع، أن تحرق المطابع والكتب التي يرفض أصحابها مدحك، أن تعلق زعماء الحركات السياسية بأبواب الجزيرة كي لا يبيعوها للدول الأجنبية، أن تغلق كل المدارس حيث رائحة الإضراب، أن تقول:

أنا زندهاريوح العظيم الذي حدثتكم عنه كتب الأخبار الغابرة، أحيي الموتى وأقتل الأحياء لكي لا يتغلب النهار على الليل ولا الشتاء على الخريف.

عندئذ يمكن أن تسترد ظهادر لتمارس عليها ساديتك،أن تشنق ابنك الصعلوك الذي أقسم أمام هيئة المحكمة أنه سيقتلك مهما طال الزمان وباعدت بينكما القضبان، أن تتكح أمراء النقابة الذين تنكروا لك بدورهم في هذه الفترة الحرجة واتهموك بالعقم والجنون، أن تخنق العانس التي صنعت لممارسة لعبة المص، أن تصفي كل حساباتك القديمة والجديدة.

آه ما أجمل الحقد !

ما أجمل الانتقام الممارس بسادية لا تشبع !

ما أروع أن تصفي الأرض من الخصوم والأعداء !

عندئذ يا سيدي زندهاريوح ستقضي كل أيامك ولياليك بين الشعراء المداحين وزوجات أرباب العمل والأجانب والممثلات وعارضات الأزياء الآتيات من كل أنحاء الدنيا.

سيطوف الغلمان بالشراب في مجلسك ويركع كل الناس في كل بيت ومتجر كتعبير يومي منهم لواجب الخضوع.

عندئذ تصبح سيدي ومولاي زندهاريوح.

عندئذ يمكنك أن تعلن عن ميلاد إمبراطورية جزيرة العين، أن تتوج نفسك إمبراطورا لها مدى الحياة، أن تغير لقبك ليصبح نابليون أو رمسيس أو هارون الرشيد، الدكتور هارون الرشيد، أو ما شئت من الأسماء، ما تريد من النعوت والألقاب.

ما أجمل ذلك اليوم:

قال الراوي:

هكذا كان يفكر زندهاريوح، والله هكذا فكر !

زندهاريوم يتحدث في التلفزيون

جاء في برقية مطولة لوكالة الأنباء المقربة أو التابعة للأسطول التاسع والعشرين ما يلي:

« ربما كان ذلك اليوم أطول الأيام في حياة جزيرة العين الآمنة.

لقد توقفت الإذاعة فجأة عن بث برامجها العادية وتوقف التلفزيون عن تقديم المسلسلات الدولية.

وبعد فترة غير محددة بدأت الموسيقى العسكرية في الإذاعة والتلفزيون»

وبعد نصف ساعة من الموسيقى العسكرية الصاخبة أعلن صوت مذيعة ألمانية باللغة الفارسية:

مستمعينا الكرام، مستمعاتنا الكريمات، يا جماهير جزيرة العين.

الثورة ! إنها الثورة ! الثورة التي ستغير وجه جزيرة العين المناضلة.

كلكم، ستصبحون أغنياء.

لن تعملوا ابتداء من هذا اليوم.

لن تذهبوا إلى العمل.

لا عرق، ولا دموع، ابتداء من هذا اليوم. هذا اليوم هو بداية التاريخ الفعلي لجزيرة العين. سيصل المال إلى بيوتكم، وتنشأ المدارس في الإذاعة والتلفزيون.

إنكم ابتداء من اليوم قوم سعداء، أسعد من على وجه الأرض من الشعوب.

أنتم الشعب المختار الذي أنعم الله عليه، فلا هو يعمل، ولا هو يدرس، ولا هو يقنط.

أجل، إن جماعة من خير أبنائكم ساءها أن تعملوا وأن تدرسوا وأن تتعبوا وتحزنوا فبادرت إلى إنقاذكم من طغاة فرضوا عليكم كل أنواع العذاب الجهنمية.

أجل...

غير أن الصوت توقف فعادت الموسيقى العسكرية.

وبعد ربع ساعة فقط جاء صوت امرأة أخرى يشبه صوت الرجال.

بلاغ من مجلس الثورة. بلاغ رقم واحد.

جماهير جزيرة العين.

إننا نسيطر على الإذاعة والتلفزيون، أي على كل المراكز الحساسة في الجمهورية. اطمئنوا إذن.

بعد دقائق معدودة سيلقي رئيس مجلس الثورة خطبة جامعة مانعة كما تعلمون.

لذلك نأمر الجميع بالانضباط. الزموا الهدوء والصمت في بيوتكم وكونوا يقظين.

والسلام.

عادت الموسيقى العسكرية تكسر الأذان من جديد.

لكن تبين أن التقني، ربما من شدة الخوف، قد أخطأ في اختيار الأسطوانة إذ بدل أن يضع موسيقى عسكرية وضع أسطوانة جاز.

اعتذرت المذيعة الألمانية بلغتها الوطنية وعادت الموسيقى التي قالت عنها المذيعة بأن عنوانها أطول الأيام.

وفهم من الصراخ الذي صاحب الأسطوانة بأنها قد دخلت مع التقني في معركة بالسلاح الأبيض.

ولما توقف الصراخ أعلنت إذاعة أجنبية بأن معارك طاحنة تدور بكل الأسلحة حول مبنى الإذاعة والتلفزيون، لكن الانقلاب لحد الساعة لم يفشل.

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى عاد الصوت الرجولي:

مستمعينا الأفاضل !

الأخ الرئيس يخاطبكم.

ظهر السيد زندهاريوح في لباس عسكري برتبة جنرال.

التفت صوب اليمين وصوب اليسار. أرسل تكشيرة.

قال:

إخواني، أخواتي، سكان وساكنات جزيرة العين.

باسم مجلس الثورة أحيطك تحية النضال والمحبة والثقة العمياء. أما بعد ...

لماذا قمنا بهذه الثورة ؟ طبعا أنتم أدرى الناس بحالة الجزيرة. بحالكم. تعرفون أنها لم تعد جزيرة لسكان الجزيرة، بل جزيرة للدول الأجنبية والعملاء.

هذا وحده سبب كاف لتبرير قيام ثورة وطنية شعبية أخوية فطرية عالمية.

غير أن هناك أسبابا أخرى لا يعرفها الكثير منكم.

لقد أصبحت الحكومة الديكاتورية الساقطة تجلب إلى الحفلات راقصات من الخارج بدل راقصاتنا اللائي ليس في الدنيا كلها راقصة واحدة تحسن هز البطن وما جاوره مثلهن.

لذلك اختل ميزان الأداءات وأصبح العجز في الخزينة شيئا خياليا.

فلتعش إذن ثورة تعيد إلى الشيخات مجدهن وتعيد للشعب مجده بإعادة المجد إلى شيخاته.

قولوا لي بصراحة:

ماذا كنتم ستصبحون بدون شيخاتكم ؟ شعبا بدون أفراح طبعا، شعبا تفرض عليه رقصات من الخارج، بدل هز البطن وما جاوره يمارسن هز الأرجل والأيدي. أين الأصالة ؟ وهل هذا فن ؟ إن الأرجل والأيدي لا يمكن أن تحرك عينا واحدة.

لا يحرك إلا البطن عندما يهتز هكذا. حركوا بطونكم وانظروا إلى بعضكم بعضا كما تنظرون إلي الآن وأنا أحرك بطني.

موسيقى أيها التقني. موسيقى غجرية ليتحرك البطن أحسن.

أليس ساحرا هز البطن أيها الناس ؟

الآن: استراحة.

لعلكم تتساءلون ما هو برنامج مجلس الثورة ؟ طبعا لمجلس الثورة برنامج. لمجلس الثورة برنامج أيها الأحباب، برنامج خطير جدا سيغير وجه الجزيرة وسيغير معه نمط الحياة الكئيبة التي تعيشونها. وهاكم البرنامج بالتفصيل.

أولا: سيرقص كل واحد منكم ساعتين في الصباح ومثلهما في الزوال وستؤدى عن هذه الساعات نفس الأجور التي تؤدى للشيخات.

ثانيا: ستقام في التلفزيون وفي الشوارع حفلات ترقص فيها الشيخات وتدوم مدتها أربع ساعات متوالية ابتداء من سقوط الظلام.

هل رأيتم ؟

بهذه الطريقة ستصبحون شعبا راقصا. لكن الرقص وحده لا يكفي ليجعل منكم شعبا فرحا. لابد من الضحك.

إن الذي لا يرقص ضاحكا لا يكون فرحا.

كي تستحقوا لقب الشعب الفرح لا بد من الضحك. فماذا أعددنا لكم في هذا المجال المهم ؟

أولا:

سيضحك كل واحد منكم ساعتين في اليوم، ساعة صباحا وساعة زوالا، بعد ساعة الرقص مباشرة.

ثانيا:

سنخصص كل حصص الإذاعة، صباحا، وزوالا، ومساء، للضحك. وسنستدعي خبراء أجانب في الضحك لتكوين أطر فنية متخصصة في الضحك.

بالمناسبة: الإذاعة لم تعد اسمها دار الإذاعة الشعبية. إنها منذ الآن دار اضحك تضحك الدنيا معك.

هكذا ستضحكون، ستضحكون حتى تموتوا من الضحك، وسترقصون حتى تموتوا من الرقص. وستصبحون بذلك شعبا مرحا يتميز عن جميع شعوب الدنيا بأصالته التي تكمن في مرحه.

ستكتب كل وكالات الأسفار العالمية على أبوابها:

زوروا جزيرة العين، الجزيرة الضاحكة طول السنة.لن نكون في حاجة إلى استخراج خيراتنا الوطنية، سنكلف الأجانب بذلك، ونعيش نحن من جيوب السواح الذين سيتوافدون على بلادنا بالملايين.

أجل من الضروري أن نغير اسم الجزيرة.

ستدعون للاقتراع على هذا الإسم الذي يمثل أصالتنا: جزيرة الفرح.

وهكذا ترى أيها الشعب العيني الوفي أن ثورتك أصيلة مثل أصالة عرقك.

هكذا ترى أن هذه النخبة المخلصة من أبنائك لم تقم بما قامت بـه إلا لخدمتك، لتجعل منك الشعب النموذجي، لذلك فإن مجلس الثورة سيضرب بيـد من حديد على كل من يحاول المس بهذه المبادئ المقدسة التي قامـت عليها ومن أجلها ثورتك، على كل من يريد أو توحي له نفسه الشريرة بأن يعكر جو الفرح الذي ستعيش فيه.

إن شعارنا جميعا منذ الآن هو: ممنوع كـل شـيء غيـر الـرقص والضحك.

والآن يمكنكم منذ الآن أن تصبحوا هذا الشعب الضاحك الراقص.

لا تهتموا بشيء غير الضحك والرقص، إننا نسيطر علـى الإذاعـة والتلفزيون، أي على كل المراكز الحساسة في الجزيرة، ولـيس هنـاك مـا يدعوكم إلى القلق أو الخوف.

عاشت الثورة العينية.

عاش مجلس الثورة.

عاش الشعب الضاحك الراقص.

زند هاريوح يزور عالم الموت

قال الشاعر:

« اتهم الظلم والأضواء

والصحف الغبية الأجيرة

والكتب التي تولد في المخادع الغريبة.

والأعين الشاخصة الرمداء.

إذا ترقب النملة في السماء

لكنها لا تنظر الأرض التي تحبل بالجريمة. » - محمد عفيفي مطر.

وقالت كلوبترا للصحفيين الأجانب:

أمام الخطر، في الشدة، في مواجهة الموت يكتشف الإنسان نفسه. كذلك يصغر في النفس الرجل القوي الذي يخشى الموت حين يواجهه ويبكي كطفل.

لقد بدا زند هاريوح ذلك اليوم صغيرا وحقيرا كذبابة، كلهم صغار حقيرون كالذبابة ساعة الشدة مهما اختلفت أصناف ردود فعلهم تجاه الأحداث التي تواجههم، تفاجئهم. قتل العشرات، المئات دون أن يخفق قلبه بدقة رحمة واحدة، لم يعرف الخوف أو التردد أو الشعور بالذنب حتى خلته آلة، لكنه لما واجه الموت كالصاعقة أخذ يبكي كطفل ويقفز في مكانه كالقرد المذعور كلما سمع أدنى حركة، ولو كانت حركة قطة أو ورقة تسقط.

هل كان مجرد أسد من تبن كتلك الأسود التي يلهو بها الصغار ؟

كثيرة هي الأسود التي يلهو بها الآخرون وتلعب هي أيضا في نفس الوقت بنفسها.

هل تحسب لكل شيء حسابه ؟ ذلك ما تظنه.

لقد عرفت كل أصناف هذه الأسود، تظن أنها حسبت كل شيء، لكل شيء حسابه، لكنها تخطئ في أغلب العمليات.

الموت مثلا، دائما تخطئ في العملية المتعلقة بالموت، لا تستطيع أبدا أن تقوم بها على الوجه الصحيح، ولو بطريقة قريبة.

أعرف واحدا ظل يحسب بدقة لهذه المأساة لكنه مات في النهاية وحيدا في غرفة نائية ولم ينتبه إليه الناس إلا بعد الموت بأكثر من شهر، ومع ذلك فإنه لم يجد أحدا يدفنه، أحدا يسير في جنازته.

الموت هو النقيضة التي لم تحل بعد من طرف هؤلاء.

قلت له بأنه ميت منذ زمان، بأن الموت مسألة غامضة كالحياة نفسها. لا نختار في أغلب الأحيان لا هذه ولا ذاك. طبعا كنت أطمئنه، كنت أعرف أنه مازال بإمكانه أن يستمر في الحياة أن يغير القناع لأنه لم يضع كل شيء بعد.

قلت له:

يا هذا، أنسيت بيت الشعر الذي كتبت عن معانيه الوجودية كتابا كاملا ؟ ألست أنت القائل: إن الموت شيء صدفي تماما حتى بالنسبة للذين يحسبون له ألف حساب.وإن من الأحسن للمرء أن يتهيأ للحياة في كل لحظة بدل أن يموت من الاحتياط في كل لحظة، الأحسن للإنسان أن ينساه، ألا يعطيه أية قيمة لأنه الشيء الوحيد في هذا الوجود، الشيء الذي لا قيمة له، وأنه لا يتساوى الميت بسكتة قلبية مع الميت من أجل امرأة أو شيء آخر له قيمة في حياة الناس، ولكن الموت مع ذلك يظل كظاهرة بلا معنى في حد ذاتها، شيئا يمكن أن نلقاه في أي مكان وفي أية لحظة ؟

أجابني زندهاريوح بعد صمت طويل.

لقد تحدثت عن موت الآخرين وليس عن موتي. كنت أول من فكر في موت الآخرين وآخر من فكر موته.

الآن أدرك أن لا أحد باستطاعته أن يتحدث عما نسميه موت الآخرين، إن للحياة كما للموت قيمة ذاتية رغم انا نستمد هذه القيمة من الآخرين ومن الأشياء المحيطة بنا باستمرار. ثم لماذا تحاسبينني هكذا بسادية؟

إنني رجل مهدد بالإعدام، بالموت شنقا أو بالرصاص أمام جموع الناس، وليس كل الناس كذلك كي يصدق علي ما يصدق عليهم، دعيني من أولئك.

أعرف ستسألينني عن أولئك الذين حكمت عليهم أو زكيت الحكم عليم بالإعدام.

هؤلاء صنف آخر من البشر، وأنا على يقين بأنهم لم يشعروا حتى بألم الرصاص حين يسقر في القلب، بضغط المشنقة حين يقترب من العروق في العنق.

هؤلاء مجانين، مجانين بما يسمونه قضاياهم. هل يشعر، أقصد يكترث، المجنون للآلام التي يسلطها المجتمع عليه؟

أما أنا فبرغم ما فعلت حتى الآن، مرغم بمعنى ما، وها أنا أرغم على الموت أيضا.

عندما أستيقظ سأجدني باردا ووحيدا في لا مكان.

الفرق بيني وبينهم واضح، هم اختاروا الموت وأنا مرغم عليه. أنا مكره على كل شيء، لو كنت عبدا في بلاد الإغريق لقلت وأنا أموت مع سيدي أرسطو:

أنا آلة، لا تحس ولا تفكر !

لو كنت مثلهم لقبلت الموت راضيا كما قبله سقراط، ولو كنت كذلك لمت بدون ألم.

إن الألم هو ما يخيف في الموت.

أعرف أن كل موت يشبه حادثة طريق، حادثة سيارة أو طائرة، الدفعة الأولى من الألم تنفي ما تبقى منه. لكنهم لن يختاروا لي هذا النوع من الموت، سيقتلونني بالألم. هذا ما يخيفني.

وتقولين لي كن مثل ضحاياك، هل يستطيع الجلاد أن يموت كضحاياه؟

لقد اختاروا الحياة من خلال الموت فما عاد شيء يخيفهم، أرادوا أن يكونوا أبطالا، أي أن يعيشوا من أجل الآخرين ويموتوا من أجلهم ليظلوا في عقولهم وقلوبهم، ذلك عزاءهم وقوتهم.

أما أنا فقد اخترت، أو أرغمت، لا أدري، أن أهرب من قلوب عقول الآخرين، أن أكون لنفسي وحدها، أي أن تنتهي حياتي بمجرد موتي. لذلك أصاب بالذعر حين أفكر بأني سأموت.

سألته:

إلى هذا الحد تحب نفسك ؟ تمالك يا هذا، تذكر على الأقل الشهادة أم تراك لا تحب حتى ربك ؟

قال:

وهل أحبني حتى أحبه، هل يحب أمثالي حتى يحبوه ؟

قلت:

أنا أيضا لا مكان لي في قلبك، ولا معنى لأن أظل معك ... وداعا !

حاول أن يتبعني، لكنه اصطدم بكرسي فسقط وسمعته يئن.

في السيارة التي كانت تقلنا إلى الحدود سمعنا لأول مرة بيان مجلس الثورة الجديد.

تحدث الكولنيل طويلا عن فساد الحكومة السابقة وفساد جماعة زندهاريوح قبل أن يعلن برنامج مجلس الثورة الجديد،

قال:

شعوب الجزيرة الموجودين في كل مكان.

لقد ضحكتم ورقصتم منذ أسبوعين. وها قد حان الأوان لتبكوا قليلا.

لقد ابتدأ اليوم عهد التغيرات الجذرية في الطقس وفي الأرحام والعقول والقلوب.

الزموا بيوتكم ليل نهار وابكوا، ابكوا حتى تجف جلودكم من الماء. إن جريمتكم لا تمحوها غير الدموع.

وأنتم بغير بكاء يستحيل أن تطهروا نفوسكم مما علق بها من آثام خلال أسبوعي الضحك والرقص والمجون.

عودوا إلى أنفسكم فأنتم لا تعرفونها، عودوا إلى أنفسكم لتتمكنوا من الدخول إليها نهائيا.

نحن هنا لنساعدكم على ذلك. إننا سنوزع على كل بيت يوميا قنطارا من البصل المطعم بمادة كميائية تسهل البكاء وسنوزع عليكم مجانا كمامات تضعونها على أفواهكم كي لا تزعجوا بعضكم بعضا وتفسدوا بالصراخ طقوس البكاء وكي يجتمع الضغط الداخلي ولا يضيع عن طريق الأفواه فتزداد عندكم طاقة البكاء.

برنامج مجلس الثورة جد بسيط:

الجلوس في البيت في صمت لممارسة طقس البكاء ليل نهار إلى أن تخبرنا الآلهة بأنكم قد تخلصتم من كل الآثام.

لن يزعجكم أي شيء، نحن نسيطر على كل الأجهزة الحساسة في الدولة، الإذاعة والتلفزيون، وقد تمكنا من إلقاء القبض على كل أعضاء الحكومة السابقين وعلى كافة عناصر مجلس الثورة المرتشين الذين سبقونا إلى إعلان ثورة لا تمت إلى طموحاتكم وأخلاقكم بأية صلة من القرابة.

وليكن غي علم الجميع أن حفل إعدام المذكورين سيتم تنظيمه بعد خمسة أيام بالساحة العمومية في وسط المدينة وعلى جميع السكان بما فيهم الغائبون والمسافرون أن يحضروا الحفل صامتين داخل كماماتهم دامعي العينين تعبيرا عن ولائهم للمجلس الجديد.

حذار، حذار أيها المغامرون !

إذا كانت الحكومة السابقة قد قتلت منكم المئات وقتل المجلس الثوري القديم قرابة ألفين فنحن على عكس كل من سبقنا مستعدون لقتل سبعة ملايين، وهو كما تعلمون عدد سكان الجزيرة بعد عامين.

باختصار كبير:

إن هذا المجلس القديم الجديد ما قام بما قام بـه إلا لوقف الحرب الأهلية الفوضوية التي تجتاح البلاد منذ أسبوعين، ونحن هنا كلنا خبراء ممتازون في محاربة مثل هذه الجماعات الخارجة عن العرف والقانون.

إننا نملك القانون، نحن القانون، وباسم القانون يمكن أن نعدم سبعة ملايين.

فيا سكان هذه الجزيرة المخلصة هدوءا هدوءا، وبكاء بكاء.

ثم صمتا صمتا.

هدوءا بكاءا صمتا، هدوءا بكاءا صمتا.

وظل يرددها حتى أغمي عليه حسب ما فهمنا وما وصلنا من اللغط الذي صاحب نهاية خطابه.

آنذاك كنا قد وصلنا إلى المدينة الأولى خارج جزيرة العين داخل قارب صيد.

لم نصادف أية مشكلة، ولم نلحظ أي جندي أو أي شرطي أو جمركي على الحدود الوطنية.

لذلك بكيت أسفا على زندهاريوح الذي لم يجد الشجاعة لمغادرة جزيرة هذه حدودها.

داخل تلك المدينة سألني الناس عن أخبار الجزيرة قلت: إنها هادئة كما بركة كبيرة آسنة. أما زندهاريوح فإنه في مكان

آمن ينتظر أن يأتوا ليأخذوه إلى السجن، ومن السجن إلى الساحة العمومية حيث سيتم إعدامه.

علق أحد الأجانب:

أو ليصبح رئيسا جديدا لمجلس ثورة جديد يسيطر على المراكز الحساسة في الدولة.

ضحك الحاضرون.

وبكيت أنا !

انطباعات عينية وتعليقات

... « زند هاريوح ؟ ... مبيد حشرات ؟ ... لا نوع من السماد ؟ ... لا ؟ نوع من الجرارات ؟ ...لا ... ؟ كلب صيد ... ؟ شخص ؟ هـا ! هـا ! ها ! لا أعرفه لا يوجد عندنا إنسان بهذا الإسم » . ج.د. -فلاح صغير.

- « ما فائدة أن تعرف من هو ؟ لقد كنا نعرف ما حدث، قبل أن يحدث. لذلك نادينا منذ البداية بحمل السلاح حتى يتم إيقاف تلك المأساة. المهزلة وقبل أن يقضي على الأخضر واليابس. لم يكن زند هاريوح رجلا واحدا، لا يمكن ولن يكون زند هاريوح رجلا واحدا، إنه اسم مستعار » . ر. م. مناضل في تنظيم سياسي ممنوع.

-« زند هاريوح هو جحا، زند هاريوح كجحا يوجد في كل مكان، ولكل بلد جحا، ربما كان زند هاريوح غير موجود بالمرة. ربما كان زند هاريوح هو أنا وأنت أو نحن جميعا، ربما كان كائنا غيبيا. لذلك يجب أن يخاف منه كل الناس، أن يحاصروه، كل إنسان، ولو داخل نفسه حيث يوجد كمشروع من الممكن أن يتحقق في كل لحظة. إن زند هاريوح كاللاشعور الفرويدي. » ف. س. فيلسوف محترف.

-« زند هاريوح ؟ لم أر صورته قط. لكنني عندما بدأت أسمع قصته خيل إلي أني أراه في كل مسؤول ابتداء من الموظف البسيط إلى أكبر وزير. كلما رأيت وزيرا يخطب في الناس على الشاشة الصغيرة قلت للأولاد: انظروا هذا هو زند هاريوح. هذا الرجل سيقيم الدنيا ويقعدها.

يضحك الأولاد بطبيعة الحال. فأنا لا أفهم شيئا في السياسة، خاصة سياسة البلاد. » -. ز. من صغار التجار.

-« ناقص واحد. سيقضون في النهاية على بعضهم بعضا. وهذا وحده الإيجابي. لا أهمية للإسم » . م.ص. طالبة غير ملتزمة سياسا.

-« قصة زند هاريوح يا سيدي كقصة الأطباق الطائرة، لم يرها أحد بطريقة علمية ولكن الجميع يزعم أنه رآها أو رأى شخصا ينزل منها وما إلى ذلك من الخيالات. إن الأسطورة تصبح بسرعة حقيقية، والتاريخ مملوء بمثل هذه الأساطير » . ز.ج. مؤرخ متخصص في التاريخ القديم.

-« فيلم من نوع فرنكشتاين ودراكولا. إن السينما تصنع العجائب لتخيف الناس بعد أن فقد الناس حاسة الخوف من كل شيء » ب.ق-ممرضة.

-« قصة هذا الرجل دليل آخر على وحشية النظام ودليل أيضا على وعي الشعب رغم أن القصة لا تحكي ذلك بطريقة مباشرة. وهذا يفضح الطابع التضليلي في كتابات مفكري الغرب ووكالات الأخبار العالمية » صحيفة يسارية.

-« تأكد الآن لجميع المهتمين بما لا يدع مجالا للشك أن الذي أعدم ليس هو زند هاريوح، بل رجل آخر لا نعرف هويته رغم أنه يحمل أوراقا رسمية تشهد أنه زند هاريوح. زند هاريوح الحقيقي إذن مازال يجوب شوارع مدن جزيرة العين في حرية تامة. وقد نسمع له غدا أو بعد غد خطبته في الإذاعة أو التلفزيون وربما قرأنا له بيانا سياسيا من الخارج يندد بحكم الطغاة وما شابه ذلك من النعوت والألقاب » . مراسلة وكالة ن. أ. س.

قال الراوي: لو سمعتم أشياء أخرى كثيرة سمعتها لمزقتم جميع الأوراق. لكني سأعفيكم من ذلك لأني أنا أيضا لم أعد أميز بين الصواب والخطأ، بين التاريخ والأسطورة في هذه القضية.لذلك جمعت أوراقي وعدت إلى بلدتي لأكتب قصة لم يكتب لها أن تتم.

ضلع في حالة الإمكان

1-حفلة الأشياء الزائدة

في الفيلم البرازيلي تتالت الصور التي تحمل أكثر من معنى في تعاقب سريع مع تلك التي لا تحمل أي معنى...

ثم ظهر كلب نحيف جدا بدت ضلوعه كأسنان المشط المهترئة.

كان يلهث:

إنه حي إذن !

لذلك لم نستغرب حين نظر نحونا بتركيز غير برئ وجلس بحركة تشبه ما يجري في الصور المتحركة.

أدخل الكلب بعد هذا رأسه بين كتفيه وظل جالسا يلهث، ثم ظهر رجل تبدو جمجمته عارية من أثر اللحم، وكذلك رجلاه الحافيتان بدتا. مشى الرجل ببطء أمام الكلب وتوقف.

ظل واقفا مديرا ظهره نحونا أكثر من دقيقة، ثم التفت نحو الكلب، أخذ ينظر إليه وكأنه يريد أن يتأكد من أمر ما.

غير أنه مالبث أن تقدم نحوه وجلس إلى جواره، ناحية اليمين:

-أهلا أخي !

وقال الكلب للرجل:

مرحبا شقيقي

فغصت القاعة بالبكاء

سأل الكلب الرجل

-من أين ؟

أجاب الرجل:

-طاردت عظمة طائرة فلم أظفر بها.

وغصت القاعة بالبكاء من جديد. فظل الكلب والرجل ساكنين صامتين.

عندما عاد الهدوء إلى القاعة مد الكلب رجله إلى صدره واقتلع منها عظمة قدمها للرجل.

سأل الرجل وهو يمسك بالعظمة:

-وأنت هل أكلت ؟

لم يجب الكلب فمد الرجل يده إلى رجله اليمنى واقتلع منها عظمة قدمها للكلب.

غصت القاعة من جديد بالبكاء.

ثم قال الكلب للرجل:

-ألم أقل لك يجب أن نهاجر إلى أي بلد يكثر فيه الضباب ؟

أجاب الرجل:

من الممكن أن تهاجر أنت، أما أنا فلا أستطيع.

سأل الكلب:

-ولماذا لا تستطيع ؟

أجاب الرجل:

-لأن اسمك بوبي. ولأن اسمي باولو !

وغصت القاعة مرة أخرى بالبكاء.

فلما عاد إليها الهدوء سأل الكلب نفسه:

-ماذا حدث لعقول الناس ؟

ثم سأل الرجل بصوت أعلى:

ماذا نفعل إذن ؟

قال الرجل:

-اسأل القاعة.

التفت الكلب نحونا.

لكن القاعة كانت قد غصت بالضحك هذه المرة !

ولعل المخرج كان ينتظر ذلك إذ ما لبث الكلب والرجل أن صارا كرتين حديديتين تركتا الشاشة وأخذتا تضربان الرؤوس.

« وبما أني قرأت تعليقا عن الفيلم في الجريدة يقول: في النهاية تتفجر الكرتان ويصاب الجمهور بالذعر فيلتفت إلى ضلوعه، فيجدها كأسنان المشط المهترئة، والأمر مجرد خدعة سينمائية. لكن الجمهور دائما يأخذها مأخذ جدا، فتكون بداية شيء ما في كل القاعات».

بما أني أعرف هذا خرجت قبل الجميع.

أشعلت سيجارة وسرت نحو البيت حزينا تملأني الرغبة في التقاء الكلب أو رجل كالكلب أو كالرجل الذي ظهر في الفيلم.

أظن أني شعرت في بداية الطريق بالحاجة إلى البكاء.

لكني عندما اقتربت من الباب خيل إلي أن كل الأشياء وكل الكائنات مثل المخلوقين الذين رأيتهما في الشريط البرازيلي وأنه ما علي إلا أن أتقدم إلى أي واحد أو إلى أي شيء فأقول له:

-أهلا أخي !

فيرد:

-مرحبا شقيقي !

لكني استبعدت هذا الخيال الرهيب وقررت أن أفكر في خيالات جميلة تجلب النوم إلى عيني المتعبتين.

لذلك وأنا أغادر المصعد. تصورت بوبي يأكل اللحم مرتين في اليوم، ويشرب الحليب ومشتاقاته عندما يشاء ويكتب الشعر الحقيقي الصادق، ويذهب إلى عيادة الطبيب مرة في الشهر ليتفقد حالة عضلاته الداخلية والخارجية، وينام في حضن سيدة جميلة وهادئة مطمئنة في بيت جميل تملأه كل الضروريات.

عندئذ، كنت قد فتحت باب الشقة ودخلت. لم أعرف لماذا تجردت فجأة من ثيابي وأخذت أمشي على أربع وأصيح:

-هب ! هب ! هب !

بقيت كذلك إلا أن تعبت فسمعت صوتا جميلا يناديني من داخل الفراش:

-بوبي، بوبي تعال، لقد حان وقت نومك !

قفزت بسرعة داخل الفراش. لكن برودته ردتني إلي، فعرفت أن النوم هذه الليلة أيضا سيجفوني، وما هي إلا هنيهة حتى غزت الهموم رأسي.

ماذا آكل غدا ؟

وكيف السبيل إلى امرأة لا تطلب ما لا ؟

وماذا أقول في المحكمة لكي لا أطرد من هذا البيت ؟

وفي أي بلد يوجد الطبيب الذي يمكن أن يعالجني بغض النظر عما في جيبي ؟

ومتى أبدا القصيدة التي أحلم بكتابتها منذ اكتشفت جلال الكلمات ؟ ...

مسائل كثيرة تعودت أن أخدعها كل ليلة بالبكاء أو الضحك الهستيري أو المشي العبثي في الطرقات أو تناول أي شيء يذهب اليقظة أو يقتل الوعي.

كيف أراوغها الليلة ؟

لماذا لا أخترع شيئا جديدا، معملا مثلا، تمثال امرأة جميلة أسميها: الغائية. لوحة طفل أسميه المحتضر، قردا أسميه أعلى المخلوقات العائد إلى الأصل ؟

الليلة سأكتشف علم نحو جديد، إنها أحسن طريقة لتجاوز ذلك النحو الذي لم أتقنه يوما. ولاغتصاب النظرة المختلفة التي يفرضها على العقول والعيون.

ولكن، كيف أبدأ ؟

أكل الخبز محمدا.

هذه البداية.

نجح الامتحان في التلميذ المجتهد.

قتل الطبيب المريض بالدواء.

الأمر في غاية السهولة إذن.

يكفي أن نعكس قواعد النحو التقليدي.

بهذه الطريقة حصلت على ثلاث وثلاثين قاعدة جديدة.

لكن دماغي ما زال يغلي والنوم لا يعير توسلاتي أي اهتمام.

ماذا أفعل ؟

إن السجائر تدمنني، مع ذلك مطالب بأن أصمد، أن أحافظ على برودة أعصابي و إلا ازداد التوتر وازداد الأرق معه، ماذا أفعل ؟

أرد السبب إلى الأرض فأقول:

عذبتني يا سيئة الحظ فكيف أخلعك وأستريح ؟

أرد السبب إلى ذلك الحاضر الغائب والمعروف المجهول فأقول:

متى من اغترابي داخلك أعود ؟

أظل هكذا ساكنا أبحث عن الأسباب، وكلما وجدت علة قلت:

هذه مجرد وجه لشيء واحد ذي ألف وجه، وقد تكون مجرد قناع يخفي علة العلل.

حين أصل إلى هذا الحد أعرف أني على باب العدم المخيف وأنه علي أن أجرؤ يوما على تجاوز هذا العدم الذي أنسجه كما أنسج الأرق أو ينسجني هذا الأرق.

ولكن متى أبدأ ؟

لقد ضاق بي السرير كما تضيق بي بقية الأشياء، أو أضيق بها. لا أدري من يضيق حقا بالآخر.

عبثا حاولت أن أمد جسرا لطيفا بيني وبين النوم.

قلت:

ليكن المشي سكينا يقطع هذا الهم المبهم الذي يلازمني كضيق التنفس بلا سبب فزيولوجي ظاهر، ونزلت إلى الشارع.

لم أجد القوة الكافية للمشي، حكيت لنفسي نكتة وأنا هابط درج العمارة، لم أضحك، لكني نسيت أني غير قادر على المشي، فمشيت.

كان الشارع فارغا إلا من بعض المومسات، وامرأة تبحث عن نفسها التي ضاعت منها فجأة وبالصدفة كما تقول، وبضعة رجال خارجين لتوهم من آخر حانة مفتوحة في المدينة.

أحسست، وأنا أرفع رأسي محاولا أن أتنفس بعمق، إن ذهني يتفتح تدريجيا وأني بعد قليل سأصبح قادرا على التفكير بدل الهذيان.

بدأت فعلا أفكر في حل يعيدني إلى عملي، بل رأيت رئيسي يستقبلني معتذرا باسم العينين. ثم يقول لي إنه لا يستطيع أن يستغني عني وأن المؤسسة في غيابي تصبح مزبلة.

حقيقة أنهم ضبطوا السارق الحقيقي، وأن مكافأة مهمة تنتظرني، لذلك دفعت رأسي نحو ظهري لأتنفس أكثر.

لكن الرجل الغريب اعترض طريقي فجأة. كان واقفا كرافعة طويلة اليدين.

انتبهت إلى ناحية العينين والأنف.

أين عيناه وأنفه ؟

قلت:

هذا كائن فضائي، ما في ذلك شك، إن واجبي الوطني...

رغم أن وطني يرفض لي أبسط الأشياء، يفرض علي أن أخبر السلطات.

ثم استدركت:

بل أخبر الناس بما يحدث، لقد تم غزو المدينة وهم غافلون (اسمعوا أيها الناس: إن هناك مؤامرة ضدكم وأنتم غير مهتمين. ارموا بالأوراق التي تمسكون إلى النار وافتحوا عيونكم، ربما يكون أولادكم قد سمموا، وربما تكون نساؤكم، وربما ..)

كان قد فتح يديه الطويلتين المكلستين وقربهما بعنف ووقاحة من عيني.

في اليمنى عيناه وفي اليسرى أنفه.

قلت:

إذن هو واحد منا فلا خوف علي.

كان يضحك.

لاحظت خلوفمه من الأسنان، ازددت تأكدا بأنه واحد منا.

سألته:

وأين أسنانك أيها الغريب ؟

ظل يضحك.

ثم حرك يده اليسرى بطريقة بطيئة وأخرج من جيبه كومة أسنان سوداء متآكلة كقطع فحم حجري.

كان الأنف لا يزال في نفس اليد، وسط كومة الأسنان قال:

هه، ما رأيك في هذا ؟

كنت في الواقع مبهورا رغم أنه لم يكن في الأمر أية مفجأة.

قال:

امسك، العينان أولا، وهذا الأنف. وهاهي الأسنان.

لم أمد يدي، فتابع:

امسك ولا تخف، يجب أن تمسك، هذا عملك.

فأمسكت أشياءه، أما هو ففتح صدره الصغير بأظافره وأخرج الرئتين.

-واخذهما، خذهما ولا تخف، إنهما سبب كل مضايقتي.

حين أمسكت الرئتين لم تكن بهما قطرة دم، أية قطرة لم تكن. لكنه عاد وأدخل يده في صدره من جديد وحاول أن يدفعهما إلى أبعد ما يمكن. أشحت بوجهي.

سمعته يقول:

هذا قلبي فخذه، إنه يعذبني، لا أريد أن يكون لي أنف ولا عينان ولا رئتان ولا قلب، خذ كل هذه الأشياء. إني لم أعد في حاجة إليها، قد تصلح لك أنت الذي تريد أن تنام، قد تصلح لكل من يبحث عن النوم مثلك. إن كل من يرغب في النوم، من بقيت له القدرة على الرغبة في النوم، يمكن أن يستفيد منها، أما أنا ...

ومد يده إلى رأسه ففصله عن جسده.

بضربة عنيفة فتحها.

أخرج منها المخ وقدمه إلي، ثم أعاد الرأس إلى مكانها.

وقال:

باستطاعتك أن تأخذه هو أيضا، لم تعد لي حاجة به ولو لا خوفي من نكت الناس لأعطيتك الرأس كلها لأستريح منها.

من غير أن يترك لي فرصة السؤال عما أفعله بتلك الأشياء وعما إذا كان علي أن أوصلها إلى شخص معين أو جهة أو مكان ودعني وانصرف.

قلت:

كل شيء واضح أو هكذا يجب أن يكون، فلا داعي إذن للسؤال، والرجل ليس مجنونا على كل حال، وليس حالة شاذة أو باحثا عن شهرة سريعة.

لذلك رفعت رأسي أكثر وحاولت أن أتنفس أحسن.

غير أن المومسات كن قد أحطن بي.

قالت إحداهن:

هذا هو الشخص المكلف بجمع الأعضاء الزائدة في الشارع، لنتخلص منها بسرعة أيتها الأخوات.

وقبل أن أفتح فمي أخذت كل واحدة منهن تفعل مثلما فعل الرجل مع أعضائه.

لكني لم أصدق عيني: رأيتهن يقطعن فروجهن ويرمين بها إلي.

قلت:

ماذا أفعل بهذه ؟

قلن بصوت واحد:

ماذا نفعل بها نحن ؟

ثم خلعن أثداءهن وانصرفن.

هكذا وجدتني محاطا بمجموعة كبيرة من العيون والأسنان والأثداء وغيرها مما يسميه هؤلاء بالأعضاء الزائدة.

لم يكن ممكنا أن أخطو خطوة واحدة. وحين بدأت أفكر جيدا في حل للخروج من هذه الأزمة وصل الرجال الذين خرجوا من الحانة فسلموا علي بحرارة وكأنهم يعرفونني منذ زمان وشرعوا يقومون بمثل ما قام به الرجل الأول والنساء المومسات.

عندما انتهوا من كل ذلك انصرفوا في هدوء تام.

قال لي أحدهم:

نشكرك على وصولك في الوقت المناسب.

وقدم إلي قنينة غاز قال عنها أنها رشوة ساهم الجميع في شرائها من أجلي.

قال آخر وهو يبتعد:

اتق الله في أشيائنا يا رجل.

قال أقصرهم:

قد نحتاج إليها إذا تغير الزمان.

قلت:

متى يتغير الزمان ؟ متى تعودون لاسترجاعها ؟

لكنه لم يسمعني، لا هو ولا الآخرون، فتقدت المرأة التي كانت تبحث عن نفسها وانتشلتني من بين تلك الأشياء.

أريد أن أهرب لكي لا أرى نفس المشهد للمرة الرابعة لكنها أوقفتني:

انظر:

وحين رأيت لم أصدق:

كل الأشياء المفصولة عن أجسادها تمشي، يتكئ كل واحد منها على عودي ثقاب من أعواد الثقاب الكثيرة المرمية في الشارع، ويسير.

ثم رأيتها تنتشر في الأزقة الصغيرة وتصيح.

نريد إخواننا، كل إخواننا.

بقيت فترة أنظر ولا أرى حتى وضعت المرأة ذراعيها حول عنقي وأسندت رأسي إلى صدرها.

-لقد أنقذت حياتك، مقابل هذا لا أريد سوى أن أنام معك.

سرنا نحو البيت.

ظل الشارع مقفرا وبقيت في شبه غيبوبة، من حسن حظي أن المرأة عرفت الطريق إلى بيتي، واكتشفت موقع الماء فغسلت جسمي بالماء البارد وهي تغني لي أغنية من أغاني الأطفال.

استرجعت بعض الوعي، شربنا قهوة.

في السرير اكتشفت أن المرأة لا تملك فرجا فأصبت بالذعر وبكيت إلى أن نمت، وحين استيقظت عند منتصف النهار لم أجد من المرأة سوى أعضائها الزائدة.

جريت نحو الشارع.

كنت عاريا.

الشمس طالعة ومضيئة، واقفة تتفرج.

حاولت أن أتنفس، لكن الناس أحاطوا بي من كل جانب، كانوا يتصببون عرقا، في شبه مأتم.

يصيحون:

هذا هو الشخص المكلف بجمع الأشياء الزائدة.

قلت:

انصتوا، إنكم مخطئون، أنا لست من تنتظرون،

قالوا:

علامته أنه عار.

ثم دخلوا في مباراة عنيفة لاستئصال أشيائهم الزائدة، تراكمت الأشياء حتى غطت رأسي.

لم ينقذني سوى المرأة المعلومة.

حملتني إلى البيت حيث بقيت أنتظر الليل.

وعندما، أظلمت الدنيا تماما خرجت إلى الشارع.

فأحاط بي الناس من جديد.

هذا هو الشخص المكلف بجمع الأشياء الزائدة.

قلت:

انتظروا قليلا، من كلفني أيها السادة ؟ قولوا لي أولا من كلفني !

لكنهم أشاروا إلى مكان يحمل علما ثم تجاهلوني. فجاءت المرأة وأنقذتني.

قلت للمرأة:

إن ما يحدث الآن بالليل والنهار لم يكن يحدث إلا بالليل وحده، فهل يمكن أن تفسري لي هذا ؟

لم تجب فأيقنت أنها متواطئة وأن عملية إنقاذي من طرفها جزء من اللعبة.

وكأنها سمعتني فقالت:

أية لعبة تعني ؟

قلت:

تلك التي يحرك خيوطها رئيسي، الرجل الذي لن يرتـاح إلا بعـد أن يوصلني إلى شرنقة الجنوب.

سخرت مني بوقاحة، وقررت أن أقتلها.

في البيت، عندما اتكأت على المائدة لتضـع فوقهـا فنجـان القهـوة، أغمدت السكين في صدرها.

أخذت أنظر إليها وهي تحتضر.

كانت تضحك الخبيثة.

قلت

إنها لن تموت. أمسكت عن الضحك فجأة. ظلت هادئة، واقفـة، ثـم تهاوت.

قالت:

أشكرك، لقد كنت في حاجة إلى هذه الطعنة.

ثم بدأت تتحول إلى ثلج، ثم تحولت إلى ماء بلل الفـراش والغرفـة، وظل الماء يعلو حتى خرج من النوافذ، لم أستطع فتح الباب، كسرته، سـبقني الماء إلى الدرج، غرقت العمارة في الماء، كنت قد وصـلت إلـى الشـارع، ركعت وأخذت أتسول إلى الماء كي يجرف العمارة ومنهـا يمتـد إلـى كـل العمارات:

تصوروا العمارات كلها تسبح، سيفرح كل الأطفال.

قبل أن أرفع رأسي تهاوت العمارة وصارت بدورها ثلجا ثم ماء ثـم سيلا. عندما توقف السيل المائي انهمر سيل آخر:

الناس.

أخذوا يرمون إلي بأشيائهم الزائدة، حبست أنفاسي حين غطت الأشياء رأسي إذ ظننت أني أحتضر.

غير أن ذلك لم يدم طويلا. لقد تطوع أحدهم وقال لي:

افتح عينيك !

نظرت فرأيت أشياء الناس تتكئ على أعواد الثقاب وتمشي، تنتشر في الأزقة، تصيح.

نريد إخواننا، ردوا كل إخواننا، ردونا إلينا أيضا.

وأما الناس فكانوا يصفقون ويصرخون في أشيائهم أن تضاعف النداء.

أدركت عندها أن الناس لا يتعودون دائما على كل شيء، وبسرعة، كما يقال، وأدركت أن بداية كل شيء هي في ذات الوقت نهايته.

لذلك عندما أصبح الشارع مقفرا لم أشعر بالرغبة في العودة إلى البيت، كنت قد صرت شبه مقعد من شدة التعب، قصدت الرصيف. اصطدمت إحدى عضلاتي الخلفية بشيء صغير صلب عاقها عن الاسترخاء، مددت يدي إلى ذلك الشيء:

خاتم صغير من ذهب خالص وضعت أصبعي الأصغر داخله وتناسيته.

عدت إلى التفكير في حل لمشكلتي مع الأشياء الزائدة رغم أني أشعر في عمقي أن مشكلتي في بداية نهايتها.

أغمضت عيني إلى أن جاءت ذبابة وحطت فوق أنفي، رفعت يدي لأطردها.

جاء في الصوت

شبيك لبيك، أنا عبد بين يديك، أمرت على مال الغرب يحضر، أمرت على مال الشرق يحضر، أمرت على أجمل امرأة في الدنيا تحضر.

تساءلت:

ماذا أسمع ؟

فأعاد علي ما قال.

ثم رأيت مخلوقا ضخم الجسم أبيض البشرة واقفا أمامي يقهقه.

سألت:

من أنت ؟

أجاب:

أنا العفريت، خادم الخاتم يا مولاي، أستطيع أن آتيك بكل ما تريد وتشتهي.

لم أصدق.

لكني قلت محاولا أن أختبره.

إذن ابعث لي نفوس هؤلاء وأحضرها قبل أن يرتد إلي طرفي، أريد أن يسترجعوا أشياءهم في أقرب الآجال.

قال حزينا:

هذا مالا أستطيعه يا مولاي، مع الأسف أن المسألة ليست مسألة اختصاص كما قد يظن مولاي، هناك عفاريت، من غير جنسي، من جنس أقرب إلى جنسكم، أو كما يقول حكماؤنا، في مرتبة وسط بين جنسنا وجنسكم، هذه العفاريت الغريبة يجب أن تقهر لتعود إلى أصحابك نفوسهم لأنها، أي العفاريت، لا تعيش إلا من اختطاف النفوس...

وإن شاء مولاي الدقة أضفت:

إنها أكلتها المفضلة...

نفوس الناس التي بدونها تصبح كل أعضائهم زائدة.

سألته:

لابد أن هناك حيلة، أليس كذلك ؟

أجاب:

طبعا هناك حيلة.

قلت:

انصرف ولا تعد إلا وهي معك.

قال:

ادر الخاتم يا مولاي.

قلت:

لماذا ؟

قال:

لأنصرف يا مولاي.

فأدرت الخاتم وانصرف

شرعت أفكر في مشكلتي الجديدة مع العفاريت إلى أية مشكلة أخرى ستسلمني ؟

قلت:

هذه الأسئلة ميتافيزيقية !

لكن الأسئلة مع ذلك تكاثرت، فأدرت الخاتم لأتسلى، وحضر العفريت.

-هناك حيلة يا مولاي تعيد إلى الناس نفوسهم.

سألت:

كيف ؟

قال:

يبدأ ون أولا بضبط نفسهم إلى أن يصبح منتظما وإراديا حينئذ ستصبح الرؤية داخل عقولهم، وقلوبهم أوضح، بعد هذا يشرعون في عملية التمرين على ضبط الحركة داخل الرؤوس، وهكذا، إلى أن تتم لهم السيطرة الكاملة على أنفسهم ويصبح بإمكانهم أن يعيدوا أشياءهم الزائدة إلى أماكنها. وإذا ما حصل هذا بأتمه توقفت عملية المسخ والسلخ لأنهم سيكونون قد أدركوا سببها الذي يوجد خارجهم بقدر ما يوجد داخلهم.

قلت:

ألا توجد طريقة أسهل ؟

قال:

كل الطرق يا مولاي يجب أن تبدأ منهم، وككل الطرق ستفضي هذه الطريقة بدورها إلى الخارج.

قلت للعفريت غاضبا:

نريد حلا مستعجلا أيها الغبي.

قال:

إذا كان سيبقى سرا بيني وبين مولاي !

قلت:

تكلم.

قال:

أن يصبحوا عفاريت من جنس أعلى.

قلت:

الآن انصرف.

قال:

ألا يسألني مولاي عن التفاصيل.

قلت:

لست غبيا مثلك.

قال:

إذن حرك الخاتم يا مولاي.

رميت بالخاتم فغاب العفريت.

مرت امراة فالتقطته، كانت المرأة آية في الجمال، لا يمكن أن تنافسها امرأة في مباراة الجمال.

نظرت إلي طويلا، حتى أحسست أن نارا حقيقية تخرج من عينيها.

استمرت تنظر إلي، فخيل إلي أنها أصبحت شجرة ثم عصفورا ثم طفلا ثم عينا صغيرة ثم عادت في النهاية إلى طبيعتها.

سألتها حينئذ.

من تكونين ؟

قالت:

أنا من رأيت الناس يقطعون أعضاءهم من أجلي

قلت:

من ؟

قالت:

ما دمت لم تفهم بعد فأنت غبي.

قلت.

ولكن ساعديني.

فكرت قليلا، ثم صارت أرضا وكشفت لي عـن الجبـال والوديـان والأشجار والناس داخل صدرها.

قلت:

لا أفهم التحولات. إن قاموسها صعب.

قالت.

أعرف أنك فهمت، والآن برهن على حبك.

شققت صدري وأخرجت الرئتين فقدمتهما إليها.وكذلك فعلت بـالعينين والقلب والأنف والمخ.

ثم رأيت أعضائي تتكئ على أعواد الثقاب وتبحث عن أخواتها.

كنت في منتهى السعادة.

التفت إلى المرأة، كانت قد صارت غولا، قهقه الغول. لم أعد أفهـم ! حرك الخاتم، هل هذا ثمن الحب ؟ حضر العفريت.

قال الغول للعفريت:

إلى الثلث الخالي.

وفتحت عيني على أرض لا ظل بها ولا ماء ولا عصفور، انصـرف العفريت بعد أن قال:

أنت ابتداء من الآن خالد في العالم الذي جئت منه، لكنك لن تعود إليه قط، وهذه مأساتك.

قلت:

لا تخف، بإمكاني الآن أن أتعلم في صبر وأناة ضبط نفسي، ثم ضبط عقلي، ثم استرجاع نفسي وعندئذ أعمل على تحويلي إلى عفريت مـن أعلـى الأجناس.

اعتقدت أنه غاب لكنه كان واقفا ومعه رجل يحيط بـه جماعـة مـن الأقزام الأقوياء.

قال الرجل:

قيده !

سألت العفريت:

من يكون هذا الرجل ؟

قال:

اخرس !

وأضاف في همس:

إنه زوج المرأة الجميلة التي رأيت منذ قليل تزوجها بـالقوة ومـازال يستعبدها بالقوة.

وبعد أن قيدني علقني من أعضائي التناسلية في فرع شجرة يابسة بناء على أمر من الرجل.

قالت لي الشجرة:

لا تخف سأسقط عما قريب.

قلت:

متى ؟ هل تعرفين متى بالضبط ؟

قالت:

عندما يتكسر هذا الفرع الباقي مني أو يقلع بالقوة بيد الحطاب.

قلت:

ومتى يأتي الحطاب ؟

قالت:

قريبا.

قلت:

ومتى قريبا ؟

ـالت:

عندما يكون مستعدا لذلك.

قلت:

ومتى يكون مستعدا لذلك ؟

قالت:

يجب أن تكون أعلم مني بهذا.

فخجلت وسكتت.

2- العـودة إلــى الحفـرة

هل كنت في حلم ؟ غير ممكن.

في الواقع ؟ مستحيل.

إذن أين كنت ؟

جميل أحيانا أن تختلط الأشياء، تتداخل الأسماء، تتشـابك المعـاني، وتتجاذب الوقائع والخيالات.

حينئذ تختلط المازوشية بالسادية.

ماذا أفعل ؟ السؤال مازال مطروحا.

إلى أين أذهب ؟ راضية ؟

-الو .. راضية ؟

-نعم، من ؟

-عبد الرحيم.

-لا باس ؟

-لا باس، هل يمكن أن أراك اليوم ؟

-آسفة، مشغولة، أمر مهم، بصراحة: اجتماع حزبي.

-أنت متأكدة ؟

-كل التأكيد.

عاهر، تعرفين أني سقطت، انتهيت، لا أفكر في الزواج.

-ماذا تقول ؟

-عاهر، أنت عاهر.

قطعت الخط. أحمد.امرأة بلا قلب. قلبها زائد. فرجها وحده يشتغل.

-آلو، بيت أحمد ؟

- من ؟

كنت حزينا حقا، خاصة عندما أبصرت فجأة أشـياء النـاس الزائـدة تجري هنا:

في الثلث الخالي. ندمت على أني لم أفعل شيئا حين كان الخاتم بيدي، ولو من باب التشويش، كانت هناك أشياء كثيرة يمكن أن أقوم بها والخاتم فـي يدي.

وهكذا قضيت وقتا طويلا في معاتبة نفسي على التفريط فـي الخـاتم وأنا على هذا الحال من الهم والندم سمعت أعضاء الناس تناديني.

يا هذا المنفي، ايه، حان وقت رجوعك !

ثم أحاطت بي

قل معنا

قلت:

ماذا ؟

قالت:

نريد إخواننا، نريد المرأة، أين إخواننا ؟ قل أين المرأة ؟ قلت:

انزلوني أولا !

فأنزلوني وشرحوا لي أنهم يقومون بمظاهرة عبر أنحاء الـدنيا، بمـا فيها الثلث الخالي، تمهيدا لأمر مهم سيطلعونني عليه فيما بعد.

قلت:

لا أريد أن أفهم كل شيء، فأنا لست فضوليا إلا بالحـد الضـروري. المهم أنكم أنزلتموني.

وحين بدأت أصيح معهم بدأت أيضا أفهم أكثر.

وذكرت قول أحد المتصوفة:

من لم يجد فليتواجد.

طريق أحمد.

-أحمد يعتقد أنه مناضل سياسي كبير رغم أنه مجرد عاطف على حزب سدت أمامه كل الآفاق، إنه يخاف أن يفقد ترفه.

زوجته وأولاده وسيارته وبيته. أما أنا فأريد أن أستمر في الحياة، ولكن ليس بالشكل الذي يريدون. لا أرى أمامي سوى مكان واحد له عدة أسماء أشهرها الكوميسارية، السجن المستشفى المغارة ... الخ.

-ماذا ؟. ماذا أسمع ؟ -هل أنت في بداية السقوط أم في نهايته ؟ أمهلني كي أحضر لك الخمر أولا.

-الأكل مع الخمر من فضلك.

أحس يخطوها في صدري. في دمي.

لوصفية عينان كبيرتان وحسم كهرطيس.

لأوديت عينان صغيرتان وجسد يولد كل طاقات الدنيا.

وصفية احساس بدائي. جسد مغرم. أوديت فتنة ذكية.

وصفية جرح مفتوح. أوديت جرح لا أريد أن أفتحه.

جرح لم يتعفن بعد.

أستطيع أن أقول لأوديت.

إن عيني زائدتان، إن رئتي زائدتان، إن قلبي زائد، إن أسناني ومعدتي زائدة حين لا أكون في بيتها، إن دماغي زائد منذ أن طردت من عملي، إني باختصار زائد بعد أن تكسر المثلث.

إذا قلت هذا أو أي شيء غريب مثله لأوديت ستفهمني.متأكد أنها ستفهمني.

لو قلته لو صفية لا عتبرتني مجنونا.

لو أعدت هذا على أوديت مرات عديدة لنصحتني بأن أستريح، أن أذهب إلى البادية مثلا مدة أسبوع أو أسبوعين. لو قلت ذلك لوصيفة لخافت وتركتني.

الفرق بين أوديت ووصيفة في أنك تجد أوديت حين تكون في حاجة إليها، يكفي أن تقول لها إني محتاج إليك لكي تلغي كل التزاماتها وتطير إليك.

لكن وصفية دائما غائبة. غائبة حتى في أصلك اللحظات. وصفية حين تريد أن تهرب من الحصار إليها تصير حصارا إضافيا.

وصفية.

وصفية الآن غائبة. لن ترجع وصفية.

وصفية حين اعتقلت في الجامعة مع بعض زملائي مدة خمسة أيام طلبت مني أن أتخلى عن السياسة رغم أنه لم يكن لي أي طموح سياسي.

طلبت مني وصفية أن أختار بينها وبين السياسة.

قلت.

أنت وصفية !

وخيل إلي أنها بدوية جاهلة رمى بها في الجامعة.

وصفية الآن ارتاحت. أنا أيضا ارتحت من وصفية.

بل وصفية هي التي ارتاحت مني.

ماذا يمكن أن يعطيها مثلث مكسور ؟

لم يبق من وصفية إلا الجروح، إلا الكدمات.

أريد أوديت، أشتهيتها كما أشتهي الجبن الفرنسي الأصيل وسارة برناد وكوليت.

لكني أفضل أن أتخيلها بلا فرج لتظل صديقة يستحيل أن أخسرها.

أعرف أن أوديت تشجعني على أن أريدها.

لكني أقاوم هذه الرغبة كما أقاوم الرغبة في الانتحار.

أقاوم بنفس العنف.

أوديت سترحل ذات يوم إلى بلدها، وأنا أريد أن أظل هنا، أصر على أن أبقى هنا كلعنة لهذا الزمن الملوث، زمن الحصار.

أريد أن أقلق راحة السواح المغرمين برؤية السواء.

علاقتنا لا يمكن أن تكون إلا استهلاكية في حالة تحولها إلـــى إشـــباع رغبات.

إذن ستنتهي ذات يوم، تصير عابرة، عادية، باردة.

أريد أن أجرب صداقة النساء. هي الخيط الوحيد الذي لم تقطعه أسنان الأزمنة بعد.أصر على استمرار الإنسانية بيننا.

هل يمكن للصداقة أن تضمن هذا الاستمرار ؟

عند أوديت دائما شيء تقوله أو شيء تعطيه بلا تكلف ولا ازدواجية، بأنوثة كاملة، ولو كانت بعيدة، في أقصى نقطة من العالم.

–تعمدت أن أجعلك تنتظر قليلا لكي تقل شهيتك للخمرة لكي لا تقضي على كل الطعام الموجود بالثلاجة.

–قلت لك إني أريد أن أحمل وأكلا وأجرة تاكسي وانصرف.

–أعرف أنك تمزح، هل لاحظت أن في جدك أحيانا بعض المـــزاح ؟ يستحيل أن تتركني وحيدة وسط هذا الفراغ، مع الظلمة ومع أنوثتي، سنشرب معا، أنا أيضا في حاجة إلى اضطراب في توازني البيولوجي. خذ !.

أوديت تذهب إلى عملها في الصباح عند الساعة الثامنة، لكنها قـــادرة على أن تسهر معي إلى حين الثالثة صباحا، حتى مطلع الفجر، أن تلبي كـــل طلباتي وكأنها في خدمة طفل بريئ.

مرة سهرت معها حتى السابعة صباحا. بعد ذلك هيأت الفطور ودخلت الحمام لتغتسل، ثم أعدت لي الفراش وذهبت إلى عملها.

يمكن أن أزورها في أي وقت أشاء لأطلب منها خمـــرا أو طعامـــا أو لأحكي لها عن أنياب هذا الزمن الذي تسكنه الأرصفة، لأطلب منهـــا بعـــض الإنسانية. موجودة دائما كقديسة، كإلهة، كحلم، كنغم يقوي الرغبة في الحيـــاة، في الاستمرار.

-ماذا فعلت ؟

-يعني ؟

-هل وجدت عملا ؟

-لم أبحث.

-لا أفهم !

-بل فهمت، لم تعد لي رغبة في العمل، ما جدوى العمل في مثل هذه الظروف ؟ أريد أن أستريح في أي مكان، لقد صرت زائدا، أنا أبحـــث عـــن إنسانيتي التي لم يعد العمل قادرا على إعطائها لي.

-يمكن لأي عمل حقيق أن يجعلك على عكس ما أنت.

-هـــذا المستحيل، في الظروف الراهنة. أتعـــرفين مـــا هـــو العمـــل الحقيقي الممكن ؟ أن تصنع أي شيء تجد فيه نفسك وحين يصل هـــذا الشيء إلى الآخـــرين لا يكون عرضة للعرض والطلب. يجد فيه هـــؤلاء شيئا مـــن ذواتهم. أما عندنا فـــإنه العمـــل الـــذي يضمن الضروريـــــات الضـــرورية. هل يمكن أن أجد هذا ؟

-أفهم، أفهم لكن يمكن دائما أن نخلق هذا التحقق من خلال العمل الحقيقي، من خلال العمل الضرورة.

-تعرفين النتيجة.

-تجربة أولى وفشل أول، هذا لا يعني أنه يجب أن تيأس، يجب أن تقاوم هذه القابلية للكسر، بل أنتم العرب دائما هكذا .. أحاديون تحسبون الربح ولا تحسبون الخسارة. وهذا منطق الأشياء.

-أفهم هذا يا أوديت. لكني مخرم، داخلي كشباك كبير من أشواك صغيرة صنعت من سلك فولاذي سام، استعمل في عقل الكتروني لا قلب له.

-خطؤك أنك لم تختر جماعة، أية جماعة، لا يهم أن تكون سياسية أو نقابية أو رياضية، المهم أن تكون لك جماعة بالمعنى المؤسساتي للجماعة. غياب البعد المؤسساتي أخطر ما يميزك، منذ جئت إلى هذا العالم وأنت تفتقر إلى هذا البعد المؤسساتي الذي بدونه لا يمكن أن تتكيف، أن تتلاءم مع أي واقع.

-بل إن المؤسسة تغتالني، وعلى كل حال، هناك عيوب كثيرة يا أوديت، لست مسؤولا عنها دائما.

-أقول لك الصراحة: لقد خلقت في عصر لا يلائمك، لو جئت في فترة أقل عنفا واهتزازا لكنت أكثر توازنا، لو بقيت في البادية ....

-كلنا في عصر، في عصور لا تلائمنا، الإنسان من هذه العصور يصير زائدا.

-أنا أقصد نفسيتك. ولا أريد أن أتفلسف أو أن أتعالم. إنها لا تلائم هذا العصر، إنك في حاجة إلى إعادة تربية.

-وماذا أستطيع أن أفعل ؟ لقد نقلت من حفرة إلى حفرة، من ثقب إلى آخر، من متاهة إلى أخرى، وليست أهم التحولات هي الانتقال من البادية إلى

المدينة. أنا في الواقع أمام اختيارين إما أن أكون وصوليا، وصوليا كاملا، وليس مجرد وصولي مقنع كبقية الناس، وإما أن أنضم إلى جانب الرافضين.

لقد انتهيت إلى جانب الأكثرية: السلبيون. هل أستطيع أن أكون أكثر من هذا ؟ لست أدري، بل أعرف أني لا أستطيع، بل أستطيع ولا أريد، شيء غامض يمنعني من أن أريد.

-أنا أعني أنك رومانسي إلى حد كبير.

-أنا رومانسي ؟ غير ممكن.

-لنقل طوباوي، كلنا هكذا، نرفض أن نصدق من نحن في العمق. ينقصنا الصدق مع أنفسنا، الشجاعة أو شيء من هذا القبيل، قد لا أستطيع تسميته، ولكنه موجود، يعمل...

أنا مثلا لا أنكر أني استهلاكية، إني ما جعل مني مجتمعي.

أقبل هذا بمعنى ما، وأعمل على تغييره بالشكل الذي أقدر عليه.

-هذا لا يكفي. هذه هي الطوباوية، وعلى كل حال فإننا نبالغ أحيانا في الاعتقاد في ما نظن أنه نحن، هذا خطأ آخر. ليس هناك إنسان له بعد واحد. الإنسان دائما متعدد، أكبر الأخطاء أن يعتقد أنه واحد، حينئذ يقبل ما ليس هو، ما يريدون أن يكونه، فيسد أمامه كل الآفاق.

هذا صحيح ولكن لماذا لا تبدأ بتطبيقه على نفسك؟ إنك تتحدث ككتاب، كتاب ألفه صاحبه بصدق، ولكن في برج عاج...

إنه ما أسميه بالرومانسية الفكرية.

الحديث مع أوديت تلقائي، عذب رغم العدوانية التي تطبعه أحيانا، حديث مثير ومتنوع. من همومنا الذاتية انتقلنا إلى هموم الإنسان بصفة عامة، ومن هذا الإنسان المجرد، انتقلنا إلى الحديث عن الإنسان المشخص، أو الإنسان الحقيقي كما تسميه هي، أي الإنسان السياسي. والحديث في السياسة

مع أوديت لا يمكن أن يتم من غير ذكر روسيا والولايات المتحدة والصين وفرنسا والمغرب والمواقع الساخنة في إفريقيا والهند الصينية وحقوق الإنسان.

موضوع واحد تتجنبه أوديت: فلسطين لأنـي متطرف بشأنه ولأن أوديت تكره التطرف والعاطفية المجانية، بعد ذلك يأتي الحديث عن الأدب، عن الشعر على الخصوص. في نهاية السهرة نجلس صامتين ساعة أو ساعتين نستمع خلالها إلى الموسيقى.

نكون قد استرجعنا ساعتها وحدتنا مع الكون.

عندئذ تصبح أوديت هادئة ووديعة ومغرية كقطة أليفة.

عندئذ تركبني موجة مستديرة من الحزن، شيء شبيه بالجنون، أراها متربصة وأراني متحفزا.

أفقد فجأة وحدتي مع الكون، وحدتي مع نفسي، مع الآخرين.

أدخل في دائرة أوديت. تدخل دائرة أوديت في دائرتي، تتشابكان، نمارس الجنس من بعيد.

حين أستيقظ من هذا الحلم البهيج كطفل سقط من حضن أمه أجدني فارغا، أرتمي في أي مكان أنشد النوم كنوع من الهروب أواخرج إلى الشارع أتيه فيه.

لذة لا تكتمل إلا في الحلم. هذه سهراتي عادة مع أوديت. لكني كنت هذه الليلة خارج دائرة تأثير الموسيقى فلم أصل إلى مرحلة الحلم (قال لي الطبيب: أهم شيء بالنسبة لك طوال هذه الفترة: النوم العميق والأكل الجيد. أعطاني مهدئا ونسي أن يعطيني مالا لأشتري به الأكل الجيد ثم مد يده فتجاهلتها، فغضب، فأرجعت إليه المهدئ. هؤلاء الصعاليك يتعاملون معنا

وكأننا نازلون للتو من أوربا أو طالعون من آبار النفط. كل المتاهات استيقظت داخلها الأرضة فجأة لما تكسر آخر أضلاع المثلث).

-هل قلت لك أني مسافرة بعد غد ؟

-إلى أين ؟

-جزر الباليار حيث سأقضي عطلة آخر السنة، عطلتي تبدأ غدا.

-أغبطك.

-تعال معي إذا شئت.

-الجواز، ليس لي جواز. أخذوه.

-يعني سحبوا منك حق المواطنة ! ؟

أجمل ما في أوديت -الحلم هذه الرغبة في السفر، تسافر أثناء نهاية كل أسبوع، تسافر أثناء كل عطلة. أوديت طائر مسافر أبدا. عندها دائما برامج جديدة، وكل برامج أوديت تبدأ بالسفر.

أما أنا فعلى عكس أوديت، مثل وصفية تماما، لا أحب السفر، أو على الأصح لا أحب أن أتحرك من مكان إلى آخر، أحس أني قد ربطت ربطا إلى هذه المدينة.

أكتفي بالحلم بالدنيا، أحلم أن أرى ذات يوم كل الدنيا، أن أصبح مواطنا كونيا، مواطنا يطوف العالم راجلا ويستطيع أن يدخل كل بيت أو بناية عندما يجوع أو يتعب، طائرا لا يحتاج إلى تذكرة أو جواز سفر.

لكني عند مطلع كل عطلة أجدني بلا جناحين. لهذا أحب الطيور المسافرة دائما وأراقب أسرابها. لهذا أغبط أوديت. لكني مع هذا لا أحب أن أتزوج بامرأة كأوديت لأنها مشدودة إلى حقائبها باستمرار. وأنا لا أستغرب هذا، فكل زملائي أحبو نساء متحررات وتزوجوا نساء محافظات لماذا نحب مثل هذا التحرر ونخافه في نفس الوقت، هل هي بقية من بداوة أم عقال طين؟

أوديت ترى أنه مسألة طبيعية لأننا نمر من مرحلة انتقاليـــة، أصـــعب مرحلة انتقالية هي التي نمر منها حاليا في نظرها...

بعض أصدقائها يسخرون منها حين تعطي هذا التفسير يقولون قلبها:

-هذا طبيعي، تمرون من مرحلة انتقالية صعبة، ولكن كم ستدوم يـــا سيدتي العالمة هذه المرحلة الانتقالية ؟

رغم أن أصدقاء أوديت يختلفون معها في القضايا السياســية، فــإنهم يتفقون معها جميعا في فهمها للحياة:

أن نعيش بلا تعقيدات وبأقل قدر ممكن من الألم، مـــع محاولــة فهـــم الآخرين وعدم الانطلاق من الأفكار الجاهزة في تعاملنا معهم.

لهذا أحبهم جميعا ماعدا جرار...

هذا الرجل مازال يفكر بعقلية المستعمر.

تقول له أوديت:

« إن جدك أكثر تطورا منك في فهم ما يحدث بالعالم، العالم العربـــي تغير، كل العالم يتغير بدليل أن المستعمرات القديمة صارت تصدر إلينا قيمـــا جديدة ».

مازال جرار مستلبا من طرف أجهزة الدعاية فـــي الغــرب، مـــازال مشحونا من البولتكنيك، جرار متخـــرج مـــن البولتكنيـــك ويشـــتغل مـــدرس رياضيات في المغرب. كنا نتحدث مرة عن التخلف والنمو. قـــال لـــي: أنـــتم المغاربة غير أنكياء، بدل الاهتمام بأشياء مربحة ومطلوبـــة تتطلعـــون إلـــى الصناعة مثل أوروبا، يجب أن تهتموا فقط بالصناعات التقليدية والفلكلور، أما الصناعة الحديثة فإن الغرب يكد ليوفرها لكم بأبسط الأثمان.

ابتسمت ساخرا وسكتت بعد أن غمزت لي أوديت، لكنه عاد ليتكلم عن الأحزاب والحركات السياسية، سكتت، استمر يتحدث وانتقل إلى فلسطين.

قال لي:

كلهم إرهابيون، الفلسطينيون جميعا إرهابيون، أنتم في المغرب، نظرا لموقعكم، بإمكانكم أن تتوسطوا بين إسرائيل وأعيان الضفة الغربية لتدمجهم في برنامج تنميتها المتطور.

قلت:

لسنا قوادين !

قال:

القوادون هم الذين يكسبون أكثر.

بصقت في وجهه.

وقف، وقفت.

قال:

أحمق !

قلت:

الفلسطينيون ! إرهابيون ونحن قوادون ؟ !

حاولت أوديت أن تمسك بي.

استمر يشتم. ضربته برأسي فسقط ممسكا بيده ثقبا واسعا في جبهته، نهض من جديد. ضربته مرة أخرى برأسي. خرج يلعن أوربا والعرب وإسرائيل.

ثم عاد وقال لأوديت.

لا أفهم كيف تقبلين في بيتك أحمقا كهذا ؟

تحركت، قالت له أوديت:

أنت الأحمق، تأكل من بلده وتعيش فيه كأمير ثم تشتمه.

استنكر.

أنت أيضا ... ؟

أجابت:

أنا أيضا ... أرجو ألا أراك مرة أخرى في بيتي.

منذ هذا اليوم لم يعد إلى بيت أوديت. سألتها مرة عنه، قالت:

يخاف منك، يسميك الإرهابي، أحيانا يسميك المريض أو المجنون، غير أنه أعرب لي مرة عن استعداده ليعتذر لك، أظن أنه يخاف أن تغتاله.

قلت:

أنا آسف.

قالت:

على ماذا ؟ إنه السبب، يستحق أكثر من ذلك، هو المريض في الواقع، نكوص.

أوديت الآن نائمة فوق سجادة بيضاء على بعد نصف متر مني. أوديت الآن حزمة إغراء وعطر ولون وشهوة. أشتهيك يا أوديت. لكني أريد أن تبقي صديقة، ألا تتحولي إلى متاهة. فدخول الثقب لا يؤدي إلا إلى ثقب آخر. تكفيني الآن متاهاتي. أنا فارغ كالعدم، جالس فوق سجادة أخرى لا أفكر في شيء على وجه الدقة. سمعت الباب يطرق فجأة. الخادمة، استيقظت أوديت.

قالت للخادمة بالعربية:

–صباح الخير، لا باس ؟ كم الساعة ؟

-التاسعة والربع.

-أوه، نمت طويلا، هل نمت أنت ؟

-متى ؟

-عفوا، نسيت أنك لم تعد تنام.

-كنت أنتظر أن تقومي لأستأذن وأنصرف.

-إلى أين ؟ لن تذهب، سنتغدى معا، ماذا تحب أن تأكل؟

-أي شيء، ما تحبين.

-فاطمة هيئي لنا الفطور ثم أعدي طجينا للغـذاء، طجينـا مغربيـا حقيقيا. قامت أوديت ببعض التمارين الرياضية الخفيفـة، تناولـت الفطـور، دخلت الحمام ولم تخرج منه إلا حين طرقت فاطمـة البـاب ثـلاث مـرات لتخبرها بأن الغذاء جاهز.

وقلت لأوديت ونحن نأكل:

-بعت كتبي، كل كتبي بعتها.

-نعم ! ؟

-وبعت كل ملابسي، كل ملابسي بعتها.

-نعم ؟

بعت كل الأثاث.

-وماذا تقرأ ؟ ماذا تلبس ؟ كيف تنام ؟

-لم تعد هذه مشاكلي. لا أقرأ، لم أغير هذه الملابس منذ أكثـر مـن نصف شهر، ولا أنام كما تعرفين.

-لقد صرت مخيفا حقا، لا، لست متفقة معك على هـذا، إنـك تقتـل نفسك. هل لك أقارب في البادية ؟

-لا أحد، لا مكان، والحمد لله.

-يجب أن نجد حلا لهذه المسألة قبل أن تتحول إلى مأساة، والبيت ؟

-لم أدفع واجب الكراء منذ ثلاثة أشهر. صاحبه رفع ضـــدي دعــوة، غدا يصدر الحكم.

-بماذا ستدافع ؟

-لن أحضر الجلسة.

-لا هذا ليس حلا، أعطيك واجب الكراء إذا شئت.

-أشكرك، قررت ألا أدافع، فأنا لم أعد أطيق ذلك البيت، لم أعد أطيق أي بيت.

-طيب تعرف فيليب ؟

-أعرفه.

-يمكن أن يجد لك عملا إذا شئت، عملا أحسن من الأول.

-فيليب يجد لي عملا ؟ لا أريد أن أعمل ... وفي بلدي ! ؟

-وماذا تريد أن تفعل ؟.

-لا شيء، أظل هكذا دائرا مع متاهاتي.

-تعرف أنه مرض الكآبة.

-أعرف أنه مرض ليس له اسم.

-أنت تغامر بنفسك.

-لا أريد منك سوى زجاجة خمر احملها معي عنـــدما أخـــرج بعـــد الغداء.

-كما تشاء، ولكن ...

كنت أسيء إلى أوديت بهذا السلوك، لكنها تعرف أني صادق، صادق جدا وبريء كطفل.

وأنا أعرف أن قلبها كبير، إنه مازال لها قلب.

عندما قلت لها:

-سأنصرف.

قالت:

-أخاف عليك يا عبد الرحيم، احذر أن ترتكب حماقة

ثم دخلت المطبخ ودخلت بعد ذلك إلى غرفة نومها وعادتِ تحمِلِ شيئا ملفوفا بورق.

-زجاجتان وبعض الطعام، قالت.

قبلتني في فمي.

سأعود يوم الجمعة، آخر الشهر، تعال نسهر معا. ستجد عندي مفاجآت كثيرة لك.

خجلت من نفسي، كدت أبكي. شكرتها بحرارة ثم ودعتها وخرجت.

مشيت في الشارع وحيدا، نظرت إلى آخره، لا آخر له نظرت إلى بدايته لا بداية له. أحسست أني أعود إلى الحفرة من جديد وأنه لا توجد في هذا الشارع شيخة يمكن أن تلتقطني وتتبناني، وداخل الظلمة التي تنتشر في رأسي شعرت أنه مازال هناك خيط من الوضوح هو الذي يقود خطاي وسط الناس والأشياء. لكن الخيط كان رقيقا جدا وقابلا لأن يتلاشى كسراب في أية لحظة وأي مكان.

بمدخل العمارة كان يجلس الحاج المعطي، لم يغادر قط هذه المدينة. ولد فيها. في كهف عمارة كان أبوه حارسها، ومازال يجتر فيها أيامه وحيدا نحو الموت. ومع ذلك فإن كل سكان العمارة يسمونه الحاج.

رآني من بعيد فهرول نحوي:

أبشر المحكمة منحتك شهر أجل. إما أن تؤدي خلاله وإما أن تغادر البيت، هذا جيد، جيد جدا. يمكنك بعد انتهاء الشهر أن تطلب أجلا آخر، يمكنك أن تستأنف القضية فيكون أمامك أكثر من شهر أجل، وتطلب بعدها شهر أجل، هذا جيد، جيد جدا إذا لم يفتح الله. هذا جيد، جيد جدا، أليس كذلك؟

قلت محاولا أن أقلده:

آه هذا جيد، جيد جدا، بارك الله فيك الحاج، أنت رجل طيب، جيد جدا، تعال ندخل غرفتك. معي أكل جيد، جيد جدا، وخمر جيد، جيد جدا.

تخيلت لعابه يسيل كلعاب كلب. فتح باب الغرفة، فتحت زجاجتين من النبيذ الأحمر، شرائح من لحم الخنزير ولحم الغنم وخبز وظرف. داخل الظرف خمسمائة درهم، ثروة، مجنونة هذه المرأة، ماذا أفعل بكل هذا المال ؟ رأيت أوديت توزع المال على الفقراء ورأيت الناس، ورأيت الناس يصبحون جميعا فقراء يتسولون ويتوجهون بالدعاء إلى الله من أجل أن يبارك أوديت ويطيل عمرها ويجعلها في الجنة من الحور العين، تذكرت أن أوديت مسيحية.

قلت للحاج المطي:

-كل، الطعام طعام الله والمال مال الله والأرض أرض الله والناس عباد الله جميعا، فلا فرق أن تحصل على المال والأكل بالسرقة أو التسول أو العمل أو النوم. كل.

قال:

لا آكل لحم الخنزير، إنه حرام، سآكل لحم الغنم.

قلت:

-طبعا هي لا تعرف أنك مسلم، كل يا أخي ما تراه حلالا.

تساءل:

-من ؟

-نصرانية لا تعرفها.

ابتسم.

-ألم أقل لك أنك تستحق كل خير؟ تمسك بها يا أخي...

إن المرء يعيش معهن حياة سعيدة، صادقة ومنظمة، والمال عندهن لا قيمة له.

سألته محاولا أن أغير الحديث:

-لماذا لا تأكل لحم الخنزير وتشرب النبيذ رغم أنه حرام ؟

قال:

-نحن نأكل لحم البشر، الله يتوب علينا، الناس تأكل لحم بعضها. الله يتوب علينا. ألا ترى أننا صرنا نأكل بعضنا !

قلت:

-خذ، هذه مائة درهم.

قال:

-لا، والله، حرام والله.-أنت أحق بها مني، والله لا، أنا الذي يجب أن أساعدك. والله، لولا مشروع الزواج.

... والله ... كنت ساعدتك.

قلت:

-خذ، أنا لست في حاجة إليها، أنا ليست لدي مشاريع. هذا مقابل الهدية التي سأشتريها للعروس، آسف، لن أتمكن من الحضور.

أخذ المائة درهم وتساءل:

-وهل أنت مسافر ؟

أجبت بصوت ضعيف:

-بعيدا، بعيدا جدا ولمدة طويلة.

قال:

-جيد جدا. والله، أنت تستحق كل خير، وهناك يقدرون قيمة الإنسان، أولاد حواء لهم عندهم حقوق. المال موجود، والله جيد، جيد جدا.

لم أعلق، يبدو أنه لا يعرف أي شيء عن هناك التي يستعملها وكأنه يتحدث عن الجنة. تركته يتكلم. تحدث لي عن أخ له بكندا لم يره منذ سبعة أعوام، تحدث لي عن أبيه الذي مات وهو واقف. تحدث عن خطيبته التي سيتزوج بها رغم أنه يعرف أن سلوكها ليس مستقيما تماما، تحدث لي عن كل الناس الذين يعرفهم. تحدث لي عن سكان العمارة الذين يسميهم قوم لوط. تحدث لي عن الرشوة، عن الانحلال الخلقي، عن غلاء المعيشة، عن الصراعات السياسية والنقابية، عن الله، عن الجنة والنار، عن الإسلام والمسيحية، عن أولياء الله الصالحين، عن اللصوص وتجارة الخمر والحشيش والدم والأعراض، عن الاستعمار والاستقلال، عن النساء ومكائدهن، عن شباب هذا الزمان ورجال هذا الزمان، عن هذا الزمان ثم نام.

قلت بصوت غير مسموع:

-هذا هو الفرق بيني وبينك.

أخرجت النقود من جيبي، أعددتها: أربعمائة درهم. أعدتها إلى مكانها وخرجت. كنت أبحث عن أي مكان فيه خمر.

الساعة السادسة في ساعة الساحة.

حانة المحبة.

رجال ونساء بلا وجوه. صاحبة المحل توزع الضحكات الاصطناعية. الدخان التهم كل الهواء. الشرطي المكلف بالحراسة يتأمل الجميع بعينين بارزتين كمرصادين فلكيين.

وطلبت ويسكي. أشعلت سيجارة.

جاءت امرأة وجلست على الكرسي المجاور. لم أهتم. طلبت مني أن أشعل سيجارتها الأمريكية. لم أفعل.

ضحكت.

سألتها:

ماذا تشربين ؟

قالت بفرنسية راقية:

ما تشرب.

ناديت صاحبة البار:

ضيفي هذه الفتاة الجميلة.

ضحكت المرأة بدلال مفتعل.

قلت لها:

غني لي:

وقلت لصاحبة البار:

ضعي فوق طاولتي زجاجة ويسكي وراقبي كأسينا لتملأيهما في الوقت المناسب.

قالت:

نعم سيدي، بفرنسية جميلة.

سألت المرأة التي بجانبي:

لماذا لا تتكلمون إلا بالفرنسية ؟

ابتسمت ولم تجب.

قلت لها:

-غني لي.

أخذت تغني لي أغنية لأم كلثوم. تذكرت الشيخة.

قلت:

-غني لي الأغنية التي مطلعها: دابا يجيك ألحبيبة، الـذي يـأتي ولا يأتي.

قالت:

-قديمة، لا أعرفها، تتحدث عن ماذا ؟

قلت:

-عن غودو، هل تعرفين غودو ؟

أجابت بجد:

-طبعا، ومن لا يعرفه، حتى الصغيرات صرن يعرفنه، يعرفن أسماءه من الروض العاطر، وأشكاله من كتب الجنس المنتشرة في الأسواق.

قلت:

-ذكية، ذكية جدا. جيد. جيد جدا. غني أي شيء. غني بصوت عال.

أخذت تغني أغنية عبد الحليم: قارئة الفنجان.

تدخل الشرطي:

-اخفضي صوتك، إنك تزعجين الزبائن.

قلت في نفسي:

هذه المناسبة.

فقلت للمرأة غني بصوت أعلى.

التفت إلي الشرطي.

-قلنا لها غني بصوت منخفض.

قلت للمراة:

-قلنا لك غني بصوت عال. نحن في بار ونريد أن ننسى الآخـرين، هؤلاء جميعا غير موجودين، لا يوجد إلا أنا وأنت، غني.

هزني الشرطي من عنقي:

-تسخر مني.

وهزني أكثر.

تناولت زجاجة الويسكي. هويت بها على رأسه بكل ما أوتيـت مـن قوة، ولم أعد أذكر ما حدث بعد هذا مباشرة.

3-دوائر وضلع واحد في حالة الإمكان

قـــالت وصفية عندمـــا رأتني أتحـــدث مع أعضاء حركة سياسية ولدت ميتة:

احذر !

قد يسرقون طفولتك، في أية لحظة يمكن أن يسرقوا طفولتك.

-أية طفولة تعنين؟

ولدت في لا مكان، نتيجة رغبة عابرة مجنونـــة. بـــين امـــرأة فـــي الأربعين وشاب في العشرين (أنا أعرفهما جيدا، بل أستطيع أن أتصـــورهما. كان يحبها وتحبه. لكنها كانت تحمل جرحا لم يعرفه أحد. كانت العلاقة ثورية ومخيفة، من الصعب أن تحتمل).

في حفرة عميقة بعيدة عن أرجل الناس رمتني أمي وانتحرت وهـــاجر أبي بعد أن حامت حوله الشبهات وهدد بالاغتيال من طرف جدي.

ظلوا مهتمين بذواتهم، لم يتوفر لديهم من الإنسانية ما يجعلهم يهتمـــون بي.

مرت شيخة فوق حمارها قرب الحفرة وسمعت صوتي فالتقطتني.

هذا الوشم الأول الذي حدث في القلب، أو في الجسد، لست أدري، لكن الضربات تتالت بعد هذا حتى صار القلب مجرد قطعة مخرمة تشبه المرمى الذي يتعلم فيه الجنود المبتدؤون فن الرماية. ثم اجتمعت الآثار في الداخل وكونت ثقبا مدورا بحجم الوطن، بحجم الأرض.

وما الأرض إلا خبزة مستديرة معروقة يدمع صهدها العين وتكوي حرارتها الرجلين. الأرض لا تدور أقسم لكم أن الأرض لا تدور، توقفت الأرض عن الدورات، كيف يمكن أن تدور الأرض في زمن معلق بين

مستحيلين، كالتاريخ العربي، زمن متوقف كالناعورة المعطلة بعد أن نفذ من بيت آلياتها الزيت ؟ هذا زمنكم كما ترسم مداراته داخل آبار النفط لا كما تراه عرافة الحي الشعبي.

أما زمني أنا فمستدير مغلق، يبدأ هذا الزمن من متاهة ليدخل متاهة أخرى مغلقة كالعصفور السجين داخل قفص من عدة متاهات داخلية.

زمني أزمان.

الزمن الأول جرح.

الزمن الثاني قيح.

الزمن الثالث عصا.

الزمن الرابع شفرة حلاقة من النوع الرخيص.

الزمن الخامس مؤامرة.

الزمن السادس غول.

كل الأزمنة ضربات، كل الضربات متاهات، كل المتاهات بلا حدود. داخل كل متاهة ثعبان يحب اللحم البشري. كل ثعبان يلد الأرضة.

هذه هي الذاكرة، مجموعة من المغاور التي تشبه بأسنانها فم قرش خرافي لا يشبع.

كيف يتنفس الطفل داخل هذا الكابوس حين كان صغيرا أو حين كبر ؟

ممنوع أن تتنفس، أن تقف. إجر.

كيف يخطو الطفل فوق الجمر، داخل الجروح التي تعفنت وسط القيح الذي صار بركة يسبح فيها العالم، تحت العصا التي تمتد إلى الجسد خازوقا، أمام الغول الذي يفتح ذراعيه وقد تنكر في شكل امرأة ؟

ليس هذا هو المهم !

كيف يختصر الجسد مسافات المتاهات ويصل إلى قارب الاستمرار الذي لا ينتظر أحدا ؟ المهم هو الاستمرار، في أي شكل من الأشكال بعد أن صارت كل الأشكال بدورها متاهات.

دخلنا جميعا هذا القارب الصغير رغم أننا لا نشعر بوجوده دائما. لكن الداخل بحر عميق هادر لأن المد والجزر في الخارج أقوى من كل بحر.

لا توجد إلا الشمس والقمر، فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ارفع رجلك اليسرى وبل على بوابة العالم الكبرى، فالحياة لا تصبح مأساوية إلا لأننا نعطيها من القيمة أكثر مما تستحق، أو ننتظر منها أكثر مما يمكن أن تعطي.

وحين تتعود على هذا، اخلع سروالك أو امش عاريا ولا تهتم، فليس في هذا الكون ما يستحق أن تعطى له قيمة على حساب غيره.

أريدك خاليا إلا من الهواء، غير مهتم ولا مبال بأي شيء، هل يمكن أن يتحقق هذا العدم العذب ؟ بل كيف تحقق هذا العدم الجحيم ؟

قلت لكم إنه لا يوجد لا الشمس والقمر، وحين يوجدان يغلق البحر، وحين يظهر البحر يكون المد والجزر، وحين يكون المد والجزر يكون العالم العربي، وحين يوجد العالم العربي يخلق الإنسان.

وهذا في أنفسكم فاعتبروا أيها المستديرون التائهون. أيها المؤسساتيون.

هكذا خلق الشيطان نقيضا للإنسان في شكل متاهات.

وخلق الإنسان في شكل معاناة، ولهما خلقت بقية الكائنات. ومن ذلك تم التركيب، وكانت المدارات والحفر والمتاهات.

وتكلم الإنسان عن المثلث.

أذكر أني كنت أريد أن أحب، أن أتعلم لأصيرا أستاذا، أعمل لأكون إنسانا، أن أعيش مع الآخرين ولهم لأكون أكثر من إنسان، ليكون مثلثي متساوي الأضلاع.

لم يكن يهمني التميز أو التفوق، كان يهمني فقط أن يصير لي مثلث متساوي الأضلاع. وأذكر أني قلت مرة لأستاذ العربية:

الحياة مثلث يا أستاذ، مثلث له طبعا ثلاثة أضلاع يمكن أن تكون متساوية، هذا أمر يتوقف على الإنسان وعلى ظروفه، لكن الحياة لا يمكن أن تكون حياة إلا إذا صارت لها ثلاثة أضلاع: الحب والعمل والعلاقات الإنسانية.

أعني بالحب كل ما يجعلك تتحقق من خلال واحد آخر غيرك سواء كان أما أو أبا أو أختا أو زوجة أو أي حبيب أو حبيبة.

وأعني بالعمل كل ما يجعلك تتحقق من خلال العطاء للآخرين، كل ما يجعلك تبدع لتتحقق كذات مبتكرة.

وأعني بالعلاقات الإنسانية كل ما يجمعك بالآخرين: صداقة أو زمالة أو هدفا مشتركا أو ما شابهه.

إننا يا أستاذ حين لا تتوفر لدينا هذه العناصر الثلاثة نكون ذوي بعدين. الإنسان يا أستاذ ذو ثلاثة أبعاد رئيسية.

وإذا شئت حياة أكثر إنسانية يمكنك أن تقسم كل بعد رئيسي إلى ثلاثة أبعاد أخرى، وكل بعد جديد إلى ثلاثة أخرى، غير أني اكتفي بالأبعاد الثلاثة. فأنا لست مثاليا، أريد فقط أن يظل الإنسان إنسانا. كما يريد هو ذاته في أعماقه أن يكون. وأنا آسف لأني مازال ينقصني التعبير كما تقول يا أستاذ. لكني على يقين من أنك تفهمني وأنك ستشرح لزملائي بشكل أفضل.

كان يستمع إلي بانبهار تام. وحين أكملت قال:

الولد صار فيلسوفا، احذر يا ولدي الفلسفة فهي أساس السفه والانحلال، صاحبها لا محالة تفسد أخلاقه، وتفسد أذواقه، يبتعد بالضرورة عن الطريق المستقيم، يضل عن طريق الحياة القويم، يكون في الدنيا من الحائرين، وفي الآخرة يصير، الخاسرين.

ردد هذا أكثر من عشر مرات حتى حفظناه، ثم شرع يذكر لي أمثلة الفلاسفة والمفكرين الذين أهلكتهم الفلسفة حتى اقتنع برأيه جميع الزملاء.

لكنه حين أمسك عن الكلام كان قد فتح جرحا آخر، ثقبا عميقا بأسنان:

إن تفكر، هذا حرام.

لأول مرة كنت أرى إنسانا في غير هيئة الإنسان:

يمنع التفكير، يمنع الصدق مع الأستاذ، لا يسمح إلا بالكذب، سواء كان هذا الكذب شخصيا أو منقولا عن الآخرين.

كنت أرى فيه قردا. الأستاذ الممتاز هو من يقدر على الكذب أكثر من غيره أو يكثر من الاعتماد على من كذب على غيره قبله.

قل لا واسلم بقول المثل الشعبي:

كنت أرى فيه أرضه تزن طنا !

الأستاذ يكذب والتلميذ يكذب، هذا فن التعليم. من يقول الصدق ليس له مكان في المدرسة. صرت أرى في كل أستاذ أرضه تزن طنا. فانقطع حبل الكذب بيني وبين الأساتذة والتلاميذ. لم أكن حينئذ قد قرأت أي كتاب، لا في الفلسفة ولا في أي علم من العلوم. ذلك اليوم كان اللقيط هو الذي يتكلم. لكن من يفهم لقيطا ؟

مع ذلك يصر اللقطاء على الكلام كما يصر العميان على تعلم الكذب من المدرسة.

اكذبوا على من تشاؤون،أنا لن أستطيع أن أكذب على أية سلطة، لا في الأرض ولا في السماء، لا المدرسة ولا الجريدة ولا المذياع، أي شيء في الخارج أو في الداخل.

ولكنني لست مستعدا لمناقشة أية سلطة تقوم على الكذب، فلا أحد منهم يمكن أن يفهم لقيطا، غسل الدماغ !

عند باب المدرسة سألت زميلا كانت قد بدأت صداقة بيني وبينه:

-هل فهمت ما قلت ؟

أجاب:

-فهمت الأستاذ، الفلسفة يا أخي بحر لا يمكن أن يدخله إلا المجانين. ثم هل يفهم طفل ما لا يفهمه الأستاذ ؟ لا تكلمني في هذا أو في مثله بعد الآن. أريد أن أظل بعيدا عن هذا الصراع.-لا أريد أن أفهم أو أتعمق في الفهم. أبي نصحني بهذا كل يوم.

وقطع حبل الصداقة بيننا لينحاز إلى صف الكذب.

للكذب ألوان. اختار أحسنها: ألا يفكر.

قلت لنفسي:

مثلثك صنعه مجنون، بضلع واحد ما زال في حالة الإمكان. ودخلت متاهاتي لألعب بها كطفل يلعب بحبل ..

دخلت متاهة الحفرة البعيدة التي ذهبت إليها مرارا لأراها عن كثب...

فمن يكتب ؟

مازال ضلع في حالة الإمكان، هذا الذي يهمني الآن ..

غير أنك تحيرني يا أنا:

من العذاب يخرج الإنسان، فأين إنسانك ؟

هذا ما لا تستطيع تصوره، لا أنت ولا الكتب كيفما كان لونها.

4-وصفية شفرة الحلاقة التي في الحلق والعين

نعم ...

هكذا وصفية...

ضميني إليك...

افتحي فخذيك. افتحي أكثر...

ثم اسكبي بداخلي كل حرارة جسدك المقدس...

اصهريني.ودعيني أصل، أنسكب من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك.

اتركيني هكذا ساعة أو يوما أو شهرا أو سنة.

اتركيني هكذا كل عمري، اتركيني أتحد فيك لأصرخ بعد الإشراق:

ها ضلعي الأول قد خرج من حالة الإمكان، ليتحقق.

لأقول:

والله ما في هذا الجسد غير وصفية !

أنت يا وصفية لو تدرين قاعدة هذا المثلث الذي لم يستقم بعد، ولو كان كرة أرضية لكنت من مركزها.

مازالت المرأة مركز العام. دعيني أكن قيسا لتكوني العامرية، كوني كلاما عذبا لأكون القصيدة، كوني أي شيء لأكون، اجعلي مني زهرة وكوني الرحيق.

اختطفيني قبل أن تجرفني المتاهات وتلتهمني الأرضة.

كم تدور هذه المتاهات يا وصفية جامحة كالرغبة، مدمية كالانتظار.

آه، كم أشتاق إليك يا وصفية.

هذا الشوق سيكون من عسل يا وصفية.

زورق من ألم ناعم الملمس يتحرك في عروقي كقطار ليلـــي يســـير ببطء.

أزيلي السكين،أوقفي القارب، أوقفي القطار. إني أريدك. أشتهيك. أحب أن أكون إناء أنا فيه عصيرك. فلا تكوني يـــا وصـــفية ثمـــرة مستعصية.

وصفية الآن بعيدة،عالية ومشعة كالشمس.

وصفية شمس هذا الجسد البارد، الجسد القطبي، مفتوحة كالجرح.

وصفية الآن جرح. والجرح متاهـــة. والمتاهـــة تملأهـــا الأرضـــة. والأرضة شفرات حلاقة في الحلق والعين.

وصفية الآن عين كبيرة معلقة في السماء بعد أن فقأتها الأرضة.

وصفية الآن الضلع الثاني الذي تكسر وسال كبيضة نعامة.

وصفية، أعرف، رغبة لم تتحقق فصارت عذرية. علاقة لم تســـتهلك فصارت أبدية.

وصفية الآن وأمس وغدا وشمة في العين، والقلب المخـــرم، وشـــمة خضراء وسوداء على كل الجسد.

في الحافلة التي تقلنا إلى الجامعة قلت لها:

-أريد أن أبوح لك بسر أخشاه يا وصفية.

-تكلم، أخرجه، سيصبح من ورق عند إخراجه.

-أحبك يا وصفية. إذا شئت الدقة: أريدك. لست أقدر على تصور مـــا بعد هذا. لكني متأكد من أني أريدك حقا، واعتقد أن الحياة يجـــب أن تعـــاش أولا. بعد هذا يتحدد لون العلاقة. أنا صادق. صدقيني. وأنت تعرفينني جيـــدا. هل هناك أمل ؟

نظرت إلي طويلا. نظرة غامضة وغير مركزة:

-كل رجل جرح، جرح لا يمكن أن يشفى أبدا. أخاف مـن الجـراح، فلا أمل.

انتقلت قرب السائق وأخذت تشتكي له من الدنيا، ولما نزلت ناديتها فلم تهتم بي.

ليتك تعرفين يا وصفية أن كل امرأة جرح أيضا، كل امرأة جـرح لا يشفى. كل امرأة وشم. أقصد كل علاقة جرح. بل جرحان، جرح في بـدايتها وجرح في نهايتها.

لا أدري إن كان هناك جرحٌ بين البداية والنهاية. بل من يسـتطيع أن يتكلم عن نهاية ؟

جرح مستمر عميق أنت لا بداية له ولا نهاية. متى تزال السكين ؟

وصفية جسد من مغناطيس. حين تظهر، حين تقترب، حين أتصورها يصبح كل المجال الذي بيننا، كل المجال الذي حولنا، مجالا كهرطيسيا.

مجرد طيف أو شبيه لوصفية يثير التيار.

وصفية كل لغتها إحساس. وصفية تتقن كل لغات الإحساس.

منذ البداية كنت أخشى هذا البحر المتموج إحساسا. أحـدس أن وراءه أو تحته سر كبير، أنه سيجرفني .

لكني لم أقاوم. استسلمت.

قلت لوصفية ونحن في مطعم الجامعة:

-ألا يزعجك هذا الإحساس ؟

ابتسمت. تابعت:

-احذري يا وصفية هذا الإحساس. يخيل إلي أن الذي يتعامل بالإحساس كثير السعادة، كثير الشقاء، يكره بسرعة. يريد بسرعة، يمل بسرعة. لابد من قليل من العقلنة.

قالت وصفية وهي تنظر إلى الطعام دون أن تمد يدها إليه:

-أنا أحب بسرعة. أمل بسرعة. لكني لا أكره...

لم أكره قط رجلا سبق أن أحببته، بل على العكس أستمر في حبي له بنفس القدر الذي أحب به الذي يعوضه. الرغبة وحدها تنقص أو تزيد. أعني، أمل ثم أعود لأشتاق إليه. لذلك يصير كل الرجال جراحا مفتوحة.

أما عن الخوف فلا أرى ما يمكن أن أخاف منه، إني أتحدث بلغة خاصة. الفرق بيني وبين الأخريات كالفرق بين من يتكلم العربية ومن يتكلم الفرنسية.

لكن اللغة يا وصفية ليست مجرد لغة.

-أعرف، وهذا موضوع آخر. قابل للنقاش.

وصفية حين تتكلم تخشى أن تجرح، تظن أنها تجرح. وصفية تحب كل الرجال، مسكونة بفضول اكتشاف الرجال. اعتقدوا أنها قحبة، وانتهت إلى الإيمان بما يقول عنها الآخرون. لكن هذا لم يزدها إلا فضولا في اكتشاف الرجال.

-أعرف سرك يا وصفية، أنت لغز، لكنني أعرف سر هذا اللغز، إنه الثقب المفتوح بالكاد، عظمة تسد الباب، باب الدنيا.

-إذن قله واتركني أمضي، فلا حياة مع رجل يعرف أكبر أسرارها.

تستغفلين. سرك ثقب، مجرد ثقب تعفن قبل أن يجرح. دائرة صغيرة صارت أسطوانة من فولاذ، لو أقدر على جرحه، على توسيعه قليلا، لو أن أي رجل يقدر على هذا، لو أن الثقب يسيل دما ليضع حدا للقيح...

أعرف أني عاجز عن ذلك، إن كل الرجال قد عجزوا عنه. لكنك مازلت تجرين وراءهم. لم تفقدي الأمل بعد. ويظل كل الرجال مشدودين إلى جرح أو قطرة دم لا يعرفون من أين تأتي، لم يظل العالم كله معلقا إلى ثقب ؟ لماذا نحن شعب يحب الدم في السلم، ويخاف منه في الحرب ؟

-إنك مخطئ، واهم. أنا أقسمت أمام الله، عاهدت نفسي على أن أظل عذراء من أجل زوجي الذي لم ألقه بعد. والله لن يدخله أحد قبله.

-تكذبين علي وتكذبين على نفسك. هذا أخطر. لماذا تخجلين من جسدك؟ ليس هناك من يخلو جسده من عيب.

إنه بالضبط ما يجعل منك جسدا كهرطيسيا. تعلمي كيف تقبلين عيوبك. هذه هي الخطوة الأولى نحو أن تصيري امرأة حقيقية. أقصد عادية أو طبيعية، أما إذا بقيت على ما أنت عليه فأنت ستشعرين دائما بخجل أمام من تحبين: ستهجرين كل من أحبك بسرعة كي لا يكتشف سرك. لا يجب أن تشعري أنك رجل في هيئة امرأة. لا يوجد رجل من غير بعض الأنوثة ولا امرأة بدون شيء من الرجولة. أما الجانب الذي يعقدك فهو بسيط.

-إنك تهذي، ترى الواقع بخيالك.

-لا تجعلي من الحبة قبة، أريدك طبيعية. كل الرجال في النهاية يريدونك طبيعية.

حين جاءت وصفية أول مرة إلى غرفتي في الحي الجامعي (رغم أن جناح الفتيان ممنوع على الفتيات) بكت ثم مسحت دموعها.

قالت:

أريد أن تكون صديقا، مجرد صديق. صديق حقيقي فقط. هل يمكن ؟

كنت أنصت إلى جسدها الذي لا يوجد أصدق منها، أما كلامها فكان لمجرد إخفاء بيان لغة الجسد.

فكرت قليلا في هذه الازدواجية ثم قلت:

-لا أستطيع، أنا أحبك يا وصفية، أريدك، أشتهيك، أريدك امرأة حقيقية، كما أنت وبلا تعقيدات، لماذا نقضي جزءا كبيرا في حياتنا في تعقيدات لا يمكن أن تكون لها علاقة بتلك التي تصلح أحيانا كتوابل للرغبات ؟

-أنا أيضا لن أستطيع، سأضطر إلى تركك وأنت في ذروة الرغبة. إني لا أملك ما يمكن أن أعطيه لرجل، ما يطلبه الرجل.

-وهل هناك مكان يمكن أن يريده الرجل ويفضله على غيره ؟ كل الأماكن قد تتشابه إذا توفر بعض النضج عند الرجل والمرأة، لأنهما قد لا يحتاجان إلى أي مكان. هل فهمت ما أريد قوله ؟

-كلكم هكذا في البداية، تتكلمون وكأنكم جامعيون حقيقيون. لكنكم في النهاية لا تستطيعون التغلب على بداوتكم، على الصحراء فيكم.

-هل أنت فعلا جامعية حقيقية ؟ هل .. ؟

تبحث وصفية عن قوة في سقف الغرفة، في أرض الغرفة، تحت السرير والكرسي والطاولة، بين الكتب وفي ثيابي، تبحث عن خيط، عن أي خيط، تمسك بالذي يظهر فجأة على سطح الوعي:

-والله ما فيكم من التقدمية إلا رائحتها، ما فيكم من الحضارة إلا طريقة قص الشعر وارتداء الثياب، مزقكم هذا الانتقال المفاجئ من الجمل إلى الطائرة، من الكتاب إلى الجامعة، من الريال إلى البترودولار. أنتم اللقلاق الذي أراد أن يقلد مشية الحمامة، ونحن ضحاياكم، نحن النساء ضحايا الرجال.

-تجاهلت العدوانية المقصودة، سلاح الضعيفة، العدوانية أو البكاء، تجاهلت كل الكلام الذي كان علي أن أقوله لها لدحض هذا الطرح المزيف لوضعية الرجل والمرأة.

قلت:

–المتاهات. هذه المشكلة الحقيقية.

ثم صمت قليلا. أخذت تبكي، ارتمت فوق السرير، دفنت وجهها داخل الوسادة واستمرت تبكي.

قلت:

–اسمعي يا وصفية، يجب أن تنتهي هذه المهزلة، قولي السـر. قـولي ولا تخافي. كوني شجاعة لأحبك أكثر.

لم تتكلم. مازالت تبكي.

انتفضت:

–يجب أن تتكلمي !

قالت:

–أخاف أن تتركني.

–يستحيل.

–أن تحتقرني.

–غير ممكن.

–أن تستغل سري.

–لا يعقل.

–تعدني ؟

–أعدك، قولي.

–لست امرأة !

–كيف ؟

–لا أملك فرجا.

–كيف ؟

-لا يتعلق الأمر بالبكارة. هناك عظمة تسد الثقب.

-والبول ؟

-هناك فتحة صغيرة.

-ودم الحيض ؟

-نفس الفتحة.

إذن الأمر بسيط. مجرد عملية وتنتهي هذه المأساة.

-هذا ما يجعلني أجري وراء الرجال، أبحث عمن يكسر هذه العظمة. لكنهم يقولون إني قحبة. أريد أن أعيش كأي امرأة هل تعرف كم سني ؟

-قلت لك مجرد عملية، عملية بسيطة.

-أريد إجراءها في الخارج.

-لماذا ؟

-لست أدري، مجرد رغبة.

-نعمل ونجمع المال حتى نسافر معا، بعد هذا نصير رجلا وامرأة.

هكذا. اقتربي أكثر. ضميني إليك يا وصفية، اعصريني. هل تعجبك الشهدية ؟.

اشهقي أكثر. كوني طفلة متهتكة.

بل كوني امراة شبقة.

لا تخجلي من نفسك ولا مني، كوني طبيعية، ليس لممارسة الجنس مكان معين، ما أجمل هذه اليوغا الجنسية.

من الضروري أن يكف الإنسان عن تقليد الحيوان. كل نقط الجسم الأنثوي فروج. دعينا نمارس حيوانيتنا بشكل أرقى وألذ.

آه لو يموت فينا الحيوان !

-صديقاتي يسخرن مني. الرجال الذين عرفت قبلك احتقروني. أحدهم ضربني وقيدني ليغتصبني، فلما فشل قام وخرج عاريا إلى الشارع.

-بعد ثلاث سنوات نتخرج ونعمل ثم نسافر، إن شئت الصدق: أنا أفضلك هكذا، إنك طبيعية أكثر. قد يفقد جسدك بعض حرارته بعد العملية، وقد لا أحبك كما أحبك الآن. إني صادق.

اعلم حفظك الله أن الحب الدائم هو الحب الأول لأنه العلاقة التي نادرا ما تستهلك بشكل طبيعي، واعلم أعزك الله أنك لن تحب حقا إلا النساء اللائي يشبهن المرأة الأولى، قد تكون هذه المرأة أمك، يقول فرويد، وقد تكون أول فتاة، يقول عالم عربي لا نريد ذكر اسمه. وربما أن هذا الأخير أقرب إليك وإلي من الأول فإن قوله هو الصدق الممكن.

وهو يقول أيضا رحمه الله إن ما يعجبك في الأولى، صدرها مثلا أو شفتاها، هو ما يعجبك في الأخريات. والله أعلى وأعلم.

-تعرفين أنك لست أول فتاة، لكنني أعرف أنك ستكونين آخر فتاة، الفتاة التي ستطبعني، تلك التي لن أحس إلا من خلالها، نظاراتي.

-لا تكذب علي. ليس في حياة الرجل آخر امرأة أو فتاة، وليس في حياة المرأة آخر رجل أو فتى. هناك فقط المرأة التي تدوم أكثر من غيرها أو الرجل الذي يدوم أكثر من غيره، وعبر هذه الديمومة يمر رجال كثيرون أو نساء كثيرات.

-هذا ما أقصد بالضبط، هذا ما أقصد. لكنك حين تريدين تكونين أكثر قدرة على التعبير مني، أستاذ العربية كان يقول لي دائما: ينقصك التعبير.

حين وضعت رجلي فوق القاعدة وأردت أن أقف انهارت بقية المثلث. ليت تلك الرغبة توقفت عند بدايتها. ليتني ما أثرتك بذلك الشكل يا وصفية. ليتني صدقت زرقاء اليمامة حين تكلمت بصوتك.

-إن فيك جانبا مخيفا. تكسر كل شيء في ثانية بعد أن تكون قد قضيت في بنائه الأعوام. أنت في هذا تشبه الأطفال.

-ربما لأنني مكسر من الداخل، لأني واه كالعهن، لست أقوى من الطين. أظن أني أتصرف أحيانا كلاعب القمار الذي خسر كل شيء. أنت تعرفين أني مخرم.

-صحيح أنك موشوم. عدوى وشمك تنتقل إلى كل من يحيط بك.

نعم. هكذا. آه. اعصيريني. أصهريني. هل يمكن أن أذوب ؟ افتحي أكثر ودعيني أسيل، افتحي أكثر، لا تخافي. هذه العظمة أشد مقاومة من الحديد. آه. سأجن. لماذا لا تفعلين أي شيء لإزالتها ؟ موجة الرغبة بداخلي كفرس شبقية تركض. تركض، تركض. ليتها تتوقف، من أين كل هذا الدم ؟ افتحي أكثر، افتحي ... أكثر.

-وصفية ماتت!

-ماذا تقولين ؟

-وصفية ماتت.

-من ؟

قلت لك ماتت وصفية، هل تسمع ؟

-كفى مزاحا.

-أنت الذي تمزح.

يبدو أن اللعينة جادة، متأكدة مما تقول، هل مت حقا يا وصفية ؟ ولماذا تبكي صديقتك ؟ هل تغار منك ؟ فهمت، النساء ! الغيرة !

-وصفية ماتت. فتحت فرجها بشفرة حلاقة ثم أخرجت العظمة بكلاب وظلت تنزف حتى ماتت.

أنت المسؤول، أنت السبب!

-كاذبة، وصفية ليست مجنونة مثلك. وصفية تريد أن تمارس الجنس بشكل أرقى من طريقة الحيوان. وصفية امرأة متحررة من كل العقد الخبيثة. آه لو تقتربين أكثر يا وصفية، لو تفتحين فخذيك أكثر. بل اتركيني هكذا خارج ثقب الدم، هذا ثقب لدم حيض، ثقب للبول والولادة. أنت امرأة بلا فرج، امراة ليست في حاجة إلى فرج فلا تفتحي فخذيك لكي لا يسيل الدم. كوني امرأة طبيعية. وصفية ...

-ماذا بك هل جننت ؟ أنا لست وصفية، أنا زهرة، ثم من تكون وصفية هذه ؟ كلكم هكذا أيها الرجال، تستغلون امراة، تضحكون عليها، وتتجوزون من أخرى، أنا لست قحبة. هل تفهم ؟.

-أنا أقصد، أنت مخطئة إذا فهمت ...

-لا مخطئة ولا أي شيء. تمارس معي الجنس وتفكر في أخرى. لا تسأل عني بعد الآن، أنا ... أنا أكره رجلا يمارس العادة السرية المقنعة. أكره من ينام مع شخص وقلبه مع آخر. هل أنت مسلم حقا !؟.

-لو كنت مكانك لما قلت هذا. لو كنت مكانك أيتها العاهرة لذهبت أولا إلى طبيب جراح يفتح لي فرجي، ثم يزيل العظمة التي تشبه الجبل.

-أنا لو كنت مكانك لذهبت إلى طبيب يعالج عجزي الجنسي قبل أن أبحث عن أي امرأة لتنام معي.أنت معقد، عقدتك هذه التي تسميها وصفية. إنها ساحرة. لا شك أنها تعرف ساحرا يهوديا أو نصرانيا.

-زهرة !

-اخرس !

-زهرة !

-لا تسأل عني بعد الآن. هل فهمت ؟ لا أريد أن أراك.

زهرة !

-لعنة الله ...

نعم. ضميني هكذا يا وصفية. اسحقيني، ثم بدديني عبر ذرات جسدك الكهرطيسية، بل اسكنيني لكي تتحركي بداخلي كما تشائين.

فأنا لا أحب إلا أنت.

وأنا أعرف سر الحب العذري. ولكني لا أريد أن أفضحه أمام الناس، أمام نفسي، أنا أعرف أني في كل امراة سأراك.

أعرف أن كل النساء لا فروج لهن.

إنك الوحيدة التي تملكين فرجا حقيقيا.

ماذا تفعل الشيخة والعاهرة والعجوز بفروجهن ؟

ولماذا يصلح الفرج في هذا الزمن العنين ؟

أعرف أنك قد استغنيت عن الثقب الذي لا يصلح إلا لدم الحيض والولادة والبول.

أعرف أن كل النساء يجب أن يخلعن فروجهن العادية ليصرن نساء حقيقيات.

أعرف حين أضاجع، امرأة مثلك، أكون تام الرجولة. أعرف أني حين أضاجع امرأة تعتز بثقب الدم والولادة والبول أصاب بالعجز الجنسي المؤقت، أبكي، أضربها. أتمنى لو أني أستطيع قتلها. أفكر فيك.

أعرف أني من أجل هذا أكره المومسات والشيخات وأحب العذارى والعوانس. فهل كان من الضروري أن تستعملي شفرة الحلاقة والكلاب ؟.

عذبتني وصفية!

افتحي شفتيك قليلا. خربت نفسي. صوتك المجروح فتح فرجا أعمق في جسدي. صار الجرح متاهة، داخل المتاهة لا توجد إلا الأرضة، الأرضة تشبه سمكا خرافيا بأنياب طويلة لا يشبع. هذه الأرضة تأكلني، تأكل كل النساء الأخريات...

هذه الأرضة تشبه الدود الذي يأكل الآن جسدك داخل القبر. لكن ضميني، ضميني أكثر إليك. لماذا أنت باردة هذه الليلة ؟ ..

5-مؤامرة لتكسير الضلع الباقي

كنت قد رسمت صورة صغيرة للمؤسسة وأخذت أتأملها حين جاء شاوش المدير وطلب مني أن أحلق لحيتي وأن أضع ربطة عنق لأن سعادته يريدني بمكتبه. دجاجة تبيض ذهبا.

لكن بيضها يتدحرج بقدرة قادر ليستقر وراء البحر...

-استدعيتك بخصوص رسالتك. أعني طلب الزيادة في راتبك. إنك تعرف الوضع المالي لمؤسستنا. لقد نقصت أرباحنا بنسبة ثلاثين في المئة. هذه السنة. وذلك راجع كما تعرف إلى غلاء المواد الأولية الطارئ وارتفاع أجور العمال والأزمة العالية...

نحن في الواقع لم نعد ننظر إلى مصلحتنا وحدها، فمصلحتنا الحقيقية تقتضي أن نغلق المؤسسة لأننا بعد خمسة أعوام مهددون بالإفلاس التام إذا لم يتغير الوضع الدولي أو على الأقل الوضع المحلي...

أنتم بدوركم مطالبون بألا تروا إلا مصلحتكم. إذا تحسنت الأحوال أعدك بزيادة عشرين في المئة بعد سنة.

-أفهم كل هذا، لكن قوتنا الشرائية تضاءلت جدا، الكراء، الملابس، الأكل. تعرفون إلى أي حد وصل معدل الارتفاع. نحن لم نعد نأكل يا سعادة المدير، صرنا نراوغ أمعاءنا، نكذب على معدتنا. أخشى إن ظلت الأمور على ما هي عليه أن تسقط أسناننا، أن يتعطل كل الجهاز الهضمي، فالعضو الذي لا يستعمل يضمر أي ينقرض كما تعرفون المسألة بالنسبة لنا مسألة بقاء يا أستاذ. لا أقل ولا أكثر...

ساعدونا على البقاء لتبقوا أدام الله عزكم، هذا كل ما نطلب، والسلام.

-وضعيتكم بالنسبة لموظفي الدولة، المعلمين والممرضين ورجال الشرطة والجيش والبريد ... الخ وضعيتكم أحسن بكثير كما تعرف...

ثم، هل هناك مؤسسة بإمكانها أن تزيد في أجور مستخدميها ولا تزيد؟ أليس من مصلحتها أن تزيد في أجورهم، بل أن تخصص لهم مكافآت ؟.

-أعرف من يرى عكس ما ترون يا سعادة المدير. هناك أصحاب شركات يرون أن العامل إذا شبع أصيب بالكسل فيقل إنتاجه...

العامل في نظركم ذو معدة لا تحتمل كثيرا من الطعام والشراب. يرون إذن أنه من مصلحتكم ألا يأكل العامل إلا بالقدر الذي يسمح له بألا يموت جوعا...

أنا بدوري لا أريد سوى أن أظل على قيد الحياة، لا أريد غير زيادة تضمن لي بأن أظل في منزلة بين المنزلتين: الشبع والجوع، وهذا طبعا في مصلحة المؤسسة...

إذن أنا أيضا لم أعد أفكر إلا في مصلحة المؤسسة، أرجو أن تصدقوا هذا القول لأنه عين الحقيقة.

(أوديت مع ذلك تأكل حتى تشبع. جرار يرمي أحيانا بدجاجة كاملة في سلة الأزبال. هؤلاء جميعا مازالوا يأكلون جيدا ويشربون نبيذا ممتازا. مازالوا يسافرون باستمرار، يقرأون كثيرا. مازالوا يسكنون في شقق أو فيلات فخمة، مازالوا يغيرون سياراتهم مرة كل عامين أو ثلاث رغم أن مستواهم الثقافي أقل من مستواي بكثير).

-أنا لم استدعك لتلقي علي محاضرة أو لتعلمني ما لا أرعف.

-وأنا لم أكتب إليك لأطلب مزيدا من الكلام، طلبت زيادة في راتبي.

-مرفوضة، تفضل، كل الزيادات مجمدة. تفضل.

-إذن، هذه استقالتي. كونوا على يقين أني لن أندم أو أتراجع.

-مرفوضة مؤقتا، قلت لك، ألا يمكن أن تمهلنا ؟

-نعطيك عشرة في المائة هذه السنة، خمسة في السنة المقبلة، والخمسة الباقية ...

-أريد عشرين في المائة، إنها أقل ما يمكن للمحافظة على القدرة على تحمل الجوع. هل تريدون أن أنهار قبل الأوان؟

-سيطالبون، الآخرون، بأربعين. لن يغلق هذا الباب إذا فتح، تعقل.

-هذه مشكلتك. مشكلتي أني أريد أن أحافظ على قدرتي، على مقاومة الجوع، على مراوغته. راتبي لم يعرف الزيادة منذ أربعة أعوام.

-نعطيك العشرين مقابل ساعتين إضافيتين في اليوم.

-أقبل، ولكن هل من مصلحة المؤسسة أن أعمل ستين ساعة في الأسبوع الواحد ؟ هل تعرفون القوانين جيدا ؟.

-نحن أدرى بمصلحة المؤسسة. ومن قال لك أنك ستعمل بالمؤسسة أثناء الساعات الإضافية ؟ إنك ستعطي خلالها دروسا خصوصية في الرياضيات لابنتي ياسمين. امض على العقدة وتفضل.

-زوجتك موافقة على هذا ؟ ومجلس الإدارة ؟

ومفتش الشغل ؟

-تفضل إنك ستبدأ غدا زوالا. تفضل قلت لك. قطعت الممر الفاصل بين مكتبي ومكتب المدير وأنا أفكر في زوجته وأتصبب عرقا. نزلت الدرج المؤدي إلى حيث الآلات والعمال.

كل العمال متوقفون عن العمل، صامتون، واقفون كتماثل من قماش أكلها العرق والشمس والوسخ. كانوا صامتين يحملون لافتات عليها صورة الجهاز الهضمي وقد كتب تحته للبيع.

أحدهم كتب بالفرنسية: الإصلاح مضمون بعد البيع.

آخر كتب: للاستبدال بآخر يشتغل بالكلام أو بالماء أو بالهواء.

السمين كتب: من رأى منكم هذا الجهاز فليرده إلى صاحبه الساكن بالعنوان التالي أو يسلمه إلى المقاطعة العاشرة وله جزيل الأجر والثواب.

كتبت امرأة: نبيعه لنشتري عينا تقوم مقامه.

كتب أقصرهم: نعطيك مقابل سمك أو لحم للأطفال.

كتبت العانس: أعطوني رجلا يعمل مكاني وخذوه.

كتب رئيسهم: مات رحمه الله منذ زمان ولم يجد من يدفنه.

لم أفهم، أردت أن أفهم:

ماذا حدث لعقول هؤلاء الناس ؟.

كنت معلقا بالباب. جاءوا واقتلعوني. وضعوا في يدي لافتة. كتب أحدهم بالأحمر على اللافتة: هذا الجهاز مازال في حالة تمرن على الضروري من الخبز والشاي.

صاحوا جميعا:

امش.

دفعوني.

مشيت.

فكرت في العشرين في المائة.

ضاع ثمن اللحم. ضاع عقلي.

خرج المدير.

عاد إلى مكتبه.

خرج من جديد. عاد إلى مكتبه.

ظل هكذا يخرج ويدخل حتى سمعنا سيارات الشرطة تقترب.

نزل الرجال الأشداء من سياراتهم تتقدمهم بنادقهم.

كنت في المقدمة.

اقتربوا منا. لم نتحرك.

استغربوا. تبادلوا النظرات. توقفوا عن الزحف حولنا.

قال المدير.

-هذا هو الدينامو، وأشار إلي، الرأس المحرك. أما الباقون فأبرياء.

غرربهم.

ثم اقترب مني وأدخل في جيبي كومة أوراق ثم أخرجها. رفعها قرب عينه وقال:

-أمس سرق مليونين. لم نعثر على ما سرقه بالأمس. لكن مخابراتي اكتشفت سرقة اليوم في حينها. إنه يريد أن يضحك عليكم يا عمالي الأبرياء. هذا كلب ابن كلب. عودوا إلى عملكم.

بعد هذا ألقي خطبة عصماء أظهر فيها امتلاكه لجانب من مواهب الحجاج بن يوسف الثقفي وجانب من مواهب هتلر وجانب من مواهب الملكة التي قيل لها:

إن الشعب لا يجد الخبز.

فقالت:

ليأكل البسكوي.

ثم قال مختتما خطبته:

-الرجل القنوع مثله مثل الرجل الثري. هذا يملك المال وذاك يملك القناعة. كلاهما يملكان فانصرفوا يا عباد الله حفظكم الله من شر المال وتبعاته.

انصرفوا في الحين وهم رافعون لافتاتهم. لكني لم أراهم يدخلون.

وفي مكتبه قال لي عميد الشرطة:

-أعترف ودعنا ننهي هذه المسألة.

قلت:

-إنني متعب، متعب جدا يا سيادة العميد. وإني لأرى رأسي قد حان أوان قطافها وليس لدي والله ما أقوله.

قال:

-كما تشاء. لكن من مصلحتك أن تتكلم وأنا هنا.

لم أهتم. فأمرهم أن يدخلوني إلى غرفة صغيرة.

استغربت كيف نمت في هذه الغرفة.

غير انه في المساء جاء أحد مفتشي الشرطة مع مساعديه. أشبعني ضربا قبل أن يطرح علي أي سؤال. ثم أخذ يشتمني طالبا مني أن أعترف.

-بماذا أعترف؟

أعترف إني جائع، إني لم أعد أنام نوما هادئا وبالقدر الضروري.

أعترف أني لم أؤد واجب الكراء منذ شهرين.

أعترف أني لم أعد بحاجة إلى جهازي الهضمي وأن العمال كانوا على حق حين أعطوني لافتة لأحملها مثلهم.

أعترف أن جيوبي تصير فارغة منذ ثالث يوم من كل شهر.

لأعترف أني لم أعد قادرا على التنفس.

أعترف أني أصبحت عاجزا عن الحب، عن ممارسة التفكير والجنس.

أعترف باختصار إني صرت زائدا. فماذا تريدون أيضا؟ ماذا تريدون أن أقول غير هذا؟ المتاهات؟

قال:

-تكتب رسالة استعطاف إلى مديرك ورسالة اعتذار.

قلت:

-أكتبها، أعطوني ورقة وقلما.

وكتبت:

-سيدي ومولاي وصاحب كل الفضل والنعم علي، سعادة المدير. باسم الأرض التي تمتد من الخليج إلى المحيط كما يمتد الجهاز الهضمي من اليد إلى المرحاض،

باسم دار لقمان الباردة المظلمة التي تشبه تعبي،

باسم النفط والملح والولايات المتحدة الأمريكية التي ستأتينا بكباب نويل أو سيدنا قدر بالرفاه والأمان،

باسم العرائس التي تملأ ساحات الوطن العربي الملغوم ضحكا ونكتا وعربدة وهز بطن،

باسم كل المتاهات والجروح المقدسة التي تشبه الدوامة وتجعل منا أمة واحدة خارج كل الشعارات،

باسم هذا القلم الذي جعله الإنسان بلا جهاز هضمي ولا فرج ولا قلب لكي لا يتعذب،

باسم كل خنثى وشيخة ومومس وكلب فقد لحم جسده،

باسم المخابرات العلمية والمرتزقة وبيغن العربي وانور الاسرائيلي،

باسم كل الأرض التي في داخلي وخارجي،

باسم الشعارات والخيانات والخوف والدم والقمع،

باسم ما تعرفون وكل ما لا تعرفون أناشدكم أن تعفوا عني وتغفروا لي ما تقدم وما تأخر وتتموا نعمتكم علي بالرضى والمحبة والساعات الإضافية، لكل هذا وذاك أطلب منكم أن تجعلوا مني أحد مستخدميكم المقربين في جهاز المخابرات وتكسير الاضراب، ألتمس منكم أن تساعدوني على البقاء

بإبقائي في عملي وإن شئتم أن تتراجعوا على العشرين في المئـــة، تراجعـــوا فستجدوني إنشاء الله من الصابرين.

وتقبلوا قبلاتي لحذائكم الملمع وعواطفي الصـــادقة بشـــأن ملابســـكم الداخلية وسيجاركم الطويل وجواربكم الملونة.

هل نسيت شيئا ؟

قال:

-الإسم والإمضاء.

تدخل العميد:

-اطلقوا سراحه الآن.

قلت:

-شكرا سيدي العميد، جئتم في الوقت المناسب والله، دعـــوني أقبـــل حذائكم، الله، ما أجمله !

قال:

-ممنوع من السفر والخروج من البيت إلى أن ينتهي التحقيق.

قلت:

-حاضر، هذه مناسبة عظيمة لأقوم بإحصاء قطرات الماء التي تنـــزل من الحنفية كل يوم.

كانوا بالباب، حين خرجت .. يحملون لافتاتهم ويصيحون ؟

-نريد أخانا، ردوا أخانا، ردوا عبد الرحيم.

عدت إلى الداخل:

-سيدي العميد احموني، احموني من هؤلاء، إنهم ســـيعطونني لافتـــة وسيدفعونني فأمشي أمامهم فيظن من يراني أني الزعيم.

قال:

-لا تخف، نحن هنا لحماية أمثالك.

وأمر رجلين بمرافقتي.

لكن حين خرجنا لم نجد أحدا.

-أين ذهبوا ؟

قال لي أحد الرجلين ..

-لا أحد، لا يوجد أحد. انصرف.

ثم قال لصاحبه:

-يبدو ان الرجل مجنون.

انصرف الرجلان، عادا إلى الداخل وبسرعة انتصب أصحاب اللافتات أمامي:

-قل معنا.

تساءلت:

-ماذا أقول ؟

أجابوا:

-أي شيء. المهم أن تتحرك معنا وعندما تتحرك ستفهم ماذا يجب أن نقول.

ودفعوا بي إلى الأمام.

وصلت إلى جانب الرئيس. أخذت أصيح.

-الاستقالة الاستقالة أعطوني حقي في أن أستقيل.

ثم ما لبثت أن غيرت هذا الشعار بشعارات أخرى لا أذكرها.

أما هم فقد كانوا يطالبون بالزيادة في الأجور وبأشياء أخرى لم أفهمها.

صرت كل يوم أراهم ينادون على حين أطل عليهم من النافذة. أقفلت كل النوافذ والأبواب وأخذت أشتغل بإحصاء قطرات الماء التي تسيل من الحنفية حين تغلق. قضيت في هذا العمل أكثر من أسبوع. وحين وقفت على الثوابت والمتغيرات في حركة الماء قررت أن أكتب إلى المدير:

سيدي الكريم، أسعدني جدا قراركم بالعفو عني وتأسفت لكونكم لم تجدوا السارق الحقيقي بعد. أسعدني أيضا قراركم بالزيادة في راتبي ورد الاعتبار إلي. غير أني أجدني مضطرا مع الأسف لأخباركم بأني سأنقطع عن عملي نهائيا ابتداء من تاريخ توصلكم بهذه الرسالة وذلك للأسباب التالية:

1-ضآلة نسبة الزيادة الحالية التي رفعتموها إلى خمسة وعشرين في المئة بينما ارتفعت تكاليف المعيشة بعد قرار الزيادة بنسبة جديدة تقارب الثلاثين في المئة.

2-عدم جدوى أية زيادة في الظروف الحالية ولو وصلت إلى نسبة مائة في المائة.

3-صعوبة تحقيق ذاتي في العمل الذي أقوم به حاليا وفي كل الأعمال التي كلفتموني بها سابقا.

4-استحالة بناء المثلث الذي تكسرت كل أضلاعه في الظروف الراهنة ولم يعد لي أي أمل في بنائه من جديد.

5-محاصرة العمال لي ليل نهار كي أكون واحدا منهم

وتقبلوا سيدي ...

6-الشيخة، القمة المستحيلة

-« ماتت أمك ».

-« ماتت وصفية ».

-أمك ماتت.

« مات أبوك ».

« أمك ماتت ».

ركضت.كان الطفل داخلي يركض. يـركض. يـركض داخـل كـل المتاهات. لكن الحصان المثخن بالجراح ما لبث أن توقف، أن أخضع للجـام الاستمرار.

وأنا أعانق هذا وأقبل ذلك، وأنا أتصنع البكاء مع هذه أو أتقبل تعازي تلك، وأنا أرمى من أيد إلى أيد، ومن وجه إلى وجه، ومن فم إلى فم، لم أكـن أشعر بالحزن الحقيقي، الحزن الذي يعذب. كنت مرتاحا تقريبا.

لقد ارتاحت العجوز، ارتاحت ذلك الثقب الكبير من الخوازيق، وهـو أمر يجب أن أفرح له. لكني كنت مرتبكا جدا لأني لم أعرف كيف أرد علـى التعازي. من أين يأتون بكل تلك العبارات التي ينطقونها بشكل يجعلهم يبـدون وكأنهم يعزون أنفسهم، أي يبكون أنفسهم ؟

المآتم مناسبة للبكاء على الجميع.

ماذا أضعت ؟ منذ مدة لم تعد العجوز سوى قمـة مسـتحيلة للمثلـث المستحيل.

حاولت جهدها أن تكون أما حقيقية، أن تكون أبا وأختا، أن تكون كـل شيء لأكون لها كل شيء.

أعترف أنها نجحت في هذا بشكل من الأشكال. أصرت على أن تنجح بأي شكل من الأشكال. ضحت بكل شيء لكي تنجح. لم أكن أشجعها. لكني انتهيت إلى مناداتها بلفظ أمي وكأنها أمي حقا.

غير أني حين التحقت بالجامعة نسيتها تماما. وعندما أتذكر ها من حين لآخر أتذكرها كامرأة لها علي دين لابد أن أرده ذات يوم. هي أيضا لم تكن تطلب الكثير. كانت كل أمنيتها أن أتخرج وأعمل فأرسلها إلى الحج لكي تغسل عظامها، كما تقول، وأن أتركها بعد ذلك معي في البيت لتسهر على تربيته، أي تصير خادمة لي، خادمة لزوجتي إذا تزوجت. تريد أن تموت على طاعة الله ورسوله، أن تصلي حتى يقبل الله توبتها...

كانت تقول باستمرار ومن غير مناسبة:

-سيغفر لي الله كل ذنوبي لأني سأجعل منك عالما. ولأنه يحب العلماء لا يمكن أن يرفض لك طلب إدخالي إلى الجنة.

كانت نظرتها إلى الله كنظرتها إلى الحاكم الذي يقضي على شيء بالرشوة أو الوساطة، لم أرد أن أغير من نظرتها هذه لأنني كنت على يقين من أني لن أفلح في مثل هذا الأمر. تركتها تتوسل إليه بواسطة الأولياء والصالحين وأحيانا بواسطة صاحباتها أو بواسطة المجانين. لم أكن أتدخل. المهم أنها تتمسك بشيء. لا يمكن لامرأة مثلها أن تعيش من غير شيء تتمسك به. وهي من أجل هذه الغاية تستعمل كل الوسائل.

لقد أخذتني مرة إلى ضريح تهدم أكثره. ضمتني إلى صدرها وأخذت تبكي وتقول:

-ربي هبني كنزا أو مهنة شريفة كي أتفرغ لعبادتك وتربية هذا اليتيم، ربي إني لم أعد قادرة على الغناء والرقص وتحريك الخوازيق فلا تخيب رجائي فيك.

انتفضت حين رأيتها تغرق في الدموع والتراب وتغرقني معها.

-إنك واهمة، لو كان ربك قادرا كما تظنين لوفر لك الخبز واللحم واللباس لتكوني امرأة فاضلة، ألم تسمعي بأن السماء لا تمطر لا ذهبا ولا فضة ؟

انتصبت غاضبة:

-استغفر الله، ربي لا تؤاخذه. إنه صبي، والصبيان عندك مثل الملائكة. ربي تعرف أنها المدرسة، الشر الذي لا بد منه في أيامنا ..

وبكت فندمت على ما قلت وطلبت المغفرة من الله ولم أمس بعد ذلك معتقداتها. فضمتني وبكت من جديد حين قلت لها:

-ربما كان الله موجودا !

عندما التحقت بالجامعة كانت قد أشرفت على الستين. لم تعد صالحة لمهنة المومس ولا لمهنة الشيخة. صارت قوادة. تطورت حسب منطق المهنة. لكن هذه المهنة لم تكن مربحة بما فيه الكفاية في قرية صغيرة جدا.

أخذت أرسل إليها ثلث منحتي. فعلت هذا مدة سنة. وحين رجعت إلى القرية أثناء العطلة وجدتها قد وفرت كل ما كنت أرسله إليها. قالت:

-إني آكل عند الناس. الناس يا ولدي طيبون في أعماقهم، طيبون جدا لولا الظروف. الناس هنا في هذه القرية لا يمكن أن يحقدوا على امراة اضطرتها الظروف إلى بيع جسدها. أنت تعرف العملية، بعض النكت للأطفال، بعض الأغاني للنساء، بعض المغازلة للرجال، وتحصل امرأة في مثل سني على الضروري من الأكل.

صدقت هذا في البداية، لم تكن موضع شك...

قلت:

-ما زالت هذه القرية ترى في المومس والشيخة والمجنون جانبا مقدسا، جانبا مخيفا يضم شرا يمكن أن يصيبهم في أي وقت، شرا لا يمكن أن يكون المرء في مأمن منه إلا باتقائه. ربما كان هذا يرجع إلى أن في ذلك نوعا من التعويض أو التواطؤ مادامت تلك النماذج تشكل تفجيرا للوعي الجمعي لرغبة أو ضرورة مكبوتة كالوحش في كل الناس، رجالا كانوا أم نساء.

لم أكن مقتنعا تماما بهذا التفسير، لكنه كان ضروريا لأفهم، بل إني فكرت في إعداد بحث لمجلة الجامعة في هذا الموضوع. إلا أنني كأغلبية الناس الذين تطرأ عليهم مثل هذه الأفكار لم أجد الوقت للقيام بالبحث.

قبلت هذا التفسير موقتا. لكني ما لبثت أن اكتشفت أنها كانت تتسول، عندئذ فتح في داخلي جرح عميق جديد. صحيح أن هذا السلوك أيضا لا يخرج من منطق المهنة. لكني أحسست أنها كانت تطعنني من الخلف، تضرب رجولتي وتدوس على كرامتي.

-أنا مستعد لأن أرسل إليك نصف منحتي شريطة أن تكفي عن هذا، وإذا لم تفعلي فإنني سأعتبر نفسي حرا في قطع علاقتي بك. إنك تسيئين إلي بهذا السلوك. هل تفهمين؟

ابتسمت:

-لا تحزن، سأعتكف في البيت، أصلي وأصوم.

والتزمت بذلك. لكني لم أرسل إليها سوى ثلث المنحة.

كنت أقطعه من ذاتي، فالمنحة لم تكن تفيد إلا أولاد الأغنياء. يقيمون بها الحفلات مع نهاية كل دورة. أما أولاد الفقراء فإنهم يعطون جزءا منها لعائلاتهم فلا يحلون مشاكلهم ولا مشاكل عائلاتهم...

-« هل تريد أن تراها قبل أن .. ؟ »

وجه صغير لم يفقد كل جماله رغم التجاعيد، لكنه بدأ وكأنه طلي بلون أبيض خفيف. الجسد فقد كل سمنته وصار أطول مما هو في الواقع. شعر الرأس مازال أسود. مقدمته منتصبة وكأن الشيخة انتهت للتو من ترتيبه. الجبهة نافرة، متعالية. انحنيت وقبلت الجبهة. أشرق ضوء من الوجه خيل إلي أنها تضحك. ابتسمت. التفت إلي الحاضرون. تهامسوا ثم خرجوا. مازال الضوء يشع، مازالت تضحك. هذا الضوء، هذه الضحكة، هذا الشعر الأسود الطويل، هذا الجسد الفارع الطويل، هذا ما كان يأسر الرجال.

داخل هذه الغرفة كنت أنام، هنا فوق السرير الخشبي المتآكل. مازال قائما ككل متاهاتي العنيدة. في هذه الغرفة كنت أقرأ كفي وأحرر واجباتي المدرسية. كانت تجري كل أحلامي، وكانت كل أحلامي تدور حول مثلث صغير رسمته على الحائط قرب صورة خيالية للأمام علي ورأس الغول وأخرى لسيدنا رحال وأخرى لمولاي عبد القادر الجيلالي. كانت تحرص على أن أظل بعيدا عن عالم الخمر والحشيش وهز البطن، تقول:

-إن الشياطين لأقوى من الملائكة، فاحذر يا ولدي إغراء إبليس، هل تعرف أين يفضل إبليس أن يسكن؟ في بطن المرأة هل تفهم؟

وبعد أن تحكي لي قصص الشياطين التي تتنكر في النساء وتذكر لي أسماءها وما جرى للرجال معها. تملأ المجمر بالبخور وتطوف به سبع مرات وهي تقرأ أشياء غريبة بشكل غير واضح.

كنت أحب هذه القصص، أصدقها، وما لبث أبطالها أن صاروا جزءا من عالم الغرفة، منها من يخيفني ومنها من يفرحني ويسليني. شيء واحد كان يزعجني حقا ودائما في هذه الغرفة.

الإناء الأصفر. كانت تدخل علي في الغرفة أكثر من مرة في اليوم، عادة. تصرخ في وكأنها تريد أن تتقيأ أو تشفق علي من رؤية ما لا تحب أن أراه:

أدر وجهك !

وعندما أدير وجهي تضع الإناء تحتها وهي تبصق وتتجشأ. في البداية خضعت لأوامرها. كانت دائما تدير ظهرها نحوي وهي فوق الإناء. دفعني الفضول إلى استغلال هذا الوضع فأخذت أنظر من حين إلى آخر إلى ما تفعل.

حين قمت بهذا أول مرة رأيت كومة بيضاء تنزل من الفرج. صرت أرى كل يوم كومات بيضاء تنزل من الفرج، شيء مثل القيح. لكنه صلب. تضعه ثم تبصق وتبصق حتى أتصورها ستبصق رئيتها. تغسل فرجها بعد ذلك، تدفع الإناء الأصفر إلى مكانه تحت سريرها. ثم ترفع سروالها وتختفي.

آنئذ تبدأ رائحة نتنة في الانتشار داخل الغرفة.. يبدأ داخلي الغثيان. تظل الرائحة تنتشر كأنها تخرج من جثة مازالت أعضاؤها التناسلية في ذروة نشاطها.

يشتد الغثيان. أخرج وأنام وكأني هارب من مزبلة أو داخل إليها، يحدث نفس المشهد مرات في اليوم أثناء غيابي. أتخيله أحيانا وأنا في المدرسة، أو في أي مكان آخر غير البيت. صارت المرأة في النهاية عبارة عن فرج تخرج منه كومات بيضاء من القيح، آلة لتجميع المني وإخراجه في شكل معجون من القيح.

لا يمكن أن أقبل هذه المرأة أما. أحيانا كانت بعض صاحباتنا تفعلن نفس الشيء وفي نفس الإناء. لكنها لم تكن تسمح بذلك إلا للمقربات. عشت فترة طويلة وأنا أتصور كل النساء بهذا الشكل، بشعات بهذا الشكل.

أحيانا كانت الكومة تنزل ممزوجة بالدم أكثرها دم فقد حمرته. وعندما يمتلئ الإناء الأصفر تملأ الرائحة كل الغرفة، تتسلل الرغبة في القيء إلى معدتي، إلى حنجرتي، إلى رأسي فأخرج خارج الغرفة أتقيأ وأبكي. عادة كانت العملية تتم حسب المسلسل التالي:

توتر في جسدي، انقباض في المعدة، ضيق في النفس، تشنج في البلعوم والحنجرة، وجع حاد في الرأس، خاصة قرب الأذنين، ثم الهروب من الغرفة، ثم القيء، ثم أرق ورغبة في الهروب من القرية.

لكن إلى أين ؟ عندما أكون متعبا أغطي رأسي، لا أهرب، أبكي كثيرا، أدخل بعضي في بعض وأنام. أكون كالجنين حين يخرج إلى هذا العالم مكورا.

اعتقدت مدة طويلة أن الشيخة وصاحباتها لا يملكن فروجا، يملكن فقط مغارات، مغارات تجمع المني وتديره حتى يصبح كومة ثم تلفظه في هيأة تلك الكومات البيضاء أو تلك التي يكون أكثرها دما فقد حمرته.

اعتقدت أن الفرج مغارة وداخل هذه المغارة دوائر تدور بشكل سريع جدا لتقوم بعجن المني حتى يخرج في شكل كومات من القيح. ولأني كنت أعيش كل هذه المعاناة، لأني كنت أشاهد البصق والرغبة الدفينة في القيء والألم المرافق لعملية الكومات فإني لم أكن أقدر على أن أتصور كيف يمكن للرجال أن يقطفوا اللذة من هؤلاء النساء.

لقد أصرت على ألا أرى الرجال، الزبائن، وألا أرى النساء اللائي لا تعرفهن جيدا. لكني كنت أتسلل أحيانا، في الليل خاصة، لأرى ماذا يحدث في الغرفة الأخرى، الغرفة المحرمة. كانت هذه الغرفة مخصصة للرقص والغناء والخمر والحشيش. داخلها ثلاثة أسرة صغيرة نفوح منها رائحة المني، وفي الركن المقابل وضع سرير أكبر لممارسة الجنس. كان هناك ستار ملون ينزل

ليفصل السرير الكبير عن الأسرة الأخرى، لكنه يرفع عندما مالا تدعو الحاجة إلى ذلك.

حين تسللت أول مرة لم أصدق. وجوه متعبة جدا، بعضها بتجاعيد تشبه أخاديد الأرض. وجوه حين تضحك تبدو وكأنها تبكي. قسمات متشنجة وكأنها من حديد. الفرح كئيب في هذه الوجوه، تتقبض وهي تمتص نفسا من سيجارة أو وهي تشرب كأس خمر، تهتز كاللعب التي كادت تتفكك حينما تضحك. أية لذة هذه ؟ أي فرح ؟

كان علي أن أكبر لأرى أكثر وأفهم أكثر...

تلك كانت وجوه الرجال. لكن وجوه النساء لم تكن تختلف عنها. لولا الأصباغ الكثيرة لظهر كل شيء. النساء يحسن استعمال الأقنعة أكثر من الرجال. أما الغناء فلم يكن يدور في مجمله إلا عن أشياء لها علاقة بالجنس، هذا المفتاح العربي، السر العربي، أكثر ألوان الجوع العربي عمومية نشترك فيه جميعا، القوي والضعيف، الغني والفقير. هذا أمر فهمته فيما بعد، أما وأنا أراه لأول مرة فإني كنت ميهورا. مندهشا، مملوءا بعلامات التعجب والاستفهام.

-« الناس ينتظرون يا ولدي، هل نحملها ؟ ».

لم أذهب معهم إلى المقبرة. شجعني بعضهم على عدم الذهاب خوفا من ألا أقوى على رؤيتها وهي تغطى بالتراب، لم تكن لي أي رغبة في الذهاب، غير أنهم حين حملوها فوق أكتافهم دمعت عيناي وأدركت أن هذا الجرح حقيقي ويجدر بي ألا أتنكر له.

ماتت وصفية.

ماتت أمك.

هرب أبوك.

مات أبوك.

ماتت الشيخة، أمك ماتت.

اعتقل زميلك. بقيت وحدك في هذه الدنيا.

متاهات. متاهات. متاهات داخل. متاهات، ماذا تعجن وماذا تستخرج؟

عادوا فوجدوني داخل متاهاتي بالباب. تقدم رجلان مسنان معهما فقيه. ناولني الفقيه قدرا من المال.

قال:

–من أهل القرية لمساعدتك على تكاليف طقوس الدفن.

قلت:

–احتفظ به. اصرفه أنت إنك فقيه القرية، أنا لا أعرف ماذا سأفعل به.

قال:

–ما شاء الله.

ثم ناولني ورقة قديمة ومفتاحا:

–عقد شراء البيت، وهذا مفتاح صندوقها يا ولدي.

هذا إذن مفتاح الصندوق الكبير الملون الذي كانت تمنعني من الاقتراب منه. ماذا يمكنها أن تضع داخله ؟ لأبدأ بفتحه.

بعض الملابس التي كانت ترتديها في المناسبات. تحت الملابس حلي كثيرة من ذهب خالص. أوراق مالية كثيرة، حزمة. ثروة حقيقية، كنز سليمان. غزت فكري علامات التعجب والاستفهام. ثروة تكفيها لتحج عشرات المرات، تسمح لها بأن تعيش بقية عمرها في مأمن كامل من الفقر. لكنها بدل هذا تشتغل قوادة، بدل هذا تتسول.

متاهة جديدة. جرح. هل كانت تخاف الفقر إلى هذا الحد؟

هل كانت تجمع كل هذه الثروة لي ؟ ألم تقل لي أنها تريد أن أكمل تعليمي في الخارج ؟ هل .. ؟ لا أستطيع أن أفهم، لم أكن قادرا على الإجابة عن أي سؤال من تلك الأسئلة العديدة التي كنت أطرحها في كل حين. لم أعد أتذكر الأسئلة.

أتذكر مع ذلك أني صرفت كل تلك الثروة في مدة لا تزيد عن ستة أشهر. خمر ونساء ورحلات وسنة جامعية ضائعة.

عندما بقي معي آخر مبلغ سكرت به حتى فقدت الوعي.

قالت لي صاحبة الحانة عندما عدت في الغد لأشرب قهوة سوداء.

-هل تذكر ما قلته لي البارحة ؟

-ماذا قلت ؟

-شتمتني ثم قلت: الشيخة لم تكن قحبة مثلك، كانت فنانة كبيرة، إنسانة عظيمة، ولولا تهوري لكانت، خاصة بعد موتها، قمة صلبة، هل تذكر..؟ قلت شيئا آخر أيضا..

-لا أذكر.

-من تكون هذه الشيخة ؟

-لا أعرف أية شيخة.

-بل تعرف.

-إنها متاهة من متاهاتي. جرح. وشم.

-لا أفهم.

-هذا أحسن، ألا تفهمي أي شيء، أنصحك بقلة الفهم وبرودة القلب كي تعمري طويلا.

7-النقيض

ما يجري في هذا المستشفى لا يعجبني. هناك أشياء لا علاقة لها بالإسلام ولا بالمسيحية ولا باليهودية ولا بالرأسمالية ولا بالشيوعية. من يريد أن يعرف حقيقة أي بلد يجب أن يدرس حالة مستشفياته. المستشفى مرآة الدولة.

لقد قدم التلفزيون مرة تحقيقا عن قطر عربي بمناسبة ذكرى استقلاله (متأكد أن التحقيق كان بمناسبة ذكرى استقلال. نعم الاستقلال، ولم لا !؟) فطبل له مقدمه وزمر، لم يترك كلمة عن التقدم إلا وقالها حتى خلته يتحدث عن دولة غير عربية، خارج العالم الثالث، لكنه ضرب كل ذلك بصورة، صورة مستشفى تكدست أمامه الأجساد في صف طويل حتى اعتقدت أنه صف لمنكوبي فيضان أو زلزال. لقد قصد أن يظهر كم صار الإقبال كبيرا على المستشفيات بعد الاستقلال وخاصة بعد ثورة التنمية البيضاء مع مجيئ الرئيس الجديد الذي نجح مرة ثانية بنسبة تسعة وتسعين في المئة فاصلة تسعة وتسعون ! ثم جاء بعد هذه الصورة كلام عن الفولكلور وكلام عن تحرر المرأة وكلام عن العناية بالطفل وكلام عن الشغل وكلام عن السياحة، وكلام وكلام وكلام. لماذا لا يرد في التحقيقات وفي البرامج الدعائية الأخرى أي كلام عن ازدهار السجون واتساع بنايات الشرطة والمخابرات ؟ لماذا يدشن المسؤولون مجاري البول والبراز ولا يدشنون بنايات السجون والشرطة والمخابرات ولا يعرضون ذلك في التلفزيون ؟ لماذا يظل هؤلاء الناس محرومين من رؤية بناياتهم في التلفزيون ويحرم المواطنون معهم من ذلك ؟ منطق السلطة غريب جدا في بعض الأحيان، لكنه منطق السلطة مع ذلك.

-لماذا ضربت الشرطي ؟

-صدفة، مجرد صدفة، والله مجرد صدفة.

-كيف ؟

-لم أجد غيره، كنت أبحث عن أي شخص كنت أفضل أن يكون أعلى مرتبة.

-لماذا كنت تريد أن تقتل مثل هذا الشخص ؟

-عفوا، اضرب، أنا لم أقتل ولا يمكن أن أقتل أحدا.

-لماذا كنت تريد ضرب مثل هذا الشخص ؟

-لأدخل السجن وأستريح.

-مم ؟

-من المتاهات

-أية متاهات ؟

-المتاهات، الجروح، تلك الجروح التي تملأها الأرضة، تلك الأرضة التي تشبه سمكا خرافيا طويل الأسنان لا يشبع.

-لا تتكلف الجنون، لدينا تقرير طبي عن حالتك، إنه يؤكد أنك في كامل قواك العقلية، هل تفهم ؟

-آه، لكني لا أتكلف شيئا، هذه طبيعتي في الكلام.

-طبيب تكلم.

-ماذا أقول ؟

-هل أجري عليك فحص طبي ؟

-نعم، ولكن هل أجريت فحصا مضادا على الطبيب الذي قام بفحصي؟

-لماذا اخترت الضرب بدل السرقة أو الاغتصاب مثلا؟

-كنت أبحث عن طريق يؤدي إلى أطول مدة ممكنة من الحبس.

-هل يمكن أن تقترح مدة معينة على المحكمة ؟

-أقترح عليكم عشرين سنة سجنا بدون اشتغال شاقة ولا تعذيب إذا لم تروا طبعا أن عقوبتي تتطلب مدة من الحبس أطول، في هذه الحالة سأكون متفقا معكم وشاكرا لكم فضلكم، لكني لا أريد أقل من عشرين سنة، يبدو لي أن هذا ما تبقى من عمري، عشرون سنة.

-عشرون سنة ؟

-نعم عشرون.

-المحامي ؟

-سيدي الرئيس أنا لم أطلب محاميا، ولا أريد أن يتكلم أي شخص باسمي.

-إذن نلبي رغبتنا.

-نعم، سيدي الرئيس ؟

-نلبي رغبتك: نحكم عليك بعشرين سنة حبسا نافذا

-أرجو أن تسمحوا لي بكلمة.

-تفضل.

-أريد أن أشكركم وأعتذر لكم عن التعب الذي سببته لكم قضيتي،

-هذا أولا.

-ثانيا:

أحب أن أؤكد أمام الحاضرين والغائبين وإذا أمكن لرجال الصحافة أن هذه أول مرة يصبح فيها القانون في خدمة المواطنين، وذلك منذ أن ظهر الإنسان على وجه الأرض، وكم أتمنى لو يعمم هذا الإجراء في جميع الدول التواقة إلى خدمة مواطنيها.

-اختصر.

-وأريد كذلك أن أؤكد أمام محكمتكم الموقرة أني ضربت، عذبت، لقد كسروا رجلي اليسرى وعاثوا فسادا في عمودي الفقري وما جاوره، كل هـذا لان أحدكم ضرب، فماذا يجب أن نفعل نحن الذين نضـرب بالعشـرات مـن طرفهم كل يوم؟

-هل أكملت ؟

-صبرا سيدي، وبما أنكم تعرفون أهمية العمود الفقري فـي الديانـة البوذية التي أومن بها فإنكم تدركون ولا شك أنهم قد أكرهوني على ترك ديني الأصلي. وهذا أمر يتنافى تماما مع حقوق الإنسان. لهـذا أطالـب بحضـور الأمين العام للأمم المتحدة وحضور رئيس لجنة العفو الدولية وحضور ممثـل عن الجامعة العربية وحضور ممثل عن جمعية الرفـق بـالحيوان ليقومـوا بالتحقيق في هذه الجريمة.

-هل انتهيت ؟

-إذا سمحتم أود أن أضيف شيئا: أرجو أن يحملني مساعدوكم قـرب الشرطي وأن تأمروه بالانحناء على وجهي كي أقبله وأطلب منه العفـو بكـل روح رياضية، فأنا لا أحب أن يكون لي أعداء أو خصوم، لا يمكن أن أنام إذا شعرت أن هناك في هذا الكون من يكرهني، ولو كان مجرد حيوان أو نبـات أو جماد.

-سيكون لك كل ما تريد وتشتهي، هل ما زال لديك شيء تقوله ؟

-رغبة أخيرة، واحدة فقط: أطلب نسخة مزيدة ومنقحة من الـروض العاطر وصورة لوصفية، صورة مكبرة بالألوان إن أمكن.

-اطمئن، كل مطالبك ...

-وأريد ...)

كنت ممدا فوق محمل صغير لا أستطيع لا الوقوف ولا الحركة. أخطأت اختيار الوسيلة. فقد يحكمون علي بعام أو عامين ويطلقون سراحي. لو فعلت ما فعلت مع وزير لاعتبرت القضية سياسية واعتبرت شخصا خطيرا فأعدم أو أساق بقية عمري إلى سجن أحسن، فيه أناس يفهمون أشياء كثيرة ويتبادلون بعض الكتب الممنوعة والأفكار المحرمة.

-تعرف أني قمت مثلك بإضراب على الطعام لكي أجبرهم على حملي إلى هذا المستشفى من أجل العلاج ؟

-قلت لي أكثر من مائة مرة...

-لأنه عمل كبير، عمل بطولي ضد نفسي أولا.

-لكنك ترفض أن تتحدث لي عن تلك الفرنسية التي تزورك مرتين في الأسبوع.

-إنها صديقة، أوديت صديقة فقط، صديقة صادقة جدا.

-والأخرى ؟

-زهرة، هذه امراة أخطأت الطريق إليها، قد تكون هي التي أخطأت الطريق إلي لا يهم، هذا لم يعد مهما، قد تتغير الأمور عندما أخرج.

-طبعا قد تتغير الأمور. هذا أهم شيء، هذا هو الضوء الذي يجب أن نمسك بخيطه.

-وأنت لماذا ترفض أن تتحدث لي عن نفسك، حدثني عن النضال في الجامعات، يقال إنه قل، وعن فلسطين والوضع العربي، هل مازال التفاؤل سائدا، هل حقا كنت تهيء لانتفاضة مسلحة عامة تبدأ من السودان ؟

-إنك تهذي، أنا في السجن منذ تسع سنوات، حدثني عن نفسك.

-هل أنا مهم إلى هذا الحد ؟

-مهم جدا، إنك تحمل جرثومتين: جرثومة المتاهات وجرثومة العنف، إنما المؤسف أن عنفك يصب في غير محله الإنسان يجب أن تكون له جماعة، أن يكون له أكبر عدد ممكن من الجماعات لكي لا تأكله نفسه.

-هذا كلام أوديت.

-لا تدع هذه السيدة تستلبك، نحن عالمان، نلتقي طبعا، ولكنا عالمان مع ذلك.

-أنت لا تعرفها، لو عرفتها !

-بل عرفت نماذج كثيرة مثل أوديت، إنهن في النهاية يبقين استهلاكيات، حتى خارج مجتمعهن يبقين استهلاكيات.

-هي لا تنكر ذلك

-وماذا تفعل لكي لا تظل كذلك ؟

-إنها على كل حال ليست مثل وصفية.

-ومن تكون وصفية ؟

-امرأة.

-عرفت من اسمها أنها امرأة

-قصة أخرى، لا أريد أن أحكيها لك.

-على كل حال، في العالم أشياء أخرى غير النساء، يبدو أن كل عالمك نساء، إن كل عالمك أنت، نفسك.

-الواحد منا لا يختار عالمه.

-ومع ذلك كل حياتك اختيار، اخترت السجن في النهاية.

-هل سبق أن رأيت حفلة للأشياء الزائدة ؟

-ماذا تعني بالأشياء الزائدة ؟

-أشياء غير النساء تملأ العالم، غير الذات.

-أنت في حاجة إلى الراحة. مثلك يجب أن يرتاح كثيرا، إن عندك استعدادا للانهيار.

-الأطباء لا يقولون شيئا لأنهم لا يعرفون عنا إلا القليل، يتعلمون طب الغرب وينظرون إلينا بنظرات غريبة.

-أنا أيضا سبق أن قلت هذا لطبيب فغضب، أعني، أوافقك على طول، هل نؤجل هذا النقاش إلى مرة أخرى ؟

-لماذا ؟

-لأني أحس بالتعب وأريد أن أنام

-نم، نم قدر ما يمكن.

-إنه فعل هذا المخدر الذي يفرضونه علي ثلاث مرات في اليوم، أعتذر.

حيث استيقظت لم أجده. سألت الممرضة.

قالت:

-عاد من حيث أتى.

كنت أريد أن أستمر معه في الحديث، كان من الممكن أن يصير صديقا، أن يكون مدخلا إلى جماعة، أريد شخصا أتكلم معه. دفعت سريري المتحرك إلى وسط القاعة الكبيرة.

قلت لأول مريض وجدت عينيه مفتوحتين:

-لا باس ؟

-لا باس، الحمد لله.

-اسمي عبد الرحيم.

-اسمي عثمان

-أهلا عثمان

-أهلا عبد الرحيم

-أريد أن أقول لك سرا.

-قل.

-أخطأت كل الطرق: الطريق إلى الشيخة، الطريق إلى وصفية، الطريق إلى راضية، الطريق إلى أوديت، الطريق إلى زهرة، الطريق إلى العمال، الطريق إلى زملائي في الجامعة، الطريق إلى الله، الطريق إلى الشيطان، الطريق إلى فلسطين، كل الطرق أخطأتها، حتى الطريق إلى وطني.

-لكن هذه ليست طرقا.

-هي ماذا ؟

-ممرات تحمل أسماء متعددة وتؤدي إلى نفق فيه عيشة قنديشة.

-من تكون هذه ؟

-مخلوقة نصفها امرأة ونصفها غول.

-هل سمعت، قلت: وصفية، زهرة: أوديت، راضية ؟

-سمعت، هذه أسماء سيارات.

-سيارات ؟

-آه، أنا أيضا أملك سيارة!

-من أي نوع ؟

-كونكورد !

-كونكورد ؟ الكونكورد ليست سيارة!

-سيارتي أيضا ليست سيارة بمعنى الكلمة، إنها حمار، حمار ضخم يهوى الغش والعناد.

-آه، فهمت

-أعرف أنك فهمت، ولي أيضا امرأة كتبت عنها قصيدة.

-هل أنت شاعر ؟

-شاعر كبير معروف جدا. كتبت قصيدة أحدثت ثورة، ضجة. قصيدة عن الفئران التي تحمل نظارات، عن الأرضة التي تلبس البذلات العصرية أو التقليدية.

-فهمت، لحظة من فضلك، أذهب إلى المرحاض وأعود.

رجعت إلى مكاني، ناديت على الممرضة.

-أريد قلما وورقة.

قالت:

-ليس عندنا أقلام ولا أوراق.

ثم تساءلت:

-لماذا تريد القلم والورق ؟

قلت:

-لأكتب مذكراتي، لأعيد النظر في حياتي.

ابتسمت:

-هل أنت كاتب ؟

قلت:

-كبير، أنا مؤلف قصة المسلسل التلفزيوني الذي عنوانـــه المتاهـــات، عنوانه الأصلي المثلث المكسور. هل أعجبك ؟

قالت:

-لم أره، أنا أعمل دائما بالليل.

قلت:

-أحسن لك، هل تشترين لي القلم والورق ؟

قالت:

-حالا...

وانصرفت وعادت بسرعة.

-سألتني:

هل ستذكر المستشفى في مذكراتك ؟

قلت:

-طبعا.

قالت:

-اسمي زينب.

قلت:

-سأفرد لك فصلا أسميه الملاك زينب.

فاحمرت وجنتاها وانصرفت.

قلت:

لأبدأ بأي شيء، ثم أعيد ترتيبه بعد ذلك.

وكتبت: هل يمكن أن أعيد بناء المثلث ؟ يخيل إلي أن المثلث يمكن أن يصير بعد خروجي مربعا. كيف بل هل هذا ممكن ؟ أتصوره ممكنا، بل سهلا. ولكن، للغرفة التي أوجد بها أربعة جدران، وللزنزانة أيضا أربعة جدران.

ولم أستطع أن أكمل. فنمت.

الأبله والمنسية وياسمين

الكتــــاب الأول

الهـــل . . . . . ؟

عندما سألت عنه علماء التاريخ والأنساب اختلفوا بخصوص اسمه ومكانه وزمانه، رغم أنهم لم يختلفوا إلا قليلا بشأن هويته. قالوا اسمه في الشرق قويدر الكبداني، واسمه في الشمال المختار الزيلاشي، واسمه عريف بنجلون المسدي في فاس ونواحيها، وفي البيضاء وضاحيتها علي القبي، وفي أغدير والأطلس محماد آيت بيهي، وفي الجنوب اسمه زين الحالة ولد سيدهم.. باختصار، قالوا في كل مكان آخر له اسم ورسم، وفي كل زمان له علامات وخصوصيات، وهو في كل الأمكنة والأزمنة واحد، رغم أن الهوية لا تفهم إلا من خلال الاختلاف والتغير، وقد صدق بشأنه ماركس وأرسطو كما صدق أبو ذر الغفاري وغيلان الدمشقي، رغم أنه لا يعول في أخباره على تاريخ الملل والنحل، ولا على تاريخ الأنساب أو الطبري أو المسعودي ولا حتى على ابن خلدون أو الجبرتي، ذلك لأن أخباره لا تقرأ وإنما تسمع، وهي لا وجود لها إلا وراء الأخبار المنقولة أو المدونة وبشكل مقنع جدا ومتقطع، ولا ينفع في حفرياتها إلا المبضع، وقد يحتاج المرء في دقائقها إلى الاستعانة بالمجهر.

ظل العلماء مدة عام يحكون لي أشياء كثيرة مثل هذه التي لا يفهمها عقلي الصغير، أو جاهل مثلي، ولا أظنني بحاجة إليها كي أعرف من يكون الرجل حقا. ولقد استمروا طوال هذه الفترة يقولون لي، وكلما قالوا قلت بدوري حتى اجتمع لدي من أقوالهم وأقوالي الشيء الكثير وبشكل لم أعد قادرا معه على التمييز بين ما قالوا وما قلت. عندئذ فكرت، ولكن بعد حيرة ليست

بالقصيرة: لا شيء يرجى من علماء هذا الزمان، ذهب الزمان، ذهب الزمان الذي كان العالم يقبل أن يصلب أو يشنق أو يتجرع السم من أجل الحقيقة، فيموت ويستمر مشعا في الحقيقة الموقف، في هذا كان يتساوى عالم الرياضيات وعالم الفيزياء أو الفلك أو التاريخ أو الطب أو الأديب. ولما وصلت إلى هذا الحد من التفكير أدركت أني أبالغ وأن المسألة لم تكن دائما على هذا الوجه، ومن أين لتلميذ في قسم الباكالوريا وفي بلد متخلف أن يعرف أو يتأكد من مثل هذه الأشياء ؟ قلت: وعلى كل حال فإن اختلاف العلماء رحمة بالناس وبالعلماء أنفسهم، ولولا هذا الاختلاف لما كان للعامة علم ولا فن ولا ذكر، وهو أمر ينفع العلماء كثيرا ولكنه لا يضر بالجاهلين مثلي، إلا أني لا أريد أن أضيع في متاهاته كما حدث لهؤلاء العلماء، فالعلم بحر لا يدخله إلا سباح ماهر أو بدوي أحمق لا يعرف عن خطره شيئا، وأنا لا أريد سوى خبر يطمئن إليه قلبي ولقاء يفرح العين، فلأرح نفسي والعلماء، ولأسأل عنه جدتي أو جدي، فهما الوحيدان اللذان مازالا يعيشان خارج متاهات العلماء، وقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، يقول سادتنا القدماء.

* * *

حين دخلت على جدتي وجدتها في فراشها تبكي. حدست أن والدي لم يشتر لها بعد اللعبة التي تحب أو أن جدي قد نام قبل أن يصلي. خرجت مسرعا وعدت إليها مهرولا أحمل في جيبي ثلاث علب من الشوينغوم التي يعلن عنها كل ليلة في التلفزيون والإذاعة. فلما رأتها كفت عن البكاء وابتسمت بخبث قائلة:

–أكيد أنك جننت أو لك عندي حاجة.

قلت:

-حديثي عن سيد الزرع والماشية والبيوت والناس، ذلك الجاهل العارف، القوي الضعيف، الميت الحي، المقنع المكشوف العينين والأذنين والأنياب، الحقير العظيم، الطيب الخبيث ... هل فهمت ؟

استغربت:

-من تعني، فهم كثر ؟

تذكرت أن جدتي بدورها تسمع أم كلثوم، وفسرت:

الأبله الذكي، ذلك الذي إذا غضبت مني أمي تقول: ترفع كتفيك كأنك ابن الأبله.

استجمعت الجدة حبال صوتها:

-حدثتني والدتي عن جدتي عن جدة أمي عن جدة جدتي عن ...

قاطعتها مستنكرا تعاليمها:

-أعرف أن كل رواياتك صحيحة وأن السند لا يرقى إليه أدنى شك، فاختصري سلسلة الرواة، ولا داعي لربطها بأمنا حواء، فهي على الأقل منها براء.

ابتسمت الجدة الخبيثة وهي تكور الشوينغوم داخل فمها الخالي من الأسنان كأنه مغارة صغيرة مظلمة تتحرك داخله أفعى رقطاء:

-في البداية ألعن الشيطان ثم أصلي على النبي العدنان بعد الاستعانة بالرحمان... كان يا ما كان.. كانت هناك في كل مكان وزمان...

قاطعتها مرة أخرى:

-استغفري الله يا جدتي، كيف عرفت أن ما تحكينه، أقصد ما ستحكينه، وجد في كل زمان ومكان ؟

قالت متجاهلة كلامي:

-كانت هناك قرية صغيرة آمنة رغم فقرها، رغم خلافاتها، حية رغم موتها، سعيدة رغم شقائها، يعيش أهلها من حيوانات وأعشاب وخشب الغابة المحيطة بها، يفلحون سهلها ويرعون ماشيتهم في هضبتها ... وذات يوم حطت شاحنات وسيارات بالقرب من القرية، فنزل منها رجال وسلاح كثير ونصبت خيام وسياجات. ظن أهل القرية أن الحروب الصليبية ما زالت مستمرة ...

فلما هب رجالها لطرد هؤلاء الوافدين أو قتلهم بالسيوف والخناجر والرماح مات أغلب رجال القرية ولم ينج منهم إلا أولئك الذين اكتشفوا بعد فوات الأوان أن الاختفاء أو الهروب أحسن وأجدى من المجابهة وأن فكرة طرد الغزاة أو القضاء عليهم بواسطة السيوف والخناجر والرماح كانت طموحا فوق حجم الإمكانيات. ضمن هؤلاء، معهم أو خلفهم أو بعيدا عنهم، كان يوجد شاب يصفه أهل القرية بالأبله ...

توقفت الجدة فجأة وهي تتألم. كادت تقتلها كرة الشوينغوم التي أفلتت إلى القصبة الهوائية. تخلصت منها بعد معاناة ومسحت عينيها الدامعتين من الألم. ثم ملأت فمها من العلبة الثانية وتابعت:

-أخفت النساء الرجال الهاربين، وكن يعرفن مخبأ كل رجل نجا من القتل. لكن أية منهن لم تعرف أين ذهب الأبله. والحقيقة أن القرية لم تستغرب عدم ظهور الأبله إذ كانت له حماقات كثيرة لم يشك أحد أنه سيروح ذات يوم ضحية إحداها. ولكن النساء أشفقن عليه، فقد تعودن أن يتسلين بحماقاته البريئة.

بعد مدة رحل أولئك الوافدون إلى مكان آخر لم نعرفه، فعاد الرجال إلى الظهور والعمل من جديد، ولم يخبرهم أحد بما وقع للأبله. لم يخبرهم أحد بأن نساءهم وبناتهم كن يذهبن إلى مخيم الغرباء ويمكثن به طول النهار أو الليل

وأحيانا يمكثن به طول الليل والنهار. لكن الرجال افتقدوا الأبله فسألوا عنه ليتسلوا بحماقاته الجميلة. بحثوا عنه في كل مكان من القرية وضواحيها. وأخيرا وبعد جهد جهيد اتفقوا على أنه قد يكون هلك أو ضل وصلوا عليه وحده صلاة الغائب.

هكذا عادت القرية بسرعة وفي هدوء تام إلى حياة العمل، والإنجاب والأكل والمرح، عادت القرية آمنة رغم فقرها، متماسكة رغم خلافاتها، حية رغم موتها، سعيدة رغم شقائها، نسي الرجال ما حدث ونسيت النساء ما حدث فنسيت القرية الأبله مثلما نسيت بقية الرجال الذين ماتوا أو فقدوا.

* * *

وذات يوم من الأيام العادية، وكل الأيام كانت عادية في هذه القرية، عاد الأبله. لكنه عاد وهو يختلف كثيرا عن الأبله الذي عرفته القرية، عاد ببدلة أروبية وربطة عنق وصلعة صغيرة تلمع وكرش مدورة تفسح أمامه الطريق. عاد ومعه رجل أبيض يلبس مثل لباسه وبينهما امرأة شقراء ظنها أهل القرية من نوع تلك الجنيات التي تتحدث عنها أساطيرهم وخرافاتهم. حيثما يمر الأبله يترك الغبار. لقد كان دائما يشغل الناس بحماقاته. ولما عاد صار موضوع أحاديث القرية من جديد. وصار مع صاحبه ورفيقتهما موضوع رغباتهم الكثيرة جدا، الواضحة أو الغامضة جدا.

لكن غياب تلك البسمة البريئة التي يبللها اللعاب والتي لم تكن تفارقه، والوقار الذي أصبح يطبع كلامه وسلوكه، والصلعة التي تلمع دائما كأنها تاج يزين رأسه، والرجل الأبيض المخيف والمرأة الجنية الشقراء اللذين يحيطان به أينما حل، كل هذا جعلهم يكفون عن مداعبته وينسون حماقاته.

لم يدركوا، بطبيعة الحال، أن الأبله لم يعد في حاجة إلى حماقات تجعلهم يلحون على وجوده في كل مجمع وتجعله يأكل من غير أن يعمل ويبقى مع النساء طول النهار.

لكنهم شعروا مع ذلك أن الأبله لم يعد هو الأبله بالرغم من أنهم حرصوا في البداية ألا تضللهم البدلة والصلعة والكرش وربطة العنق، وبالرغم من أنهم لم يحاولوا أن يفهموا لماذا تغير وكيف.

* * *

صباح اليوم التالي خرج الأبله من الخيمة مع الأبيض وتتوسطهما الشقراء وخطب في الناس. قال وكأنه يأمر:

-نريد بيتا من ثلاث غرف ومطبخ وحديقة، ونريد أن يتم بناؤه قبل غروب شمس هذا اليوم، لذلك يجب أن يساعدنا الرجال والنساء والأطفال والحيوانات. أما الأكل فلدينا من الطعام المعلب ما يكفيكم جميعا، وسنوزع عند الانتهاء من عملية البناء ما يرضيكم من الهدايا والعطاء. فلنبدأ باسم الله.

قبل حلول صلاة العصر كان البيت تام البناء، كما أراد تماما، بالشكل الذي أراد، وفي المكان الذي اختاره، لا بعيدا عن بيوت القرية ولا قريبا منها، لكنه البيت الوحيد الذي كان يختلف عن بيوت أهل القرية. في أقل من ربع ساعة تم ترتيب المتاع وأصبح البيت يشبه جناح قصر من قصور الملوك. دخل الأبله واستحم. ثم لبس بذلة أخرى. وكذلك فعل الأبيض والشقراء بينما ظلت جموع أهل القرية تنتظر غير بعيد من الباب، خرج الأبله والأبيض فجأة تتوسطهما الشقراء، وبدأ توزيع الهدايا والعطاء: لحم وخبز على الجميع، علب سجائر وزجاجات خمر على الرجال، ملابس ملونة وعلب ماكياج على النساء، حلويات محشوة بالحشيش على الأطفال، مع

بعض المال الذي لم يعرف الرجال ماذا يفعلون به فتسلمته النساء لتزين به ملابسهن أو خطفه الأطفال ليلعبوا به.

* * *

ذلك اليوم، ما كاد يبدأ الظلام رحلته عبر القرية حتى صارت القرية في عرس لم تعرف مثله، رقص ومرح وحماقات لم يرتكب أحد مثلها من قبل، طار وقار الشيوخ، تبخرت حشمة النساء، وتبرأ الأطفال من الحياء، اختلطت المعايير، فلما أطفئت الأنوار لم يعد يميز الرجل بين زوجته وزوجة جاره ولا بين أمه أو أخته وابنته، وكذلك فعل الشبان والأطفال والنساء.

أما الأبله وصديقه ورفيقتهما فلم يشاركوا في هذا العرس، وإنما جلسوا بباب بيتهم وأخذوا يتأملون الناس الذين كانوا يضحكون ويمرحون ويتعرون. كانوا يبدون وكأنهم يتفرجون على مسرحية تقدمها فرقة للعرائس. وحين شبعوا متعة ولذة قال الأبله لنفسه: ها كل القرية تلعب لعبة الأبله مكاني، وها أنا الآن أتسلى بحماقاتهم بعد أن كانوا يتسلون بحماقاتي. والبقية آتية.

غير أنه ما كان يكمل حديثه مع نفسه حتى قامت المرأة الشقراء وقبلته في فمه وهي تقول:

–إنك ذكي، ذكي جدا، وسنحقق بفضلك كل ما نريد في هذه القرية البدائية، بل سنقوم بدور إنساني عظيم، سندخل الحضارة إلى هذه القرية التي ظلت متخلفة عن التطور منذ آلاف السنين، وسيكتب عنا أو نكتب عن أنفسنا ونظهر في السينما ونسمع في الإذاعة بكل مكان. ولما سمعها الأبيض قال:

–أي، والله ! والله العظيم لنكونن نموذج الممدنين.

* * *

بعد مرور حوالي شهر على عودة الأبله ظهرا جليا أن وجه القرية أخذ يتغير: صار لها جزار يبيع اللحم بالتقسيط بعد أن كانت البهائم تذبح وتوزع بين أهل القرية، وصار لها دكان لبيع الخضر بعد أن كانت الخضر تؤخذ من الحقول مباشرة، وصار لها حانوت لبيع المواد الغذائية، وصارت لها حانة لبيع الخمر والحلويات المحشوة بالحشيش، أي صارت لها جماعة من الوسطاء تلعب دورا هاما في تحديد كثير من الحاجيات وطريقة التصرف بها، ثم صارت عائلات تأتي من قرى مجاورة لتستقر بها بحيث هجرت تقريبا كل القرى الصغيرة القريبة، وصار المال هو أساس الحياة بعد قرون من الاستغناء عنه، وصار الجميع في حاجة إلى المال. وبما أن المال لا يوجد إلا عند الأبله ورفيقته وصديقه رغم أن أي شخص لم يعرف من أين يأتون به ولا أين يضعونه، وبما أن الرجل الأبيض والمرأة الشقراء لا يتكلمان مع أحد ولا يعطيان شيئا لأحد، فقد صار الجميع في حاجة إلى الأبله ولأن الحاجة أساس التقديس غالبا، فقد صار الأبله مقدسا في القرية. إنه يملك كل مرافق الحياة، إذن هو يملك الحياة، ويملك الناس الذين تسكنهم الحياة وتتحكم فيهم، وقديما قيل: من يملك قوتي فهو سيدي ومولاي.

ثم إن رفيقته جنية، وصديقه غريب محاط بالأسرار، إذن فهو يملك سرا ما من أسرار الحكمة، أي يملك كنزا دلته عليه الجنية والرجل المحاط بالأسرار، وقديماً قيل:

الحكمة قوة، وادعاء الحكمة قوة، والحكماء وأدعياؤهم إخوان الملوك

وهكذا أصبح الأبله إذا مشى تمشي كل القرية، وإذا ظهر تقف إجلالا له كل القرية، وإذا تكلم تصيح لبيك كل القرية، وإذا عطس تعطس كل القرية، وإذا غضب ترتجف كل أعضاء القرية، وإذا كح تكح كل القرية وإذا اختفى عن أعين القرية تتكلم عنه ألسنة كل القرية، وإذا تعب تقلق قلوب كل القرية،

فهو عضو القرية الذي إذا لم يكن على خير ما يرام تداعت له كل الأعضاء الأخرى بالسهر والحمى والدعاء وضخ الدم.

هكذا إذن صار الأبله صاحب الحماقات القديمة، الحماقات البريئة المسلية قديما، يملك أعين القرية وآذانها وقلوبها وعقولها وأيديها لأنه يملك مفاتيح معدتها ويملك سر القوة والطاعة. ولم يلبث الأبله، بعد أن استتب له الأمر ودانت له القرية بالطاعة والولاء، أن قسم كل أراضي القرية تقسيما محكما بحيث جعل بعضها للفلاحة وبعضها لتربية الماشية، وبعضها للمرافق العمومية. ثم قام بعد ذلك بجلب ماشية من الخارج، وحول ماء النهر الذي كان يمر بإحدى القرى الصغيرة المجاورة المهجورة إلى قريته. ثم بنى سدا عظيما لخزن المياه، وشيد أماكن ضخمة لخزن الزرع، وصنع طريقا واسعا طويلا تصل القرية بأقرب مدينة. وفكر في التنقيب عن النفط لكنه لم يلبث أن عدل عن هذه الفكرة خوفا من الطمع فيها من طرف الغرباء. ثم فكر في مد خطوط السكة الحديدية وإيصالها إلى المدينة لكنه اكتفى بمد خطوط تصل بين الجبل والهضبة والسهل خشية أن يأتي من يمدها إلى قرى مجاورة يفكر في ضمها إلى قريته.

توقفت الجدة قليلا عن الكلام لكي تتمكن من استعادة نفسها وتغيير كرة الشوينغوم بكرة جديدة، ثم تابعت:

-لعلك أدركت الآن أن القرية صارت مملكة قائمة بذاتها، وأن الأبله صار ملكا حقيقيا لهذه القرية، وأنه لم يعد ينقصه إلا بعض من الشكليات التي يتمسك بها العظماء وبعض الأجهزة التي تساعده على تسيير شؤون القرية على أحسن ما يرام. وهكذا، ومن أجل هذا، أنشأ شرطته وأنشأ محكمة وأسس بنكا وخزينة وصار له موظفوه، بل صار له جواسيسه وآذانه وعيونه.

لكن هذه المملكة لكي تصير مملكة حقيقية كان يجب أن تظل مغلقة. وهذا بالضبط ما أدركه الأبله في حينه إذ منع سكانها أن يتعدوا حدودها من غير ما إذن ولا رخصة، وأسس شرطة خاصة لمراقبة السكان كي لا يتسللوا إلى خارجها أو يلعب بعقولهم أعداؤها. ثم أنشأ جيشا لصد كل الوافدين الذين قد تغريهم خيراتها فتسول لهم أنفسهم الطمع فيها.

هكذا إذن وباختصار أحكم الأبله سيطرته على القرية وأمسك بخيوطها في يديه. والواقع أن هذه المملكة الصغيرة كانت تابعة بشكل من الأشكال إلى مملكة أكبر توجد بالمدينة القريبة منها. لكن هذه حكاية أخرى. والأبله نفسه لم يكن يغضبه أن يعتبره ملك المدينة مجرد أمير ما دام يتصرف في مملكته القروية كما يشاء وما دام الأمير في غنى عن الملك، والملك قد استراح من مشاكل القرية. أضف إلى هذا أن الناس لم يهتموا بهذا الأمر، وأن أيا منهم لم يتحقق من صحة هذه التبعية، فهي قد تكون مجرد وشاية أو سم حاسد من أمثال أولئك الذين يتحدثون عن علاقات المركز بالمحيط.

هكذا تمر الأيام والشهور والسنوات وهذه المملكة القروية الصغيرة تزداد غنى واتساعا ونفوذا والأبله يزداد عظمة وقوة وسلطة. وأثناء ذلك تضع المرأة الشقراء بنتا تشبهها فتفرح بها كل القرية. ثم تضع الشقراء ولدا يشبه الأبله فتفرح به كل القرية. ثم تضع الشقراء ولدا ثانيا يشبه الأبله فتفرح به كل القرية. وما أطول حفلات القرية حين تضع الشقراء أو يحل عيد ميلاد أحد أبنائها.

إن الدهشة لا تأتي بلا مناسبة. فلقد فسر الناس هذا التشابه بين ولدي الشقراء والأبله قائلين بأن الشقراء قد توحمت على الأبله. وأية امراة لم تتوحم على الأبله رغم أن أية واحدة منهن لم تأت بولد أو بنت تشبه الأبله ؟ تكبر البنت والولدان فيؤسس الأبله مدرسة لتعليمهم ويجلب مدرسة شقراء من

الخارج كي تشرف على تعليمهم وتعطي للشقراء الوافدة كل الوسائل الضرورية وغير الضرورية لتربية الولدين والبنت أحسن تربية. يلاحظ الناس الجمال الساحر الذي تمتاز به المعلمة، فهي أجمل من الشقراء أم الأولاد، ويبدو أنها أذكى، ولكنها بالإضافة إلى هذا مثقفة وأعلى ثقافة من الأبله والأبيض والشقراء أم الأولاد وإلا لما عهد إليها بتربية الأولاد.

يلاحظ الناس كذلك الشحوب الذي بدا يلاحق وجه الشقراء أم الأولاد وبشكل تدريجي ورغم الأصباغ منذ مجيء المعلمة. غير أنهم صاروا يعتبرون الأمر عاديا، فالشقراء الجنية ليست في عز الشباب، وربما كان للمناخ دور كبير في هذا الشحوب. إلا أنهم استيقظوا ذات صباح على خبر مفاجئ ينعي الشقراء الجنية.

يسير الناس في موكب الجنازة، ويلاحظون أثناء سيرهم أن الرجل الأبيض الذي قيل إنه زوجها لم يكن يظهر عليه أثر الحزن. كما يلاحظون أن الأبله لم يبد على خديه أثر الدموع لكنه مع ذلك حزين وصامت وكأنه يتألم. يرجع الناس إلى بيوتهم وهم يشكون في أن تكون الشقراء أم الأولاد امرأة وفية لزوجها الأبيض مبررين شكهم بأنه من المستحيل أن يعيش الأبله كل هذه المدة الطويلة من غير امرأة تشاركه الفراش، خاصة أثناء ليالي الشتاء الباردة جدا في القرية. غير أن الحادث مر على العموم كما تمر عادة مثل هذه الأحداث في القرية.

* * *

قالت الجدة وهي ترمي بكرة الشوينغوم من فمها وتضع مكانها قطعة صغيرة من الفحم الخشبي:

-الخادمات، احذر الخادمات يا بني. لقد كادت إحداهن أن تسرق مني جدك، وجدك ضعيف أمام النساء كما تعلم- أوقفت الجدة:

-أرجوك، أكملي. واحكي لي قصة جدي مع الخادم فيما بعد.

صمتت قليلا وكأنها تتردد بين التوقف احتجاجا وبين الاستمرار عطفا ثم تابعت:

-كانت بقصر الأبله خادم جميلة، مغرورة، غير راضية بوضعها، تتشوق إلى اليوم الذي يلاحظ فيه الأبله جمالها فيلتفت إليها ويقربها إليه. لكن الأبله كان أعمى كما هي عادة الرجال، وانتظار الخادم طال. فقررت الخادم أن تنتقم، أن تحرق الأبله ومربيته، لعلها بهذا تفوز بالأبله. وتقرر الخادم الحمقاء أن تفضح السر وتعلنه لإحدى صديقاتها فتستيقظ القرية كلها ذات صباح على خبر اليقين حول علاقات الأبله العظيم. قالت الخادم لصديقاتها: الأبله لا شيء، والأبيض هو الذي يخطط لكل شيء، والأبله يطبق فقط، يطبق ما يأمر به الأبيض، وأحيانا بشكل سيء، فيغضب الأبيض ويرعب ويزبد، لكن الأبله مع ذلك ولد الحرام، فهو زوج للزوجة الشقراء، وزوج للزوج الأبيض، أي أنه أبو الأولاد، وهو، لعنة الله عليه، يعيش من الحرام وبالحرام وفي الحرام ومع الحرام، وما قتل الشقراء أم الأولاد سوى الغيرة، الغيرة من الزوج الأبيض الذي صار لها عشيقة منافسة ومن المعلمة الشقراء التي تفوقها جمالا. تحملت أم الأولاد منافسة الزوج، لكنها لم تجد إلى تحمل منافسة المعلمة سبيلا. وهكذا ترين يا أخت أن الأبله ولد الحرام، وأنهم جميعا أولاد الحرام وصانعو حرام.

هكذا تبدأ الدهشة فجأة بسبب كلام غير مسؤول من امرأة حمقاء، كلام خلق تناقضا محتملا في حياة الأبله، الأبله الذي يتظاهر بأنه قديس: الرجل عاد إلى القرية بالخير، وفي عهده بلغت ما بلغته من رقي ورخاء، منشآته

وأعماله شاهدة شهادة شامخة على محبته للخير، فهل يعقل أن يكون بمثل هذه البشاعة النفسية، أن يكون مترديا أخلاقيا إلى هذه الدرجة، أن يؤسس حياته على الشر والدناءة ؟

سيصير الخبر أخبارا والإشاعة إشاعات، فالذبابة تولد ذبابة في هذه القرية لتصير في مدة قصيرة فيلا أو زرافة أو نسرا. وهكذا يتفنن خيال القرية العجيب في خلق صورة مناقضة تماما لتلك الصورة التي كانت للأبله منذ عودته إلى القرية.

سيشاع بين الناس أنه لما اختفى عند نزول الغرباء بالقرب من القرية ذهب إلى المدينة، وأنه في هذه المدينة التي لا أخلاق لها عمل خادما في حانة للأبيض وأن الأبيض لم يكن رجلا رغم أنه لا يختلف بشيء في خلقته عن الرجال، وأن الأبيض قرب إليه الأبله لما رأى ما رأى من حماقاته المسلية إلى درجة أنهما صارا ينامان في نفس الفراش، وأن الأبيض كان راضيا عن هذا بينما كان الأبله يرتكب حماقة من حماقاته العادية البريئة.

وأما الشقراء التي صارت أم الأولاد فإنما كانت تخدع الناس بالتظاهر أمامهم بان الأبيض زوجها، وتعامله على هذا الأساس لكي لا يطمع فيها من لا ترغب فيهم من الرجال، وأنها هي التي جاءت به من أوروبا إلى المدينة التي يعيش فيها قوم لوط ليكون ساعدها الأيمن، وإنها إنما خرجت من بلدها مهاجرة من زوج سكير مقعد غيور وطلبا كذلك للثروة والجاه والتعويض، وإن الذي صار يهم الشقراء بعد عشرات التجارب الفاشلة مع رجال بلدها أن تجمع المال لتظل متحررة من الحاجة إلى الرجال وأن تنام مع من تشاء منهم، أي من يعجبها أكثر أو يدفع لها أكثر. لكل ذلك لم تهتم الشقراء بالعلاقة التي صارت تربط الأبيض بالأبله، فالمهم عندها أن يظل الأبيض ساعدها الأيمن وأن يظل قويا معافى سعيدا كي لا يشعر بالرغبة في الرحيل. غير أن

الشقراء مع ذلك لم تستطع أن تخفي رغبتها في الأبله وميلها نحوه، ليس فقط بدافع من بعض الغيرة، ولكن لأن الأبله رجل حقا، فهو وسيم جدا وذو بنية قوية، وهو فوق ذلك أبله، أي أنه يشكل بالتمام نوع الرجل الذي يصلح عادة لهذا النوع من النساء.

انتبه الأبيض والأبله إلى هذه الرغبة وهذا الميل، فأمر الأبيض صاحبه الأبله بان يستجيب لها حين تشاء، ولم يلبث الثلاثة أن شكلوا أسرة واحة مبنية على أساس متين، فالشقراء في حاجة إلى فكر الأبيض وشاربيه، والأبيض في حاجة إلى مال الشقراء، والأبله في حاجة إلى رعايتهما معا لأنه مقطوع من شجرة، والشقراء والأبيض في حاجة إلى جسد الأبله الذي تشبه بنيته بنية جسد ثور لا يتعب. لم يكتشف أهل المدينة هذه العلاقة الغريبة التي صارت تربط الأبيض والأبله والشقراء لأن هؤلاء لم يتركوا لهم مثل هذه الفرصة، فهم يعملون بالنهار كأنهم غرباء لا يربط شيء بعضهم ببعض، ولكنهم في الليل ينامون في سرير واحد نوما هادئا وممتعا بعيدا عن أعين الأعداء والخصوم والرقباء والفضوليين.

لقد كان من الممكن أن تستمر حياتهم بهذا الشكل السعيد لولا تهور الأبله وحماقاته، فقد أصبح يتصرف في بعض الأحيان كأنه سيد الجميع، وقد يحدث أن يقول لنفسه أو لغيره أنه الوحيد الذي يعمل داخل البيت وأن من حقه أن يكون مالكا للبيت ومن فيه.

وذات يوم بالغ أحد السكارى في مداعبة الشقراء، بل تجرأ وانتزع منها قبلة بالقوة، فلم يستطع الأبله أن يتحكم في أعصابه وصعدت بقية من بداوة إلى رأسه فوجد نفسه يرمي بالسكير خراج الحانة بقوة تكسرت معها إحدى أضلاع ذلك السكير. وكان هذا الأخير تاجرا كبيرا ذا نفوذ، اتهم المسؤولين عن الحانة بالسطو عليه في حالة سكر وتجريدهم له من بعض المال مع

استعمال الشقراء في إغرائه مادة مغشوشة. فكانت محاكمة وإغلاق للحانة وتهديدات متعددة بالسجن والاغتيال.

فكر الأبيض في فتح حانة أخرى في مكان آخر، وفكرت الشقراء في العودة إلى بلدها. وحين أحصت أموالها وجدت أنها جمعت حمولة ثلاثة صناديق متوسطة الحجم. فقالت للأبيض والأبله في كثير من الاستعطاف:

–إن ثروتنا الحالية تكفي لبناء مصنع متوسط وتجهيزه، فلنعد إلى الوطن لنتابع حياتنا السعيدة، نأكل ونشرب ونسهر وننام. قال الأبيض: لا مانع لدي. وقال الأبله: لا أستطيع أن أرحل معكما رغم أني لن أطيق الفراق.

سألاه:

–لماذا ؟

سكت.

عادا يسألانه. قال:

–أريد العودة إلى القرية !

–لماذا ؟ سأل الأبيض.

–أحب صيد الأرانب بالمصيدة.

–عندنا أرانب ومصائد.

–لكنها ليست كأرانب الجبل في القرية.

–لم أفهم، قالت الشقراء

علق الأبيض:

–ولا أنا فهمت شيئا.

ثم أمهلاه وانتظرا: حماقة، شطحة من شطحاته، قد يعود إلى رشده (قالت الشقراء) !

وفي اليوم التالي سأله الأبيض:

-ماذا قررت ؟

-أعود إلى القرية.

-ولكن، لماذا ؟ إن جوابك بالأمس لم يكن مقنعا، بل على العكس، كان فارغا وساذجا.

-أقول الحق ؟

-قل، نعم، (قالت الشقراء والأبيض بصوت واحد).

-أحب !

-تحب ؟ (تساءلت الشقراء والأبيض). ومن تحب ؟

-أحب جدتي وأريد أن أبقى قريبا من قبرها. أنا وعدتها بهذا قبل أن تموت.

علقت الشقراء: جن، والله جن الأبله.

وأمهلاه يوما آخر. لكن الأبله تمسك بموقفه. حاولا أن يغرياه، أن يقنعاه، استعطفاه، لكي لا يضع حدا لهذه الحياة السعيدة. لكن الأبله لم يغير موقفه.

آنئذ خطرت للأبيض فكرة: إذن نذهب معك إلى القرية، تزور قبر جدتك، ثم نأخذ معنا القبر ونرحل.

-لا، نذهب إلى القرية جميعا ونبقى هناك.

قالت الشقراء: كما تشاء.

وغمزت للأبيض، ثم جرته وهمست: نقضي هناك شهرا أو شهرين، نستريح، ينسى الحكاية ونأخذه معنا.

عاد الأبيض يطمئن الأبله:

-كما تشاء !

-إذن نحتفل بالمناسبة، قال الأبله.

وعند نهاية السهرة ناموا معا كالعادة. وهمس الأبله وهو ينصت إلى شخيرهما: لو أصرا قليلا لتبعتهما، غبيان !

استيقظوا في الصباح عند الفجر. استأجروا ثلاث شاحنات ملأوها بكل الضروريات وساروا نحو القرية وهم في أتم السعادة. وهنا أنشأوا ما نعرف من منشآت.

ومر الشهر الأول، والعام الأول، وتعاقبت الشهور والسنوات ولم يتحدث أي منهما عن الرحيل.

* * *

طبعا، ليست هذه الحكاية هي الوحيدة التي بناها خيال القرية، ولكنها كانت من منطق ذلك الخيال ومن منطق الواقع أيضا الرواية الأكثر احتمالا، فصارت لذلك الرواية الأكثر شيوعا وإقناعا.

غير أن هناك جماعة لا بأس بها تمسكت بهذا التعديل:

لم تكن للأبله أية علاقة جنسية لا بالأبيض ولا بالشقراء. فقد كان مجرد خادم أمين ومطيع في الحانة، ولكنه كان حريصا على التوفير، محببا لدى الزبائن بشكل جعلهم يجزلون له العطاء ويجمع مالا كثيرا بسرعة، وقد استطاع أن يقنع الأبيض والشقراء بإمكانات الثراء المتوافر في القرية وأن يصير شريكا لهما.

أما الشبه بين الولدين وبينه فيرجع إلى أن المرأة توحمت عليه بالفعل.

* * *

هناك جماعة أخرى، لكنها صغيرة، تمسكت بالتعديل التالي:

هل تعتقدون حقا أن الأبله يمكن أن يجمع مالا ؟ ألم يكن بيننا خاملا وغير قادر على العمل وزاهدا في المال ؟ إن الأبيض والشقراء إنما جعلا منه شريكا لهما لأنه يعرف القرية، أهلها ومناطقها وأسرارها ولغتها. تقولون

إنه من المستحيل أن يعيش رجل مثل الأبله بدون امرأة طوال هذه المدة ؟ وما قولكم في القديسين والرهبان ؟ أليس أبله مثلهم، أي أبله لا يشبه أحدا ؟

باختصار، في مثل هذه التفاصيل تختلف الروايات التي ابتدعها خيال القرية أو أكملها. وهي تفاصيل مهمة، ما في ذلك شك. لكنها على العموم لا تغير من جوهر القضية. وهي لا تهمنا هنا إلا بقدر ما أثارت من دهشة خبيثة لدى الناس وبقدر ما ساهمت في قلب الصورة البريئة التي كانت للناس عن الأبله منذ غادر القرية وبعد أن عاد إليها، أي قبل مجيء المعلمة الشقراء.

ونحن نستطيع الآن أن نستخرج من حياة الأبله أربع صور متناقضة له تملأ عقول الناس:

الصورة الأولى: وهي صورة الأبله الخامل صاحب الحماقات المسلية للنساء عند غيبة الرجال وللرجال عند رجوعهم من عملهم.

الصورة الثانية: وهي صورة الأبله الذي نجا من الموت، الأبله الذي لم يحارب ولم يختف كما حارب الرجال أو اختفوا.

الصورة الثالثة: وهي صورة الأبله اللوطي الذي يصل إلى كل هذه الثروة وكل هذا الجاه بواسطة عضو صغير من أعضاء جسده.

الصورة الرابعة: وهي صورة الأبله الخادم أو الأبله الذليل الذي يشبه بشكل من الأشكال القديس العامل على سيادة الحضور الإلهي في الأرض، ذلك الذي لا تهمه إلا مصلحة السماء والذي لا يراعي مصالح الناس إلا باعتبارها مؤدية إلى مصلحة السماء أو لا تتناقض معها.

علمنا أن التناقضات قد ظهرت في حياة الأبله بمجرد موت الشقراء أم الأولاد، وقد أدت هذه التناقضات إلى دهشة مفزعة عند الناس، وهي لم تكن مجرد دهشة أخلاقية وإنما كانت أيضا دهشة نفسية ودهشة فكرية، فهي إذن دهشة شاملة بهذا المعنى الأخير وبمعنى أن الدهشة صارت أيضا قلقا وانفعالا

وتساؤلا، وبعبارة أوضح صارت هذه الدهشة إشكالا فكريا يعيشه الناس في شكل انفعال مقلق لأنه مبني على الشك والتساؤل وعدم الرضى، ويمكن تلخيص هذا الإشكال بالصيغة البسيطة التالية:

كيف يمكن أن نفهم حياة الأبله وسلوكه ؟ وما هو السبيل إلى هذا الفهم؟ ما علاقته بالشقراء والأبيض والأولاد هل هو أبله حقا أم ولد حرام ؟ بأي شكل قبلنا ونقبل أن نعيش معه في الحرام ؟ الخ ...

من المؤكد أن فهم الأبله من طرف الناس لم يكن ليتم من غير أن يفهموا أنفسهم أولا، وبالتالي من غير فهم للعلاقة التي تربطهم بالأبله. هذه العلاقة لم يضعها أحد موضع السؤال لأن أي أحد لم يفهمها على صورتها الحقيقية ومحدداتها بالرغم من أنها تبدو منذ البداية علاقة غريبة ومفروضة من خارجهم وغير مقنعة في جوانبها الإنسانية. فالفهم كما هو معروف في مثل هذه الحالات فهم مزدوج، وإذا بدأ من جانب فإنه بالضرورة يصل إلى الجانب الثاني ويقترن به، وبغير هذا لا يكون فهما.

لعل هذا هو ما أدركه الأبيض حين أوحى إلى الأبله بأن يتزوج وأن يتزوج بفتاة من القرية، وتعمد الأبيض أن يتحدث مع الأبله في هذه المسألة على مرأى ومسمع من الخدم. أعلن الأبله قبوله وبصوت عال وصل إلى آذان كل الخدم. ثم سرى النبأ بين الآذان كنوع من المعجزة أو كأنه برقية حرب مستعجلة.

أصبح الناس وهم لا يتحدثون إلا عن هذا الموضوع، وأخذوا يتبارون في ترشيح أجمل بنات القرية، بل صا ت تحدث خصومات بين الفتيات والعائلات وبين بعض الشبان، وقد لخصومات بشكل أنسى الناس الاهتمام بحياة الأبله السابقة.

* * *

لما طال انتظار الناس وطالت معه الخصومات من غير أن يبدو على الأبله أنه عازم على تنفيذ قراره، تقدم رجل عجوز وطلب مقابلة الأبله.

ولما مثل بين يديه سأله الأبله عن الهدف من الزيارة بأدب:

-أهلا بالشيخ الجليل، لقد وصلتنا أخبار اعتكافكم على العبادة، وعرفنا أنكم تدعون لنا في كل صلاة، فهل من حاجة نقضيها لكم ولو من باب الجميل.

-ليس من أجل هذا جئت !

-ومن أجل ماذا ؟ أطال الله عمر سيدنا الشيخ.

-لي ستة عشر ابنا ...

-بارك الله فيهم وجعلهم من الأوفياء المطيعين.

-ولي بنت واحدة !

-جوهرة البيت.

-سنها . . . .

-من العيب الحديث عن سن البنات.

-جئت أطلب يدك لها لتكون زوجة لك في الحلال.

-ونحن نقبل الطلب ونعتز بشرف مصاهرتكم.

-لكنها عانس.

-ولو . . .

-لكنها خرساء.

-ولو. . .

-وحولاء

-ولو. . .

-وتكره الرجال !

-هذا نصيبي. قبلته، فلنتحدث عن المهر.

-أن تخلصني منها، هذا كل ما أطلبه.

-غدا نبدأ ترتيب الأمور. . .

دام العرس أسبوعا بأكمله. ثم بنى الأبله للخرساء الحولاء قصرا كبيرا ونقلها إليه. ثم بنى بالقصر جناحا ضخما نقل المعلمة إليه ونقل معها الأولاد ثم بنى جناحا أضخم انتقل إليه الأبيض، وبعد تسعة أشهر وضعت الخرساء الحولاء ولدا يشبه المعلمة الشقراء. تعجب الناس لهذه المصادفة الغريبة: كيف تلد خرساء حولاء ولدا بمثل هذا الجمال ؟ لكنهم لم يذهبوا بعيدا بهذا السؤال. فقد رأوها حاملا حين جاءت تزور بيت والدها أول مرة بعد الزواج، ورأوا الحمل يكبر حين تكررت زياراتها لوالدها، وكل ظن كما يبدو من مثل هذه الحال إثم، وكل ظنونهم بشأن الأبله وأقاربه كشفت الأيام أنها واهية، فلا داعي إذن لمزيد من الظن، أي لمزيد من الإثم.

* * *

قرر الناس أن يرتاحوا من عذاب الظن والدهشة، لكن الأبله لم يترك لهم هذه الفرصة. فقد أوحى بدوره للأبيض أن يتزوج وأن تكون زوجته من القرية. عـــادت الأسئلة بالعشـــرات: هل يجوز شرعا وقانونا زواج أبيض من فتاة من القرية رغم أن الأبيض أصبح تقريبا واحدا من أهل القرية؟

لماذا لا يتزوج الأبيض من المعلمة الشقراء الجميلة ؟

لماذا لا يذهب إلى بلده ويتزوج من هناك ثم يعود ؟...

أسئلة كثيرة شغلت أهل القرية من غير أن تجد لها جوابا. وزار آباء كثيرون جناح الأبيض سرا أو علانية وعادوا جميعا يملأ قلوبهم الأمل، فعادت الخصومات من جديد، وانقطعت رواسب الخصومات التي كان قد

خلقها زواج الأبله، حتى أن شابا قتل فتاة زار أبوها جناح الأبيض سرا، وقتلت فتاة أخرى أختها الكبرى، وقيل أن أجمل امرأة في القرية وجد زوجها مقتولا بضربة فأس بباب بيته.

هذه المرة أيضا طال الانتظار وطالت الخصومات من غير أن يبدو على الأبيض أنه سيقوم بتنفيذ قراره، فكل الآباء الذين زاروا جناح القصر وعدهم الأبيض خيرا، ولكنهم ما زالوا في انتظارهم وخصوماتهم، لم يروا منه لا خيرا ولا شرا.

* * *

أمام دهشة الجميع، تقدمت فتاة وطلبت مقابلة الأبيض. وما كاد يراها حتى قال:

–أنت فتاة أحلامي، لقد انتظرتك طويلا، وكم رأيتك في منامي.

–ولكني خنثى !

–أنت فتاة أحلامي . . .

–لا أريد أن أغير من تكويني الجسدي شيئا.

–أطلبي ما تريدين في المهر . . .

–هل لاحظت أني عرجاء، وليست لي إلا رجل واحدة سليمة ؟

–المهر، قلت لك، لنتحدث عن المهر...

–هل تقبل أن تعتنق دين القرية ؟

–أعتنق من الأديان ما تريدين، ولك من المهر ما تشائين...

–ليس لي أقارب، مقطوعة من شجرة، ولقيطة.

–هذا أحسن لي ولك، فأنا أيضا مقطوع من شجرة . .

–أصاب بالصرع من حين لحين.

-أصاب معك حين تصابين ..

لم تخرج الفتاة بعد ذلك من القصر. أما القرية فقد دعيت إلى حفل عام دام يوما وليلة أضيف إليهما يوم للاستراحة.

* * *

مرت تسعة أشهر، ثم عام، ثم سنتان، ولم تلد العرجاء على عكس ما كان ينتظر الجميع. لذلك زادت ظنونهم وعادت إلى الظهور من جديد، بل صاروا يسخرون من الأبيض.

وكأن الأبيض انتبه إلى بعض ما يدور في أذهان الناس وألسنتهم، فقرر أن يبني قصرا بعيدا عن قصر الأبله. ولما مرت تسعة أشهر على انتقال العرجاء إلى هناك وصل إلى أسماعهم أن العرجاء قد وضعت ولدا. ومرت ثلاث سنوات فرأوا طفلا أشقر يشبه المعلمة الشقراء يهرب من داخل القصر ليقوم ببعض الحماقات والعرجاء تتبعه بعصا مهددة. ثم رأوا بعد ذلك طفلا آخر يشبه المعلمة الشقراء، ورأوا مع توالي السنوات نفس المشهد يتكرر باستمرار، وفي كل مرة تخرج العرجاء بعصاها وراء الأولاد متوعدة مهددة.

أما في قصر الأبله فقد تعدد الأولاد الذين يشبهون المعلمة الشقراء.ولكنهم لم يروا الخرساء الحولاء إلا وهي ذاهبة إلى بيت أبيها أو عائدة منه يحيط بها الخدم والعبيد.

ومع مرور الأيامى كاد الناس أن ينسوا مرة أخرى تلك الشبهات المتعلقة بعلاقات الأبيض والأبله والمرأة الشقراء الراحلة لولا هذا الشبه الغريب الذي يجعل أبناء الأبله والخرساء وأبناء الأبيض والعرجاء صورة من المعلمة الشقراء.

تمنوا لو ترحل هذه المعلمة أو تتزوج، خاصة وأن الأولاد الكبار، أولاد الشقراء الراحلة، قد كبروا وتركوا القرية من أجل متابعة الدراسة، وأن المعلمة صارت عاجزة فيما يبدو عن الجمع بين تربية أبناء الأبله وتربية أبناء الأبيض الذين يتكاثرون حتى شبهوا بأبناء الأرانب وصار الأبيض يفكر في جلب معلم للأشراف على تربية أولاده وتعليمهم. لكن الشقراء ظلت معلمة الجميع ولم يأت المعلم الجديد.

* * *

أثناء حوادث الزواج ظهر رجل متسول ادعى أنه من عائلة الأبله، وهو رجل يدخن كثيرا ويشرب كثيرا ويعرف كيف يجعل الإنسان يخرج الصدقة من جيبه أوبيته، وأينما ذهب يقول بمناسبة أو بغير مناسبة: أنا من عائلة الأبله، والله أنا فعلا من عائلة الأبله.

لم يصدق الناس المتسول، فهم يعرفون أن الأبله مقطوع من شجرة. لكن الأبله سمع بالرجل المتسول الذي يشرب الخمر الرديء أو الكحول الخالص ويدخن الكيف ويرعى القمل في كل ناحية، دافئة من جسده كأنه مزرعة متنقلة لتربية القمل، ويدعي في جد أنه من عائلة الأبله. استدعى الأبله المتسول إلى بيته. وحين خرج المتسول من الحمام وارتدى الثياب التي أرسلها إليه الأبله شم كل جزء من جسده مركزا على الخصوص على الصدر والإبطين ثم ابتسم وقال للخادمين اللذين كلفا بالإشراف على نظافته:

-أنا حقا من عائلة الأبله، ومن عائلة الأبيض أيضا.

قال الخادمان بصوت واحد:

-نعم سيدي، نعرف ذلك . . .

ابتسم المتشرد:

-نمشي إذن:

فتقدمه الخادمان نحو قصر الأبله حيث وجدوا الأبله واقفا بالباب لاستقبال الزائر. فلما رآه الخادمان صاحا:

-مولانا الأبله، أدام الله عزه ونعمته.

ثم أشارا إلى المتسول الذي كان لا يزال يبتسم:

-الغصن الذي ضاع من شجرة مولانا الخصبة.

انحنى المتسول على اليد الكريمة مقبلا. ثم دلف وراء الأبله داخل القصر، بعد طقوس الاستقبال العادية في مثل هذه المناسبات سأله الأبله:

-من ناحية الأب أو الأم ؟

لم تفارق البسمة فم المتسول:

-والله، لا من هذه ولا تلك.

بدا الأبله حائرا:

-من ناحية الله ؟

-ولا من هذه، فإلهي يختلف كثيرا عن إله سيدي.

كشر الأبله:

-وكيف تدعي القرابة منا ؟

وقف المتسول وهو يحتفظ ببسمته:

-أرجو أن يسمح لي مولاي أن أشرح له الأمر في أذنه.

-لكن، لا أحد معنا. تكلم.

اعتذر المتسول:

-لكن للجدران آذانا يا سيدي.

تنازل الأبله عن بعض كبريائه:

-كما تشاء، إنما لا تقترب كثيرا.

وتقدم المتسول من الأبله وأسر إليه بكلام تركه مبهوتا بعض الوقت. ثم استعاد الأبله وقاره. وكان المتسول لا يزال واقفا بالقرب منه.فنهض الأبله واحتضنه وقبله بحرارة.

بعد هذا أرسل الأبله في طلب الأبيض. فلما حضر هذا الأخير ونظر إلى المتسول بدا وكأنه لم يعرفه. لكن الأبله أسر إليه بشيء فقام الأبيض واحتضن المتسول وقبله.

* * *

حاول الخدم كالعادة أن يعرفوا سر ما يحدث، لكن لم تسعفهم آذانهم فاكتفوا بما رأت عيونهم وبعض ما التقطته آذانهم: رجل ليست له أية قرابة بالأبله والأبيض، لا من ناحية الأب ولا من ناحية الأم ولا من ناحية الله، ولكنه مع ذلك يدعي أنه من عائلتهما، رجل لا يستطيع أن يتعرف عليه في البداية لا الأبله ولا الأبيض، ولكنه يستقبل بعد هذا بالأحضان من طرفيهما. وهكذا ظل السؤال معلقا:

ما نوع القرابة الموجودة بين الأبله والأبيض والمتسول؟

* * *

مع مضي أيام الضيافة استطاع أحد الخدم أن يشاهد المتسول يخرج من صدريته صورتين ويمدهما إلى الأبله، واستطاع ذلك الخادم أن يتبين أن الصورة تضم الأبيض والأبله والمتشرد والشقراء الراحلة. لم يتأخر في نقل ما رأى خارج القصر، فتأكد الناس أن هناك علاقة بالفعل بين كل من الأبله والأبيض والمتسول والشقراء. لكن ما نوع هذه العلاقة ؟ لم يقدروا على أكثر من التخمين. غير أن التخمين لم يخدمهم هذه المرة. ومع ذلك فإن هناك أمرا يظل مؤكدا وهو أن هذه العلاقة ترجع إلى حياة الأبيض والأبله والشقراء

الراحلة قبل مجيئهم إلى القرية. وعلى ضوء هذا الأمر المؤكد فإن أول فرضية تبدو أقرب إلى الواقع هي القول بأن المتشرد ربما يكون شريكا لهم بالمدينة، وربما يكون هو المالك الحقيقي للحانة، لكنه حين وقع ما وقع بسبب تهور الأبله كان خارج المدينة في رحلة طويلة. فلما عاد لم يجد لهم أثرا. ولما كانت الحانة مصدر عيشه الوحيد فإنه عاش في فاقة، وأخذ يبحث عنهم في أماكن بعيدة إلى أن اهتدى أخيرا إلى أنهم لم يسافروا إلى مكان بعيد، وإنما اختاروا هذه القرية الصغيرة التي تحولت منذ عودتهم إلى مدينة حقيقية. وربما كان المتسول قد دخل السجن بعد المحاكمة واتفق معهم على هذا الحل. غير أن المعاناة في السجن غيرت من ملامحه كثيرا، فوجد الأبله والأبيض صعوبة في التعرف عليه. وبما أن الجماعة منذ بدايتها ظلت مخلصة للعقد الشفوي الذي كان يربط بين عناصرها فإن المتشرد لم يجد أية صعوبة في الاندماج فيها من جديد، وفي استرجاع حقه. لقد تأكد هذا الزعم أو كاد حين شيد للمتسول قصر خاص به وحين صار فجأة زوجا للمعلمة الشقراء وصار له الحق في التصرف داخل القرية كما يتصرف الأبله والأبيض. ويظهر من خلال الوقائع المتتالية أن الجماعة كما اعتبرته شريكا تاما في رأس المال اعتبرته أيضا شريكا في الفوائد الكثيرة التي حصلوا عليها منذ مجيئهم إلى القرية.

ولقد حلت بفضل ظهور المتسول واندماجه في الجماعة من جديد مشكلة ظلت مصدر كثير من القلق والظنون، تلك هي مشكلة الشقراء المعلمة. ولكن حياته الجديدة صارت منذ بدايتها الأولى مصدرا لعدة مشاكل، ويمكن القول مع شيء من التحفظ طبعا إن كل المشاكل التي ستعرفها القرية منذ استقراره بقصره وزواجه بالشقراء سيكون المتسول وراءها بشكل من الأشكال، فهو يظهر على الأقل من الخارج وكأنه شخص لا يمكن أن يعيش

بلا مشاكل، لا يكون سعيدا إلا بخلق المشاكل بالرغم من أنه لا يهتم مطلقا بحلول تلك المشاكل. وهذا الطبع شائع عند كثير من الناس، ولكنه عند المتسول من نوع خاص، فهو من جهة يميل إلى خلق المشاكل التي يكون لها صدى عند الجميع، وهو من جهة أخرى أبعد عن الطبع وأقرب إلى التطبع، وهو بالإضافة إلى ذلك في عمى تام عما يقوله ويراه في الناس وبعيد عن الاهتمام بأي توبيخ خارجي أو ذاتي. من هنا أهمية المشاكل التي خلقها المتسول في القرية. ولقد سبق القول أن هذه المشاكل قد بدأت منذ زواجه واستقراره مع الشقراء بالقصر الذي أمر بتشييده له الأبله. ذلك لأن أولاده خرجوا يشبهون الخرساء، ولأنه كان يضرب المرأة الشقراء بشكل مبرح يجعلها تستغيث أكثر من مرة في اليوم، ولأنه كان ينزل إلى القرية ويشرب الخمر مع أهلها ثم يسكر ويصفهم بالحمير وقد يضرب بعض شبابهم واصفا إياهم بالنساء أو يعترض طريق بعض نسائهم وفتياتهم ويساومهن في شرفهن أو ينتزع منهن قبلات، ولو بالقوة.

والظاهـــر أن الأبله والأبيض كانا على علم بما يحدث، ولكنهما لم يحركا ساكنا بهذا الشــأن. فأخذ الناس يتساءلون: لماذا لا يريحنا منه الأبله أو الأبيض؟ ومنهم من اعترض مرارا على هذا السؤال: بل لماذا لا نريح أنفسنا منه ؟

لقد كان واضحا أن تصرفات المتسول تزعج الأبله والأبيض مثلما تزعج بقية الناس. غير أنه لم يكن واضحا تماما لماذا لم يقدر أحد على وضع حد لهذا السلوك الوحشي الذي نرى مثله في سلوك بعض الشخصيات المهزوزة في أفلام رعاة البقر.

أمام هذه المعطيات الجديدة لم تعد علاقة الشركة كافية لتفسير سكوت الأبله والأبيض عن تصرفات المتسول ولا بد من فرضيات أخرى أكثر

اتساقا. فالواضح أن الأبله يخافه، والأبيض يخافه، وكذلك الأهالي. أما لماذا هذا الخوف فإنه من السهل تفسيره عند الأهالي، ولكن من الصعب جدا تفسيره أو على الأقل فهمه عند الأبله والأبيض بواسطة فرضية الشركة وحدها. لذلك افترض الناس أن في الأمر شيئا مريبا، كأن يملك المتسول مثلا سرا خطيرا يتعلق بحياة الأبله والأبيض والشقراء. وإذا صح هذا فإن المتسول يمارس عليهم مساومة جهنمية، وعلى هذا فإن الصورة التي شوهد وهو يقدمها إلى الأبله قد تكون مجرد نسخة من صور عديدة يحتفظ بها في مكان ما أو عند شخص ما لتنتشر على الناس لحظة اختفائه أو موته، وبعبارة أدق: يملك المتسول سرا غريبا يجعل الأبيض والأبله تحت رحمته. وهذا ما يفسر خوفهما منه وسكوتهما عن تصرفاته الحمقاء. هذا إذن هو جوهر العلاقة المشبوهة بين عناصر هذه الجماعة، وهو السر في محاولات الأبله والأبيض إرضاء الرغبات الكثيرة والشاذة أحيانا التي يطلب المتسول منهما إرضاءها، وهو السر كما قلنا في سكوتهما المتواطئ عن مغامراته وحماقاته اللاأخلاقية في أغلبها، هذه الحماقات التي لم تبق مقصورة على الشبان والنساء والفتيات، وإنما تعدتهم لتمس الغلمان والعجزة إذ لم يعد خافيا على أحد أن المتسول يحب الغلمان ويتلذذ بتعذيب العجزة، خاصة في حالات سكره، وهو دائما سكران.

* * *

استطاع المتسول بعد كل حماقاته وبالرغم من كل حماقاته أن يستقل عن الأبله والأبيض وأن يرغمهما على التنازل له عن ثلث ما يملكان من الماشية والأرض والدور والحوانيت والمعامل وخشب الغابة والحمامات والأفران والآلات والشاحنات والعمال والعاملات. وقد صار هذا الوضع

الجديد سبب مشاحنات كثيرة بينه وبينهما، ولم تلبث هذه المشاحنات أن انتقلت إلى وضع أعم، إذ صارت تجري مثيلاتها أو تنعكس هي نفسها فتأخذ شكل خصومات حادة بين عماله وعمال الأبله والأبيض وبين نساء قصره ونساء قصر الأبله، وبين أبنائه وأبناء الأبيض والأبله وحتى بين حيواناته وحيواناتهما، بل صارت له شرطته وعسسه ومخبروه، ولم يخل يوم من المعارك بين هؤلاء وأعوان والأبله من شرطة وعسس ومخبرين.

جاء المتسول إذن إلى القرية كما تجيء النار والشيطان لينشر الخصومة والفتنة في كل مكان ووقت بالقرية. ولقد ظل يتأكد باستمرار أن الأبله والأبيض لم يعودا قادرين على وضع حد لهذه النار التي أخذت تلتهم الأمن والسلم في القرية، كما ظلت تتأكد الفرضية القائلة بوجود سر خطير يملكه المتسول، ولكن طبيعة هذا السر لم تتضح بعد. فلا أحد يعرف بالضبط من أين يستمد المتسول كل هذه القوة التي تجعله يقف في وجه الأبله والأبيض إلى حد المواجهة، بل إلى حد أنهما صارا يتوددان إليه، ويعرضان عليه الصلح في كل مناسبة، ويرسلان إليه الرسل من أجل الاجتماع حول مائدة واحدة والتفاوض ويسعيان إلى ذلك بالهدايا والتملق ونصح أعوانهما بالتسلح بالصبر واليقظة أمام استفزازات أصحابه وتحرشاتهم اتقاء للفتنة وحقنا للدماء. لكن المتسول لم يكن يقابل كل هذا بغير التجاهل والبسمة الخبيثة التي لم تفارق شفتيه حتى حينما يكون في أعلى درجات سكره أو حماقته.

* * *

مرت الأيام والشهور على هذا الوضع المتأزم. لم يفقد الأبله والأبيض الأمل في الصلح خلال هذه المدة. لكن المتسول لم يعد إلى رشده، وإنما ظل يرمي بالأعواد لتظل النار مشتعلة.

وقد زاد الطين بلة أنه رفع فجأة أجور عماله وأعوانه بحيث صارت مضاعفة بالنسبة لأجورهم السابقة وأجور أصحاب الأبله والأبيض. ولقد قلل هذا القرار من كراهية أصحاب المتسول له، ولكنه زاد في حقد الأبله والأبيض واعتبراه أكبر حماقة يرتكبها المتسول، فكل الحماقات الأخرى كانت توجب السكوت والتسامح، أما هذه فهي حماقة خطيرة، بل ضربة موجهة مباشرة إلى وجهيهما. فقد صار عمال الأبله والأبيض ومساعدوهما محط سخرية زملائهما الذين كانوا في خدمة المتسول. واستيقظ الأبله والأبيض ذات صباح ليجدوا عمالهم وأعوانهم مضربين عن العمل. ولم يكن من الصعب عليهم أن يتصوروا أن المتسول هو الذي أوحى إليهم بهذا الأمر بشكل من الأشكال، فالإضراب لم يكن معروفا في هذه القرية ولو كفكرة. غير أنهما بدل الزيادة في الأجور توسلا إليه أن يلغي الزيادة التي خصصها لعماله وأعوانه كي لا يضطروا إلى الزيادة بدورهما في أجور أصحابهما واتقاء لفتنة أكبر، أي تجنبا لفتح باب الطمع عند العمال والأعوان لأنه باب إذا ما فتح ولو مرة واحدة لا يمكن أن يغلق، وهو أمر ليس في مصلحة المتسول مثلما هو ليس في مصلحتهما. ومع كل هذا سخر المتسول من توسلاتهما فاضطرا إلى الزيادة في الأجور.

غير أنهما لتحقيق التوازن زادا في أثمان المواد الاستهلاكية ولسان حالهما يقول: العبد وما ملك لسيده، شريطة أن تعطيه باليد اليمنى وتأخذ منه باليد اليسرى.

حين أقدما على اتخاذ هذا القرار كانا ينتظران أن يقوم المتسول بدوره بالزيادة في أثمان المواد الاستهلاكية بنسبة تتلاءم على الأقل مع نسبة الزيادة في الرواتب. لكن المتسول أمر المشرفين على مرافقه أن يحافظوا على الأثمان كما كانت قبل الزيادة في الرواتب. وصار يراقبهم بنفسه كي لا يستغلوا الفرصة للإثراء على حسابه وحساب عماله وأعوانه. والأمر من هذا كله أنه بمجرد ما زيد في أجور عمال الأبيض والأبله وأعوانهما أمر بزيادة أعلى في أجور عماله وأعوانه مع المحافظة على أثمان المواد الاستهلاكية على ما كانت عليه قبل الزيادة الأولى. ومع خروج هذا القرار وتطبيقه فور صدوره زالت تقريبا كل بقية الكراهية التي كان يكنها له أعوانه وعماله، وأخذ أعوان الأبله والأبيض أنفسهم ينظرون إليه بشيء من العطف والمحبة والتقدير، فهو في نظرهم قد صار رجلا طيبا رغم حماقاته، وهو بالرغم من كل حماقاته أحسن من الأبله والأبيض. وذلك في الوقت الذي لم يعد فيه خافيا على أحد أن الأبله والأبيض قد وصلا إلى ذروة تحملهما ولم يعودا يطيقان هذه التصرفات اللامسؤولة التي ظلت تميز المتسول عنهما منذ أحلاه محل الشريك الكامل الحقوق، وبات واضحا بالتالي أنهما يتحينان الفرصة للقضاء عليه، وقد قيل أنهما كلفا من يقتله، غير أن هذا العميل قد أخطأ فقتل شخصا بريئا. والحقيقة أن المتسول اهتدى إلى حيلة لاتقاء مكائد الأبله والأبيض فجعل كثيرا من أعوانه المقربين يلبسون مثل لباسه ويمشون مثل مشيته ويتصرفون مثله في إطار الاحتفاظ له ببعض ما يميزه.

* * *

تغير موقف الأغلبية من المتسول وتبدلت الصورة التي كانت لهم عن هذا المتشرد الأصلع الذي كان يفتخر بصلعته ويقارنها بصلعة الأبله قائلا: أنا

أصلع من الخارج، أما الأبله فهو أصلع من الخارج ومن الداخل أيضا. وذلك من غير أن يضحك أو يبدو أنه يضحك، فالبسمة دائما على شفتيه لا تفارقهما حتى في أحلك اللحظات.

لكن سلوكه حيرهم مع ذلك. فاختلفوا بشأن دوافعه. فهو إما مجنون حقا، وإما أنه ينتقم لسبب ما من الأبله والأبيض، وإما أنه رجل طيب في أعماقه رغم مظاهر الخشونة والوحشية في سلوكه وأقواله، والطيبون الحقيقيون كثيرا ما يكونون هكذا، وإما أنه شخص ذكي جدا إلى حد المكر ويعرف كيف يكسب الكثير، وإما أن له مخططا آخر ليس المال عموده الفقري ولا الخير.

وعلى كل حال، فقد ارتفع إنتاج عماله وأعوانه وأقبلوا على العمل بجد وبحيوية. لكن إنتاج عمال الأبله والأبيض قد قل في المقابل وكذلك تزايد الإقبال على دكاكين المتسول ومرافقه الأخرى كالحمامات والأفران بينما كادت تقفل أبوابها حوانيت ومؤسسات الأبله والأبيض، وربما لأن الأولى ظلت تبيع بنصف ما تبيع به الثانية، والناس في مثل هذه الأشياء قد تغير البائع لمجرد أن غيره يمنح تخفيضا يساوي سنتيما واحدا.

* * *

قل الطلب على بضائع الأبله والأبيض وقلت القدرة الشرائية بالمثل عند أعوانهما وعمالهما. التجأ إلى الإشاعة والقول إن المتسول يبيع بضائع مغشوشة، بضائع تتسبب في أمراض خطيرة مثل الشلل والسرطان. التجأ إلى المؤامرة: مات طفل بسكتة قلبية فدفعوا بأبيه إلى رفع دعوى ضد المتسول متهما إياه ببيع بضائع تصيب بالسكتة القلبية. تعددت الإشاعات والمؤامرات.

لكن المتسول أظهر قدرة فائقة على استغلالها وتحويلها ضد مروجيها .. وبدا أن الحرب الأهلية آتية لا ريب فيها.

الغريب حقا في هذه المسألة أنه في الوقت الذي ازدادت فيه سخرية أعوان المتسول وعماله من أعوان الأبله والأبيض وعمالهما ازداد هؤلاء تقربا من أولئك خاصة عندما فتح المتسول ملهى كبيرا لأصحابه وسمح لأصحاب الأبله والأبيض بارتياده من غير قيد ولا شرط معتبرا إياهم مثل أصحابه فصاروا يسهرون معا ويشربون معا ويلعبون معا كأنهم أسرة واحدة.

باختصار صار الناس يشترون من حوانيت المتسول ويدخلون حمامه ويشترون الخبز من فرنه ويرتادون ملهاه ويثنون عليه سرا وعلانية. وصار المتسول أكثر حكمة وتعقلا في تصرفاته مع الناس إلى حد جعلهم ينسون ما تقدم من حماقاته وتصرفاته الوحشية، بل صار رجلا طيبا وكأنه خلق من جديد.

صار المتسول إذن نموذجا للسيد وعماله نموذجا للعمال.

فلا غرابة أن يصاب الأبله والأبيض بما يشبه الجنون الذي يحرق الأعصاب ويتسبب في الأرق وضيق النفس. لكن الأغرب من كل ذلك أن يظل الأبله والأبيض دائما وعلى العموم، أي رغم الإشاعة والمؤامرة الفاشلة، في موقف الدفاع، وفي موقف الدفاع لا يحسد عليه سيد، غير قادرين على اتخاذ خطة هجوم واحدة في المجالات التي كان يهجم فيها المتسول.

ولقد اضطرا في نهاية المطاف إلى الزيادة في أجور عمالهما وأعوانهما كما اضطرا إلى التنازل عن الزيادة الأولى في المواد الاستهلاكية.

بهذه الطريقة تساوى رجالهما مع رجال المتسول. غير أن هؤلاء طالبوا المتسول بزيادة أخرى لكي يظلوا متميزين عن رجال الأبله والأبيض.

ولما طلب منهم المتسول أن يمهلوه بعض الوقت، أن يدعوه يفكر في الأمر قليلا فعلوا ذلك، لكنهم اعتبروا موقفه مراوغة وتملصا.

ولما طـال تفكير المتسول في المسألة أصابهم اليأس وأيقنوا أنه لم يعد قادرا على الزيادة في أجورهم فتناسوا القضية وكان لسان حالهم يقول: يجب أن نعمل أكثر لنستحق الزيـادة، فالرجـل لم يعد وضعه المالي يسمح له بالتضحيات والواقـع أن عمال الأبلـه والأبيض وأعوانهم كانوا أكثر انتظارا وأشد معاناة من خلال ترقب زيادة المتسول في أجور عماله، فلولا زيادات المتسول في أجور عماله لما حصلوا على أية زيادة من طرف الأبيض والأبله. وتناسى رجال المتسول وما تناسى رجال الأبيض والأبله. لكن العام بأكمله يمر ولا خبر عن الزيادة.

آنئذ ارتاح الأبيض والأبله واعتقدا أن وقت المصالحة قد حان فقررا أن يقابلا المتسول وأن يعرضا عليه الجمع بين ممتلكاتهم من جديد وحددا يوم الجمعة الأول من الشهر الخامس موعدا لذلك.

* * *

مساء يوم الخميس الأول من الشهر الخامس دخل المتسول فجأة على أصحابه بالملهى وأمر بالشراب للجميع على حسابه. فلما أفرغ الشراب في الكؤوس، رفع كأسه وطلب أن يشرب الحاضرون نخب العهد الجديد .

وشرب الحاضرون: نشرب نخب سادة العهد الجديد. لكن أحدهم بادر المتسول بالسؤال: أي عهد جديد تعني ؟ كل حياتنا عهود جديدة. ابتسم المتسول وأثنى على صاحب السؤال فشدت إليه الأنظار قال: ابتداء من الآن، من هذا اليوم، الخامس من الشهر الخامس من السنة الوردية، ابتداءا من هذا اليوم وهذه اللحظة لم يعد هناك فرق بيني وبينكم –اسمعوا: لا فرق بيني

وبينكم، هل . . . وصفق الحاضرون، فأفرغ كأسا أخرى في جوفه. ثم تابع: ابتداء من هذه اللحظة من هذا اليوم لم يعد فينا سيد وعبيد، أكون مثلكم تماما، صفق الحاضرون. أطالوا التصفيق.

سكت المتسول. وتساءل القوم: كيف نكون مثله، لا فرق بيننا وبينه ؟ هل يسخر منا ؟ وكيف يزول الفرق بين السادة والعبيد ؟ من يقود العالم إذا زال السادة ! نحن لا نريد إلا سادة عادلين وكرماء، وهو يقوم بهذا خير قيام.

كان المتسول يستعد للكلام، تعمد إسقاط كأسه، قال: نشرب مرة أخرى في صحة وعافية وطول عمر العهد الجديد. وطلب الشراب للجميع ثم قال: ما العهد الجديد ؟ ماذا أعني به ؟ أتنازل لكم عن كل ممتلكاتي لكي أصير مثلكم وعلى أساس أن تصير الممتلكات جماعية وأن يصير العمل جماعيا، وأن تنظم حياتنا على هذين الأساسين.

بالطبع، لم يصدقه الحاضرون. قالوا: ها قد عاد مرة أخرى إلى حماقاته، ولكن طيبوبته معنا تشفع له، أضف إلى هذا أن من حقه بدوره أن تلعب الخمر برأسه، فليكن له هذا الحق علانية وليس سرا.

غير أن المتسول عاد يطالبهم مرة أخرى بشرب نخب العهد الجديد ثم صعد فوق طاولة وقال: اختاروا من بينكم عشرة رجال ولا مانع من أن تكون من بين العشرة نساء، ولنجتمع حالا للقيام بترتيب أمر هذه الملكية الجماعية، خاصة وضع لائحة الأعضاء والنظام الداخلي وكل ما يتعلق بالتسيير والإنتاج.

خلال يومين كانت قد اتخذت كل إجراءات نقل الملكية من ملكية فردية إلى ملكية جماعية، ولم يترك للمتسول سوى قصره. وهكذا أشعل المتسول نار الفتنة في القرية، فقد عاد إلى قصره في يوم التالي عند المساء فوجد الشقراء مشنوقة وأولاده مذبوحين من الوريد إلى الوريد، وبين الشقراء

والأولاد كانت تتمايل لوحة كبيرة مكتوب عليها بالأحمر، وقيل بالدم: هذا جزاء من أراد أن يتمرد، إنا كذلك نجزي المخطئين التائهين، لكنها مجرد بداية، بل أحسن: مجرد تحذير للذين هم في غيهم يتمادون.

واستيقظ الأبله عند الصباح فلم يجد أولاده والخرساء. وكذلك حدث للأبيض. سأل الأبله عن زوجته وأولاده عند الأبيض وسأل الأبيض عن زوجته وأولاده عند الأبله. وسألا عنهم عند الأصهار، ولكن لا أحد سمع ولا رأى. وعند منتصف النهار جاءت خادم تجري ومعها زوجها: وجدتهم معلقين ببعض أشجار الغابة. ويبدو أن الروح قد فارقت الجميع.

تميز الأبله غضبا وكأنه بركان ثم قال: والله لأ أدبن هذا المتسول الأحمق وأجعل منه عبرة للكلاب أمثاله.

والتفت نحو الأبيض الذي ظل ساكتا طول الوقت: وأنت هل تريد أن تظل مكتوف اليدين أمام ما يحدث الآن ؟ فكر الأبيض طويلا ولم يقل شيئا. ولما أعيا الأبله الانتظار هزه بصرخة: يجب أن نفعل شيئا.

قال الأبيض: نعم، يجب أن نفعل شيئا.

وعاد إلى صمته.

* * *

ذهب أصحاب المتسول الذين صاروا شركاء له إلى أماكن عملهم فوجدوها محتلة من طرف رجال الأبله والأبيض. كان هؤلاء مجهزين بأسلحة عصرية وأخرى تقليدية، ولم يكن أولئك يحملون غير أدوات عملهم. خاف الشركاء. قال أصحاب الأبله والأبيض: أملاك سيدنا ردت إليه، ومرحبا بكم إذا شئتم أن تعملوا مثلنا أجراء لا شركاء. ذهب الشركاء إلى قصر المتسول فوجدوه يحتسي خمرا. تساءلوا: كيف، يشرب الخمر منذ الصباح

الباكر وكادوا ينسون سبب مجيئهم لو لم يسألهم وكأنه يسخر منهم: ما الخبر؟ أخبروه بما حدث. قال: هذه ممتلكاتكم، دافعوا عنها إن شئتم ألا تموتوا جوعا، أو اتركوها للأبله والأبيض يستعيدانها ليستعيدا معها التحكم في رقابكم وأعراضكم، إنما صدقوني إذا قلت لكم إنكم إن لم تدافعوا عنها لن تجدوا بعد اليوم ما تأكلونه ولا ما تشربونه، حتى الهواء، ستخسرون كل شيء، وأما أنا فلن أخسر شيئا. لقد صرت كما جئت، كما كنت دائما، وهذه أسمالي في انتظاري، انظروا كم هي جميلة هذه الأسمال.

تساءل بعض الشركاء: ولكن، كيف ندافع عنها ونحن بلا سلاح ولا تدريب ؟

عندئذ فتح المتسول خزانة فبهت أصحابه لما رأوا ما فيها من سلاح. وكانت هذه بداية الحرب التي ظلت تأكل القرية مدة شهرين.

* * *

في هذه الحرب الأهلية انقسم الناس كما علمت إلى قسمين:

قسم يدافع عن ممتلكاته، عما سموه بالعهد الجديد، وقسم يدافع عن ممتلكات الأبله وطموحه، عما سموه بالاستمرار أو الأصالة أو البقاء.

وهي حرب كما ترى قائمة على أساس مغلوط بالنسبة لجماعة كبيرة من الناس. لكن الناس في كل مكان وزمان هكذا، يخوضون حروبا قائمة على أساس مغلوط. والناس في كل مكان لا يعدم أن يوجد بينهم متسول أو متسولون يشعلون نار الفتنة البلهاء. كما لن يعدم أن يوجد من بينهم أبله أو بلهاء يحاربون الفتنة. ربما كانت هذه هي سنة الحياة. فهذه الحروب جميعا قائمة على أساس مغلوط، ولكنها لهذا السبب حروب ضرورية.

لعلك تسألني الآن عن دور الأبيض في كل ما جرى، فأنا لم أعد أذكر إلا اسم الأبله وحده بعدما كنت أذكره دائما مقرونا باسم الأبيض. والحق أن لهذا ما يبرره. فقد أخرج حقائبه وجمع ما يمكن جمعه من ثروته وعاد إلى بلده قبل نهاية الأسبوع الأول من اشتعال الحرب الأهلية في القرية.

إذن بقي الأبله وحده يدير الحرب ضد أعدائه. لكن الأبله لم يستطع أن يصمد طويلا أمام دهاء المتسول، فقد مني بهزائم متتالية، واستطاع شركاء المتسول أن يستولوا على كل ممتلكات الأبيض التي أخضعوها لنظام الملكية الجماعية بدورها، ثم شرعوا يزحفون نحو ممتلكات الأبله نفسه.منذ الشهر الأول من الحرب ظهرت بين شركاء المتسول قيادة جديدة من مختلف الأعمار لم يكن أحد يتنبأ بها. وعند بلوغ هذه المرحلة من التنظيم كان المتسول قد صار متجاوزا من جميع النواحي. وعندما بحثوا ذات يوم عن المتسول ليشاركهم فرحة الاستيلاء على حصن من أهم حصون الأبله وجدوا رجلا في الملهى يشرب خمرا، وكان الرجل يلبس أسمالا ويلعب الورق وحده بصور عديدة. فلما تفحصوا الصور وجدوها تجمع بين المتسول والأبله والأبيض وبعض الجنود الأجانب. سأل أحدهم: هل هذا هو السر ؟ ثم أجاب: إذن هو السر.

* * *

سقال المتسول: انظروا إلى هذه الصورة إلى هذه المرأة كم كانت جميلة، لن أكتمكم أن الذي كان يهمني بالدرجة الأولى هو المرأة. عن أي شيء أتحدث ؟

كنا نعمل مرشدين ومخبرين، وبلغتكم عملاء، في هذه الفرقة، الفرقة العسكرية التي سبق أن حطت بالقرب منكم وكان الأبيض متخصصا في

حضارة ما يسمونهم بالشعوب البدائية وكنت أنا والأبله من البلد نعرف لغته وشعابه وأهله. بعد أن عملنا في خدمة الفرقة زهاء تسعة أشهر اكتشفنا أن مع قائدها ثلاثة صناديق من الذهب الخالص. اتفقنا على أن نوقعها في كمين نصبه لها أهل البلد. نجا الأبله والأبيض وممرضة الفرقة التي أخبرتها بما اتفقنا عليه، لكني أصبت بكسر في عمودي الفقري. أما الأبله والأبيض فإنهم بدل مساعدتي حملوا الصناديق والمرأة وتركوني.

بعد أيام عثرت على جماعة من أهل البلد فقرروا محاكمتي بتهمة الخيانة الوطنية، لكني لما حكيت لهم قصة الكمين. من غير ذكر صناديق الذهب، عفوا عني وأمروا بإطلاق سراحي إذا أنا أقسمت اليمين على أن أقوم بشيء آخر مثل قصة الكمين.

ولقد أقسمت لهم كما أرادوا والتزمت بالقسم كما ترون وإن كنت لم أغفل جانب الانتقام الفردي.

وهكذا تأكد لدى الناس أن الأبله خائن وانتهازي وعميل وتأكدوا من أن كل ما لفه خيالهم بشأنه حقيقي، الأمر الذي جعلهم يغضبون أكثر ويحاربون بعنف أشد، بل الأمر الذي جعل الكثيرين من أصحاب الأبله يتخلون عنه وينضمون إلى جماعة المتسول.

* * *

لما رأى الأبله الوضع الذي آل إليه والهزائم المتتالية التي لحقت به وأصحابه يتخلون عنه ورأى أن من بقى معه لم يعد قادرا على المجابهة، وأن الذي مازال قادرا على المجابهة لم يعد قادرا على النصر استنجد بصديقه حاكم المدينة واستنجد هذا الأخير بصديق آخر لديه فأرسل إلى الأبله مئات الجنود.

فلما خرج هؤلاء من القرية بعد أيام معدودة لم يتركوا بها غير فتيات لم يعدن يصلحن للزواج ورجل متسول يظهر كل ليلة مع العتمة محاولا أن يقترب من قصر الأبله. وأما أولاد الأبله ونعني بهم أولاد الشقراء الذي ذهبوا إلى المدينة لاستكمال الدراسة، فقد اغتيلوا وهم في طريق العودة إلى القرية لنجدة الأبله. مازال المتسول يقول: أنا وراءك يا أبله مهما طال الزمان. ومازال الأبله يقول: أنا وراءك يا متسول إلى يوم القيامة، فأين تهرب مني وأين أهرب منك ؟

* * *

ها أنت ترى يا ولدي أن الأبله ولد الحرام وأن الأبيض ولد الحرام وأن الشقراء بنت الحرام وأن المتسول ولد الحرام وأن أولاد الحرام يقتتلون في هذه الدنيا من أجل المال أو الجاه أو الانتقام، لكن أولاد الحلال هم الضحايا الذين يؤدون الثمن. والله إن الدنيا أيضا بنت حرام، فهي لا تعطى إلا لأولاد الحرام.

* * *

كانت الشمس قد طلعت من جديد، والجدة مازالت تلوك قطع الفحم الخشبي الأسود، لكنها فجأة سكتت، ثم كحت طويلا، ثم تجمدت في مكانها وعيناها مفتوحتان. قلت: نامت الخبيثة. وخرجت أبحث عن شيء آكله. أشعلت سيجارة. لكني حين حملت محفظتي وخطوت خارج الدار سمعت صوت أمي. كانت تنوح. عدت إلى الداخل. قالت لي أمي: جدتك ماتت، ابحث عن جدك وأبيك، قد تجدهما في المسجد أو الحانوت. تساءلت هل هذا هو الموت ؟ هل الموت هو أن تحكي حكاية تصاب عند نهايتها بالسكتة القلبية ؟ يختلف الناس في وسائل الحكاية، فمنهم من يحكي بلسانه، ومنهم من

يحكي بقلبه، ومنهم من يحكي بجسده، ومنهم من يحكي بصمته، ومنهم من يحكي بعقله، ومنهم من يحكي بعضوه التناسلي، ومنهم من يحكي بالآخرين كالأبله والأبيض، ومنهم من يحكي بنفسه كالمتسول، ومنهم من يحكى به، ومنهم من يحكى معه، ومن يحكى فيه، ومن يحكى له، ويحكى عنه، ولكن الحكاية في الجوهر واحدة، والنهاية واحدة، أو، على الأصح، مبدأ الحكاية دائما واحدة: احك حكاية ومت. أما الحكاية فليست في الجوهر واحدة، بل ليس للحكاية جوهر بمعزل عن الظاهر، كل الحكايات مختلفة في الظاهر، وإذن فهي مختلفة في الجوهر. صحيح أن هناك حكاية متشابهة، فحكاية الأبله مثلا مشابهة لحكاية الأبيض، ولكن التشابه لا يوجد إلا ضمن الاختلاف، فحكاية الأبله عند التدقيق ليست مشابهة في شيء لحكاية الأبيض، ولو في التفاصيل. أما حكاية المتسول فهي لا تشبه في شيء حكاية الأبله والأبيض رغم أنهم جميعا كما قالت جدتي أولاد الحرام. وفي أي شيء تشبه حكاية العرجاء حكاية الخرساء أو حكاية المعلمة الشقراء أو حكاية أم الأولاد؟ كل الأشباه مختلفات، قال فيلسوف. يجب أن نحترس إذن من هذا الميل إلى التعميم الذي يطبع عقولنا الكسولة، أنه لا وجود في الواقع إلا للخاص والمختلف، وأما العام والمتشابه أو الوحدة فهي من خلق عقولنا أو هي على الأقل واقعة نسبية، ولنقل حيث يوجد التشابه يوجد الاختلاف. إن هذا الأمر البديهي يجرنا إلى الحديث عن شيء مهم جدا، ذلك هو الطريقة التي صورت بها الجدة حكاية أهل القرية. لقد صورتهم من جهة كقطيع متجانس، أي كأنهم نموذج واحد لكائنات لا اختلاف بينهما. وإذا صح ما سبق فإن هذا التعميم يصير لاغيا لأنه لا يمكن أن يوجد في الواقع، في أي واقع، تشابه بلا اختلاف، فلا بد أن يوجد مثلا من بينهم مجنون يرفض لعبة السيد والعبد أو عاقل يثور ضد الاستغلال والنهب أو جائع أو فاقد توازن أو مريض أو ثرثار

أو قليل صبر توحي له النفس الأمارة بالسوء بشق عصا الطاعة والخروج عن قانون القطيع...ولقد صورتهم جدتي من جهة أخرى كدمى أو كراكيز تحركهما أيادي الأبله أو الأبيض أو المتسول كما تشاء. وهذا أيضا تعميم لا يصمد أمام أدنى تحليل ولا نريد أن نطيل بشأنه الكلام. لكن التحليل يبقى دائما نظريا من طرفنا، أي يبقى على مستوى الفكر النقدي. ألا يكذب الواقع الفكر أحيانا...؟ ما أكثر الوسائل التي يستعملها الإنسان لإخفاء هذه المأساة. وعلى كل حال لقد ماتت الجدة، وفي حكايتها أخطاء بارزة ومغالاة لا تخفى على لبيب، ولكن اذكروا موتاكم بخير ! بالمناسبة: أشعر ببعض تأنيب من ضميري. ذلك أني أحس بأني قولت الجدة أحيانا ما لم تقله أو على الأصح ما لم تقصده، وعلى الجملة قمت بتأويلات أو ملء لبعض الثغرات. غير أن كلام الجدة المتقطع الذي لم يكن يخضع لمنطق، وموتها المفاجئ وضرورة الترتيب والتنظيم، كل ذلك دفعني إلى إعادة صياغة الحكاية وإن كنت قد احتفظت بأخطاء الجدة كما جاءت في سياقها بلا زيادة ولا نقصان.

الكتـــاب الثاني

المن . . . . . . ؟

قال جدي وهو يلعب بحبات سبحته وكأنه طفل يعوض غياب الحليب بالسكاتة: لن أعلق لا على كلام علمائك ولا على كلام جدتك، فالظاهر أن لا جدتك ولا علماؤك يعرفون شيئا حقا عن هذا الرجل، ولا هم يعرفون شيئا عن القرية وأهلها. أما كلام علمائك فهو مجرد حسن تخلص، وأما حكاية جدتك فهي مجرد وسيلة استعملت لكي تسرق منك الشوينغوم والأنس.

قلت لجدي عندئذ: ولكنك علقت !

فضحك ولم يقل شيئا. لكني أدركت لماذا رفض أن يعلق وعلق مع ذلك. فلقد مرت بالقرب من الدكان امرأة جميلة كاد يأكلها بعينه، لكنه، لكي لا يثير انتباهي، ظل يتكلم تلقائيا حسب السياق فجاء كلامه تعليقا من باب تداعي المعاني. إلا أن الولد الملعون مساعد جارنا مر كالبرق في تلك الأثناء فرأى عيني الشيخ تنهشان جسد المرأة الجميلة ذات الخمار الأبيض فصاح كالشيطان: سد فمك الحاج، احذر الموت، خاصة الموت إعجابا، فقلوب الشيوخ ضعيفة والسكتة القلبية أفعى في كل مكان من جسد المرأة.

انتبه جدي على صوت الولد المشاكس: لعنة الله عليك يا أقرع، والله لا يقرع ولا يعور إلا البلاء المسلط. لعنة الله عليك، المسخوط.

تداركت الأمر: النظرة حلال يا جدي، إن النظر إلى الجمال يطيل العمر، والله جميل يحب الجمال، كما تعرف.

ابتسم الجد النحيف الدقيق الشفتين الذي يذكرني منظره بصورة يوسف بن تاشفين كما رأيتها وقد تخيلها رسام معروف، ابتسم فكشف عن أسنان بيضاء وطبيعية كأنها أسنان طفل لم تدخل فمه السوسة بعد قال: تشبه جدك، والله تشبه جدك، يبدو أن الرجال لم يعودوا يعطون للمرأة قيمة !

ومرت امرأة في حوالي الثلاثين مكشوفة الوجه والساقين داخل جلابية حريرية فتنهد جدي: كسدت هذه التجارة، تقاسمت وظائف العطار مهن عديدة، لكم قلنا لأبيك نحول هذا الدكان إلى مكان لبيع الثياب العصرية الخاصة بالنساء أو بيع العطور ووسائل الزينة، لكن أباك مثل جدتك رحمها الله لا يريد أن يتطور، إنما كن على علم أني حذرت أباك ولا تقل في غيبتي إن جدي قد بخل علي أو على أبي بالنصيحة. أبوك يا ولدي رأس عنيدة، يدور جبل ولا تدور رأسه، الله يهديه، تصور هذا الدكان مملوءا بالثياب النسائية الجميلة أو بالعطور ومواد الزينة.

تمنيت ذلك بالفعل. قلت: أستطيع أن أساعدك... عن طريق أمي

أضاء وجهه:

فأحكي لك كل ما تريد من الحكايات، بل أجعلك مساعدا لي كي تتعلم التجارة، فالتجارة أحسن من العمل في وظيفة مع الحكومة.

* * *

بعد أقل من شهر كان جدي يجلس وسط العطور ومواد الزينة يداعب هذه ويغازل تلك، ينصح هذه أو يضحك ويغمز لتلك، فبدا كرجل في الأربعين، كامل الرجولة فرح القلب والعينين. بعض المهن تقتل الرجال قبل الأوان، خاصة الوظائف الحكومية، وبعض المهن تطيل في عمر الرجال والنساء، والتغيير في جميع الأحوال أمر ضروري، لا يجب أن يستمر

الإنسان في تعاطي المهنة الواحدة أكثر من عشر سنوات، إنه يهرم حينئذ. هذا ما صار يردده الجد بمناسبة أو بغير مناسبة. ولم يعد خافيا على أحد أنه تغير بشكل جذري فقد صار يستيقظ باكرا جدا ومن غير أن يشكو من آلام المفاصل التي كانت تؤرقه، فيصلي الفجر بالمسجد ويفطر بمقهى النسيم التقليدي ويكون دكانه أول دكان يفتح في الصباح. لم يعد يأتي ليتغذى في البيت، وإنما صار يتناول غذاءه بالدكان، وقد أصرت أمي على أن تحمله إليه بنفسها، وكان واضحا أنها لم تكن تقوم بهذا لوجه الله، فعارض أبي في البداية، ولم يجد بعد ذلك أمام إلحاحها وسيلة لمنعها من القيام بما كانت تسميه واجب خدمة أبيها.

أما في المساء فإن جدي صار يعود دائما متأخرا إلى البيت، يصلي المغرب والعشاء في المسجد، ولا نعرف أين يقضي الوقت الفاصل بين صلاتي المغرب والعشاء، الأمر الذي أثار بعض الشكوك بيننا في البداية. ولقد قال أبي مرة لأمي: أخاف عليه من كيد النساء. فسخرت منه أمي قائلة: خف على الدجاج مثلك، أما هو فإنه يستطيع أن يلعب بأشد النساء مكرا، لا يجب أن يخاف الإنسان إلا على نفسه. وتشاجرا طويلا بعد هذا. كان جدي يقول إنه زار صديقا أو قريبا بين المغرب والعشاء أو أنه ذهب إلى الحمام أو عند الحلاق أو الخياط أو استمع إلى درس بالمسجد. ولقد لاحظت من خلال حديثه ذاك، إذا كان صادقا طبعا، أنه أصبح يذهب إلى الحمام مرتين في ألأسبوع بعد أن كان لا يذهب إليه إلا مرة في الشهر وبعد تردد طويل قد يدوم أسبوعا كاملا. ثم أنه صار يذهب عند الحلاق مرة في الأسبوع وهو الذي ينسى أحيانا شعر لحيته ورأسه مدة سنة. أضف إلى ذلك، وهذا أغرب ما في الأمر، أنه صار يزور الأصدقاء والأقارب مرتين على الأقل في الأسبوع، وهو المعروف عندنا في الأسرة بكراهيته لزيارة بيوت الأقارب.

لقد تغير الرجل بشكل غريب فبدا كأنه استعاد شبابه تماما واستعاد معه فهما آخر وممارسة أخرى للحياة. والذي أصبح يعجبني في هذا الشباب المستعاد أنه كان شابا مشغولا وسعيدا وذا شهية عظيمة للحياة. لكن المؤسف حقا في هذه المسألة أنه لم يعد يتوفر على الوقت ليحكي لي حكاية الأبله. كنت أذكره بها باستمرار.

أحيانا كان يفاجئني بقوله: لم أنس وعدي، سيأتي اليوم الذي تسمع فيه الحكاية الحقيقية. لكن هذه الفرصة لم تأت بالشكل الذي كنت أرجوه.

* * *

أصيب جدي بمرض مفاجئ ألزمه الفراش، وقد كان المرض في تقديري مرضا جنسيا أو له علاقة بالجنس ظل يخفيه ويعالجه بشكل بدائي إلى أن هده وأقعده. قضى بالفراش ثلاث أيام قبل أن يطلبني في اليوم الرابع ويأمرني بالجلوس بعيدا خوفا من العدوى. كان شاحبا ومنهوكا فبرزت غضونه بشكل بشع ومخيف.

سألني: تذكر وعدي ؟ الحكاية أعني.

أجبت وأنا أتمنى لو أنه يصمت ويتركني أنصرف:

-أذكر، فهل تحكي ؟

قال:

-سأطلب منك شيئا فعدني ألا تخبر به أمك أو أباك.

قلت محاولا أن أخفي إدراكي أنه يتآمر:

-أعدك

قال:

-خذ النقود من الصدرية واشتر لي علبة سجائر وثقاب.

-لكنك لا تدخن ...

-كلا، صرت أدخن.

-لا أفهم !

-ماذا تريد أن تفهم ؟

-منذ متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟

-ستعرف عندما تكبر

-لقد استرجعت شبابك بأكمله، بكل أخطاء شبابنا.

-عندما تكبر ستفهم كم من السم تضطرنا الحياة إلى تناوله رغم أنا نعرف مضاره معرفة كاملة، ائتني بعلبة سجائر وثقاب ولا تكثر من الكلام.

-أي نوع ؟

-كازا

وخرجت أشتري له ما أراد. خلال هذه العملية كنت أحس بأن هناك أشياء كثيرة لا أقدر على فهمها، أنا لا نعرف شيئا عن هؤلاء الشيوخ المجانين، لا نعرف أي شيء عن أي إنسان. ولم أهتم بما في هذا الكلام من تعميم.

* * *

أشعل السجارة وقال: في الحقيقة ما قصته عليك جدتك فيه شيء واحد صحيح هو الأسماء، والباقي من اختلاقها وخرافات صاحباتها.

-نبدأ بالأبيض إذا شئت.

-هذا الرجل الذي يشبه الدجاج الاصطناعي جاء يطوف بالبلاد قراها ومدنها وأوديانها وجبالها على بغلة صفراء مستكشفا شعابها وأهلها واضعا

التصاميم والخطط ممهدا لدخول فرقة عسكرية أو جماعية مستوطنة في إطار خطة شاملة ومحكمة وضعها الاستعمار قبيل مجيئه إلى بلدنا.

كان هذا الديك الاصطناعي يعرف لغة البلاد ويعرف تاريخها وعاداتها ويحفظ القرآن والحديث بالإضافة إلى الإنجيل والتوراة. أينما يحل يحل باسم الدين، يأكل ويشرب وينام ويخطب في الناس مشهرا بفساد حكامهم وضعفهم وتخاذلهم، مشيدا بالخير الذي يحمله الرجل الأبيض، مبشرا بالأحلام التي ستحقق والرخاء الذي سيعم الأرض والأهل مع الفرنسيس الذي يؤمن بالله والذي سيأتيهم بالعدالة والأخوة والحرية والمساواة، ذلك الفرنسيس الذي يحمل رسالة إنسانية هي تمدين البدو الفقراء الجهلة وإخراجهم من الظلمات إلى النور ساعيا إلى نشر دينهم الحنيف وإحياء تراثهم الفني العظيم وأرضهم المحتضرة وأجسادهم الضامرة، وهو الذي يتميز عن غيره من الشعوب بأنه إنما يقوم بأداء رسالته تلك لوجه الله وحده غير طامع في جزاء أو شكر من العبد الكافر بكل نعمة.

هكذا يغرر الديك الاصطناعي في كل مكان بالفقهاء والعامة، فإذا صادف أن وجد في طريقه وطني أو ذكي أو حكيم أو مجنون فإنه يعرف كيف يجعل الناس تنهاه عن الكفر والجهل والجحود وتقمعه بالكلام المر أو التهديد إلى أن يقضي الأبيض ضيف الله واجب الضيافة، وهو كما تعلم ثلاثة أيام، والديك الداهية لا يمكث في أي مكان أكثر من ثلاثة أيام.

لهذا، فإنه يظل يطوف بالقرى على الخصوص، وقد استكان إلى أن حق الضيافة يحميه وأنه لا يمكن أن يجرؤ أحد على إيذائه وهو يحمل كتب الله في حقيبته وفي ذاكرته، ناهيك عن سلاح الإغراء والرشوة الذي لا يفارقه، فهو مسلم مع المسلمين ويهودي مع اليهود ونصراني مع النصارى، أي يحرسه ثلاثة أنبياء، وواله يملك الكون، وبشر يعبدون رب الكون

ويطيعونه طاعة عمياء ويسيل لعابهم أمام الإغراء والرشوة، وهو يعرف أكثر من ذلك أن وراءه فرقة عسكرية أو جماعة من غلاظ المستعمرين المسلحين، فإذا سلم فإنه مكرم، وإذا أصيب بأذى فإن وراءه مدفعا أو بندقية تحميه، وليس طائرة هلكوبتر كما قالت جدتك الجاهلة غفر لها الله.

أضف إلى هذا أن الديك الأبيض المسلوق كان يتقن كل الرياضات الحربية ويعدو أسرع من غزالة أو حصان ويخفي تحت إبطه مسدسين وذخيرة تكفيه للمقاومة حتى تصل الفرقة العسكرية أو جماعة المستوطنين، تكفيه عل الأقل للإخبار بأنه في خطر.

إلا أن الأهم من هذا كله أن قلبه كان مملوءا بالإيمان بما يفعل وعقله لا يفكر إلا بما أمر أن يفكر فيه بعد أن خضع لعملية غسل الدماغ والقلب، وقد اختير للقيام بهذه المهمة من بين عشرات المتطوعين نظرا لدهائه ومكره، وفي عينيه يلمع بريق الثروة والمجد. لم يكن الأبيض يطبق سوى مخطط أعد بعناية وبعد دراسة عميقة وشاملة شارك فيها كبار علماء بلاده، وإذا شئت تشبيها فإنه كان مثل كاشفة ألغام، أينما مر سالما تعرف الفرقة أو الجماعة أنه لا مقاومة بذلك المكان وأنه ما عليهم سوى التمركز في هذه النقطة والاستعداد بعد هذا للطوارئ، فالبدو مع ذلك قوم لا يؤمن شرهم، وهم في هذا يشبهون الهنود الحمر الذين تراهم في الأفلام.

هذا هو الأبيض، وهذه حقيقته، فمن أين لجدتك أن تعرف عنه كل هذه الأمور ؟

* * *

جاء الأبيض إلى قرية المنسية مثلما ذهب إلى قرى أخرى مشابهة ومثلما ذهب غيره إلى قرى أخرى بعيدة. فلما وصل إلى المنسية وقع عن

حماره، فرضت رجله، فاجتمع حوله أهل القرية، فقرأ على مسامعهم آيات محكمات، فقالوا هذا رجل مسلم رغم بياض بشرته، أو هو نصراني قد أسلم، وعلينا واجب حمايته وعلاجه. فلما هموا بعلاجه قال:

أمهلوني يا مؤمنون.

فأمهلوه قليلا، ففتح المصحف، فقرأ في سره يسيرا، فقال:

-سبحان الله القدير الكريم، راجعت كتابه العزيز، فوجدت خبر هذه الحادثة في صورة الفاتحة.

وأذن لهم بعد هذا، فعالجوه. فلما استقامت الرجل وقل الألم قال:

-أمهلوني قليلا يا مؤمنون، بل أسندوني.

فلما أمهلوه يسيرا فتح الإنجيل وقرأ قليلا وقال:

-سبحان الله، وراجعت الانجيل فوجدت خبر هذه الحادثة في هذا اليوم وهذه الساعة وهذا المكان، ووجدت أني ملاق فيكم أهلا ونازل بينكم سهلا، وأني قاض من الزمان وسطكم ما شاء الله، وأن الخير ممطر عليكم بالأطنان. ثم رفع رأسه إلى السماء، فرأى غيمة داكنة، فقال:

-غدا تمطر السماء بإذن الله !

وفي الغد أمطرت بالفعل السماء فاعتبرت هذه من معجزاته العظام. لذلك أقاموا مساء اليوم الممطر حفلة عظيمة على شرفه فقام وخطب في الناس وحدث وأقنع، فقد رزقه الله بيانا وافيا وبرهانا قويا ونورا يشع كالنار من العينين. لكنه لما أراد أن يقوم وحده أدرك أن رجله ما زالت مريضة وأنه قد يضطر إلى قطعها أو المكوث بين أهل المنسية مدة طويلة صاح:

أسندوني يا مؤمنون.

فأسغدوه، فطاف بنظره على الحاضرين يتفحصهم واحدا واحدا حتى تطيروا، فقال لما أصبحوا وكأن على رؤوسهم الطير:

-كان الفلاح الفقير منكم يترك عند موته الدراهم والقمح والبقرة والحمار والخراف لأولاده، ولكنه الآن لا يستطيع إلى ذلك سبيلا، بل هو يبيع المحصول والبقرة والحمار والخراف والثوب والغطاء لتسديد ما عليه من ضرائب وديون، وإذا لم يسدد ضرب وسجن، وإذا لم يسدد بعد الضرب والسجن تنزع منه أرضه ويؤخذ أولاده كرهائن، وإذا لم يسدد بعد هذا يضطر إلى بيع حرياتهم والدفع بهم إلى العمل كخماسين، وقد يضطر إلى دفع زوجته وبناته للعمل كخادمات في وضع العبيد.

وها أنتم اليوم ترون أرضكم تتقلص وأولادكم يستعبدون وبيوتكم تخرب، يهاجر منكم من يهاجر، وإلى أين يهاجر؟ ويشرد منكم من يشرد، ويهلك منكم من يهلك جوعا أو هما أو تعذيبا. لم تعد لكم كلمة، ولم تعد لكم كرامة، وقد صرتم عاجزين عن توسيع أرضكم وعن اقتناء الممتلكات والماشية لأن ما يدفع عليها من الضرائب وما عليكم من ديون يفوق ثمنها وما تنتجه، ناهيكم عن تكالب المرابين والسماسرة. لقد صرتم لا ترثون عن آبائكم سوى الفقر، ولا تجدون عند حكامكم إلا الفلاقة أو السجن أو اليد الطويلة الممدودة إلى جيوبكم تفتشها وتأخذ ما تريد من غير ما شفقة ولا رحمة. هذا حالكم اليوم يا أولاد المنسية، وتاريخ المنسية معروف، وكرم المنسية معروف، وذكر رجالها قد سارت به الركبان، ومع ذلك يأبى القدر إلا أن يذلكم ويهينكم. إني بإذن الله جاعل منكم خير قرية أخرجت للناس. فأسندوني يا شباب المنسية، لا حرمتم من سند السماء، وسند الرب الذي في السماء، وسند ابن السماء.

هكذا خطب الأبيض الملعون فتمنى الناس لو أنه أطال. ولكنه أمسك عن الكلام في الوقت المناسب، فهو لا يريد أن يستنفد كل ما عنده من كلام. فلما أشرف على الباب الكبير بعد أن أسندوه رأى جماعة من أهل القرية

تحمل رماحا وسيوفا.فسأل عنها، فقيل لهم رجال يقومون بدورهم في الحراسة، فضحك، ثم قال: –إذا كان لا يزال بينكم من يقوم بمثل هذه الصناعة –أعني الرماح والسيوف– اشنقوه أو أجلدوه أو أرسلوه إلى ما وراء البحر ليتعلم كيف يصنع لكم سلاحا جديرا بقيمة المنسية في التاريخ، أما هذه التحف الأثرية فهي لم تعد صالحة للعصر، ثم أن القبائل المجاورة لم تعد قادرة على أن تغير عليكم، فقد أخضعت جميعها للمدفع، أما إن كنتم لا تعرفون بعد ما هو المدفع فاعلموا أنه الاسم الجديد للملائكة التي يرسلها ابن السماء إلى جانب عباده الأقوياء.

وأحس أنه بالغ في السخرية، وقبل الأوان، أي قبل أن يشعرهم بتمام الأمان، فقال: آه، آه، أسندوني، هكذا أسندوني كي لا توجعني رجلي، إني والله بدونكم لا شيء، ولكن بدوني لن يكون لكم في المستقبل شأن يذكر.

ولما أسندوه كما أراد، استدرك:

–أريد أن أحدثكم عن المعدة، فهو الحديث البليغ، وعن الكتاب والأمن، وإني لمضرب منذ الآن عن الكلام في غير هذه الأمور الثلاثة أريد أن تكونوا كأسنان المشط ورائي، إن هذه الخصومات التي كثرت بينكم مجرد تعويض، إنها قناة لتفريغ الغضب والقهر، وهي تفرح أعداءكم وتريحكم، وإني لأراكم اليوم كالذئب الذي صورته في الماء فارتمى عليها، فأخـذ يفترسها ظانـاً أنه يفترس عـدوه، أي الذئـاب الأخرى التي تنافسه في الصّيد والسيطرة على الغـاب، فظل كذلك لحظة، فإذا هو يغـرق في الماء ويموت، وإذا هو يقول بعـد فوات الأوان: لا تدع نفسك تصير عدوك، ولا تدع أخاك يصير عدوك فيهلك وتهلك. فلا تحملوا على أنفسكم يا أبناء السماء، ولا تحملوا على أخوتكم، فهم بعض منكم، فيقع لكم ما وقع للذئب الجاهل، فتذهب ريحكم، ويفرح أعداؤكم. ولكن أين طعامكم، وأين مغنيكم ؟ إني لا أريد أن تحزنوا

معي على هذه الرجل الملعونة، فهي قدر مكتوب في اللوح المحفوظ كما جاء في القرآن والإنجيل، ومن حسن حظي وحظكم أن ترض في تلك الساعة وذلك اليوم وهذا المكان. الطعام. الغناء. الرقص يا رجال.

أحس الديك الاصطناعي الداهية أنه قد وصل إلى قلوب الناس وعقولهم، وأنه قد نفذ إلى ذلك من أقرب الطرق: الحديث عن معدتهم، وعن أمنهم، وعن جيوبهم. وهي مفاتيح ثلاثة إذا توافرت كانت معها السعادة عند هؤلاء البدو المساكين، وطرق تؤدي إلى قلوب وعقول الملايين. فلما بلغ غايته قال إنه يريد أن يأكل وأن يسمع الغناء، فأحضرت الموائد وجيء بمغني القرية العجوز، وأبلى هذا الأخير البلاء الحسن في ذكر تاريخ القرية وأمجادها، ثم عرج على الديار يبكيها، ثم صعد فوق النهد وأمسك بالشفة يعصرها، وبدا كأنه صعد حقا فوق جسد امراة، ثم تحول عنها إلى أخرى وحين تفرقوا بعد نهاية الحفل لم يستطع أي منهم أن ينام قبل أن يمتطي جسد امراة أكثر من مرة. أما الشبان فقد باتوا مع الأبيض يسندونه كالشجرة، يطوفون به في الربى والوديان.

فلما وصلوا به إلى النهر الصغير الذي يجري سائبا نحو البحر من غير أن يهتم به أحد أوقفهم وقال:

-هذه هي الفرصة لتظهروا لي قوة شبابكم، أريد أن تحولوا مجرى النهر كي يصب في القرية فيسقي أرضها ويروي ماشيتها، وأريد أن تقوموا بهذا قبل طلوع الفجر. وشرع يشرح لهم كيف يجب أن يقوموا بالتحويل وكيف يجب أن يوصلوه إلى قلب القرية من غير أن تضيع منه قطرة واحدة.

* * *

لما استيقظ الكبار كان الشبان يغطون في نوم عميق وكان النهر يجري رقراقا في قلب أرضهم، فظنوا أن ذلك سحر ساحر، فهرعوا إلى الرجل يشكرونه، فوجدوه يصلي، فانتظروا أن ينتهي من صلاته فما التفت إلا حين صارت الشمس قرصا مشتعلا في كبد السماء، فلما التفت وجدهم وراءه يصلون، فقال: والعمل ؟ من يقوم بالعمل أيها المصلون ؟ إن العمل عبادة كما تعرفون، أعظم أنواع الصلاة، وعلى المرضى وحدهم والعجزة أن يصلوا النهار وبعض الليل كي يعوضوا العبادة المستحقة عملا بالصلاة، وأما أنتم فصلوا بالقدر الذي يطلبه منكم الدين ولا تقلدوني في الصلاة بعد اليوم، إني ما صليت بهذا الشكل إلا لأني عاجز عن العمل، وأما النهر فشبابكم هم الذين حولوه بمعونة الله ومشيئته، فلا تفهموا السماء خطأ ولا تفهموني خطأ وعليكم أن تكفروا عن هذا الذنب بالصيام، صوموا اليوم عن الطعام، ولكن اعملوا كثيرا، اعملوا كي تشعر أجسادكم بألم الجوع واتخذوا هذا اليوم يوم صوم عام تكفيرا عن ذنوبكم الكثيرة في التأويل.

والآن هيا، أحب أن أراكم في حقولكم وأن أرى العرق يغسل خطيئتكم.

وتوقف عن الكلام، فهرعوا إلى حقولهم يكدون، فنادى على بعض الشبان، فقال أسندوني فأسندوه، وقال خذوني إلى الغابة فأخذوه، وهناك قال: برهنوا على أنكم حقا شباب، حطموا هذه الشجرة، وهذه، آه ! أسندوني، وهذه أيضا. آخ، أسندوني، ووضع علامات على الأشجار التي طلب منهم تحطيمها، فلما حطموها قال: قطعوها، فقطعوها. فقال: والآن انتبهوا، سأعلمكم كيف تصنعون منها فحما نبيعه في أقرب قرية أو مدينة للوافدين.

وعلمهم كيف يصنعون الكوشات. فلما انتهوا من صنعها قال: أسندوني، فأسندوه، آنئذ كان الليل قد جثم على القرية، فلما اقتربوا من البيوت وجدوا أهلها نائمين، فأمر الشبان أن يوقظوا الكبار، فلما أيقظوهم قال: إلي

بمغني القرية. فلما حضر المغني العجــوز قال الأبيض: يجب أن تغنوا وترقصوا كل ليلة، فأنا أريد أن أفاخر بكم القرى والمدن، والغناء والرقص والموسيقى أشياء تطيل العمر، وتكثر الزرع والولد، وأما الإكثار من النوم فهو كالإكثار من الأكل يقتل الهمة ويذهب الفطنة ويضر الجسد والأرض والنساء.

وحين أتم كلامه أشار إلى المغني فتقدم العجوز وداعب ربابه، فأطال في ذكر أمجاد المنسية، ثم بكى على الديار، ثم صعد فوق جسد امرأة وهمية، ثم صعد فوق جسد أخرى، وظل يركب وينزل نساء متعددات حتى أحس الرجال بالحاجة إلى زوجاتهم فأخذوا ينصرفون، فأوقفهم الأبيض قائلا: لا تقربوهن هذه الليلة، إن النساء كالأكل والنوم، لا يجوز تناول غير القدر الضروري. فعادوا ينصتون إلى المغني العجوز، ثم انصرفوا بعد حين وكأنهم خارجون من مخادع نساء من ألف ليلة وليلة، فصاح الأبيض في الشبان: أسندوني، فأسندوه.فلما أصبح غير بعيد من الغابة قال للشبان: أريد بيتا فوق هذه الربوة. فبنوا له بيتا من غرفة، فدخل إليه وأدخل معه بغلته وأغلق بابه، فناما معا، فغمز الشبان لبعضهم، فقال أحدهم: واختارها بغلة لأن البغلة لا تلد. فنهره آخر: ناس عندهم القدرة على حب البشر، فلماذا تستغرب أن يحب بغلته إلى الحد الذي يجعله ينام معها ؟ أولياء الله الصالحون هكذا.

* * *

كان جدي قد أخرج يده من تحت الغطاء ليشعل لنفسه سيجارة فسقطت خصلة من الشعر قرب السرير، لكني تجاهلتها لكي لا أحرجه وسألته عن الأبله:

–والأبله، أين الأبله، لماذا لم يظهر حتى الآن ؟

قال:

-الأبله ؟ أه الأبله. نعم الأبله. ولكن الحكاية مازالت في بدايتها.ومع ذلك لا بأس أن نبدأ الحديث عنه قبل أن ننساه.

-هل تشعر بالنوم ؟

-لا لا أشعر بالنوم و لا بالتعب. تابع.

فتابع:

-في هذه القرية لم يكن يوجد إلا تاجر واحد، رجل يشتغل ببيع القماش، وبعض المواد الغذائية، وكان الوحيد الذي يتردد على المدينة باستمرار، الوحيد الذي لا يحرث أرضه بنفسه، الوحيد الذي لا تذهب زوجته لتعمل في الأرض كما تفعل بقية نساء القرية. وكان الأبله وحيد أبويه. فالأبله كما ترى ابن تاجر، من عائلة لا تشتغل بالفلاحة لكي تأكل. لهذا السبب لم يتعلم الفلاحة كبقية الأطفال. لكنه لم يتعلم فن التجارة كأبناء التجارة لأن أباه كان يعتقد أنه مازال صغيرا رغم أنه كان قد تجاوز العشرين. وهكذا صار الأبله الشاب الوحيد الذي لا يعمل في هذه القرية، لا في الفلاحة ولا في التجارة ولا في أي شيء. فماذا يمكن أن يفعل شاب مثل هذا في قرية كالمنسية ؟ يستيقظ كل صباح باكرا فيتناول فطوره مع أمه وأبيه، وعندما ينصرف الأب إلى الدكان وتنصرف الأم إلى المطبخ يحلق رأسه بعناية ويطليه بزيت الزيتون ثم يصعد إلى قمة الجبل ويجلس هناك مديرا ظهره للشمس إلى أن يحس بالبرد، فيعود إلى البيت ليأكل وينام بعد الأكل مباشرة. عندئذ يدخل في حالات غريبة من الهذيان والرؤى، يقضي الليل كما يقول مع الأنبياء والملائكة والشياطين الذين صاروا أصدقاءه المقربين، وقد يصرخ أو يمشي وهو نائم، لكن أمه وأباه لا يوقظانه مخافة أن يصاب بأذى.

هكذا يقضي الأبله أيامه ولياليه منذ أن تطل أول شمس ربيعية إلى غياب آخر شمس خريفية.

أما وقت الشتاء فإنه يصعد فوق سطح بيتهم ويخلع ثيابه ويظل جالسا من الصباح إلى المساء غير مكترث للمطر والبرد. وأثناء الليالي الشتوية يصاب بأنواع أخرى من الهذيان تختلف كل الاختلاف عن تلك التي يعيشها أثناء بقية الليالي.

كان من المنتظر أن يموت الأبله في أية لحظة، لكنه مع ذلك لم يمت، وقد استطاع أن يعيش أكثر من ستين سنة، وحكيت حوله أساطير كثيرة، لكنها لم تكن سوى أساطير للتسلية وتمضية أوقات الفراغ أو السخرية.

من جملة هذه الأساطير القول أن أمه رأت في المنام أثناء الشهر الرابع من حمله أن امراة بشعة جدا وسوداء كقطعة فحم قد هبطت عليها من غيمة سوداء وأخرجت من صدرها سكينا سوداء تقطر دما أسود وفتحت بطن الأم وانتزعت منها الطفل ووضعته في خرقة سوداء ثم التهمته، فأخذت الأم تبكي وتصيح خوفا وفزعا، فنطق الطفل من داخل المرأة السوداء وهدأ من روع أمه قائلا:

لا تبكي يا أماه، فما أنا برجل ولا بامرأة حتى يخاف علي، ثقي يا أماه أن لا خوف علي لا من الرجال ولا من النساء.

فما أتم الطفل كلامه حتى حطت بالقرب من المرأة السوداء سحابة خضراء، فخرج منها رجل يلبس الأخضر والنور يشع من حواليه. فلما رأته المرأة السوداء تقيأت الولد وهي ترتعش خوفا. فعاد الولد إلى بطن أمه، فحرك الرجل الأخضر القضيب الأخضر الذي كان يمسك بيده اليمنى، فعاد بطن الأم إلى حالته الطبيعية من غير أثر أجرح، فهربت المرأة السوداء وسط

السحابة السوداء، ثم عاد الرجل الأخضر إلى سحابته الخضراء ورجع من حيث أتى، فتكلم الطفل في بطن أمه قائلا لها:

-هل تعرفين ما أسر إلي به الرجل الأخضر ؟

فقالت الأم:

-ومن أين لي أن أعرف لغة الأرواح ؟

فقال الطفل:

-أخبرني بأني لن أحمل هما في هذه الدنيا، وأنكما لن ترياني رجلا شقيا، وأن أبواب الأرض والسماء مفتوحة أمام قدمي.

بكت الأم عندها فرحا وشكرت السماء والأرض وأولياء الله الصالحين.

لكن الطفل عندما خرج إلى الدنيا لم يبك كبقية الأطفال حين يخرجون إلى الدنيا أول مرة، بل خرج وهو يبتسم وفي يده اليمنى غصن زيتون صغير وفي يده اليسرى كرة ملونة ويقال إن الأطفال قد جاءوا من كل مكان في القرية ذلك اليوم، وطلبوا منه أن يلعب معهم فضحك ساخرا منهم ورمى إليهم بالكرة الصغيرة الملوثة وهو يقول في كبرياء:

-أنا لست طفلا فانصرفوا عني أيها الصغار إلى ألعابكم وماشية آبائكم.

وحين انصرف الأطفال تقدمت إليه الفتيات وقلن بصوت واحد:

-نلعب معا.

كتم ضحكته، وقال وهو يرمي إليهن بغصن الزيتون:

-أنا لست بنتا، لست لا ولدا، ولا بنتا، تذكروا هذا جيدا.

تعجبت الفتيات، وسمع الفتيان بالخبر فاجتمعوا أمام بيت والديه وتساءلوا بصوت واحد هامس:

-كيف لا يكون لا ولدا ولا بنتا، لا ذكرا ولا أنثى، خنثى يعني ؟

قال طفل خبيث:

-نسميه الولد البنت أو البنت الولد.

فضحكوا، فقال آخر:

-نسميه الأبله، فهو لا يعرف ما يقول.

أكد آخر:

-نسميه الأبله، فهو لا يشبهنا في شيء.

فسمي الأبله منذ ذلك اليوم الذي ولد أثناءه وتناسى الناس الاسم الذي أطلقه عليه أبوه.

* * *

سألت جدي محاولا أن أشجعه على الكلام:

-وكيف بدأت العلاقة بين الأبيض والأبله ؟

قال:

-لما وصل الأبيض إلى القرية وشرع في تنفيذ خطته بعد الحادث لاحظ عزوف الأبله عن المشاركة في حياة الناس خاصة الشباب، فطلب من أبيه أن يوكل أمره إليه ووعده بأن يقوم بإعادة تربيته، فقال له الأب وكأنه يتخلص من حمل ثقيل:

-هو لك، افعل به ما تشاء، ولكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

ضحك الأبيض ومر بيده اليمنى على شعر الأبله، فابتسم له الأبله. فسأله الشبان الذين يصاحبونه:

-ماذا سنفعل بهذا الأبله العاجز الحقير الجاهل ؟

أجاب:

لا تسخروا من ضعفائكم، يقـول ابن السماء، فقد يكون هذا الأبله أقـدر منكم وأعلم، فقديما كان الحكماء والعلماء يصلون إلى العلم أو القوة

بهذه الطريقة في التأمل والعزلـــة، لكن الناس ينظرون إليهم على أساس أنهم مجانين.

انصرف الشبان غير مقتنعين، ودخل الأبله مع الأبيض إلى بيته، وهنا قيل أن الأبله حلت فجأة عقدة لسانه وتكلم بما ترك الأبيض عاجزا فاغرا فاه مدة طويلة، ومن جملة ما قاله في هذه الجلسة الأولى التي جمعت بينه وبين الأبيض كلامه:

-لقد تأملت وبعمق في هذه الحياة، واختبرت آلامها ومسراتها، ورأيت من عوالمها ما لم يره مسافر أو رحالة، واتصلت بخباياها بشكل لم يعرفه عالم أو منجم، وعلمت من أسرار جسدي ما يستحيل أن يدركه غيري، ولو كان هذا الغير عالم طب ونفس وبيولوجيا، وأحيانا كنت أدخل عالم هذا الجسد فأرى فيه ما أبقى له متعجبا، وأحيانا كنت أخلع بدني وأتسلل عبر خلايا هذه الحياة، فأرى ما لم يره إنسان من قبل. وقد ثبت لدي الآن بما لا يدع مجالا للشك أن الحياة ليست سعادة وسرورا وبهجة، ولا يمكن أن تكون أبدا بهذا الشكل ما دام الإنسان لا يتحكم في جسده، وما دام هذا الجسد يطالب بأشياء لا تتوافر دائما للإنسان الذي ليس أبوه تاجرا مثلي أو تتوافر عند البعض ولا تتوافر لدى الأغلبية، فالسعادة صعبة عندما تحرم من أشياء توجد عند غيرك لأن الجسد يظل عالقا بها ولا يقبل أن يسلم لك زمام أمره وهو يفتقر إليها. في هذه الحالة ستظل الحياة مزيجا من الظلم والاضطهاد والفقر والحرمان والطمع والجشع والغش والخداع والحسد والغيرة والخبث والمكيدة والبغضاء والرياء والدم والدموع، أي جحيما حقيقيا لا يضاهيه جحيم، فالجحيم أن يظل الجسد معلقا إلى أشياء لا يمكن أن يستغني عنها ولكنها لا يمكن أن تتوافر لديه. في هذه الحالة ليس أمام الإنسان سوى خيارين:

أن يعتزلها إذا كان يجد من يوفر له قوت يومه، كأن يجد أبا عاملا أو زوجة غنية تحبه.

أن يتسلح بالناب والمخلب إذا كان لا يجد قوت يومه بنفسه أو عن طريق غيره، فيقتل الإنسان فيه ويرتدي جلد حيوان.

الحلان معا صعبان، مران، ليس الإقدام على أحدهما كالإقدام على المشوي أو البسطيلة.

غير أن الإنسان ليس هو الذي يختار في مثل هذه الأمور، أن الحياة هي التي تختار بالنيابة عنه وتفرض عليه ما تختار له.

هذا على العموم حال العامة. لكنني صرت بالمجاهدة والتأمل أقوى من أهل القرية جميعا، فقد أصبحت قادرا على تحمل الجوع وتحمل الأذى وتحمل الشمس وتحمل البرد والمطر، أي على تحمل نفسي وتحمل الكون، وباختصار، تحمل الحياة، بينما الواحد منهم إذا مكث في البرد أو المطر أو تحت الشمس ساعة يمرض. وإذا جاع يصبح كالثعلب أو النسر أو الذئب أو الحمل.

لقد قضيت عاما كاملا على قمة الجبل، أعيش من نباته وحده، فاتخذت خلاله من المياه والطير والحيوان والشمس والقمر والنجوم والحشرات أساتذة أتلقى عنها أسرار الحياة، وأنا في كل هذا لا أدعي علما بقدر ما أدعي حكمة، فالعلم قد يزول، ولكن الحكمة تبقى، والحكمة تقود إلى العلم، لكن العلم لا يقود دائما إلى الحكمة، فهو في أغلب الأحيان يؤدي إلى الجنون، وقد يؤدي إلى الانتحار.

غير أن مأساتي في أني لا أستطيع أن أتحدث عن كل هذا إلى أهل القرية، فأنقل إليهم الخلاص والقوة، وأجعل منهم أهل مدينة فاضلة لم يحلم

بمثلها التاريخ، فهم ما زالوا مع الأسف في مرحلة القطيع، وأنا قد ارتفعت إلى مرحلة الحكماء، وهم جميعا يشتغلون في زراعة الأرض، وأبي يشتغل بأنبل المهن وأرقاها، وهم قد فقدوا نعمة الفضول، وأنا في ذروة التمتع بهذه النعمة، وهم قد صاروا في نظري بمنزلة أحط من منزلة الحيوان، وأنا قد ارتفعت إلى درجة الملائكة والأنبياء، لذلك لم أعد أرى ما يجمع بيننا أو يجعلنا نتشابه، فلا مناص إذن من أن أكون أنا وأن يكونوا هم، أن أدعهم لأكون أنا، وأن يدعوني ليكونوا هم، وأظن أن هذا الأمر قد تحقق فصار أمرا واقعا، وأنهم قد تحرروا مني وتحررت منهم، وأني عما قريب سأستطيع العودة إلى الجبل لأقضي هناك بقية حياتي، فوالدي قد يموت في أية لحظة وأمي تحتضر منذ أيام، ولا أستطيع أن أهرب من قدري في أن أكون على عكس هؤلاء الرعاع.

هذه خلاصة لأهم ما نطق به الأبله الذي كان الجميع يظنه أبكم ولا شك أن الأبيض قد أعجب بهذا الحديث رغم ما فيه من منطق لا يستقيم مع منطقه، ومن عزم وطموح لا يقره تكوينه ولا عقله، ومن بله يعرف كيف يستغله لأنه لا يحبه.

لقد أعجب الأبيض على الخصوص بذلك الشعور بالتفوق والتفرد عند الأبله، وبتلك الثقة بالنفس التي تشبه الجنون المرضي ولم يجدها عند أحد من أهل القرية غيره.

لقد حدس الأبيض منذ مر بيده على شعر الأبله أن هذا الشاب سيكون له شأن كبير في الحياة أو في العلم، وأيقن من خلال ما أسر إليه به الأبله أن هذا الشأن لن يتم إلا على يديه. وإن كان لم يعجبه هذا الفصل بين الحكمة والحياة من طرف الأبله لأنه من مجتمع لا يقبل مثل هذا الفصل.

على ضوء هذا الحديث وذلك الاستنتاج تبين للأبيض المنهج القويم الذي يجب أن يتبعه في إعادة تربيته للأبله. لكنه حين تكلم ليرد على حديث الأبله اكتفى بالقول:

-يجب أن تقرأ كتب الأولين وتطلع على علوم المعاصرين لتزداد حكمة، فالفرد لا يقدر وحده على اكتساب كل الحكمة ولا بد أن يستعين في ذلك بمن عرفها قبله، وأنا على استعداد لتعليمك القراءة والكتابة كي أفتح أمامك أبواب تلك الحكمة التي لم تعرفها بعد، كمقابل، تعلمني أنت بعض حكمتك. وأنا على استعداد أيضا لإطلاعك على بعض علوم المعاصرين التي تلقيتها من أساتذة كبار، وكمقابل لهذا لا أطلب منك سوى الاهتمام ببغلتي والعناية بها على قدر محبتي لها. وكن على يقين أننا سنستفيد من بعضنا وأن المجد سيكون لنا إذا تعاونا بصدق ومحبة، هل توافق ؟

قال الأبله:

-اتفقنا

سأل الأبيض:

-أبدأ أو تبدأ ؟

أجاب الأبله:

تبدأ أنت، نبدأ بالقراءة والكتابة.

منذ ذلك اليوم لم ير الأبله إلا وهو يقرأ أو يكتب أو يستمع إلى الأبيض بانتباه أو يتكلم معه بتركيز وثقة أو وهو ينظف البغلة أو يقدم إليها العلف أو يهيئ مكان نومها أو أكلها.

استغرب الناس كيف يتحول أبله بهذه السرعة من خامل إلى شعلة لا تهدأ من النشاط. ثم لاحظ الناس أنه بدأ يهتم بثيابه وينظفها وأنه صار يقوم بالرياضة كل صباح مثل الأبيض بدل جلسته تحت الشمس أو تحت المطر،

وأنه أصبح يقوم بإعداد الطعام في غيبة الأبيض أو يساعده على إعداده، وأنه صار يخرج إلى الصيد وحده أو صحبة الأبيض، وأنه أصبح يزور أمه ويتكلم معها طويلا، وأنه ينزل أحيانا إلى دكان أبيه فيساعده، فلما اشتد المرض بهذا الأخير صار يدير شؤون الدكان بنفسه، فلما مات الأب ثم الأم كان قد تحول إلى رجل لا يشبه في شيء ذلك الأبله الذي عرفه الناس.

كل هذه التحولات تمت خلال أقل من ثلاث سنوات، أي قبل أن يسافر الأبيض سفره الطويل ويغيب كل تلك المدة عن القرية.

أثناء هذه المدة أنشئت الطاحونة والحمام وتعددت كوشات استخراج الفحم من الخشب وبنيت معصرة الزيتون وشيدت عدة حوانيت ظلت فارغة وغرست آلاف الأشجار الجديدة وتحول الأبله تحوله المعروف. لكن الأبيض استيقظ ذات صباح وقد اتخذ قرارا ظل يؤجله باستمرار.

قال:

-أنا مسافر لأجدد فكري ونفسي، وسيقوم الأبله نيابة عني بكل ما كنت أقوم به، ابتداء من شؤون الغابة إلى إرشاد الشباب، وإني لأرجو أن تثقوا فيه وألا تعصوا أمره، فطاعته من طاعتي، ومخالفته مخالفة لي. وركب بغلته فتبعه الأبله صامتا حتى خرج من حدود القرية.

وهنا قال الأبيض للأبله:

-كن طيبا مع هؤلاء الناس السذج، تظاهر أنك خادمهم الأمين فإن وجه القرية سيتغير بتمامه عندما أعود.

عاد الأبله إلى القرية يمسح دموعه بسرواله الذي كان قد خلعه في الطريق ليقضي حاجته تحت الشجرة، انتظر حتى حان المساء، ثم انتظر حتى انتهت السهرة ودخل الكبار مع زوجاتهم إلى بيوتهم، فجمع الشبان وقال لهم:

–أمرني سيدي الأبيض بتعيينكم للإشراف على مختلف مرافق القرية كي تزول الفوضى ويسود النظام.

وقام بتعيين أحدهم للإشراف على تسيير الطاحونة، واثنين لتسيير الحمام، وثلاثة للسهر على كوشات الفحم والغابة، وأربعة على شؤون المعصرة والبغل الذي يدير رحاها. وقال للآخرين: أما أنتم فستظلون معي كما كنتم مع الأبيض، وعندما يعود نعينكم في مناصب جديدة، هذه أوامره، كما علي التبليغ عليكم الطاعة. امتثل الشبان لأوامر الأبيض التي لم تكن في الحقيقة إلا أوامر الأبله. وقالوا بصوت واحد:

–السمع والطاعة لسيدنا ومولانا.

فلما أفاق الناس وجدوا أن الحمام الذي كانوا يتناوبون على الإشراف عليه قد صار له مشرفان متفرغان وأن كل المرافق الأخرى التي كانوا يتناوبون على تسييرها قد عين للإشراف عليها شبان متخصصون وأقوياء، فحمدوا الله على هذه النعمة ولم يكترثوا للفرنكات القليلة التي صار عليهم أن يدفعوها مقابل القيام بتلك الأتعاب من طرف أولئك الشباب.

وهكذا قام الأبله بتقسيم المداخيل إلى ثلاثة أصناف: قسم يخصص لمصاريف التسيير، وقسم للمشرفين على التسيير، وقسم للادخار، وهذا ما سمي بحق الأبيض.

لم يصادف هذا القرار أية معارضة جدية، فقد أثنى عليه بعضهم وأحس البعض الآخر أن بعض العبء قد أزيل عن قلوبهم.

وشجع رد فعل هذا الأبله فدفعه إلى أن يفكر بجد في مشروع يتعلق بالأرض.

وقصة الأرض في المنسية قصة طريفة، فقد كانت هذه الأرض دائما ملكا جماعيا، وكان العمل بها جماعيا، والاستفادة من الإنتاج جماعية. وهو

الوضع الذي جعل القرية دائما متماسكة وصلبة للدفاع عنها ضد هجمات القبائل والقرى الأخرى الطامعة في ضمها والاستيلاء عليها وصد القراصنة الذين يأتون من البحر أو البر من أجل نهبها. كانت القرية كعائلة واحدة يشد بعضها بعضا حول تلك الأرض الخصبة التي قلت مثيلتها في البلاد.

ولكن عدة عوامل، منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي، ظلت مع مرور الزمن تعمل على تغيير طبيعة الملكية في هذه القرية. لذلك صارت الأرض وقت بداية هذه الحكاية ثلاثة أجزاء: جزء كبير جدا يشكل أكثر من نصف مجموع مساحتها ويتكون من سهل جميل خصب، وجزء أصغر يتكون من هضبة وارفة تستعمل لرعي الماشية، وجزء أكبر من هذا قليلا ويتكون من الجبل الذي تكسوه الغابة الكثيفة التي تصل إلى حدود الهضبة. أما السهل فكانت كل عائلة تملك منه نصيبها الذي تفلحه بالشكل الذي تشاء. وأما الهضبة والجبل فكانا ملكيتين للجميع من أجل الرعي أو الصيد أو جلب الخشب. كانت كل عائلة تسكن بالجزء الذي تملكه من السهل بحيث تبدو القرية وسط السهل كرقعة شطرنج. غير أن الأمر لم يكن دائما على هذا النحو، كما سبق أن ذكرنا، فقد كانت الأرض، سهلها وجبلها وهضبتها ملكا جماعيا. لكنها مع ذلك لم تستقر على الحال التي وجدت عليها مع بداية هذه الحكاية إلا بعد تطورات دامت حوالي أربعين سنة أو نصف قرن.

* * *

من ذلك مثلا أنها قد اكتسحتها ذات يوم قوافل عديدة من الماشية انتشرت كالجراد أو النمل على مسافة عشرين كيلومتر، أي على كل مساحة القرية. وكانت هذه الماشية الجرارة المتكونة من الغنم والبقر والإبل والماعز محروسة من طرف رجال أقوياء يركبون خيولا نافرة ويحملون سيوفا وبنادق

فتاكة. فلما استفسر أهل القرية عما يحدث قيل لهم أن هذه الماشية ملك لثلاثة إقطاعيين صغار يحميهم الإقطاعي الكبير المسمى الفورصة، وقيل لهم أن الفورصة يملك قصرا كبيرا وأراض شاسعة ورجالا كثيرين أقوياء لا يرحمون، وأن لا أحد كيفما كانت قوته وإرادته يمكن أن يعارض الفورصة أو يقاومه.

قالوا:

–نرفع أمرنا إلى المخزن.

وأرسلوا ثلاثة منهم يحملون رسالة يشكون فيها ظلم الإقطاعي ويطالبون بحق حمايتهم من طرف المخزن. لكن الرجال الثلاثة لم يعودوا إلى القرية بعد ذلك.

أثناء هذا ازداد المتسلطون تمركزا في الأرض، فبنوا الزرائب والإسطبلات واستولوا على منابع الماء. وانضمت ماشية القرية القليلة إلى هذه الماشية الجرارة.

أرسلوا ثلاثة رجال آخرين برسالة تظلم إلى المخزن فعاد هؤلاء ليقولوا:

–المخزن مشغول بحماية الثغور والمدن الاستراتيجية. لذلك يأمركم بأن تتحملوا مسؤولية الدفاع بأنفسكم أو تنسوا هذه القضية وأن تبعثوا ببعض رجالكم لحماية الثغور والمدن الاستراتيجية.

أرسلوا ثلاثة آخرين فعاد أحدهم يحمل رأسي صاحبيه، فلما سألوه عما حدث وجدوا لسانه مقطوعا. حينئذ قال شيخ من شيوخهم:

–والله، صرنا مثل النساء، متى اعتمدنا من قبل على المخزن ليحمينا ؟ ألم نكن نحن الذين نحميه ؟ والله تغير الرجال ! هذه القرية لم يكن يحميها طوال تاريخها إلا رجالها، والظاهر أنه لم يعد فيها رجال.

وحمل سيفه وخرج قاصدا حراس ماشية الإقطاع. فلما مد يده إلى سيفه ليخرجه من غمده أصابته نبلة أردته قتيلا.

قال شيخ آخر وهو يجر صاحبه القتيل إلى بيته:

-كيف نواجه كل هذا العدد الضخم من الحراس ؟ لا تفكروا منذ الآن في المواجهة المكشوفة.

وفي الصباح التالي وجدوا هذا الشيخ مقتولا بدوره، لكنهم وجدوا بالقرب منه ثلاثة حراس مقتولين. ففهموا ما عناه الشيخ القتيل وعرفوا أن هذه الطريقة في المجابهة قد تكون أجدى: واحد بثلاثة. وأخفوا الجثث الأربع، وفكروا في حيلة مساعدة.

قالوا:

نرسل إلى الفورصة رسولا يستفسر عن شروطه.

وعاد الرسول يقول:

-أن تتنازلوا له عن الأرض والماشية ليضم الكل إلى ملكه وتصبحوا حراسا لماشيته وخماسين في أرضه، وهو لا يضيع أجر الطائعين، ولكنه لا يرحم الرافضين لسلطانه.

إلا أنهم أثناء رحلة الرسول كانوا قد اغتالوا بالليل خمسين حارسا ودفنوهم ببيوتهم كي لا يكتشف الحراس الآخرون حيلتهم، ثم قتلوا أضعاف ذلك من الماشية، ماشيتهم وماشية الفورصة ونشروا خبرا يقول:

-الذئاب صارت تأتي من كل مكان، تأكل الماشية والرجال.

وأرسلوا ثلاثة منهم إلى مكان تكثر فيه الذئاب فاصطادوا أربعة ذئاب وحملوها على أكتافهم ليلا وتركوها غير بعيد من بيوتهم كي يكتشفها الحراس في الصباح.

ثم أرسلوا إلى الفورصة رسولا ليفاوضه، وأثناء غيابه قتلوا ثلاثين رجلا من الحراس ومثل هذا العدد من الماشية. غير أنهم فوجئوا بالرسول يعود ومعه ثماني رجلا من الحراس الإضافيين. لذلك استدعوا كبير الحراس وقالوا له:

-نقترح على صاحبك أن يترك لنا أرضنا وماشيتنا ويسحب حراسه وماشيته على أن ندفع إليه كل صيف نصف محصول الأرض ومثله من مواليد الماشية، ونريد أن ترسل من حرسك ليعرض عليه الأمر.

قال كبير الحراس:

-تعرفون أنه سيرفض، ولكن سأبعث إليه لأعرض عليه الأمر.

وذهب الرسول ثم عاد يقول:

-سيدي يبلغكم السلام ويخصكم بالتحية والإكرام ويقول إنه هو الذي يقرر ويعطي، فلا عاطي إلا هو ولا مقرر إلا هو، فإما أن تدخلوا في طاعته وإما أن تعلنوا الحرب عليه.

لكنهم خلال غياب الحارس الرسول كانوا قد قتلوا عشرات الرؤوس من الماشية رغم أنهم لم يقتلوا هذه المرة أي حارس ونشروا جثث خمسة ذئاب. إلا أن الحرس حدسوا أن في الأمر مناورة فقرروا أن ينتقموا. وقيل أنهم قتلوا عشرين رجلا من أهل القرية وعلقوا جثثهم في الهواء الطلق وأعادوا تنظيم الحراسة، تم ذلك عند الزوال. غير أن هؤلاء الحراس رأوا مع العتمة أشباحا تقترب من الماشية فأطلقوا الرصاص فقتل خمس وعشرون رجلا من أهل القرية. ففوجئوا بأشباح عديدة أخرى تتجه نحوهم ونحو الماشية، فأطلقوا الرصاص، فلم تسقط الأشباح هذه المرة، وظلوا يطلقون الرصاص حتى نفذت ذخيرتهم، فأخرجوا سيوفهم واتجهوا نحوها، فإذا بهم يجدون دمى تتحرك، وإذا بهم يجدون نساء يزحفن ويحركن تلك الدمى، فذعروا وقرروا التراجع

لكي لا يدنسوا سيوفهم بدم النساء. وفي هذه الأثناء خرج بقية رجال القرية من مخابئهم ففتكوا بهم ولم ينج منهم إلا من هرب، ولم يستطع الهرب منهم إلا أربعة أو خمسة امتطوا خيولهم وأطلقوا عنانها للريح.

كانت هذه ليلة عيد حملت أثناءها كل الفتيات اللائي بلغن سن الزواج وذبحت خلالها عشرات الرؤوس من ماشية الفورصة وتفتحت فيها شهية الناس للحم حتى قيل أن بعضهم كان يأكله نيئا أو قبل أن يذبح البهيمة، وقد ظل الناس يأكلون ويرقصون ويتناسلون مدة ثلاثة أيام.

زوال اليوم الثالث حلت بالقرية خيول حجب غبارها عين السماء، فلما حل المساء كانت جثث الرجال والأطفال والشبان مهيأة لتصير سمادا لأرض القرية ولكن الله أكبر، وزغاريد النساء والصلاة على النبي ملأت أرجاء السماء وأنحاء الأرض حتى رددتها كل الحيوانات والحشرات والطيور طوال عملية التقتيل. فلما سقط كل الرجال وكل الشبان وكل الأطفال تحسست النساء بطونهن وعدن إلى البيوت وهن يتهددن الحراس بالسكاكين والمدي.

آنئذ انصرف الحراس وعسكروا فوق الهضبة. فلما أقبل الصباح أطل من جهة الغابة موكب الفورصة، فجمع النساء وخطب فيهن:

-ألا إن سيفي لا يرحم، ولكني أكره رؤية الدم. وإني لجاعل من هذه الأرض إن شاء الله جنة، وأني لأوصيكن خيرا بأنفسكن، فلا تظلمن إحداكن نفسها فتستبيح دمها، وإني لمتمسك، ولا أحب أن يعصى لي أمر، لا أحب الغدر ولا أرحم من غدر، وإني لأرى من داخل قصري ما خفي منكن وما ظهر، فليكن لكن من أنفسكن على أنفسكن رقيب...

وحين أنهى خطبته الطويلة أمر بتقسيم السهل حسب عدد النساء، وأمر أن ينقل أثاث كل امرأة إلى نصيبها من السهل، وعين على كل قطعة أرض من السهل رجلا ليكون السيد والزوج، وأمر أن يتكلف كل رجل منهم

بثلاثمائة رأس من الماشية ترعى نهارا مع بقية الماشية بالهضبة أو الجبل وتأوي في المساء تحت حراسته إلى الزريبة التي يصنعها لها بنفسه على نصيبه من السهل.

هكذا قسم هذا السهل، هكذا انتقل من الملكية الجماعية إلى الملكية الفردية، وهكذا استبيحت أعراض نساء القرية.

فلم يمض على هذا الوضع أكثر من عشرين سنة حتى مات الفورصة وهو يقوم بعملية مماثلة بقرية أخرى، فخرج أولاده الثمانية لأخذ ثأره، فماتوا جميعا بنفس القرية، وخلا بذلك الجو لكبار حراسه.

أخذ هؤلاء يقتتلون حول من يخلفه، فلما هلكوا جميعا خلا الجو لمساعديهم، فكانوا أعقل منهم إذ بدل الاقتتال قرروا أن يقتسموا ما يمكن اقتسامه من الإرث، قالوا لبعضهم:

-الفورصة كان يريد أن يكون ملكا على البلاد مستغلا ضعف المخزن واشتغال القبائل الكبرى بحماية الثغور، لكنه خدع نفسه حين اعتقد أنه بإمكانه أن يقاوم جيش النصارى، فمات في قرية نائية، وكذلك مات أولاده، ومات كبار حراسه، أما نحن فيجب أن نكون أذكى من الجميع، لنقبل التعاون مع النصارى تجنبا لشرهم فننجو ونغنم، وليكن ذلك على أساس قسمة عادلة لأملاك الفورصة.

على هذا اتفقوا، فكان من نصيب أحدهم قرية المنسية، فلما وصل إليها وجد النساء قد هيأن كل ما يلزم لتنظيم حفل بالمناسبة. لكنهن كن قد أوحين إلى الرجال بقتله والاستيلاء على المنسية، فاغتالوا الرجال وتحول الحفل إلى مأتم قبل أن يختاروا من بينهم جماعة لتسيير شؤون المنسية.

آنئذ انتقلت النساء إلى المرحلة الثانية من مخططهن فقد أكثرن من العناية بالرجال. وحين نسيت قصة الفورصة وأعوانه بعد ثلاث سنوات من

موتهم اغتالت كل امرأة من نساء المنسية الرجل الذي فرض عليها زوجا وعلى أرضها سيدا. لكن الأطفال كانوا قد صاروا رجالا. ومع هؤلاء بدأ عهد جديد من الحياة في المنسية رغم أنهم لم يروا ضرورة تغيير طبيعة الملكية المتعلقة بالسهل. وبعد حادث الاغتيال الجماعي للرجال بحوالي ثماني عشرة سنة جاء الأبيض إلى المنسية وكان من أمره ما كان.

* * *

كان الجهد قد بلغ مبلغه بجدي، وكان يريد علبة سجائر أخرى. لكن شراء علبة سجائر في مثل ذلك الوقت كان أمرا مستحيلا، ذلك بالإضافة إلى أن جدي قد يموت إذا استمر يحكي بهذا الشكل المركز المتتالي. لهذا حاولت أن أنقذ الموقف، فأنا أعرف أنه يتمنى أن يتوقف، ولكنه لا يطيق أن أعتقد بأنه صار ضعيفا إلى هذا الحد.

قلت:

-إني لم أسمع الكثير مما قلت، لقد تعبت، اليوم.

قال وكأنه يمسك بخشبة النجاة:

-جيل اليوم، الله يرحم أيام زمان، حين كان الشبان شبابا حقا، وكان الرجال رجالا، وكانت...إذهب لتنام يا ولدي وتعال غدا لنتابع الحكاية.

* * *

نمت حتى الظهر. فلما دفعت باب غرفته وجدته لا يزال نائما، مستغرقا في نوم عميق وهادئ كأنه طفل. ذهبت إلى المطبخ حيث كانت أمي، فأكلت، وطلبت منها أن تحمل الأكل إلى جدي وتوقظه بنفسها لكي تطمئن عليه، فربما يكون ميتا ونحن لا ندري. ذعرت أمي من خاطرتي ونهتني وهي

تهرول من غير طعام لتوقظه، فتح عينيه وهو يقفز من الفراش فقالت الأم محاولة إخفاء ذعرها:

-صباح الخير !

وقال الجد محاولا أن يخفي فزعه:

-صباح الخير!

قلت محاولا أن أخفف من حدة الموقف:

-صباح الخير أيها الجد العظيم، هل نمت نوما هادئا ؟

نظر إلى أمي بعطف:

-كنت أحلم!

علقت أمي:

-خير إنشاء الله!

قال:

-رأيت أمك وكل الأقارب الموتى، كانوا مثل الملائكة وكانوا يحتفلون بمناسبة لم أدركها، فلما دخلت عليهم قربوني منهم وشرعوا يقبلونني، ولما اقترب الفجر زفوني عريسا وأدخلوني على امرأة شابة لم أر وجهها في البداية، فلما جلست إلى جوارها أمسكت بيدي وكشفت عن وجه كأنه البدر...

حينئذ دخلت أمك، فلما رأيتها هربت إلى غرفة أخرى. وهنا وجدت فتاة أخرى تلبس لباس العروس وتناديني. اقتربت منها. أمسكت بيدي، ولكنها لم تكشف عن وجهها، نظرت فارتبكت، وحين مددت يدي محاولا الاقتراب من الحجاب سمعت أمك تصيح:

-اكشف عن وجهها، هيا اكشف أيها الخائن ؟

وكشفت عن وجه الفتاة فوجدته من خشب متحجر، فخفت وهربت، فتبعتني، وظلت أمك تطاردني وخلفها المرأة الشابة ذات الوجه الخشبي المتحجر إلى أن أيقظتني.

علقت أمي:

-قد نفرح في عرسك، قريبا إن شاء الله!

قاطعها:

-لا تهذي، هذا هذيان، قد تبكين قريبا على فراقي.

استدركت أمي:

-الأعمار بيد الله، سأطلب من العجوز جارتنا أن تفسر هذا الحلم وأخبرك بالنتيجة.

قال جدي غاضبا:

-لا تنقلي أسرارنا إلى غيرنا.

وافقت أمي:

-كما تشاء!

وخرجت لتأتي له بالفطور

سألته:

-هل أشتري لك سجائر ؟

أشار إلى الصدرية من غير أن يقول شيئا.

وبعد حوالي ساعة كان جدي يسألني إن كنت مستعدا للإصغاء إلى بقية الحكاية، حركت رأسي بالإيجاب، فأشعل سيجارة وقال:

-وقفنا عند مشروع الأبله المتعلق بالأرض. كيف نستمر ؟ آه ! لقد اعتزل الأبله الناس فجأة فلم يعد يراه أحد. ذهب إلى الجبل واعتكف على عادته القديمة حتى قال الناس:

-الأبله ليس سوى أبله، الأبله لا يمكن أن يرجى منه خير، وهاهو الأبيض يفشل في ما فشل فيه كل المصلحين قبله. لكن الأبله عاد بعد أسبوع من الاعتكاف، وأمام دهشة الجميع أعلن عن نيته في تنظيم حفل ببيته يدوم ليلة ويوما ويتحمل مصاريفه وحده.

انتهى الحفل فطلب الأبله من الناس أن ينتظروا قليلا، فانتظروا، وصعد الأبله فوق صندوق صغير وأخذ يخطب.

قال:

أيها الناس، تعرفون أني أصبت أخيرا بمرض خطير لم أعرف من أين مسني في غياب سيدي الأبيض، ورغم أن هذا المرض لم يكن معديا، مبدئيا على الأقل، فإني اعتكفت بالجبل مدة أسبوع حتى زال.

أيها الناس. لقد فكرت فوجدت. أن مرضي كان سببه هذا السؤال: كيف نؤمن لأرضنا الخصب والنماء ونقضي على أوهام الطامعين فيها ؟

ولما شفاني الله تعالى من هذا الداء تبين لي أن الطمع في أرض القرية يأتي من مصدرين: الأول، عدم وجود أناس متخصصين في فنون الحرب والقتال. والثاني، وجود ملكية جماعية تتعلق بالجبل والهضبة. وهذا ما يجعلهما يبدوان كأرض خلاء لا مالك لهما، ويخلق الطمع فيهما عند الطامعين والكائدين.

أيها الناس: إن وجود فرقة متكونة من شبان أقوياء، متخصصة في فنون الحرب، متفرغة لأمنكم وسلامتكم أمر لا تحتاج ضرورته إلى برهان، وإن من مزاياه أن واجب الدفاع سيصير فرض كفاية إذ سيسقط عن الكثيرين منكم، خاصة أرباب العائلات ثم إن الدفاع عن أرضكم وأولادكم ونسائكم في هذه الحالة سيتم بشكل فعال لأنه سيقوم به أناس من ذوي الاختصاص.

أيها الناس: لن يكلفكم الأمر سوى دريهمات معدودة لا تكفي الواحد منكم لشراء بندقية أو سيف . .

أيها الناس: إن تقسيم الجبل والهضبة بالعدل بينكم مسألة لا يمكن أن يشك فيها، من حيث أهميتها الدفاعية، إنسان إلا إذا كان مجنونا أو جاهلا أو غير صادق مع نفسه، ناهيكم عن أهميتها من حيث الإنتاج سيصبح حينئذ كل شبر من أرض الجبل والهضبة له مالك حقيقي، وسينتهي اتكالكم على بعضكم البعض في العمل.

أيها الناس: إنه ليس من المعقول في شيء أن يعمل بعضكم أكثر من بعض في الجبل والهضبة، وعند توزيع الربح ينال الأقل عملا مثل الأكثر عملا وإخلاصا، وأحيانا أكثر منه.

أيها الناس: إنه واقع قليل النفع في حق من لا يسلم سوى بالعمل والإخلاص شيئا أصلا. وأنا على يقين أنكم لا ترضون أن يقال عن قريتكم أنها تشجع الخاملين وترعى بهذا منطقا ضد الحياة.

أيها الناس: إنكم تدركون ولا شك أن هذا الأمر واف بمقصودهم وغير واف بمقصودكم ولا بمصلحة القرية.

ونحن نخشى أن يتكاثر عدد هؤلاء يوما بعد يوم وأن تصير في نهاية المطاف قرية من العاطلين الخاملين فيزداد فينا طمع الطامعين وتذهب ريحنا، فلا يكون لنا بعد ذلك ذكر رغم أن سمعنا يملأ التاريخ. فحذار من هؤلاء حذار ولا حذر بغير قرار فعال يسبق المصيبة ويضمن الأمان قبل فوات الأوان.

أيها الناس: لقد وجدت هذا الحل لما كنت أشكوه وما كنتم تشكون شافيا. فعزمت بإرادة الأبيض سيدي وسيدكم على تنفيذه.

ثم إني لما فرغت من هذا ابتدأت في التأمل والتفكير فعلمت أن النهر رغم تحويلنا لمجراه ما زال يسقي أراضي الآخرين في القرى المجاورة لأننا لم نوقف مجراه، وأن هذا تفريط منا لا تقبله السماء، فماذا أنتم فاعلون ؟.

لقد تأملت وفكرت فعلمت أنهم في قديم الزمان وفي دول بعيدة عن هذا المكان يبنون أشياء يسمونها السدود، وهي عبارة عن صهاريج ضخمة يختزنون فيها مياه الأنهار، ويتصرفون فيها كما يشاؤون طول السنة.

وهكذا اهتديت إلى أن هذه القرية في حاجة إلى سد، وأن السد هو الحل الوحيد لاتقاء تقلبات الطبيعة وسنوات الجدب، ومضاعفة الإنتاج في المنسية.

ولكن كيف نبني هذا السد ؟

أيها الناس: لقد تأملت وفكرت طويلا في هذا الأمر فعلمت أن الأرض في حاجة إلى كل سواعد رجالها وأن السد أيضا في حاجة إلى كل سواعد القرية، لذلك أقترح أن يعمل الرجال، كل الرجال، بالأرض في الصباح، وأن يعملوا زوالا في السد.

أيها الناس: لقد وجدت السعداء في الأرض أربعة أصناف:

الخاملون: وهم طفيليو هذه الحياة، وهم يدعون أنه لا يعمل كثيرا سوى الحمير، وهم يزعمون أنهم أهل العلم بالحياة، وهم يذهبون إلى القول بأنهم الطائفة المصطفاة من قبل السماء، تلك التي رضي عليها الرب، فلا هي تعمل، ولا هي تقلق، ولا هي تتعب.

وأنا أقول عن هؤلاء، إنهم السوس الذي ينخر جسد الحياة، وأنهم أهل المكر والخديعة وأصحاب القاذورات الذين ابتلوا من غير أن يستتروا رغم أنهم يزعمون أن الحياة بدونهم لا يمكن أن تكتمل، ولا يمكن حتى أن تسير. وعلى كل حال فإني وجدت مقصودهم غير مقصودي، فانصرفت عنهم بتفكيري وتأملي إلى الطائفة الثانية، وهم اللصوص والمغتصبون. فعلمت أن

هؤلاء لا يختلفون إلا قليلا عن أولئك، فهم أقوياء، وأصحاب همة ونشاط، ولكنهم يصرفون قوتهم ونشاطهم في ما لا يجب وكما لا يجب، وما هم عند استكناه حقيقتهم سوى طفيليات أقوى وأرقى.

لذلك صرفت تفكيري عنهم وابتدأت أبحث في حقيقة الفرقة الثالثة التي تبدو أكثر الطوائف سعادة وترفا وجاها.

أما هؤلاء فهم الوسطاء وكبار التجار والملاك، ولا تتعجبوا إن جمعتهم في خانة واحدة، فهم جميعا وسطاء، أي سماسرة، بين من يعمل ومن لا يعمل، بين من يشتري ومن يبيع، لا يقومون بأدنى مجهود، ويكرهون من يعمل بهمة ونشاط ليكون في مرتبتهم –هؤلاء لا يختلفون عن السابقين إلا بكونهم يستفيدون أكثر، ويمتصون عرق الآخرين بشكل أفظع، ويكون بطونهم أوسع، وهم أصل المصائب والآلام التي تصيب كل الفرق، في كل مكان وكل مستوى يوجدون، مستعدون لبيع أمهاتهم وأوطانهم ليغتنوا أكثر، هؤلاء هم صانعوا الشرور العامة، لا يسلم من أذاهم حتى الأطفال. إنهم مثل العلقة التي تمسك بالموضع الأساسي من الجسم وتظل تتغذى منه وتكبر إلى أن يفقد دمه أو يصاب بالخناق.

لذلك انصرفت بتفكيري وتأملي عن هؤلاء واتجهت بهما نحو الطائفة الرابعة.

هؤلاء هم الذين يأكلون بعرق جبينهم، يتخذون من العمل عبادة، ومن الجد والنشاط مصدر سعادة، هؤلاء هم الشذوذ في هذه الحياة رغم أنهم الأكثرية، ولكنهم سر الحياة، ومصدر حركتها واستمرارها. بدون هؤلاء لا حياة ولا حركة. صحيح أنهم يعملون ليأكل أهل الطوائف الثلاث أكثر مما يأكلون هم، ويكدون ليرتاح الآخرون.

غير أن هذا الشر، هذا الوضع الفاجع، لا يمكن أن يوضع له حد بالشكل الذي تعملون، وإنما يجب أن نقوي عندهم حوافز الإنتاج بأن نقسم بينهم الممتلكات، وبقوة للدفاع عنهم، لأنهم غير قادرين على حماية أنفسهم بأنفسهم ولأن لكل عمل رجاله.

أيها الناس: هكذا ترون أن التفكير والتأمل وتقليب الأمور يقودنا دائما إلى نفس النتيجة: إن ما حدثناكم عنه بتفصيل، وما تفرغنا للتفكير فيه كل هذه المدة، لا يمكن أن يتم إلا بتقسيم الهضبة والجبل بينكم قسمة عادلة وبإنشاء قوة مدربة تتولى مهام الدفاع عنكم وتكون تحت قيادة سيدنا الأبيض.

* * *

هكذا أقنع الأبله أهل القرية بقرار سيندمون عليه طول حياتهم، وهذا ما تنبه إليه أحد أبنائهم إذا قال لهم:

–إن الأبله يريد خرابكم، والأبيض يريد خرابكم، إنهما منافقان، إن الأبله يوهمكم بأنكم ستصيرون أقوياء، ولكن ضعفكم هو ما يريد، هو ما تختارون إذا وافقتم على هذا القرار.

ولما لم يستمع إليه أحد، قصد الشاب بيت الأبله، وهناك خاطب الأبله بحدة وقال له إنه الآن يفهم وحده، لكن العشرات منهم قد يفهمون غدا مثله، وعلى يد هؤلاء سيكون حتف الأبله.

كان الوقت ليلا، أثناء اشتداد العتمة. ابتسم الأبله.

وقال للشاب:

–ليت في هذه القرية عشرات مثلك، من الآن فصاعدا يمكنك أن تعتبرني أبا أو أخا أكبر لك، وبيتي مفتوح أمامك متى شئت، عد غدا بعد أن

تستريح من السهر، غدا نتحدث في القضية بعمق، وثق يا ولدي أنك ستكون من ذوي الشأن العظيم في المنسية.

خرج الشاب وهو يتمنى أن يستطيع ذات يوم تصديق كلام الأبله.غير أن نارا خفية تملأ عيني الأبله حين يتكلم ظلت تقول للشاب:

-لا تصدق، احذر أن تصدق.

واستيقظ أهل الشاب فوجدوه ميتا في مطمورة.

قالوا:

-ضربه حمار الليل فسقط في المطمورة.

وخرج الموكب لدفن جثة الشاب القتيل فكان الأبله في مقدمته، ولما عاد الموكب كان الأبله لا يزال في مقدمته يردد:

-والله لو كان حمار الليل رجلا لحاربته.

* * *

بعد هذا الحادث بيومين ساء حال الأبله فجأة فهيأ نفسه وصعد إلى الجبل ليعتكف به على سابق عادته.

فلما عاد بعد أقل من شهرين كان يحمل معه عشرات المشاريع والخطب.

ألقى الخطبة الأولى ليخبرهم بما اهتدى إليه من نظام ضرائبي متكامل. وألقى الخطبة الثانية في اليوم التالي وأطلعهم على مشروع قانون منظم لعمل المشرفين على تسيير المرافق العمومية الأساسية وقانون خاص بتنظيم شؤون الدفاع ومفكرة لإنجاز السد.

لكن الأبيض قد عـــاد فجـــأة محمولا على بغلته ترافقه امرأة شقراء لا تفارق ثغرها ابتسامة صغيرة مضيئة، فلما رأى الناس جروحه الكثيرة التي كانت لا تزال تدمي جسده سألوه عما حدث.

قال بصوت غي مسموع:

-قضاء وقدر.

نظر الناس إلى بعضهم البعض.

قال الأبله بصوت مرتفع:

-قضاء وقدر!

ردد بعض الناس:

-قضاء وقدر!

حينئذ حاول الأبيض أن يرفع صوته:

-واختبارا لهذا العبد الضعيف من طرف السماء. لقد هاجمني اللصوص، فاجأوني، فمرت هذه المرأة بالصدفة، وأنقذت حياتي، لأنها حين ظهرت فجأة لا تسترها إلا ورقة توت ظنوها جنية، فهربوا. هذه المرأة المسكينة كانت ترافق زوجها في رحلة صيد، فافترس زوجها أسد، وبقيت هي تائهة إلى أن ساقتها السماء لتنجدني.

* * *

ضحك جدي بخبث ثم قال:

أما الحقيقة يا ولدي فهي غير هذا، هل تصدق أن يأكل الأسد الزوج ويترك الزوجة ؟

أجبت:

-ولم لا ؟

قال:

-أبله، أنت الأبله الحقيقي. إن الأبيض حين غادر القرية إنما ذهب ليقوم بنفس العمل الذي قام به في المنسية. فلما دخل قرية الراية الجبلية بنفس الطريقة التي دخل بها إلى المنسية استمع إليه أهلوها وأكرموه. ولما انتهت مدة الضيافة، وهي كما تعلم ثلاث أيام، حملوا الأبيض ووضعوه في الفلاقة حتى أدموه. ثم رموه على ظهر بغلته وهم يقولون:

-لم تخضعنا الجيوش بحد السلاح فكيف تريد إخضاعنا بحد الكلام ؟

أخبر سادتك بما رأيت وسمعت، ولا تعد إلى هنا بعد الآن إذا كنت تريد أن تعيش بقية عمرك.

إلا أن الأبيض العنيد، بدل أن يقفل راجعا إلى المنسية، اتجه نحو قرية أخرى كانت تحتلها سرية من المشاة. وهنا أخبرهم بما رأى وعاش، فأرسل قائد السرية إلى قائد سرية أخرى، وأرسل هذا بدوره إلى قائد سرية أخرى، وكان كل واحد منهم يطلب النجدة، فما هي إلا أيام معدودة حتى كان الأبيض يقود سريتين، ويتجه بهما نحو قرية الراية، وهنا دارت معركة بين الجيش الغازي والسكان، معركة من أفظع ما عرفه من معارك ذلك الزمان، يشارك فيها الرجال والنساء والأطفال، وقيل إن الطبيعة تدخلت فيها بدورها مساعدة بالمطر والرياح العاتية. وأدرك الأبيض أن الهزيمة باتت أمرا واقعا بعد مقتل أغلب عناصر الجيش وبعد ما أصابه من جروح بليغة أثناء المعارك. آنئذ قال للممرضة الجميلة:

-تعالي إلى المنسية !

فجاءت معه إلى القرية كما سبق أن عرفت. وأما خلفه فقد اتبع خطة أخرى في المعركة إذ أمر أصحابه بتنفيذ ما يسمى في الحرب بالأرض المحروقة. ومنذ هذا التاريخ انتهت من الزمان والمكان قرية الراية.

* * *

في المنسية التزم الأبيض بعدم مغادرة الفراش مدة دامت أكثر من شهر، وكانت الشقراء خلال هذه المدة لا تفارقه، تعالج جراحه، وتغسل ثيابه، وتعد طعامه، تهيئ فراشه، وتسنده ليشم الهواء مرة في الصباح وأخرى في الزوال، وتصحبه إلى المرحاض ليقضي حاجته، وظلت على هذا السلوك طوال تلك المدة، حتى شك الناس في طبيعـــة العلاقة التي صارت تربط بينها وبين الأبيض. لكن الأبيض لما شفي تماما قرر أن يبني بيتا للشقراء، بعيدا عن بيته، ولم يعد يراها إلا نادرا، أي عند الضرورة القصوى، فعاد الاعتقاد في طهارة الأبيض إلى قلوب الناس من جديد.

حتى الشقراء صارت تولي كل عنايتها لأهل القرية، فأظهرت في هذا الأمر مواهب حقيقية، وتجلت هذه المواهب على الخصوص في قدرتها على القضاء على تلك الحمى الغريبة المنتشرة بين السكان وفي القضاء على عدة أمراض أخرى كانت تصيب الصغار والكبار وتزهق أرواحهم في أكثر الأحيان. وقد كانت تزرع بسمتها الصغيرة المضيئة في كل مكان. فما لبث الأهالي أن اطمأنوا إليها، وأخذ النساء على الخصوص يطلبن مساعدتها ويلتمسن نصائحها، ليس فقط فيما يتعلق بالقضايا الصحية، ولكن أيضا بشأن الطبخ ومشاكلهن مع أولادهن وأزواجهن.

مع مرور الوقت اكتسبت الشقراء ثقة الجميع، فلم يعد بينهم أحد يبخل عليها بالبذل والعطاء. وهكذا فتحت أبواب البيوت وقلوبها للشقراء، تدخل متى تشاء وتخرج متى تشاء، صارت وكأنها ملاك يحبها الصغار والكبار.

* * *

عاد الأبيض بعد شفائه مباشرة، وبهمة ونشاط دائبين، إلى متابعة خلق المشاريع الصغيرة التي كان قد بدأها منذ مجيئه إلى القرية، ولم يعد، من جهة أخرى، في حاجة إلى من يسنده.

وأما الأبله فقد استمر في تنفيذ مخططه ولم يبد على الأبيض منذ عاد أنه يعارض أو يختلف معه، وإنما بدا وكأنه يبارك ما يفعل ويأمر به.

وهكذا أنشأ الأبله دكانا ضخما لبيع المواد الغذائية والأعشاب النادرة والعطور، وأدخلت السجائر بأمر منه إلى القرية، وفتح ملهى عام وماخور دشنهما بنفسه صحبة الأبيض والشقراء في حفل بديع، وادعى في خطبة ألقاها بالمناسبة أنهما ضروريان لضمان التوازن النفسي والبيولوجي عند الشباب والجند، وبالتالي لأمن القرية وكرامتها، كما أنهما ضروريان للزيادة في الإنتاج، ولقد مول الأبله كل هذه المنجزات من حق الأبيض الذي كان قد تكاثر خلال هذه الفترة، كما استعان بجزء هام من المحصول الضريبي ليبني بنكا لخزن الفائض والعائدات.

والواقع أن مشروع البنك كان قد صار أمرا ملحا، فقد ارتفع بسرعة محصول الضرائب والعائدات العمومية، وصار من الضروري تشييد مخزن يجمعها ويسهر عليها.

لقد تنوعت الضرائب في البداية، لكنها اختزلت في النهاية في أربع:

1) ضريبة الأمن الخاص برب العائلة، وتؤدى نقدا.

2) ضريبة أمن العائلة وتؤدة حبوبا.

3) ضريبة أمن الماشية والأرض، وتؤدى ماشية أو دواجن.

4)ضريبة المساهمة في منشآت الراحة واللهو وتجديد الشباب لمن يتراوح سنهم بين سبع وسبع وسبعين سنة، وتؤدة بشكل اختياري، إما نقدا أو حبوبا أو ماشية أو بالجمع بين نوعين أو الأنواع الثلاثة.

كان جزء كبير من هذه الضرائب يصرف على الجند الذي سمي منذ رجوع الأبيض بقوات الحماية العامة، في حين كان يصرف جزء آخر منه على التجهيز بمعناه العام والخاص، وأما الجزء الباقي فيحتفظ به في البنك.وهكذا صار الأبيض والأبله والشقراء سعداء، وصار الأهالي بدورهم سعداء، فالضرائب كثيرة، والمحصول جيد والمنشآت تزدهر، وقوات الحماية العامة تسهر على الأمن والنظام، وليس هناك من يستطيع أن يرفع رأسه أو يتمرد.

غير أن قوات الحماية العامة ما لبثت أن صارت مصدر قلق وانزعاج كثير من الأهالي، فهي لم تخض أية معركة دفاعا عن القرية لأن القرية لم تعرف أي خطر خارجي منذ حادث الفورصة، وهي تمنح كل ما تطلب إلى حد الدلال، غير أنها صارت مع الأسف تتعسف ضد السكان بمناسبة أو بغير مناسبة، فتستولي بالقوة على بعض رؤوس الغنم، أو تحرق قمح من تدعي أن بصره أطول من أنفه، وقد حدث مرارا أن سكر بعض أفرادها، فعاثوا فسادا في أعراض الناس وبناتهم، وكثيرا ما كانوا يغتصبون بعض النساء أو الفتيات أو الغلمان. فلما اشتكى الناس من حماقاتهم ورفعوا أمرهم إلى الأبله قرر هذا الأخير أن يعزلهم عن السكان، فبنى لهم قلعة بالجبل صاروا لا يتركونها إلا ليلة السبت ويوم الأحد، ثم أنشا شرطة خاصة لمراقبة كميات الخمر التي يحتسونها، وأمر أن يخصص لهم يوم الأربعاء لارتياد الماخور مجانا، فقلت بعد هذا مصائبهم وحماقاتهم، وإن كانت تنشأ بينهم وبين السكان من حين لحين معارك طاحنة. لكنهم على العموم قللوا من مضايقاتهم للسكان.

يمكن القول إذن إن جميع الفئات قد انسجمت فيما بينها بالمنسية ولو انسجاما نسبيا وأن الهدوء قد ساد أرجاء المنسية بصفة عامة.

* * *

لما تم الانسجام وساد الهدوء بالشكل الذي سبق ذكره، فكر الأبيض في تأليه الأبله. بعبارة أوضح، لما أصبح مخطط الأبله والأبيض حقيقة واقعية وواقعا حقيقيا رأى الأبيض أن الفرصة قد حانت للشروع في المرحلة الثانية من المخطط، وكان مقررا أن تبدأ هذه المرحلة بتأليه الأبله من أجل تكريس المرحلة الأولى والانتقال فورا إلى المرحلة الثانية.

صنع الأبيض تمثالا ضخما للأبله وضع فوق رأس الجبل، وصنع تماثيل متوسطة الحجم وضعت في كل بيت ومرفق، وصنع تماثيل صغيرة من خشب تعلق في أوضاع مختلفة بالثياب أو الرأس أو العنق، فصار الأبله حاضرا في كل مكان وفي كل وقت، وأتم عمله بأن صنع مجموعة من التماثيل في شكل قوالب لصنع الخبز وأغطية أواني الطبخ ومقابض ووسائل العمل.

ثم أخرجت إلى القرية كتب صغيرة ملونة تحمل أهم تعاليم الأبله ووصاياه وخطبه.

وهكذا صار أهل المنسية يتميزون عن غيرهم من الناس بتماثيلهم الجميلة وكتابهم الملـون وعبادتهم للأبله، فأصبحـوا يقولـون قبل النهوض من النوم:

-سبحان الأبله.

وقبل إغماض الجفن:

-سبحان الأبله.

وقبل تناول كل وجبة طعام أو الشروع في أي عمل:

-باسم الأبله وبركته.

ولا يقوم الواحد منهم بشيء أو يتخذ قرارا أو نية إلا بعد أن يستعين بذكر الأبله أو الرجوع إلى الكتاب الملون.

لقد أصبحت تقام صلاة خاصة مرة في اليوم، مباشرة بعد العودة من العمل يتلى خلالها الدعاء التالي:

-لا إله إلا الأبله، نحمده على فضائله ونشكره على نعمه، قبل خلقه لنا لم نكن سوى حيوانات ضالة في المنسية، عندما خلقنا خلق نفسه، وعندما خلق ذاته خلقنا في نفس الآن، نحن هو وهو نحن، فلندع كل شيء، ولنترك له أمر كل شيء ليظل هو نحن ونحن هو، لكنه مع ذلك سيدنا ومولانا، فتبارك الأبله، آمين. . .

بعد طقوس التألية اختفى الأبله، فلم يعد يرى أحدا، ولم يعد يراه أحد، ولا يسمح برؤيته سوى للأبيض.

لكن الأبيض والشقراء نفسيهما ما لبثا أن غابا عن الأنظار واستقرا في بيت الأبله مدعين أنهما قد نذرا نفسيهما لخدمته. في الحين عين الأبيض رئيسا لشؤون الأبله الخاصة، فعين الأبيض باسمه مشرفا عاما على الأشياء الدنيوية المتعلقة بحياة القرية وأملاكها، ولم يكن هذا المشرف سوى رئيس قوات الحماية العامة.

* * *

قال جدي وهو يخرج من الفراش ليجلس فوق سجادة أمام المائدة وضعت عليها أمي طعامنا:

أستطيع أن أؤكد أن هذا هو الخطأ الأكبر الذي ارتكبه الأبله والأبيض والشقراء، فأهل القرية كانوا متدينين، وكانوا يعرفون أن البشر لا يمكن أن يصيروا آلهة بهذا الشكل، ولكنهم قبلوا المسألة على أساس أنها مجرد حماقة، أي دعابة.

فلما تبين لهم أن الأمر جد وأن الأبله صار يعتقد أنه حقا إله لم يقولوا شيئا خوفا من شيء لا يمكن تسميته ووفقا لحكمة قديمة في القرية تقول:

-سلم للخاوي تنجو من العامر.

وهكذا نفذوا الأوامر بالرغم من أنهم في أعماقهم ظلوا يصلون لإلههم ولا يؤمنون إلا به، وعند الصلاة للأبله يطلبون من إلههم أن يرفع عنهم هذا الظلم.

هناك واحد فقط لم يطع الأوامر. وهذا الشخص لم يكن يؤمن بشيء، لا بإلههم القديم، ولا بإلههم الأبله الذي ادعى الألوهية.

كان الناس جميعا يشفقون عليه ويرثون لحاله، فهو لم يقم منذ ولد بأي طقس من الطقوس، ولم يقم بأي عمل، وعندما يقف بأسماله ولعابه أمام أي باب أو مكان فيه ناس يرمى إليه بالطعام والشراب وكأنه من يفعل ذلك يريد أن يتخلص من منظره.

كان الجميع يسمونه المتسول، وقد أوصى الأبله نفسه أن يطعم ويكرم وألا ينهر أينما حل.

منذ أن بدأ الأبله في تنفيذ مخططه والمتسول يقول لنفسه:

-هذه بداية الكارثة.

وقد صار يرددها أحيانا لا شعوريا بصوت عال، فيسمعه الناس، فلا يهتمون بما يقول، أو لا يدركون ما يقول. في مثل هذه الأحوال يقول المتسول لنفسه:

-اسمع أيها الحقير، يجب أن يكون لك من رأيك آراء:

رأي تقوله لنفسك، ورأي تشترك فيه أصدقاءك المقربين جدا، ورأي تقوله لهؤلاء العامة، ورأي تقوله للأبله وآذانه. وبما أنه ليس لك سوى نفسك، وبما أن الجميع يعتبرك متسولا أحمق، فلا تطلع على آرائك غير نفسك، ولا

تقل لهذه إلا ما تعرف أنها لن تصبح به عدوك. رأيك الآن أن جماعة الأبله والأبيض والشقراء تقود القرية نحو كارثة محققة، ولكن أهل القرية لن يفيقوا أو يتحركوا إلا عندما تحل بهم الكارثة، فإنه آنئذ يكون الأوان قد فات، ولكن ما الذي يهمك في هذا ؟ أنت مجرد متسول، تأكل فتات الموائد، وتسمـــع مـــر الكلام، لا يطعمونك إلا لأنهم يخافـــون أن يصيروا مثلك، يكرهون منظرك البشع، الناس بالصدقات تؤمن مستقبلا غامضا وتدفع شرا خفيا، وأنت تستغل هذا الخوف الذي لا اسم له عند الناس.

الأمر طبيعي جدا، فلا بد أن يوجد من يقوم بمثل هذه الوظيفة، وليس ذنبك أنك أنت هذا الشخص بالصدفة.

بهذا الشكل كان يفكر المتسول عادة، لكنه أحيانا يفكر على النحو التالي:

-كيف تدعي أن الأمر لا يهمك ؟ في مثل هذه الأمور لا يمكن أن يستثنى أحد، أن يتهرب أحد، أو يدعي أن لا مصلحة له. تصور أن الكارثة قد حلت بالفعل، حينئذ سيصاب الجميع بالفاقة، فمن يطعمك في هذه الحالة ؟ من يترك لك فتات مائدته ؟ كل البيوت ستكون في حاجة إلى مثل هذا الفتات، ولن يعطوك سوى مر الكلام، بل ستضطر إلى العمل، هل تطيق أن تعمل ؟ وهؤلاء الذين يرسلون إليك ذلك المتسول الأقرع ليعـــرض عليك أن تكون منهم، لتدخل التاريخ، لماذا لا تكون منهم ؟

لما يصل التفكير بالمتسول إلى هذا الحد يقول لنفسه:

-يا نفس لا يجب أن يكون من رأيك إلا واحد، ذلك الذي يقود إلى مصلحتك، ذلك الذي تحتفظين به لهذا السبب لنفسك، ولكن الأبله لا يعطيك شيئا، الناس هم الذين يعطون، والناس في هذه القرية يتحولون تدريجيا من مالكين إلى عمال، ومن سادة إلى عبيد في ظل هذا الأبله المعتوه، وإذا ما تم

هذا فإنهم سيصبحون جميعا متسولين مثلك، وهذه المهنة لا تطيق أن يكون عدد متعاطيها كبيرا، وأما الأبله المعتوه فإنه لا يعطي، وإنما يأخذ.

* * *

بعد يوم وليلة من الكلام، وقف جدي يقطع الغرفة جيئة وذهابا مادا يده مبسوطة تاركا لعابه يسيل من جانبي فمه وكأنه ذلك المتسول الذي كان يتحدث عنه قبل قليل. أخذت أضحك.

قال:

-لقد حدث بالفعل ما توقعه المتسول.

تساءلت:

-كيف ؟ كيف حدث ؟ (لما لاحظت أنه سكت طويلا)

تابع:

-الحكاية، بل بقية الحكاية باختصار، أن الديون تراكمت على السكان، فالمصاريف متعددة والضرائب مرتفعة وأثمان المعيشة تقفز بسرعة جنونية، والأرض صغيرة، والماشية قليلة، والعمل لم يعد كافيا لا لسد نفقات العيش ولا لتسديد الضرائب، وقوات الحماية العامة لا تترك أحدا يتكلم أو يتحرك، والإله الأبله لم يعد يسمع ولا يرى، الويل لمن اشتكى أو انتقد أو نصح، مثل هؤلاء الذين تعبوا من التحكم في أفواههم يعتبرون ملحدين أو عملاء أو مخبرين أو مغامرين في خدمة الشيطان، لم يكن الشيطان في عرف قوات العامة سوى تعبير عن أعداء لا يرون أما إذا لم تدفع الضريبة أو إذا ناقشت ثمن شيء من الأشياء فإنك تعتبر متمردا وخارجا عن القانون ومهددا للأمن العام.

لما ضاقت الحال بالناس وسدت الآفاق أمامهم أخذ بعضهم يفكر في الهجرة. ولقد استطاع بعضهم أن يخرج هاربا متسللا بالليل مع زوجته وأولاده تاركا أرضه وبيته وماشيته. غير أن أغلبية الذين حاولوا أن يهربوا ضبطتهم قوات الحماية العامة وأعدموا في الحال بتهمة الخيانة الوطنية.

طبعا، لم تتوقف مع ذلك الهجرة، أو على الأصح، محاولات الهجرة، لكن الذين نجحوا في هذه العملية هم عادة من أولئك الذين تخلوا عن أولادهم وزوجاتهم بتركهم في القرية عرضة للاستنطاق والتعذيب من طرف قوات الحماية العامة، والواقع أن أغلب هؤلاء الهاربين لم ينجحوا في محاولاتهم إلا بعد أن جرحوا جروحا عديدة.

لقد سميت هذه الفترة بحالة الاستثناء أو الطوارئ إذ أخذت قوات الحماية العامة تعمل ليل نهار، وأصدر الأبيض قرارا يقضي بمنع الهجرة ويعتبر كل من يحاول الهجرة خائنا للمصلحة الوطنية ويأمر في ذلك القرار رئيس الشؤون العامة بتجريده فورا من أملاكه وعزله عن زوجته وأولاده وإعدامه بلا محاكمة. وبعد ستة شهور من تطبيق حالة الاستثناء أصدر الأبيض قرارا يعلن فيه دخول القرية بالفعل في حالة الاستثناء، غير أنها كانت حالة استثناء غريبة تلك التي أعلنت القرار إذ حددت خلالها وجبات الأكل في وجبة واحدة كل يوم، وحددت فيها مضاجعة النساء بمرة واحدة في الشهر، ومنع استعمال الفحم والخشب في غير المرافق العمومية، ومنع الكلام منعا تاما واستبدل بالإشارات بالإضافة إلى اعتبار الحمل مؤامرة يعاقب عليها القانون بالإعدام، ومنع استعمال الماء في البيوت منعا مطلقا والسماح بتقديمه للشرب في الملهى والماخور وحدهما. مقابل كل هذا أعلنت الزيادة في الضرائب، ورفع من أسعار استعمال المرافق العمومية والمواد الغذائية كي

يرتفع مخزون البنك الذي سمي منذ هذا العهد ببيت رأسمال القرية من أجل إنقاذها من الفاقة.

أما الأراضي التي هاجر أصحابها فقد صدر بشأنها قرار أبيضي يقضي بجعلها أراض في ملكية إدارة الشؤون الدنيوية.

* * *

عاشت القرية على هذه الحال قرابة عام ونصف، وصارت أغلب الأراضي في ملكية إدارة الشؤون الدنيوية، وكثرت الوفيات بين الرجال والأطفال والنساء، وبدا أن عدد أهلها قد تقلص إلى حوالي الثلث، آنئذ صدر قرار جديد علل بضرورة المحافظة على البيئة البشرية في القرية وأعلن بموجبه أن وجبات الأكل قد أصبحت مرتين في اليوم، واحدة في الصباح وأخرى في المساء، وأن مضاجعة النساء قد صارت مرة كل خمسة عشرة يوما، وأن الحمل لم يعد جريمة، وأن المرأة التي تلد ولدا تنال جائزة من إدارة الشؤون الدنيوية، ولكن المحرمات الأخرى تظل على ما كانت عليه إلى إشعار آخر.

وبعد مضي شهر من صدور هذا القرار صدر قرار جديد عن إدارة الشؤون الدنيوية أعلن فيه أن إدارة الشؤون الدنيوية رغبة منها في تنشيط الاقتصاد وغيرة منها على البيئة الطبيعية قررت أن تشتري كل الأراضي التي يلتزم أصحابها بالعمل فيها لمصلحة الإدارة بموجب عقد مدته عشر سنوات.

وهكذا باع الأهل أراضيهم بالتدريج لإدارة الشؤون الدنيوية وصاروا مجرد عمال يتقاضون مقابل بيع عضلاتهم خمس ما كانت تنتجه أرضهم، صاروا خماسين بعد أن كانوا مالكين حقيقيين. وهكذا تم تنفيذ المرحلة الثانية

من مخطط جماعة الأبله بدقة، وكان لهم ما أرادوا: أن يصيروا مالكين وحدهم وأن يصير جميع الأهالي خماسين

قال المتسول لما رأى نبوءته تتحقق:

* * *

–ألم أقل لكم إن الكارثة ستحل بكم ؟ ولكن يا نفس هل كان من الضروري أن يكون لك من رأيك رأي واحد تحتفظين به لنفسك ؟

* * *

عاد جدي إلى السرير، دخل تحت الغطاء، وقال:

خرج المتسول من القرية، من غير أن يهتم به أحد، ولم يعد إليها منذ هذا العهد.

سألته:

–ولماذا اختفى ؟

أجاب:

–ليس هذا هو المهم، المهم أن أراضي القرية صارت تتعرض من حين لحين لحرائق مهولة، وقد حدثت اغتيالات كثيرة بين أفراد قوات الحماية، كما تمت عمليات سطو على الماشية والحبوب.

سألته:

–المتسول ؟

قال:

–المتسول وآخرون، أولئك الذين تمكنوا من الهجرة، وحتى بعض الذين ظلوا في القرية.

تساءلت:

-المقاومة الوطنية ؟

لم يجب.

استدركت:

-والأبله ؟

قال:

-الأبله تزوج بالشقراء ورزق منها بولدين وبنت وبالمشاكل.

-والأبيض ؟

-تخلى عن مهامه لرئيس قوات الحماية العامة، ثم أخذ نصيبه من الغنيمة وعاد إلى بلده حيث ظل يعيش حياة مترفة إلى أن توفي في حادث سيارة وترك ماله لجمعية خيرية.

-والمتسول، لماذا لم يعد كما قالت جدتي ؟

-تعدني بأن تكون رجلا، في مستوى السر الذي سأخبرك به ؟

-أعدك.

-كنت أنا ذلك المتسول، جدك هو المتسول في هذه الحكاية.

فوجئت:

-كيف ؟ لا أفهم !

-كن رجلا وإلا أمسكت عن الكلام.

كنت ممتلئا بالفخر والإعجاب وعدم التصديق، لكني تركته مع ذلك يتابع:

-لقد خرجت من القرية كما علمت، كنت في الخامسة والثلاثين، وفي هذه المدينة حيث ولدت أنت وولد أبوك قبلك التقيت ببعض أولئك الذين تمكنوا من الهجرة إلى خارج المنسية. عرضوا علي أن أشارك معهم في المقاومة ضد الأبله والأبيض على أن يلتزموا بإيجاد شغل لي. كان من الصعب علي

أن أتعود على الشغل. فتحوا لي دكانا صغيرا لبيع الأعشاب وإخفاء السلاح. تزوجت ببنت أحد هؤلاء فكانت جدتك وكان أبوك وكنت أنت.

قلت:

-ولكن جدتي. .

قاطعني:

-أعرف، جدتك سمعت بالحكاية ولم تعشها، وما قلت لها قط أني كنت ذاك المتسول، كانت ستسخر مني فأنا دائما في نظرها رجل لا يصلح لشيء. النساء... ثم أن الحكاية تناقلتها عدة أفواه، ولما انتقلت من لسان إلى لسان صارت مثل الخرافة ودخلت التغيير والتحوير حتى فقدت علاقتها بالواقع أو كادت.

قلت:

-وماذا بعد هذا ؟

-قال:

-لم يختلف الأمر في تطور هذه الحكاية الخاصة بالمنسية عن تطور حكايات أخرى مماثلة لها وكثيرة حدثت في قرى أخرى.

قلت:

-أريد أن تحكي لي البقية بتفصيل.

قال:

-عد غدا

رجوته.

قال:

-عد غدا

أغريته.

قال:

-عد غدا.

هددته بإفشاء أسراره ومغامراته الأخيرة منذ أن صار يبيع مواد الزينة.

قال:

-عد غدا، قلت لك.

خرجت وأنا أتساءل إن كان حقا هو المتسول أم أنه ككثير من الخاملين والوصوليين في تاريخنا الحديث يحاول بدوره أن يزور التاريخ ليستفيد منه في كسب بعض الامتيازات. لكن طبيعة الحكاية كما رواها شغلتني أكثر فيما بعد: هل هي حقا كما رواها ؟ هل هذه بالفعل هي حكاية الأبله والمنسية أم أن لجدتي حكايتها ولجدي حكايته وللناس أيضا حكايتهم عن الأبله والمنسية ؟

سألت أمي:

-هل تعرفين حكاية المنسية ؟ هل تعرفين متسول المنسية ؟

نهرتني، ثم اعتذرت بأنها لم تذهب إلى المدرسة مثلي.

قلت:

-هذه الحكاية، مثل هذه الحكاية، لا نتعلمها في المدارس.

قالت لتتخلص مني:

-إسأل أباك.

وسألت أبي عن هذه الأمور.

قال:

-ليس لدي الوقت لإضاعته في مثل هذه التوافه.

لم يبق لي سوى جدي.

عدت إليه مع الصباح الباكر متعللا بحمل طعام الفطور إليه. كان لا يزال يغط في نومه. ناديته. لم يجب. حركته. لم يفتح عينيه. اقتربت من وجهه.

كان كورقة دفتر بيضاء. ناديت على أمي. اقتربت منه. ذعرت. وصاحت:

–مات !

شغلتني مسألة الموت من جديد:

–لماذا يموت الناس بهذا الشكل بعد حكاية، مجرد حكاية صغيرة كهذه؟ لماذا يموت رواة هذه الحكاية ؟ استدركت حين انتهيت إلى صيغة التعميم:

–حكت جدتي حكاية المنسية والأبله، وماتت، وحكى جدي حكاية الأبله والمنسية، فمات، هل يموت كل من يحكي هذه الحكاية ؟ هل أموت بعد أن أحكي هذه الحكاية ؟

كل شيء ممكن.

قبل ذلك أشهد:

–أني لم أضف كلمة واحدة من عندي إلى ما قاله الجد في الحكاية، على عكس مما فعلت مع حكاية الجدة لكي تستقيم!

الكتـــاب الثالث

الأيـــن . . . . ؟

توجد القرية المسماة بالمنسية على بعد تسعين كلمترا من العاصمة.

لقد تغير اسمها من فترة إلى أخرى، فهي مرة دار الأبله، ومرة دار الأبيض، ومرة دار الشقراء، ومرة دار ولد الشقراء أو ولد الأبله.

غير أن اسم المنسية هو الاسم الذي عرفت به أكثر من غيره من الأسماء الأخرى، وحتى عندما تذكر باسم من تلك الأسماء العديدة فإنه لا ينطق عادة إلا مقرونا بلفظ المنسية، فيقال مثلا: دار الأبله المنسية، أو دار الشقراء المنسية، أو دار الأبيض المنسية.

المنسية اليوم عبارة عن شارع طوله نصف كلمتر تقريبا، تحيط به البيوت والحوانيت والمقاهي من الجهتين وتتوسطه بعض الأشجار الصغيرة وبعض العربات تدفع باليدين.

أول ما يثير الانتباه والإنسان يطل على المنسية هو المقبرة، فهي خمس مرات أكبر من المساحة التي يحتلها الشارع بدوره وأشجاره وحوانيته. إن المرء ليشعر وهو يشاهد هذه المفارقة كأن القرية قد أصيبت في زمن ما بزلزال عنيف مدمر أو مرض عضال أزالها من الوجود دفعة واحدة ثم أعيد بناؤها بهذا الشكل الذي اقتضاه موقعها من حيث أنها تقع مباشرة قبل مفترق طرق عديدة تؤدي إلى كل الجهات.

والغريب أن أهل المنسية يبدون وكأنهم يشتغلون جميعا في هذا النوع من التجارة الذي يتلاءم مع طبيعة القرى والمدن التي توجد في مثل هذا

الموقع: مقاه متعددة ودكاكين جزارة كثيرة ومحلات لبيع اللحم المشوي والبيض وأكلات أخرى خفيفة، وأطفال حاضرون في كل مكان من الشارع ومستعدون للقيام بأي شيء يكسبون منه بعض المال: حمالون، بائعو سجائر وسندويتشات، وماسحو أحذية، وملمعو سيارات أو حراس لها، ومساعدون في المقاهي والدكاكين، وفي كل شيء آخر، أي حتى وسطاء بين الرجال والنساء. هل أخلص من هذا إلى أن مخطط الأبله قد بلغ ذروته، إلى أكثر مما كان ينتظر منه الأبله نفسه ؟

يبدو أني نسيت حكاية هذا الرجل الذي شغلتني أخباره مدة طويلة. والواقع أن لا شيء في المنسية يذكرك بالأبله أو بجو الحكاية لا كما روتها جدتي ولا كما رواها جدي. فقد سألت عن قصر الأبله فدلني الناس على أطلال لم أستطع أن أصدق أنها بقايا قصر.

وسألت عن قصر الأبيض فأشاروا إلى بقعة صغيرة من الصبار مدعين أنها قصر الأبيَض. وسألت عن السد فأرشدوني إلى حفرة عميقة وواسعة ما زال بها بعض الماء، ولكنها صارت مأوى للضفادع والأعشاب الطفيلية، ولما سألت عن الغابة أخبروني بأنه لا توجد غابة بالمنسية.

تدخل شيخ وصحح:

–أزيلت من الوجود منذ خمس سنوات.

سألت عن هذا الذي يسمونه ولد الأبله ويسمون القرية باسمه.

قال أحدهم:

–لعنة الله عليه، كان سكيرا، ثم صار متسولا، ثم قتل أمه وأخته وأخاه وهرب إلى الخارج، لم يعد منذئذ إلى المنسية.

سألتهم عمن يملك الهضبة والجبل والسهل، من يملك الأرض. قال طفل:

–ولد الحمراء. رجل اسمه ولد الحمراء نسمع به ولا نراه...

لا نتعامل معه إلا بواسطة سمسار يتوسط بين السكان وبينه لشراء أرض للسكن مثلا أو لكراء بقعة ترعى بها ماشية الجزارين.

وسألته:

-لماذا لا يحرث الأرض ؟

أجاب الطفل:

-لا نعرف، إنه لم يحرثها منذ اشتراها. اشتراها غير محروثة وما زالت كما اشتراها من ولد الأبله. وعلى كل حال، فإنه حتى لو أراد أن يحرثها، لن يجد العمال لأن الناس لم يعودوا يحبون أن يشتغلوا بالفلاحة لأسباب كثيرة.

علقت:

-ربما كان منها ما هو موروث !

تدخل العجوز:

-لا ندري، ولكن الأسباب كثيرة، ربما كان منها ما هو موروث.

* * *

كانت الجماعة التي ترافقني تتكون من ثلاثة أطفال يبدون أصحاب تجربة كبيرة وتعسة، شاب في حوالي الخامسة والعشرين ورجل يبدو فاقدا نصف عقله، وشيخ يتكلم إلا قليلا وبحذر.

ونحن عائدون من زيارة الأطلال أعطيتهم عشرين درهما ودعوتهم إلى تناول الشاي في إحدى المقاهي. كانوا في غاية السعادة، لكنهم ما لبثوا أن بدأوا يتخاصمون حول المبلغ الذي يجب أن يعود إلى كل واحد منهم. تدخلت وحسمت الموقف.

في المقهى أخبرتهم بأن جدي من المنسية وأنني بالتالي ابن شرعي للمنسية. فرحوا كثيرا لما سمعوا الخبر وطلبوا مني أن أحدثهم عن العائلة التي أنتمي إليها. هل أخبرهم بقصة المتسول ؟

-خرج جدي من القرية منذ زمان طويل، ولا أظنكم تعرفون شيئا عن هذا الزمان، وربما كان من الأحسن أن لا تعرفوا عنه شيئا، فهو قد صار معلقا بين الواقع والأسطورة والكابوس.

أمسكوا عن السؤال. ثم دلني الشيخ على النزل الوحيد الموجود في القرية: نزل الراحة. منزل في الأصل، فحول إلى أوتيل لما اشتراه رجل يعمل بالخارج وكلف أخته العانس بتدبيره.

كنت متعبا وأحس بخيبة أمل كبيرة. لكن البق والبرغوث والصراصير كانت لي بالمرصاد في الغرفة. بعد مقاومة طويلة لأعصابي استطعت أن أنام.

لما استيقظت في الصباح على ضجيج منبهات الحافلات والسيارات وجدت جسمي مزركشا من آثار العض. خرجت إلى المقهى التي سبق لي أن تناولت بها الشاي مع الجماعة. تناولت الفطور. أشعلت سيجارة. جاء طفل من الجماعة. قال:

-صباح الخير!

جلس. طلب قهوة بالحليب وخبرزا محشوا بالزبدة. سألته عن المستشفى. كاد يشرق من الضحك والقهوة. قال:

-المستشفى؟ هل تظن نفسك في المدينة ؟

قلت:

-وهل تظن أن في المدينة مستشفيات تستحق هذا الاسم ؟ في البلدان المتخلفة، كل شيء متخلف، ولا تختلف المدن عن القرى إلا بالعيادات الخصوصية، أي الخاصة بالأغنياء.

بدا وكأنه لم يفهم. قال:

-أنا رأيت مستشفى في المدينة!

قلت:

-من الداخل أم من الخارج ؟

لم يجب

قلت:

-هل تدلني على المستشفى ؟

قال:

-حالا (وهو يضحك)

ثم أضاف ونحن في الطريق:

-سيعطيك حبات من الاسبرين أو الجبص أو يحقن جسدك بالماء موهما حضرتك بأنه مضاد حيوي، كل شيء يعالجونه بتلك الحبات البيض وبالماء.

قلت:

-وكيف تستطيع أنت أن تفرق بين الدواء وهذه . . . ؟

قال:

-أنا أيضا ذهبت إلى المدرسة مثلك. وكانت تعلمنا فرنسية شقراء تعرف هذه الأشياء. هل تعرف ؟

-ماذا ؟

-لقد خرجت من المتوسط الثاني، القسم الخامس. لكن الذنب ذنبي، كررت جميع الأقسام فطردت. إنما ثق أني كنت بطلا حطم كل الأرقام القياسية، لقد انتقلت إلى كل الأقسام بالأقدمية.

لم أضحك. وتابع وهو يضحك:

-هل تعرف ؟ أنا كنت أريد أن أدرس بجد، وكنت أريد أن أصير موظفا محترما، لكني كنت أسكن مع والدي في المنسية القديمة. . .

-أين ؟

-في المنسية القديمة!

-أين توجد ؟

-على بعد خمس كلمترات من هنا.

-قلت لنفسي: إذن مازال هناك أمل في معرفة المنسية.

وقلت للطفل:

-نزورها في الزوال.

اعترض:

-لا يمكن

-لماذا ؟

-ممنوع

-لماذا ؟

-لست أدري. يقولون أن هناك مرضا خطيرا.

-ومع ذلك نذهب إليها في الزوال.

-كما تشاء.

وتابع:

-الذين يرونني لأول مرة يحتقرونني، أنا مثقف. . . .

وظل يحكي لي عن الدراسة إلى أن سمعته يقول:

-انظر، هذا هو المستوصف.

رأيت رجلا يلبس وزرة ملطخة بالدم والأصباغ يلعب الورق مع رجلين وتحت الطاولة الصغيرة التي يلعبان فوقها الورق زجاجة خمر رخيص.

تمعنت في البناية. غرفة واحدة متوسطة الحجم مبنية من خشب متآكلة لا يشك أحد في أنها من مخلفات المنسية القديمة. وربما نقلت منها إلى هذا المكان للضرورة. فوق باب البناية المشرع راية بيضاء رسم عليها هلال تحته صليب لم يبق منه إلا النصف. غير بعيد من الباب، ولكن بعيدا عن الرجل ذي الوزرة البيضاء وصاحبيه، حمار وأثاث ورجال ثلاثة وامرأتان وخمسة أطفال من البدو يتحدثون بأصوات عالية عن ذنب يغير باستمرار على بيوتهم. غير بعيد من هؤلاء توجد ثلاث دجاجات وديك ربطت بخيوط غليظة إلى البردعة التي فوق ظهر الأتان.

قال الطفل:

–هذا هو الممرض المسؤول عن المستوصف!

وأشار إلى الرجل ذي الوزرة البيضاء. اقتربت من هذا الأخير:

–هل . . . . ؟

أجاب من غير أن يرفع بصره:

–انتظر دورك.

قلت:

–لكن. . . . ؟

رفع بصره غاضبا، ثم غير فجأة، لست أدري لماذا، من حدة قسمات وجهه:

–نعم ؟

قلت وأنا أحاول تهدئة حدة صوتي:

–انظر !

وكشفت على آثار العض في ساقي وصدري.

قال:

-تحتاج إلى دواء، والدواء لا يوجد عندي. انظر إلى هؤلاء -وأشار إلى البدو- إنهم جميعا ينتظرون الدواء، لم يرسلوا إلينا الدواء منذ أسبوع، ربما كانت السيارة معطلة، ماذا تريد مني إذن، أصنعه بنفسي ؟ أجيء به من جهنم ؟

-صف لي دواء أشتره من الصيدلية.

-الصيدلية ؟

وقبل أن يضحك كان صاحباه يضحكان.التفت إلى الطفل. كان يضحك بدوره:

-نعم أشتريه من الصيدلية، هل قلت نكتة ؟

قال لصاحبيه:

-هل سمعتم ؟ هذا الرجل يتحدث عن الصيدلية.

ظلوا يضحكون. لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى لعب الورق وتجاهلوني.

كنت أتميز غيضا. أمسك الطفل بذراعي وجرني بعيدا.

قال:

-لا توجد أية صيدلية بالمنسية، أقرب صيدلية توجد بمدينة الراية، على بعد سبعين كلمترا.

استغربت:

-الراية ؟ قلت: مدينة الراية ؟

أجاب:

-أجل. مدينة الراية. أنت تستغرب كل شيء. ما بك ؟

-لا شيء.

لم أستطع أن أتصور قرية الراية كما جاءت في الحكاية. وبعد عملية الأرض المحروقة، تصير مدينة، مدينة توجد فيها صيدلية. ربما كانت مدينة غير تلك القرية التي تحدثت عنها الحكاية.

قال الطفل:

–كانت الراية في البداية أصغر من المنسية. لكن المعمرين جعلوا منها مدينة أما المنسية....

ولم يكمل إذ أشار فجأة إلى بيت عتيق من طابقين.

وقال:

–أنظر هذه المدرسة، هناك تعلمت.

كان أطفال كثيرون يلعبون أمام البناية، وكان بالباب معلم في حالة اكتئاب يدخن سيجارة.

قال الطفل:

–انظر، هذا هو معلم العربية، إنه هنا منذ أن حول هذا البيت إلى مدرسة، منذ أكثر من عشرين عاما. منذ عشرين عاما وهذا الرجل يعمل بالمدرسة صباحا ويشتغل زوالا بمقهى. إنه تحفة، له زوجتان وخمسة عشر ولدا، الغريب أن أي واحد منهم، من أولاده، لم يحصل حتى على الشهادة الابتدائية، ألا يقولون إن الجزار يتعشى بالعظام ؟

استمر مرافقي يتحدث عن المدرسة، وعن ذكريات أيام الدراسة، استمر يحكي عن أولئك الذين أسعفهم الحظ فصاروا معلمين أو دركيين أو شرطيين أو كتاب إدارات بمدن متفرقة، وعن بعض أولئك الذين حصلوا على منح وسافروا يتابعون دراستهم بمدينة الراية، فبدا من خلال حديثه وكأنه يأسف

مرة ويرثي مرة و يشتم مرة ويغبط مرة. ورغم أني مللت حديثه عن المدرسة وتشاغلت بآثار العض فإنه استمر يحكي كمسجلة:

-هل تدري ؟ كان لي صديق من المنسية القديمة يسكن في حانوت صغيرة مع أربعة من زملائه أولاد المنسية القديمة. كنا نجتمع في الحانوت كل ليلة لنلعب الورق أو الداما أو نحكي عن أشياء كثيرة أو ننتظر أن يصير جاهزا للأكل ما نسرقه من المقاهي أو الحوانيت أو الدور، كان يريد أن يصير دركيا، لكنه تغيب فجأة عن المدرسة هو وأصدقاؤه، وبعد أيام أخذت تتسرب من الحانون رائحة نتنة، فلما فتحناه وجدناهم قد ماتوا لقد نسوا أن يطفئوا جمر الفحم الذي كانوا يستدفئون به أثناء ليالي الشتاء الباردة.

لقد بكيت، لأول مرة في حياتي أبكي. أقول لك الصدق: أنا لم أكن أفهم لماذا يصر بعض أولاد المنسية القديمة وهم جميعا فقراء على المجيء إلى المدرسة ليتعلموا. لقد كانوا ثلاثة أنواع نوع مثل صديقي رحمه الله يكتري حانوتا مع بعض أصدقائه ليستقر قريبا من المدرسة. ونوع يعيش مع بعض الأسر الفقيرة مقابل مساعدة بسيطة. ونوع ينتقل بين المنسية الجديدة والمنسية القديمة قاطعا كل يوم عشرة كلمترات. أغلب أصدقائي كانوا من النوع الأول أو من النوع الثالث. عند النوع الأول كنت أجد مكانا أقضي فيه الليل، وعند النوع الثالث كنت أجد زجاجات الشاي البارد وخبز الشعير. هؤلاء البدو طيبون وطموحون، لكن الواحد منهم رغم محاولاته أن يجتهد ويكد يجد نفسه مضطرا إلى التخلي عن الدراسة أو تكرار الأقسام وإذا استمر متجديا كل ظروفه فإنه يطرد عندما يصل إلى الشهادة الابتدائية أو يقترب منها هؤلاء جميعا لم ينجح منهم في الشهادة إلا أربعة أو خمسة صاروا كلهم رجال درك.

لم أكن أستمع إلا بأذن واحدة لما يقوله مرافقي. كنت متوتر الأعصاب، وكان يضاعف من توتري بحديثه عن هؤلاء البدو بشكل يجعله يبدو وكأنه يرافع في محكمة. حاولت أن أوقفه:

–اسمع يا حبيبي، ليكن في علمك أني لست رئيس جمعية خيرية، ولست وزيرا للتربية، ولست مدير جريدة في المعارضة. هذه الأشياء لا تهمني لا من قريب ولا من بعيد. هل فهمت ؟

لم يقل شيئا. حاولت أن أخفف من تأثير كلامي الجارح لكرامته:

–أرجو أن تفهم أني متعب وأن أعصابي مشتعلة، ثم أنه يجب أن نستريح قليلا لكي نزور المنسية القديمة هذا الزوال. نلتقي هنا في الثانية زوالا.

انتظرت أن يقول شيئا. لكنه هز كتفيه وانصرف.

أنا لم آت إلى المنسية لأسمع منه ما سمعت ولا لأرى ما رأيت. لقد جئت إلى المنسية بهدف محدد. لقد كان أحد أساتذتي يتحدث لنا عن الأبله بإعجاب كبير معتبرا إياه من أقطاب الوطنية والتحرير. وعندما طلب منا أن نقرأ عنه ونبحث في التاريخ لمعرفة تراثنا ذهبت إلى ما يوجد من كتب تاريخنا أسائلها عن الأبله، لكن علماء التاريخ لم يعطوني جوابا وافيا. أعطوني أجوبة متضاربة لا يمكن الجمع بينها. لذلك التجأت إلى الذاكرة الشعبية التي يقولون عنها إنها تختزن التاريخ الحقيقي. حكت لي جدتي ما حكت. وحكى لي جدي ما حكى. لكن أين الحكاية اليقين ؟ أين توجد الحكاية اليقين ؟ يستحيل أن توجد حكاية يقين!

هكذا حسمت الأمر مع نفسي وقررت أن أضع حدا لهذا الفضول الطارئ، فماذا يفيدني أن أقول كلمة في قسم عن هذا الأبله ليقول لي الأستاذ في النهاية:

-أحسنت!

هذه « الأحسنت » التي يقولها للجميع ؟

حتى ما زعمه جدي من أنه المتسول وأننا من المنسية لم يثر فضولي بالقدر الذي يدفعني إلى الرحيل إلى المنسية من أجل التعرف على أصلي.

السبب الحقيق في مجيئي إلى المنسية يرجع إلى أن فتاة التقطت اسمي من ركن التعارف في جريدة ولما بعثت إلي أول رسالة كتبت تقول إنها تحب جمع الطوابع البريدية والأحجار النادرة والرحلات والقصص الغرامية وتبادل الأفكار والصور الشخصية وأنها تسكن بقرية تاريخية تعتز بها هي قرية المنسية. ثم أمضت رسالتها وكتبت تحت الإمضاء عنوانها: رقم خمسة، شارع الأبله، المنسية.

هذا كل ما في الأمر. كتبت إليها ردا فأرسلت رسالة أخرى رفقة صورتها وطلبت مني أن أبعث إليها بصورتي. كانت جميلة بشعرها الطويل وبشرتها التي تشبه لون العسل. لما توصلت بجوابي وصورتي كتبت ملاحظة في آخر الصفحة تقول: هل تعرف أنك جميل؟ ولما أجبت كتبت ملاحظة بأسفل الصفحة: وأنت أجمل امرأة في الدنيا، تبادلنا العديد من الرسائل والأفكار والصور. وذات يوم وجدتني أكتب إليها: أنا الآن على يقين من أنني أحبك، هل يمكن أن نلتقي وأين ؟

تعال إلى المنسية رقم خمسة، شارع الأبله.

جئت إلى المنسية أبحث عن شارع الأبله فلم أجده. قلت لنفسي عندئذ.:

-أبحث عن رقم خمسة وأطرق الباب.

وبالفعل وجدت بابا يحمل رقم خمسة. طرقته. أطلت امرأة عجوز في فمها سيجارة، ثم نزلت وفتحت الباب وأدخلتني بعد أن سلمت علي بحرارة وكأنها تعرفني منذ زمان. تبعتها إلى بيت مظلم قليلا، ففوجئت بوجود سبع فتيات يبدو أنهن لسن جميعا من المنسية.

قالت العجوز مشيرة إليهن:

-هذا كل ما عندنا من بضاعة اليوم، الجمال مقبول كما ترى، لكن المرض غير موجود.

ثم همست في أذني:

-بنات عائلات، كلهن، مازلن تلميذات.

قلت:

-أيهن ياسمين ؟

ضحكت الفتيات ولم تضحك المرأة العجوز.

قلت:

-أبحث عن فتاة اسمها ياسمين.

قالت المرأة ساخرة:

-إن الواحدة منهن تعطيك اسما وتنساه غدا فتعطيك اسما آخر.

قلت:

-آسف، ليس من أجل هذا دخلت.

ضحكت الفتيات. قصدت الباب. لكن العجوز اعترضت طريقي:

-ألا ترينا أولا وجه درهمك ؟

فكرت في الفضيحة. أعطيتها ورقة وخرجت ألعن الأبله وياسمين بينما كانت ضحكات الفتيات تحاصرني فتمنعني من التنفس الطبيعي.

مع ذلك منعني إحساس داخلي من أن أعود من حيث أتيت. مازال هناك شيء غامض يشدني إلى المنسية، وقد ظهر هذا الشيء وراء اهتمامي بأطلال المنسية، غير أنه ظهر أكثر، حين سمعت بوجود المنسية القديمة. فربما وجدت هناك شارع الأبله ورقم خمسة، وربما التقيت بياسمين وتعرفت على أهلها. وربما اكتشفت أن يا سمين واحدة من أفراد عائلتي أو من عائلة الأبله.. هذا هو الشيء الذي أستطيع أن أطلق عليه اسما...

ولكنه مازال يشدني إلى المنسية رغم بق وبرغوث وصراصير نزل الراحة.

وعلى كل حال، فإنه لم يبق لي في المنسية إلا هذا الزوال، والعطلة مازالت أمامي طويلة، وياسمين مازالت تبدو في عيني جميلة، جميلة جدا، تبدو في الصورة ذكية وطيبة ومثقفة وذات شعر طويل كمهرة وعينين تفيضان سحرا وحنانا ورغبة، وبشرة تسيل عسلا.

* * *

قال لي مرافقي:

-تذكر أني حذرتك وأخبرتك أن زيارة المنسية القديمة ممنوعة على الغرباء.

تساءلت:

-ماذا تعني بالغرباء ؟

وأدرك مقصودي فسكت. تابعت:

-إنهم يقصدون بهم الأجانب أولئك الذين يلتقطون صورا لكل شيء في بلادنا وكأنهم يكتشفون جدهم الأكبر المسمى بالإنسان البدائي...

أما أنا فمواطن، ولا شيء من مثل هذا يمكن أن يمنع عن مواطن مثلي.

انفجر الطفل ضاحكا في سخرية:

-أهلا سيدي المواطن، شرفتم يا حضرة المواطن، نعتذر لجاناب المواطن، تفضلوا سيدي، نحن نرحب بكم سعادة المواطن وندعوكم إلى زيارة المنسية القديمة آملين أن تجدوا فيها كل ما لذ وطاب وأن تنال من كرمكم ورضاكم وتفهمكم الشيء الكثير. هل تفضلون التنقل بواسطة الطائرة العمودية أو بواسطة السيارة ؟ الرجل ؟ تحبون الرياضة. طبعا. طبعا. لكننا نضع رهن إشارتكم سيارتنا الخاصة وسيارات الدولة وطائرة قائد المنطقة العسكرية. ويسرنا أن نخبركم بأن هذا المراهق هو الشخص المسؤول عن السرية المكلفة بحمايتكم وضمان راحتكم وأمنكم من كلاب المنسية وضفادع المنسية وبق المنسية وبرغوتها وأفواه المنسية وأيدي أطفالها العابثة بالجيوب والزرع والحيوان والإنسان. وإنا لمستعدون أن نضع بين أيديكم كل حراس المنطقة وكل كتابها وكاتباتها. كما يسعدنا أن نخبركم بأنكم مدعوون للغداء عند ولد الحمراء وللعشاء عند الهندي وللسهر عند زينة وللنوم إن بقيت لكم بقية وقت للنوم عندنا بسكنانا الخاصة. دامت لكم الأفراح والمسرات والعناية وكل عام ونحن على راحتكم ساهرون وعلى أمنكم قائمون ولرغباتكم ملبون ولعهدنا أوفياء. آمين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ضحكت مع ذلك:

-لا شك في أنك تناولت شيئا إضافيا مع طعام الغذاء أو أنك أكلت وجبة جيدة هذا اليوم.

قهقه.حتى أمسك ببطنه وهو يكاد يسقط:

-علبة سراج مع نصف خبزة، سراج جيد وخبزة ممتازة، ولتحيا الصناعة التي تنتج أحذية تحتاج إلى تلميع مستمر، ومرحى للشركات التي

مازالت تعمل على تطوير السراج من حسن إلى أحسن كي يستفيد منها أبناء المنسية. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لم أقل شيئا. سرت إلى جانبه صامتا. لكنه ظل يضرب برجله كل ما يصادفه أو يبصق على أي شيء يراه ولا تصل إليه قدمه. تذكرت حكاية المستوصف:

-هل تدري أنك كنت على حق ؟

-متى ؟

-عندما تحدثت عن مستشفيات المدينة، رغم كل ما يمكن أن يقال، هناك بالفعل فرق كبير.

-أنا لم أغادر هذه القرية وكان ذلك كلاما في كلام.

ظل يضرب الأشياء أو يبصق عليها. تناسيته ورحت أفكر في ياسمين. قالت إنها لا تحب بالفعل تلك الهوايات التي تحدثت لي عنها في رسائلها الأولى، وأنها تلميذة مثلي في قسم البكالوريا. وهي تحب الرياضيات والشعر والفلسفة.

قالت إن صورتي قد أعجبها كثيرا، فأنا في نظرها أملك بنية رياضية كبروس لي، ولي عينان كعيني كلود فرنسوا وشعري مثل شعر كانط، وخطي يشبه خط نزار قباني، وأسلوبي في الكتابة كأسلوب المنفلوطي، وأحيانا كأسلوب جبران خليل جبران، وشفتاي كشفتي فريد الأطرش. قالت إنها صارت تحبني نظرا لهذا الشبه الذي يوجد بيني وبين هؤلاء وأنها لا تحب في الدنيا شيئا أكثر من حبها لهؤلاء الذين تذكرتهم جميعا ودفعة واحدة عندما رأت صورتي. وقالت أنها لهذا السبب بقيت بلا نوم يوما وليلة ولم تعد لديها رغبة في الدراسة إذ صارت حائرة في الإجابة عن هذا السؤال: هل وجدت أخيرا فارس أحلامي ؟

ولما لم تستطع الإجابة وحدها عن هذا السؤال الذي ذكرها بسؤال أبي الهول اندفعت بعد منتصف الليل تطرق باب صديقتها وكأنها مجنونة. فلما أخبرت هذه الصديقة الوفية احتارت الصديقة بدورها في الإجابة. غير أنه من حسن حظها أن أم صديقتها كانت تشتغل قارئة للورق. أيقظت الصديقة أمها وطلبت منها أن تستفسر الورق عما يقوله بشأني. لكن ظن ياسمين لم يخب في. فقد قال الورق ما معناه أني سأتخرج من الجامعة بأعلى الدرجات ثم أصير رب أعمال ناجح ومعروف وأن فتاة شعرها كشعر المهرة ستكون وراء هذا النجاح. وحين سمعت ياسمين ما قاله الورق بكت كثيرا، فسألتها الأم والصديقة عما يبكيها، فقالت:

-أخشى أن يغيره النجاح والزمان وتلعب برأسه الشهرة.

قالت أم الصديقة:

-هذا أمر لا يعلمه إلا الله يا بنيتي وليس من حقك أن تشغلي بالك به.

إلا أن الخوف من هذا الذي لا يعلمه إلا الله قد تسبب لياسمين في مرض الزمها الفراش، فكتبت إلي تسألني: هل تظن أن النجاح والشهرة والمال من الأشياء التي تلعب بعقول الرجال ؟

أجبت باختصار، ولكن بلا تردد:

لا تقدر سوى على تغيير أولاد الحرام وقليلي العهد بالنعمة، وغالبا ما تكون الزوجة هي المسؤولة عن هذا التغير، وبما أنك لست من هذا النوع، فأنا أيضا لن أكون من ذلك النوع.

أخبرتني ياسمين في رسالتها التالية أنها قد شفيت تماما وأنها الآن مطمئنة على مستقبلنا. وطلبت مني أن أتحدث إليها بخصوص الطريقة التي أحب أن تكون عليها رفيقة حياتي لكي تتهيأ للأمر منذ الآن، وطلبت مني بالإضافة إلى ذلك أن أصف لها نوع الحياة التي سنحياها معا في المستقبل بعد

أن وعدتني بأنها ستتحدث إلي بدورها في نفس الموضوع كي يتم منذ الآن التمهيد لحياة سعيدة خالية من التناقض والنفاق. كتبت إليها:

ستكون لنا سيارات كثيرة وخدم كثيرون، وسيكون لنا بيت بالمدينة وآخر بالشاطئ، وفيلا بإسبانيا أو سويسرا وسنسافر كثيرا ونسهر كثيرا، ولن يكون لدينا وقت لنتخاصم. أما زوجتي فأريد أن تكون بسيطة وطبيعية في كل شيء.

أجابت ياسمين:

إذا كنت تحب أن تسافر، وتحب أن تسهر بهذا الشكل، فإنك ستسافر وحدك، وستسهر وحدك، وسأبقى في البيت أنتظر أن تعود كما تفعل النساء بنات الأصل، وأما البيوت فلن نكون في حاجة إلى ثلاثة بيوت ولا إلى خدم، فهذا تدبير لا يقبله عقل، يكفيني بيت متواضع أسهر فيه على تربية أولادي والعناية بهم وبزوجي العزيز، وأما عن صفات الزوجة، فأنا أكره التصنع والتكلف وأؤمن أن جمال المرأة في بساطتها وتواضعها لأنه لا يمكن أن أخدع الآخرين دائما بالألوان والأصباغ التي تزول وتفضح صاحبها مهما طال الزمان.

كدت أطير فرحا. فهذه هي المرأة النموذجية. وكتبت إليها:

يا سمين، أيتها العزيزة.

هل أقول أحبك، ملعونة كل الكلمات لأنها لا تستطيع أن تنقل إليك بعض ما يجيش به فؤادي، يجب أن نلتقي يا ياسمين. . .

إنك حلم حياتي، وصورتك لا تفارق فكري وقلبي، يجب أن نلتقي كي نرتب أمرنا، ونتفق على الأقل على نوع الدراسة في الجامعة. فمتى وأين وكيف ألقاك ؟

أجابت ياسمين:

تعال إلى المنسية، شارع الأبله، رقم خمسة.

* * *

كنا قد وقفنا على قمة الجبل الصغير حين أشار مرافقي بيده اليمنى بعيدا وقال:

-هذه هي المنسية القديمة، هل تراها ؟

على بعد ثلاثة كلمترات رأيت مجموعة من الأكواخ المتلاصقة إلى حد التداخل: خلتها في البداية بيتا واحدا أو مصنعا من تلك المصانع المهجورة التي توجد أحيانا في مثل هذه المناطق.

أحسست في داخلي بنوع من الخيبة. لكنني تذكرت صورة ياسمين وكلامها الجميل وتعال إلى المنسية، شارع الأبله، رقم خمسة. قلت لنفسي:

ربما خجلت أن تذكر لي مقر سكناها الحقيقي، فالفتيات غالبا ما يخجلن من مثل هذه الأمور، وكانت معنا زميلة تخجل أن تقول أن أباها بائع فحم. إنه يتحتم علي إذن أن أكون شجاعا مخلصا لأستحق حب ياسمين.

سألني الطفل الذي بدا متعبا أكثر مما تستوجب سنه:

-هل تستمر أو نعود ؟

قلت من غير أن أفكر في المسألة:

-نستمر!

وتنهد. ثم جلس القرفصاء وأدخل رأسه بين يديه ورجليه وترك جسده يتدحرج كالكرة إلى أن بلغ السفح. وهنا وقف ومسح التراب ثم أشار إلي بأن أفعل مثله. رفضت. نزلت ببطء وحذر. لكنني بعد حين اضطررت إلى الجري. ثم اعترضت طريقي شجرة صغيرة، فسقطت، ووجدتني أتدحرج مثله إلى أن توقفت بين رجليه. كان يغالب ابتسامة ساخرة:

-لماذا لم تفكر في هذا من قبل، لماذا لم تقبله قبل أن ترغم عليه؟ يجب أن تستفيد مني في مثل هذه الأمور، أنا خبير، وليكن شعارك مثلي: ما أنت مرغم عليه افعله برضاك قبل أن ترغم عليه. إنها حكمة قديمة ورثتها عن جدي. هل لك جد؟ أقصد هل مازال حيا ؟

لم أجب فأخذ ينفض التراب الذي علق بثيابي ويحاول مساعدتي على النهوض. لم أتحرك من مكاني، كنت أشتم في سري الأبله والأبيض والشقراء وياسمين على الخصوص.

تابع طريقه:

-تحمل، يبدو أنك لن تعود سالما من المنسية. أنا آسف فقط لهذه الثياب الجميلة التي زينها البق والبرغوث وأتم زينتها تراب الجبل وأحجاره.

-لماذا لا تقوم، هل أصبت بالشلل، إذا شئت نعود. من الأفضل أن نعود.

جمعت جسمي ونهضت، قررت مع نفسي أن أشتمها، أن أصفعها، أن أقول لها: إنك معقدة، زانية، ولا تستحقين أن يحبك رجل صادق مثلي، إن مكانك في المبغى العام وليس في المنسية.

ثم قلت:

لعنة الله على الأستاذ والأبله والأبيض والشقراء وياسمين و... اذكروا موتاكم بخير.

أخرجني الطفل من هذا الهذيان.

-ستعجبك المنسية، لكنك لم تحدثني عن السبب الذي يجعلك تتحمل كل هذا العناء من أجل رؤيتها.

ارتبكت:

-أبحث عن كنز سيدنا سليمان.

-وماذا أيضا ؟

-أريد أن أتعرف على مسقط رأسي، أن أرتبط بأصلي وأحيي معه صلة الرحم.

-لا أفهم.

-أحسن لك.

-جدك مازال حيا ؟

-مات.

-أحسن له، مسكين، والله أحسن له، صرنا مشكلة بالنسبة لأنفسنا، عالة عليها، فكيف نستطيع تحمل مسؤولية الجد والجدة والأم والأب وربما الأخوة أيضا ؟

-هذا لا يهمك أيها. . .

-يبدو أنك لما خلقت شنق المزاح نفسه.

-أيها الولد.

-عدنا مرة أخرى إلى هذه ؟ لماذا تصر على أن تناديني يا ولد ؟ إن الفارق السني بيني وبينك لا يتجاوز الأربع سنوات.

-النضج لا يقاس بالسنوات.

-أراهن على أنك لا تملك رطل نضج مما أملك وأنك لا تعرف ذرة مما أعرف، إذا استثنينا طبعا ما تلقيته بالمدرسة وهو كما تعلم لا يفيد في شيء وينسى بعد مدة قصيرة من تعلمه، بالمناسبة هل الفاعل مرفوع أو منصوب ؟

-اخرس !

-والمفعول به ؟ والمفعول معه ؟ والمفعول فيه ؟ والمفعول بجانبه ؟ والمفعول له والمفعول بقربه، والمفعول بالرغم منه ؟ والمفعول بالنيابة عنه ؟

-قلت لك اخرس.

–والجار المجرور، هل تعرف غير الجار والمجرور ؟ أنا أعرف الجار والمجرور والمجرور به والمجرور له. كلنا جار ومجرور ومجرور به. هل تعرف المجرور له ؟

–السراج خرب عقلك. أرجو أن تصمت.

–ومن يتكلم إذا سكتت ؟ إنك لا تريد أن تتكلم معي. وأنا الصمت يثيرني. لقد صرت مثل الجرو الذي قطع لسانه، أكل هذا لأنك سقطت وتدحرجت ؟ صف شعورك وأنت تسقط وتتدحرج وقارنه بشعور صديقك وهو يسقط ويتدحرج بعدك.

–أرجو أن تصمت. إن الكلام يثيرني.

–وأنا الصمت يثيرني. لكن معك الحق، يجب أن أصمت، فما أنا في نهاية الأمر إلا مرشد، وليس من حق المرشد أن يتكلم مع السياح في السياسة أو يتحدث معهم في أشياء أخرى إن تبد لهم تسوءهم وتكدر صفاء ذهنهم فيمرضون ويستهلكون قسما من الدواء المخصص للشعب، أو يعودون من حيث أتوا، فنحرم الشعب من رصيد هام من العملية الصعبة، بالمناسبة، كيف حال رأسك؟ أقصد آثار العض.

ألا تستطيع أن تصمت قليلا ؟ ألا يتعبك الكلام ؟

–بيني وبينك: الكلام رياضة، وأنا حين أصاب بالملل أو تضيق الدنيا في عيني، أتكلم، أتكلم، وأتكلم حتى لا تبقى كلمة واحدة على لساني. أتكلم في أي شيء، لا يهمني الموضوع، ولا يهمني مع من أتكلم إذا لم أجد من أتكلم معه أتكلم مع نفسي، أتكلم مع الشارع، وقد أتكلم مع شجرة أو حافلة أو سروالي أو مع عود الثقاب...

–وما شأني أنا بكل هذا الهراء ؟

–صدقت، وما شأنك أنت بكل هذه الثرثرة ؟ فما أنا إلا مرشدك وأنت لا تعطيني ثلاثة دراهم في اليوم لأتكلم، ولكن لأرشدك إلى ما تريد أن ترى وتعرف ولأجيب عن أسئلتك بلا أو نعم، لماذا لا تسألني فأكتفي بلا أو نعم ؟

–عن أي شيء تريد أن أسألك ؟

–عن مشاريعي، عن أحلامي، عن أي شيء يخصني.

–هذه أمور لا تهمني. وقد سبق أن قلت لك أني لست رئيس جمعية خيرية أو وزيرا. .

–طيب أنا أقول لك من غير أن تسألني. أنا أوفر كل يوم درهما. وسأظل أقوم بهذا إلى أن تجتمع لدي ما يكفي من الدراهم لشراء مقهى. أقسم لك أنك عندما تعود إلى المنسية الجديدة بعد عشرة أعوام ستجدني قد اشتريت هذه المقهى، مقهى مثل تلك المقاهي التي عندكم في المدينة. وأنا لن أتزوج، سأظل أجمع الدراهم إلى أن يصير معي منها الكثير، ما يكفي لشراء مقهى بالمدينة، حينئذ أرحل إلى هناك وأتزوج وأرسل أولادي إلى مدرسة حقيقية وأدفع المال لمعالجتهم في العيادات الخاصة.

–لن يمهلك السراج إلى أن تحقق هذا.

–السراج، السراج، السراج، تفو. . عندما أصبح غنيا لن أحتاج إلى السراج، هل رأيت غنيا يستعمل السراج ؟

–قلت لك ستموت قبل أن تجمع دراهمك الموهومة.

–لماذا أنت قاس معي إلى هذا الحد ؟ لماذا لا تريد أن تكون صديقا لي؟ إنك قد تحتاج إلى مساعداتي ذات يوم، عندما أصير غنيا.

–أنا لست قاسيا معك، أريد أن تصمت وتريحني، إني لم أعد مستعدا لسماع خرافاتك.

خرافاتي ؟ ألم أقل لك إنك لا تفهم في الحياة شيئا تصور يا سيدي أن كل الأغنياء الكبار كانوا مثلي، انطلقوا من لا شيء:

ولد الحمراء والهندي، زينة. . هل تعرفهم ؟

–لا أريد أن أعرف أحدا، وأحمد الله على أن هذا آخر يوم لي بالمنسية.

–إنك غريب حقا، لا تشبه من هم في سنك، إنك جاد أكثر من اللازم أو تتصنع كثيرا من الجد، ربما لأنك متعب، ربما لأنك من المدينة وأنا من المنسية.

–أرجوك، دعنا نسأل على الأقل عن شارع الأبله.

–أيها الطفل، إيه، أنت، نعم، أنت تعال.

جاء الطفل ووقف أمامنا صامتا كالتمثال. قال مرافقي:

–إسأله، ماذا تنتظر، أن يسألك هو ؟

سأل الطفل:

–هل تعرف شارع الأبله ؟

أجاب الطفل:

–لا

وانصرف. وحين التفتت إلى مرافقي وجدته يضحك. قلت:

–ماذا يضحكك ؟

قال:

–شارع الأبله !

واستمر يضحك. ثم قال:

–هل جننت ؟ هل يمكن أن يوجد شارع في هذه المزبلة ؟ أحمد الله على أني لم أستمر في الدراسة مثلك.

كان كلامه وتوتر أعصابي قد منعاني من أن أكون صورة عن المنسية القديمة ونحن نقترب منها.

تقع المنسية وسط سهل صغير يقع مباشرة بعد الهضبة الصغيرة التي تعقب الجبل. لكن السهل يبدو مهملا، وكأنه لم يحرث منذ سنوات. وما عدا ثلاث شجيرات بالجبل وأخرى تتوسط الهضبة فإنه لا وجود للخضرة بهذه المنطقة، وتظهر وكأنها محروقة منذ أقل من شهر. كل شيء يبدو بين الحمرة والسواد، باهتا، كأن حريقا التهم النبات ولم يستثن غير الشجيرات الأربع.

وما عدا بعض رؤوس الحمير والدجاج والماعز والطفل الذي التقيناه وهو يصطاد عقربا فإن المكان يبدو وكأنه خال من الحياة، كأنه ثكنة عسكرية هجرتها كتيبة ملت انتظار الأعداء. وفي هذا الجو الخانق الذي يصعب داخله التنفس لا بد أن يشعر المرء بانقباض في القلب.

كل المنسية القديمة صف من الأكواخ المتداخلة يمتد على مساحة قد لا تتسع لأكثر من عمارتين متوسطتين، أمام الأبواب نساء وأطفال وشيوخ. يظهر أنه لا أحد مازال بالداخل. وسط البركة الصغيرة المتكونة من الماء المستعمل داخل الأكواخ أو خارجها يوجد أطفال وبط لا يكفون عن الحركة والصياح.

بعض الشيوخ نائمون تقريبا أمام الأبواب. النساء يشتغلن في أشياء مختلفة مثل غسل الثياب وإعداد الطعام أو عزل حبوب القمح ويتحدثن، ومنهم من يساعدون أمهاتهم أو يحملون صغيرا فوق ظهرهم، ومنهم من اكتفى بالجلوس قرب الشيوخ تاركا للذباب حرية أن يجتمع حول عينيه وأنفه وفمه من غير أن يجد القوة أو الإرادة لطرده. تذكرت الدرس الخاص بذبابة تسي تسي التي تتسبب في مرض النوم.

بالإضافة إلى الذباب والخمول فإن أهم ما يثير الانتباه هو بروز بطون الأطفال والنساء بشكل ملفت للنظر.

بعد أن بصق مرافقي مرات عديدة أثارت أعصابي أكثر مما أثارني مشهد المنسية. قال:

-هذا هو شارع الأبله، هل يمكن أن نعرف عمن تبحث ؟

تجاهلته. وتابع:

-نرجو أن يهتم سيدنا بهذه الحشود الهائلة من الجماهير وأن يتشرف برد تحياتها.

كان بعض الأطفال قد اجتمعوا حولنا وأخذ عددهم يزداد بسرعة بحيث شكلنا موكبا حقيقيا.

قال مرافقي في أذني اليمنى:

-سيداتي وسادتي، نحن نقترب من صاحب الحظ السعيد، بعد قليل يصل سيدنا مجنون الأبله إلى ..

قاطعته:

-اخرس!

وسألت الأطفال:

-أين يوجد رقم خمسة ؟

أجاب أكبرهم:

-الأكواخ بلا أرقام، عمن تسأل ؟

ترددت:

-عن ياسمين!

صاح طفل من الجماعة:

-ياسمين !

اعترضت امرأة (ربما كانت أمه)،

-ماذا تريد منها ؟

أجاب الطفل:

-يسأل عنها هذا الشاب.

صاحت المرأة بصوت أعلى:

-ياسمين، يا سمين !

أجابت امرأة من داخل أحد الأكواخ:

-من ؟

رددت المرأة الأولى:

-شاب يسأل عنك.

قال الطفل الثاني:

-اقترب من بيتها.

اقتربت وسط جمع الأطفال وتوقفت عند أحد الأبواب عندما أشار إلي الطفل. ثم خرجت امرأة تتكئ على عكاز.

سألت المرأة:

-من ؟

حدست أنها عمياء.

قلت:

-أسأل عن ياسمين.

قالت المرأة العمياء:

-أنا ياسمين. من أنت وماذا تريد ؟

كدت أسقط من هول المفاجأة. قلت لنفسي: تماسك، تماسك أيها الأحمق.

وقلت للمرأة:

-أبحث عن فتاة اسمها ياسمين، هي ابنة خالتي، جاءت إلى المنسية بعد أن أصيب زوجها بداء السل ونصحها الأطباء بان تصحبه إلى المنسية.

تساءلت المرأة العمياء:

-فتاة ! ؟ لا أعرف فتاة متزوجة !

استدركت:

-أقصد مخطوبة.

قالت العمياء:

-لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

وأغلقت الباب وراءها بعد أن دخلت. قال أحد الأطفال:

-لا يوجد أحد في المنسية بهذا الاسم غير العجوز.

قالت المرأة التي نادت من قبل على أمي ياسمين:

-لا يوجد بيننا من يحمل هذا الاسم غير المرأة التي رأيت.

كان جسمي يتصبب عرقا. تقدم شيخ بعد أن استيقظ فجأة من نومه أو ما يشبه النوم:

-هل أنت على يقين من أنها تسكن هنا ؟

قلت وقد عاد إلي بعض الأمل:

-متأكد، وهذا عنوانها.

تناول الشيخ الورقة، تفحص العنوان قليلا. ثم ردها إلي قائلا:

-ماذا يقول العنوان ؟

قرأت:

-المنسية شارع الأبله، رقم خمسة.

قال الرجل وكأنه يصحح خطأ خطيرا وقعت في ارتكابه:

-هذه يا ولدي دار الأبله المنسية، وهناك، على بعد خمسة كلمترات، توجد دار ولد الأبله المنسية، وعلى بعد عشرين كلمترا من هذه توجد دار الأبيض المنسية. أما المنسية الحقيقية، القرية التي تحمل هذا الاسم، فهي توجد على بعد ثمانين كلمترا من هنا. وإذا خفت أن تتيه اسأل عن المنسية الغربية، فربما كانت هناك منسية شرقية وأخرى شمالية وأخرى جنوبية، ربما كانت في كل مكان منسية. الناس تقول هذا. أما أنا فلم يسبق لي أن زرت غير المنسية الغربية. لقد زرتها مرارا، وأنا على يقين أنه يوجد بها شارع اسمه شارع الأبله، وأؤكد لك أن رقم خمسة موجود بها هو كذلك. خذ الحافلة من دار ولد الأبله صباحا وستصل إليها في اليوم التالي زوالا.

اتكأت على كتف مرافقي وشكرت الشيخ الذي عاد إلى نومه. كان الأطفال يضحكون. اقترب مني أحدهم وهمس في أذني:

-الرجل أحمق، يختلق أشياء كثيرة، مدنا وتواريخ وأناسا.

طلبت من مرافقي أن يسندني. سار الأطفال خلفنا إلى أن اقتربنا من الجبل. لكنهم فجأة أخذوا يصيحون:

-ياسمين، ياسمين، ياشمين، آه ياسمين !

تركني مرافقي ودخل معهم في معركة بالحجارة. أصابني أحدهم في جبهتي. ارتميت فوق الأرض. صاح مرافقي:

-انج بجلدك.

ولما لم أفعل أخذ يركلني إلى أن قمت وتابعت طريقي عبر الجبل تحت وابل من الحجارة. على القمة وقفت ونظرت إلى السفح. مازال يخوض معركة ضد الأطفال: نظرت إلى المنسية. تساءلت: أين توجدين أيتها القرية الزانية ؟

هل صرت كابوسا أو خرافة أو أسطورة ؟ ثم تنهدت:

-وداعا ياسمين !

أستطيع أن أزعم الآن أني صرت أفهم لماذا اختلفت كتب التاريخ بشأن الأبله، ولماذا اختلفت بشأنه الأستاذ وجدي وجدتي. وأنا مدين بهذا لأحمق المنسية « القديمة ».

فربما كان هذا الاختلاف في جوهره اختلافا بشأن المنسية، فلكل أبيضه وأبلهه وشقراؤه، أي لكل منسيته. ولقد صارت لي بدوري منسيتي (كما كانت لأستاذي منسيته ولجدتي منسيتها، ولجدي منسيته): تلك التي توجد بها ياسمين الحلم، تلك التي أعرفها وأجهلها، أحبها وأكرهها. تلك التي أجدها ولا أجدها. لكنني قررت أن أنساها، أن أهجرها كما هجر منسيتهم الآخرون قبلي، لتظل مجرد وشم دام في الذاكرة، مجرد كابوس. أما المنسية التي أوجد بها الآن فهي تمتد أمامي شارعا من الدماء أو العرق أو البرك التي يسكنها الرعب. وها مرافقي مستلق بين كرسي وطاولة بعد أن حكيت له عن المنسية كما سمعت حكايتها من جدتي وجدي وأستاذي، يظل يردد باستمرار سؤالا يبدو أنه يحيره:

-ياسمين ؟ لماذا لا يكون اسمها ناديا أو نورا أو. . . ؟

قررت أن أريحه:

-سمها من تشاء، فماذا تفيد الأسماء ؟

إلا أنه لم يتخلص من السؤال:

-لماذا لا يكون اسمها. . . . ؟

لكنه يسمع صوت محرك سيارة تتوقف فيهب واقفا ويهرب نحو الرجل النحيف الطويل يفتح له الباب قبل أن ينزل السائق ليفتحه لسيده، ثم ينحني الطفل على اليد النحيفة (اليد اليمنى) ويشبعها تقبيلا، ثم يسير وراء الرجل إلى

أن يدخل بيتا من باب كبيرة، فيرجع إلى مكانه لينسى السؤال ويستلقي بين الكرسي والطاولة. تأخذني الحيرة بينما يبدو الطفل مرتاحا.

سألته:

-من يكون ؟

-الهندي!

ويسكت كأن الكلمة كافية لتوضيح كل شيء.

-من يكون الهندي ؟

-ألا تعرفه ؟ وماذا تعرف إذن ؟

-أظن أننا قررنا ألا نعود إلى هذا الأسلوب.

-عفوك سيدي المواطن الكريم، ولد الحمراء يحتكر الأرض، أقصد يملك كل الأرض تقريبا، وأما الهندي فهو الذي يوزع على باعة المنسية المواد الغذائية ومواد البناء والدقيق والبنزين والفحم واللحم. هل تعرف زينة ؟

-من تكون، امرأة ؟

-طبعا امرأة، وهل تعتقد أنها جنية ؟ إنها المرأة التي توزع اللذة والمرح، ولها من القوة والنفوذ والثروة مثلما لولد الحمراء والهندي.

-إذن، هذا هو الثلاثي المقدس: الأبله والأبيض والشقراء، مازالوا على قيد الحياة. أقول أني أخطأت الطريق إلى المنسية، هذه هي المنسية حقا، فلماذا يحاولون تضليلي ؟

-ماذا تعني ؟

-زينة شقراء، أليس كذلك ؟

-كيف عرفت ؟

-إذن هذه هي منسيتك أنت، أنت،أيضا لك منسيتك. لكنك محظوظ لأنك تعرف ثلاثيها المقدس. وهذه منسية جدتي وجدي !

-أرجو ألا تعود مرة أخرى إلى هذه الحكاية. إنها لا توجد إلا في خيالك. وعلى كل حال، فأنا لست مستعدا لمرافقتك إلى المنسية الغربية.

أدركت سخريته. لكني تجاهلتها. وسألته:

-ولماذا أعطيتموني كل تلك المعلومات الخاطئة ؟

-أية معلومات ؟

-عندما سألتكم عن القصر والسد والغابة.

-تعرف أن السياح يجب أن يجدوا كل ما يبحثون عنه. رغبة السائح مقدسة. ونحن مضطرون إلى إرضائها ولو عن طريق الكذب.

-هكذا إذن ؟

-سر المهنة، ماذا تريد ؟ أن نموت جوعا ؟

ضحكت من نفسي وعليها طبعا.

قال:

-يجب أن تكون رياضيا، من ذلك النوع الذي يتوافر على روح رياضية عالية.

وقلت لنفسي:

-معه الحق!

وطلبت قهوتين إضافيتين.

كنا ننتظر الحافة. بعد أن مكثنا قليلا، نظر إلى رجليه المحتقنتين ثم قال:

-إذا كنت محظوظا فإن الحافة ستأتي، ولكني لا أستطيع أن أضمن لك هذا مع ذلك، فالحافلات قد تأتي ملأى من المدن فلا تعرج على المنسية أو

تتوقف بها إلا ليستريح الركاب ويتناولون أكلات خفيفة. أحيانا قد تنتظر طول اليوم فتضطر إلى قضاء ليلة أخرى بالمنسية، بنزل الراحة.

-هل تمزح ؟

-كلا، والله، هناك طريق مختصر يفضله السائقون عندما تكون حافلاتهم ملأى. لا تتوافر هنا باستمرار إلا فرص التنقل بين المنسية والقرى الأخرى، أما بين المنسية وبقية المدن فإن الفرص نادرة.

-كما هي المواصلات داخل المدن طبعا، لكن اطمئن، سأرجع إلى البيت ولو في شاحنة، أما حكاية المنسية الغربية فإنها لا تغريني، ويجب أن تكف عن محاولة ابتزاز دراهمي.

-أردت أن أقول: إذا شئت، بإمكانك أن تنام عندي.

-أين ؟

-في الحانوت مع الأصدقاء.

-أشكرك.

-كما تشـــاء، أنا قلت فقط إنك مريض ومتعـــب، وربما كـــان من الأدبِ أن...

-أشكرك، لا داعي لأن تحرج نفسك.

-كما تشاء

وظهر كمن مس في كرامته فسكت. لكنه نظر إلى رجليه وعاد يقول:

-لم تعطني عنوانك.

فوجئت:

-عنواني ؟

-إيه، عنوانك بالمدينة، قد أكتب إليك. . .

-وبإمكانك أن تأتي عندنا إلى البيت إن أردت

-صحيح ؟

-والله

-أخشى أن تكون مازحا، فهذه الآلام، وهذه التجربة قد تغير جبلا.

-لا. اطمئن. هل تستطيع أن تأتي بقلم وورقة ؟

-طبعا.

ونهض مسرعا يبحث عن القلم والورقة. لكنه عاد وهو يلهث من شدة الجري:

شا. . . شا. . . . شاحنة

وفي غمرة الوداع نسيت أن أعطيه عنواني. تألمت حين أبصرته عبر المرآة يلوح بيده اليمنى وهو يمسك بها الورقة والقلم.

عيــن الفــرس

رأس الحكـــــاية

- ع -

الوقائع الغريبـــة التي سأرويها لكم في هذه الحكاية - ضمنها قصة الولد الرهيب والبنت العجيبة- وقائع حدثت سنة 2081، بإحدى الإمارات الكئيبة. في هذه السنة بالضبط تحول ما كان يسمى من طرف بعض المؤرخين الحاليين «بالوطن الكئيب » إلى إمارات كثيـــرة، انهارت « دول » وتحـــولت « بلدان » عظيمة إلى إمارات بديلة، كما هي حال العمران الذي يصنعه الإنسان ! . . .

وأنا، في الواقع، لست متأكدا، تمام التأكد، من حدوثها خلال تلك السنة بالضبط. وكل ما أستطيع قوله أني أدركتها آنذاك. . . فأنا، سبحان مدبر الخلق، قد ولدت سنة 661، ومت بعدها بعشر سنوات، ثم ولدت سنة 842، ومت بعدها بعشرين سنة، ثم ولدت سنة 1830 ومت بعدها بثلاثين سنة، ثم ولدت سنة 1967 ومت بعدها بأربعين سنة، ثم ولدت سنة 2041، ولا شك أني سأموت، إن شاء الله، بعد عشر سنوات، أي سنة 2091 ! بذلك، إذا حسبتم سنوات حياتي، سيكون عمري، والحمد لله، مئة وخمسين سنة ! أما إذا حسبتم فترات سباتي فإني، والأعمار بيد الله، سأكون قد عمرت قرونا ! . . .إلا أني، في كلتا الحالتين سأكون شيخا ضعيف الذاكرة والعقل والخيال، هرما ميالا إلى الخلط بين التواريخ والأحداث، وكذلك بين المصادر والأسماء، ناهيك عن الزمان والمكان، وعن الباطن والظاهـــر، وعن الحلم والواقع، وعن الحقيقة والوهم، وعن الماضي والحاضر والمستقبل... فهذه إرادة الله في خلقه،

وعلى شباب اليوم المعول في تصحيح مثل هذه الأخطاء التي يقع فيها السلف. وعلى كل حال، فقد أدركني ما يسميه العجم « بالتاريخ » ، سنة 2081، في واحدة من هذه الإمارات الصغيرة الكثيرة التي تشبه رقعة الشطرنج، منظورا إليها من الطائرة، وفي هذه الإمارة وقعت هذه الحكاية.

في إحدى الليالي الممطرات الباردات من تلك السنة وما أقلها خلال مواسيم الجفاف، أمر الأمير، وارث حظه الأميرال أبو السعد بنسعيد، بإحضاري إلى قصره، وكنت إذاك قد اعتكفت، مدة عام، في بيتي مكثرا من الصلاة والصيام والتأمل في أحوال العمران وتبدل بنيانه وفي أصل الطبيعة وألوانه منتظرا أن ألقى الله والجسد قد خفت أدرانه عاملا على استخلاص العبرة من متاعبه وإخفاقاته وأحزانه، ولكن...

أجلسني الأميرال، أصلح الله أمره، بين غلمانه ومؤنسيه من شعراء ومغنيات ومهرجين وعلماء وهو يسألني عن أحوالي فوصفتها له بكثير من العناء والحزن والخوف إلى أن تعب وكاد يغضب فتدخل كبير مؤنسيه،... وكان الأميرال قد أشار إلى إحدى المغنيات فأخذت تعد محاسنه بشكل شديد المبالغة وكأنها تهجوه بينما انطلقت ألسنة الحاضرين بالثناء على المغنية:

–الله، الله !

–لا فض فوك !

–يا سلام !

–يا ليل، يا عين !...

قال الكبير:

–يا غبي، إن الأمير يريد أن يعرف لماذا انقطعت عن مجلسه، فهل لك من حجة تطمئنه أو عذر يعيد الثقة إلى نفسه ؟

استجمعت قوتي، مستعينا بتراث المؤنسين، بعد أن أدركت زلة لساني الذي ألف الخبث والمغامرة من تعاطيه الحكاية منذ زمن طويل:

-أرجو من سيدي كبير المؤنسين أن يشرح لمولاي أني في هذه السن المتقدمة من عمري الذي أتمنى أن يطول في خدمة الأمير- لم أعد قادرا على الإمساك برأس الحية.

-ومتى كنت مروض ثعابين ! ؟

-أعني بالحية الحكاية يا... سيدي !

قال، وهو يحاول أن يسيطر على استغرابه:

-الأمير يريد أن يفهم لماذا لم تعد تأتي إلى مجلسه لتحكي له حكاياتك الطريفة ولا يهمه أن تكون قادرا على الإمساك برأسها أو ذيلها !

قلت، وأنا أجاهد لأتغلب على غضبي واضطرابي:

-يا سيدي، اشرح له، أرجوك، أن الحكايات مثل العفاريت والحاكي مثل الساحر، إذا لم يتقن علمه أو تسرب إليه الضعف تعرض للهلاك وخاب مسعاه.

قال وقد علا اضطرابه على اضطرابي:

-هذا لن يقنع الأمير، وأنا نفسي غير مقتنع به، وقد يشعر مولانا بأنك تقارن قدرتك بقدرته إذ تجعل نفسك محل الساحر، أي صاحب قدرة على أصعب المخلوقات، هذا، لعمري، امتياز خاص منذ القديم، بالأمراء والملوك، ابتداء من سيدنا سليمان وانتهاء بأميرنا العظيم. أما الحكاية، من حيث نسبتها إليكم، فنحن نعلم أنكم لا تحكون إلا ما حكاه قبلكم الكثيرون...

-وما سيحكيه بعدنا الكثيرون...

-فكيف تزعم ما ليس في إمكانك أم ترى تأخر العمر قد أدى بك إلى التخريف ؟

وقلت مستدركا:

-والله ما ادعيت شيئا من هذا، وإنما قصدي أن الحكي يحتاج إلى قوة لم أعد أملكها كاملة، وأما الحكايات فلسنا صانعيها إذ لا أحد يعلم من يصنع الحكاية حقا، ولكننا نجعلها في الحال وكأنها لم تحك من قبل أو كأنها تحكى في زمن لا يتبدل بحيث تبدو وكأنها تحكي لأول مرة ونبدو وكأننا خالقوها !

قال متظاهرا بالفهم:

-لا أظن أن الأمير سيفهم شيئا مما قلت، وأنا نفسي لم أفهمه كله؛ ألا تجد طريقة أسهل !؟

قلت في تعاطف كاذب:

-قد يفهم الأمير إحساسي إن لم يفهم فكري، فأنا كلما هممت بقول حكاية شعرت بالرهبة، كنت في سالف الزمان أحكي وكأني أشرب القهوة المرة، أما اليوم فإني عندما أمد يدي إلى الحكاية لأفتحها أشعر بأني أفتح بابا للدخول إلى بحر الظلمات، أشعر بأن المكان ينهار والزمان. . .

قاطعني:

-يا رجل ماذا تريد أن تقول، أتريد إقناع أمير أم تريد إغراقه ! ؟

كدت أنفجر ضحكا، فهذا السيد يتظاهر بأنه أكبر من الأميرال ويؤاخذني بما يفعل، قررت أن أظل أكبر منه:

-صبرك سيدي الكبير، أفهمه أن الحكاية لا يمكن أن تنوب عن التاريخ ولا التاريخ يمكن أن ينوب عنها، كما لا يمكن أن ينوب العقل عن القلب أو العكس. . .

–ويحك !

–قل له إن الحكاية ليست الخرافة، لا يمكن للمرء أن يتسلى بالحكاية، كما لا يمكن أن يتسلى بالتاريخ، إني تعبت من المساهمة في نشر الخرافة ما دام لا أحد يفهم لأي شيء تصلح الحكاية. . .

–احذر !

–إن الحكاية تجربة الكلي واللا مشروط، قل له. . .

أوقفني وهو يشتاط غضبا:

ترفق بنا وبنفسك أيها العجوز، أتريد أن تحرمنا القوت والحرية ؟...

ألا تدري، يا عدو الله، أن الجفاف أكل الأخضر واليابس ! ؟

تنفست الصعداء:

–والله ما أردت غير خير هذه الإمارة، فقل له ما تشاء، إن لم تفهم بعد أننا في سنة 2081 وأني سأموت بعد عشر سنوات ! ؟

كانت المغنية قد توقفت عن الشدو بمحاسن الأميرال، فنظر إلي وكأنه تذكر سؤاله الذي لم أجب عنه بعد، ولكن الكبير الذي يعرف كل ما يدور بخلد أميره ناب عني:

–خادمكم الحاكي، يا مولاي، يعتذر عن غيابه بسبب ضعف صوته الذي نتج عن تقدمه في السن وتزايد وهنه العام.

قلت للكبير في نفسي:

–تكلتك أمك أيها الجاهل، أبأمثالك يريد الأمير أن يجدد إمارته ! ؟

فنطق الأميرال:

–ضعف الصوت !؟ أدباؤنا دائما متخلفون عنا، إنهم محافظون أو جاهلون بمنجزاتنا العظيمة، نحن أيها الحاكي إمارة تعيش آخر مبتكرات التكنولوجيا، أين كبير المهندسين ؟

وجيء بكبير المهندسين، وهو روسي عظيم الخلقة، فوضع أمي جهازا صغيرا يشبه رأس فرس بعين واحدة، فقال الأميرال:

-الآن يمكنك أن تحكي بدون عناء، تأكد من أن صوتك سيصل، بدون أدنى إزعاج، إلى كل أنحاء الإمارة بفضل عين الفرس هذه !

سخرت في قرارة نفسي من هذا التوظيف العجيب للتكنولوجيا، ولكني أدركت أن التعامل معها كطرفة هو الذي يلزمني الآن، كما يلزم الكثيرين مثلي، من الاستمرار في أداء أدوارهم التقليدية، ولا شك أن الفضل يرجع إليه في بقاء العديد من مظاهر الحياة القديمة !

استعجلني الأميرال:

-متى تبدأ إذن !؟ احك أي شيء، لا يهم إن كنا سمعناه أو لم نسمعه بعد !

كيف أرضي نفسي والأميرال:

أنا لا أستطيع أن أحكي «أي شيء » بل أستطيع إذا قدرت على أن أجعل منه شيئا ؟ دارت في رأسي «عين الفرس »: لماذا لا تكون هذه الطرفة البداية ؟

قلت:

-حاشى يا مولاي، سأحكي لكم حكاية جديدة تماما...

تدخل الكبير هامسا:

-كفاك ادعاء، أتكذب على الأمر ! ؟

فأضفت:

-وإن كنتم قد أنصتم إليها مرارا من غير أن تسمعوها مرة واحدة، فليس في هذه الدنيا، منذ بدايتها سوى حكاية واحدة تروى بالعديد من الصيغ، وقد رويت لكم بعض صيغها من قبل...

نهاني الكبير:

–احذر خبث نفسك يا خبيث، فأنت تحت رحمة إغرائين: خبث الحكاية التي ستبدأ وخبث نفسك المولعة بالخرافة، ويمكنك أن تضيف إليهما خبثا ثالثا: السلطة ! لو كنت مكانك لرحمت ذاتي...

خفت من هذا الكبير الذي بدأ يفهم فجأة، إلا أنه أضاف فاطمأن قلبي:

–هذا ما تسربه إلى نفسك في كل حين، ونحن نعرف أنه جزء لا يتجزأ من تركيب الحكاية وعلى الرغم من أننا لا نفهمه جيدا فإننا نعول عليه في مساعدة الرقابة، أي في تسهيل مهمتنا !

تجاهلت التهديد:

–ليهنأ مولاي وأهله ورعيته بالأمن والسعادة التي تملأ القلوب والبيوت، بالرغم من أن الجفاف يلتهم الماء والهواء، والحمد لله، الذي لا يفنى ولا يموت، على نعمه التي جعلت إمارتكم تشبه الملكوت، على الرغم من كثرة الملحدين، والصلاة والسلام على النبي الذي خلصنا من الرهبوت، على الرغم مما لكم من جبروت، وبعد، فليسمح مولاي بسؤال صغير قبل الشروع في الحكاية:

–ألا يتفضل مولاي فيحصر مدى «عين الفرس» في هذا المجلس العامر، الغوغاء قد تسيء الفهم وتخلط بين الحكاية والواقع !؟

قال ضاحكا حتى ظهر حلقه الوردي:

–نريد أن تعلم كل الإمارة بعودتك إلى المجلس، فأنت كبير حاكينا، لكي تفرح وتمرح بسحر حكاياتك الطريفة وتتسلى كما نتسلى نحن الآن بعد يوم ملئ بالتعب والكد، تابع...

–ما سأحكيه لكم يا مولاي...

قال:

-نعلم أنه خرافة فاحك...

ترددت قبل التظاهر بالموافقة:

-هي كذلك، يا مولاي، ولكن ما سأحكيه قد يكون وقع، وإن كنت لا أعلم متى ولا أين، وإلا فإنه بكل تأكيد سيقع، وإن كنت لا أعلم متى ولا أين !

قاطعني الكبير:

-احك بلا مقدمات...

قالت مغنية لصاحبتها:

-لو يتركونه يتكلم !.

فقالت صاحبتها:

-يستعجلونه لحكي وهو يحكي منذ دخل إلى المجلس !

وهمس الكبير في أذني:

-إنك تخاطب أميرا ومجلس أمير وليس أطفالا !

تدخل الأمير:

-دعه يقدم بما يشاء، فذلك يزيدنا شوقا إلى الحكاية !

قلت مستنجدا بعد أن شعرت بأن زمام الكلام قد يفلت من يدي:

-حفظ الله مولانا الأمير وفتح له أوسع أبواب الجنان، لكل حكاية باب، يا مولاي، والمقدمات درجات العتبة !

حرك الأمير ال رأسه مبتسما علامة على أنه يفهم، إلا أن الكبير همس من جديد في أذني غاضبا:

-احذر نفاد صبره، ثم لا تنس أن كل الإمارة تسمع !

قالت المغنية الأولى لصاحبتها:

–أراهن على أنه سيوقف الحكاية ويبدأ في جمع بعض النقود منا...تماما كما يحدث في «الحلقة» !

قالت صاحبتها:

–لو كنت مكانه لفعلت هذا، على الأقل ليغيض من لا يعرف متى تبدأ الحكاية أو من يريد أن يلتهمها كما يلتهم سندويتشا !

آنئذ أدركت أنه من الأحسن أن أتخلى عن بعض المقدمات الباقية، بالرغم من كونها هامة، وأن أدخل في ما يسمونه «عين الفرس »، غير أن الأميرال سألني:

–ما اسم حكايتك ؟

أصبت بخيبة أمل وقلت لنفسي:

–كيف يمكن أن يكون للحكاية عنوان قبل أن تحكي وما جدوى أن يكون لها عنوان ؟

أنا لا أعرف بعد ما سأحكي....

ولكني خفت من غضب الأمير، من جهة، وتصورت أن العنوان قد يساعدني على الأقل لأبدأ ما لا أعرف بعد، من جهة أخرى:

–الولد الضال والرجل الطيب !

وقرأت علامات الاستحسان على جميع الوجوه فاستعنت على أمري بالسؤال:

–ماذا يمكن أن يحدث بين ولد ضال ورجل طيب ؟

آنئذ تسلل إلى المجلس طيف محمد النفال.

- ي -

لم أصدق، كما لا يمكن لأي أحد ما زال يتوفر على حد أدنى من العقل أن يصدق، ما رواه المهدي السلوقي، بالرغم من أنه أقسم بالله وبالنبي وبكل أولياء الله الصالحين على صحة ما رواه، وبالرغم من أنه ادعى أنه شاهد بأم عينيه ما حدث للطاهر المعزة وزوجته، وبأن ما حدث لهما كاد يحدث له بدوره ويؤدي بحياته هو نفسه مع أنه سباح من أمهر السباحين...

إلا أن في ما حدث جانبا من المأساة أو الملهاة، لست أدري، وفي إلحاح المهدي على أن أحكي ما حدث شيء من الصدق أو الغرابة أو الكذب، لا أعلم، جعلني أستمع إليه باهتمام وأولي الكثير من العناية لما يروي؛ قال المهدي:

-اللعنة ثلاث مرات، اللعنة عشر مرات... مئة... بل ألف...

قلت غضبا:

-مليون، مليار مرة، إذا شئت، ولكن احك، قل لماذا كل هذه اللعنات، ولا تتكلم مثل بعض أدعياء علوم الدين والغيرة عليه !

قال شامتا:

-لاحظ أنك تفعل مثلي، وعلى كل حال، تصمت إذا شئت أن أكون أمينا في ما سأروي، لا تتصرف مثل بعض أدعياء الفكر العلمي الذين يحولون الشك إلى لا أدرية، شك إذا شئت، شك كما تشاء، ولكن اسمع الحكاية أولا، لا

تعتبر نفاذ الصبر رأيا، فالرأي لا يبني على انفعال... هكذا... شكرا... الآن أستطيع أن أسترسل في الحكي !... أولا، لعنة...

-ألمهدي إنك توزع اللعنات كما لو كنت في إذاعة أو مسجد أو مقر حزب !

اخرس، أيها الملحد، أولا، لعنة الله على الفقر الذي يجعل المرء يكذب أو يصدق الكذب ليخدع معدته. . . ثانيا، لعنة الله على الجفاف الذي يخلق الشعور بالفقر أو يضاعفه. . . ثالث، لعنة الله على البطالة وقلة الشغل التي تدفع المرء إلى اختراع شطارة وهمية وتغذيتها بالسخرية من نفسه أو من الآخرين متخيلا أنه بذلك يحقق أروع البطولات وأخلدها... رابعا، لعنة الله على حميد ولد العوجة الذي انتهى من كثرة كذبه، إلى تصديق الكذب على نفسه وعلى غيره، ذلك الولد المعتوه الذي ضل سواء السبيل فأصبح يعتبر الكذب واقعيا حقيقيا !... لا واقع فوقه !...

ضاق صدري:

-يلعن. . . من يلعن مسلما ! يا عزيزي، إنك بهذا الشكل توجه فهمي للحكاية في بعد واحد بينما الحكاية دائما أغنى وأعمق !

انتفض:

-هذه آخر لعنة. . . خامسا، اللعنة، مرة أخرى وإلى آخر الدنيا، على ولد العوجة الذي قتلت كذبته اللعينة الطاهر المعزة وزوجته فطومة !

قلـــت:

-يا حبيبي، ألمهدي، كيف تريدني أن أصمت وأنت تضيع وقتي في بحر من اللعنات التي لا أعرف سببها !

قال مازحا:

-يا أخي في الهم اصبر، فالصبر مفتاح المعرفة. . . آه، ما أضيق صدوركم أيها المثقفون !. . . على كل حال، لقد كانت، والله شاهد، آخر لعنة، لو أنك صبرت قليلا. . . كنت أفرغت قلبي !

قلـــــت:

-احك إذن، آسف !... بل لا تحك، فقد سئمت منك ومن لعناتك، من تماطلك وحشوك لتشعـــر ذاتك بالأهمية، إنك تلعـــب نفس لعبة من تلعنهم، كما هو الشأن بالنسبة للكثيرين من أمثالك، وكأنك تحاول إفراغي لتملأني بما تريد . . . تسيء إلى جوهر الحكاية . . . عليك اللعنة إذن !

ابتســــــم:

-آمين، آمين... لعنة إضافية قد تحول الكم إلى كيف !

فابتسمت بالرغم مني وتابع:

-اللعنة يقطع لساني المقطوع !... سأحكي حالا: استيقظ حميد صباح ذلك اليوم متأخرا كعادته من غير أن يشعر في أي صباح من تلك الأصباح القصيرة بأنه نال حظه كاملا من النوم. خرج يبحث عن فطوره وعن جماعته التي لا تلتقي إلا على ضلال. إلا أنه لم يجد لأصحابه أثرا لا قريبا ولا بعيدا من المدينة. ولما أعياه البحث تملكه شعور بأنهم خانوه وبأنهم حراميون كآبائهم وأمهاتهم إذ حدس أنهم قد يكونون في طريقهم إلى غنيمة عظيمة إن لم يكونوا بصدد اقتسامها فيما بينهم. آنئذ فكر في أن يقضي بقية اليوم أمام دكان صالح الرعدة في مشاكسة هذا الأخير وزبنائه من سكان ومصطافين وصيادين. وهو في الطريق إلى الدكان أحس برائحة العرق النتن تنبعث من صدره كما تنبعث رائحة المدن الجميلة من المزابل العمومية أو من دور الصفيح. إنه لا يعلم لماذا تصور أن صدره مدينة صفيح، ثم تصوره مزبلة عمومية، ربما لأنه كان يعرف هذين المكانين، بعد البحر، أكثر من أي مكان

آخر. يعلم مع ذلك أنه في هذه اللحظة بالذات شعر بالجوع وفكر في سمك البحر. صار في اتجاه البحر يغمره شعور بالقرف، دائما يغمره هذا الشعور إذا أخطأ الطريق إلى جماعته أو أخطأت الجماعة الطريق إليه، ربما لأنه يكون عليه آنئذ أن يتولى أمر نفسه بنفسه يوما كاملا... خلع السروال والمعطف الذين لم يكن يرتدي غيرهما وارتمى في قلب الماء البارد. ترك نفسه تنزل إلى أبعد نقطة في قعر البحر، ثم حرك أعضاءه، وهو لا يزال يشعر بالقرف، فأحس، بعد حين، بخلاياه تتشرح، ثم قرر أن يسبح إلى أبعد نقطة في عمق البحر تستطيع أن توصله إليها ذراعاه... هناك ارتمى على ظهره فوق الماء الذي أصبح ساخنا وأخذ يتأمل السماء وهو يتنفس بعمق وهدوء. ظل هكذا حتى عاد إليه شعوره بالقرف من جديد، فترك نفسه تنزل إلى أعمق نقطة في قعر البحر، ثم حرك أعضاءه التي أصبحت ثقيلة وهو لا يزال يشعر ببعض القرف... ظل يحرك أعضاءه بصعوبة إلى أن أطل رأسه فوق الماء، توقف قليلا ليسترد أنفاسه، بعد أقل من ثانية سمع أصواتا بشرية غريبة، التفت ناحية مصدر الأصوات الذي كان يبدو بعيدا بعض الشيء فلمح سفينة ضخمة راسية وسط الأمواج... كاد يتخيلها شمسا من كثرة انعكاس الأشعة عليها أو صدور ما يشبه أشعة الشمس عنها، وكاد يغرقه الخوف عندما تنبه إلى أن تلك الأشعة الكثيرة لا يمكن أن تصدر كلها عن السفينة، إلا أنه ما لبث أن ربط هذه الصورة بصورة أخرى في ذاكرته: صورة السفينة الاسبانية التي كانت ترسل أضواء باهرة، ذات ليلة، لتجلب السمك والحيتان إلى شبكة صياديها، فظهر البحر تلك الليلة وكأنه سماء مشتعلة بنجوم عظيمة... كانت السفينة وكأنها الشمس حطت في عمق البحر... لم ير حميد من السفينة الإسبانية غير الأضواء، لكن الرعدة، الذي سبق له أن اشتغل في السفن الإسبانية، قبل أن يجمع ثروته الصغيرة ليعود إلى عين الفرس ويفتح دكانا،

قال للذين بهرتهم تلك الأضواء، ومنهم حميد: « تلك سفينة صيد إسبانية اسمها سانتا ماريا ومالكها اسمه سنيور خمنيث برادو، إنه لا يصطاد إلا الحيتان العملاقة». وبهرتهم الأسماء وطريقة الرعدة في نطقها بنفس الدرجة، أو أكثر، التي بهرتهم بها الأضواء... كان عمر حميد، آنذاك، سبع سنوات. أما اليوم فإنه قد تجاوز الواحدة والعشرين. إلا أن صورة مانتا ماريا لا زالت حية في ذاكرته، في عينيه وأذنيه، وكأنها تعود إلى أقل من ثانية... كم حلم، منذ أن تابع الأضواء تختفي مع صيادي برادو، بأن يصير عاملا في سفينة مثل الرعدة وإذا ابتسم الحظ أن يصير مالكا لها فيسميها سانتا دمية ويسمي نفسه سنيور برادو حميد... وكم أقسم بألا يعود إلى عين الفرس، على عكس الرعدة الذي يزعم بأن الحنين هو الذي أعاده إلى البلد، لأنه يعرف، عن طريق أبيه، أن الرعدة لم يعد إلى عين الفرس إلا لأنه طرد من العمل بسبب فضيحة أخلاقية لا يعرف أحد طبيعتها... أما هو فإنه سيعرف، ككل الأغنياء الكبار، كيف يحافظ على أخلاقه الرفيعة !... وحين رأى حميد سانتا ماريا كان الوقت ليلا، قبل صلاة العشاء بقليل، أما السفينة التي يراها الآن فإنه يراها نهارا، قبيل صلاة الظهر. لذلك لم يقدر على الفصل في ما إذا كانت الأشعة صادرة عن السفينة أم عن الشمس ومنعكسة على السفينة، كما لم يستطع أن يميز إن كانت الأصوات منبعثة من السفينة أو من قاع البحر أو من الفضاء، وإن استطاع أن يجزم بأن اللغة التي كانت تصله قد تكون الإنجليزية أو الألمانية أو الروسية لأنها ليست، على كل حال، إسبانية أو فرنسية. لقد كان، مع ذلك، على يقين من شيء واحد: تشابه صورتين، صورة الليل وصورة النهار، بالرغم من أنه لم يكن بإمكانه أن يتأكد من ذلك عمليا. لهذا السبب قرر أن يسبح في اتجاه مصدر الأصوات والأضواء... لكنه لم يفهم لماذا كانت تبقى السفينة، ومهما قطع من المسافات، على نفس البعد منه: هل

تكون الأصوات والأضواء مجرد سراب ؟ هل تكون منبعثة من ذاته، من عينيه وأذنيه مثلا ؟ هل تكون صادرة عن ذاكرته ؟ فضل أن يصدق إحساسه الذي يعلم أنه لم يخنه إلا نادرا... لكن عضلاته بدأت تكل، ودفعه الخوف إلى أن يدرك أن وقت العصر يقترب وأن البحر في هذه اللحظة بالذات يتغير لأنه يبدأ يستعد للدخول في دورته الليلية، وتذكر أنه ينهى نفسه، كما ينهى أصحابه عن الاستمرار في السباحة إلى ما بعد العصر... تفقد الشاطئ فلم تبصره عيناه. لا شيء غير الضباب من جهة والأصوات والأضواء من جهة أخرى، فاشتد خوفه وقرر أن يعتمد على حدسه ليعود من حيث أتى حتى يخبر أصحابه بما رأى وسمع ويقنعهم بضرورة مساعدته على الوصول إلى السفينة لعله يستطيع أن يحقق حلمه في الرحيل... وصل إلى الشاطئ قبل غروب الشمس بقليل ولم يستطع أن يفهم، بعد أن قطع تلك المسافة، كيف ظل مصدر الأصوات والأشعة على نفس البعد من عينيه وأذنيه. مديده إلى الصخرة التي اعتاد أن يستعين بها، هو وأصحابه، على الخروج من الماء أو القفز العالي. أخرج جسمه المنهك من الماء. أخذ يبحث عن سرواله ومعطفه، فأبصر الطاهر المعزة جالسا قربهما وقد غاب بصره وراء أبعد نقطة من الخط الذي تلتقي عنده السماء بالماء. أحس لأول مرة في حياته بما يشبه الحياء أو الحرج في حضرة الطاهر، حاول أن يستغل شرود هذا الأخير ليقترب من ملابسه. إلا أنه فكر على الفور: «هل يكون الطاهر قد رأى وسمع ما رأيت وسمعت؟». قال إنه سيسأله، لكنه تذكر أنه عريان، نظر إلى الطاهر من جديد، كانت عينا الرجل مغلقتين. سحب ملابسه بسرعة، وهو يلبس السروال بعد أن ستر عورته بالمعطف سمع الطاهر وكأنه يتوعده:

-تستحم عريان يا ابن البغي ! ؟

سقط السروال من يديه... لم يصدق أن كلاما مثل ما سمع يمكن أن يصدر عن رجل طيب ومسالم، بل مسكين، كالطاهر الذي لقب بالمعزة لشدة مسالمته، قال إن الكلام قد يكون صدر من فمه هو وليس من فم الطاهر المسكين، فعاد يلبس سرواله ويحزمه حول حوضه. . .

-أتستحم عريان يا ابن البغي ! ؟

التفت جهة الطاهر من جديد. كان الطاهر لا يزال ينظر إلى تلك النقطة البعيدة. استغرب من قدرة الطاهر على النظر بعينين مقفلتين، استنجد بكل قوته لينصرف في سلام، لكن الصوت عاد يسأله:

-أكنت تصطاد سمكا ! ؟

توقف حميد عن المشي بعد الخطوة الرابعة:

-كلا، كنت أسبح !

-كنت تسبح ! ؟

خيل لحميد، فجأة، أن الطاهر يعرف سره، أنه رأى وسمع ما في عمق البحر، وأن هذا ما يجعله غريبا ومستفزا بهذا الشكل، قرر أن يسأله إلا أن الطاهر سبقه إلى السؤال:

-ولماذا أنت خائف ! ؟

فوجىء حميد:

-خائف ! ؟ ... أنا ! ؟ ... ولم أخاف ! ؟ ... ممن ! ؟ ...منك ! .... أنت بمثابة أبي ؟ تصور حميد أن الطاهر يضحك من غير أن يحول عينيه المغلوقتين عن تلك النقطة النائية جدا. إلا أنه ظل حائرا في السبب: أيضحك الطاهر لأن حميدا، ككل أصحابه، يصبح جبانا ووديعا كالحمل في غياب الجماعة بينما هو وقح وشرس عندما يكون معهم، أم يضحك لأنه يعرف أن حميدا يستغفله إذ يحاول أن يخفي عنه ما رأى وسمع ؟ رجح الولد السبب

الثاني حين خلص الرجل عينيه، من غير أن يفتحهما، من تلك النقطة البعيدة واستدار نحوه:

–لقد رأيتك تنزل إلى البحر قبل صلاة الظهر بكثير ثم تعود منه قبيل الغروب وحدك... أين أصحابك ! ؟

عندئذ عادت الحيرة إلى ذهن حميد واعتقد أن الطاهر ربما يكون يهيئ لإهانته أو الانتقام منه بسبب ما لحق الرجل وزوجته من إهانات عن طريق بعض حماقات الجماعة، فحاول أن يستحضر بعض صور جرأته وبأسه حين يكون مع أصحابه لعلها تمنحه القليل من القوة لمواجهة هذا الموقف الحرج، اقترب من الطاهر، في هدوء مضطرب، وقال بصوت لم ينجح في أن يجعله حازما:

–إنك لم تصدقني حين قلت لك إنك في منزلة أبي، مع ذلك ...

فتح الطاهر عينيه. خاف حميد إذ رأى فيهما صورة الأضواء التي رآها في البحر:

–إني جائع يا ابن الساقطة، وأنت قد نزلت إلى البحر باكرا وعدت منه متأخرا، لا يعقل أن تعود بدون سمك... أين السمك ! ؟

أدرك حميد بحاسته القتالية أن الموقف، على عكس ما كان يظن، قد بدأ يقل تعقيدا لأنه أخذ يتخذ مجرى واضحا:

–أعمي الطاهر، إنك، والله العظيم، في منزلة أبي... لو كان معي سمك... أين كنت سأخفيه ولماذا أخفيه ! ؟ أنظر ...

وخلع معطفه وطلب من الطاهر أن يفتشه، لكن الطاهر لم يفعل:

–قلت لك أين السمك ! ؟

كان الرجل ينظر إلى وجه الولد بعدوانية لم ير حميد مثلها على وجه رجل من قبل:

-سأقول لك، لكن شريطة أن تعدني بعدم إفشاء السر ...

خفت عدوانية الطاهر وأخذت ملامح وجهه تستعجل حميدا:

-قل أولا، سنرى فيما بعد إن كان بإمكاني أن أعدك...

حينئذ كان حميد قد بدأ من جديد يسمع ويرى الأضواء والأصوات التي ظلت دائما على نفس المسافة من عينيه وأذنيه:

-تكلم، أين السمك، أين تخبئون السمك يا ...

خطرت للولد الضال فكرة:

-أعمي، أخشى ألا تصدقني إن قلت لك الحقيقة!

قال الطاهر وقد عادت إليه عدوانيته:

-قل وسنرى !

فقال حميد الخبيث:

-أنا لم أعد آكل السمك، أكره السمك، رائحته بالخصوص، وأين السمك هذه الأيام، هو أيضا زهد في الاقتراب من الشاطئ بفعل الجفاف ؟ أنا كل يوم آكل كمية هائلة من البسطيلة !

تصور حميد لعاب الطاهر يسيل ليبلل شفتيه، ثم ذقنه، لكن الطاهر قال:

-تسخر مني يا ابن الجيفة ! تأكل البسطيلة ! ؟

وحاول حميد أن يتابع في هدوء:

-نعم يا عم، في تلك النقطة النائية التي عدت منها منذ قليل توجد أطنان من البسطيلة اللذيذة التي تكفي لأكل عين الفرس عاما على الأقل... إني أذهب إلى هناك كل يوم في نفس الوقت فآكل حتى الشبع ثم أعود. عدني بعدم إفشاء السر أدلك على مكانها !

لم يصدق حميد ما نطلق به، لكن الطاهر بدا يصدق:

-تضحك علي يا لقيط..مشوي هناك... يا ابن الـــ...!؟

انتبه الولـــد الخبيث إلى أنه لم ينطق كلمة « المشوي » إلا أنه فكـــر في استغلالها فيما بعد:

–صدقني يا عم، أنا لم أقل ذلك لأحد غيرك... وعلى كل حال، فأنت حرفي أن تصدق أولا تصدق، لا أحد وضع سيفه على عنقك، أما أنا فإني رهن إشارتك، لأنك رجل طيب ومسكين، لأدلك على مكانها، أنت وزوجتك الكريمة، ولكن أنت وهي فقط، هل تعدني ؟

أصبح الطاهر ككل جائع يسيل لعابه وتستعطف كل ذرات جسمه قوما غلاظا، يتوسطهم حميد، يجلسون حول مائدة فاخرة في فيلا فخمة، واستغل الولد الضال حالة ضعف الرجل:

–في البحر بسطيلة أعمي الطاهر، في البحر بسطيلة، أطنان من البسطيلة، صدقني، فأنت في منزلة والدي، ولولا أن الجفاف قد قهرك ما كنت قلت لك ! ...

–بسطيلة ! ؟ تساءل الرجل وهو يفتح عينيه ويغلقهما.

أضاف حميد وهو يهز رأسه من حين لآخر ليتأكد من وقع كلامه على الطاهر:

–أطنان!

وعاد الرجل يتساءل:

–بسطيلة في البحر!؟... كيف وصلت إليه!؟ من المجنون... وكيف لم تتحلل !

–صدق أو لا تصدق ... ها أنا أفتح فمي ... هاه... شم رائحتها !... أطنان من البسطيلة في البحر، بسطيلة ذهبية اللون كأنها خارجة للتو من الفران! .. إنها لا تبرد ولا تتحلل لأنهم يطلونها بزيت يستخرج من قلب الهدهد !

-زيت من قلب الهدهد ! ؟ عفاريت ! هذا العجب... بسطيلة في البحر ! من رماها، من الأحمق الذي رماها هناك بالأطنان ؟ نسمع عن أناس يرمون الدجاج المشوي واللحم والفواكه، وحتى الأطفال، في صناديق القمامة، لكن لم نر هذا قط بأعيننا في صناديق القمامة، كيف نصدق بوجود البسطيلة في البحر! ؟ هذا شيء عجيب... عجيب جدا !

كان ذهن حميد الخبيث قد توقد نشاطا:

-تريد الصراحة أعمي الطاهر ؟ إني لم أعد أفهم كيف تفكر وأنت الرجل الذكي الذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة مما يحدث في عين الفرس، حتى الهمس تسمعه وتفهمه، فكيف تكون، في نفس الوقت، بمثل هذا الغباء! ؟

وقف الطاهر وأخذ ينظر لحظة إلى تلك النقطة النائية ثم جلس من جديد:

-الغباء، كلنا أغبياء، إنه المشوي، يا ولدي يا حميد، فأنت تتحدث وكأنك لا تعرف ما المشوي!

كان حميد قد نسي المشوي، إلا أن الرجل الذي صمت قليلا أضاف:

-الغباء !... صحيح أنني غبي وإلا كنت فهمت أن عيني مشدودتان منذ الظهر إلى رائحة المشوي في تلك النقطة التي تلتقي فيها السماء بالأرض ! إنك على حق... أنا غبي يا بني... غبي منذ ولدت... ولكنك لم تقل لي شيئا بعد عن الذي رمى البسطيلة في البحر وبهذه الكمية الكبيرة...!

قال حميد:

-المشوي أو البسطيلة ؟

قال الطاهر:

-المشوي... البسطيلة شيء واحد! قل لي يا ولدي من رمى المشوي في البحر بهذه الكميات الهائلة ؟

لم يعد حميد يفاجأ بأسئلة الرجل:

–إنهم الصيادون، صيادون أمريكيون، وما أدراك، أعمي الطاهر، ما الصيادون الأمريكيون، إنهم أغنى صيادي العالم وأمهرهم، فهم يصطادون السمك والحوت باللحم المشوي، يضعون الخروف كاملا في السنارة بعد أن يشووه في أفران خاصة جهزت بها سفينتهم الضخمة التي تشبه المدينة العظيمة، ثم يلقـون بالسنـارة إلى السمك والحـوت، أما البسطيلة فإنهم يلقون بها أطنانـا في الماء لكي يجـروا السمك الضخم والحـوت العملاق، عن طريق رائحتها إلى العض على السنارة، فالسمك والحوت، كما تعلم، لا يأكل البسطيلة، إنهم يقولون إنه يحب رائحتها ويفضلها على كل الروائح الأخرى. . . شعب كبير لا يحب إلا الغنائم الكبرى !

–إنهم شطار وأولاد ناس هؤلاء الأمريكان، كيف عرفت يا بني أنهم أمريكيون ! ؟

هذا هو السؤال الذي لم يكن ينتظره الولد الرهيب:

–تحدثت معهم، فأنت تعرف أننا بفضل السواح المتوافدين على عين الفرس نعرف أشهر لغات العالم أحسن من أبناء المدارس، واللغة الأمريكية أشهر لغات العالم وأجملها وأسهلها على الإطلاق !

ازداد إعجاب الطاهر بحميد:

–عجيب، إنما قوم هؤلاء المريكان !

أضاف حميد:

–ليسوا بخلاء مثل الروس، ولا أنانيين مثل الفرنسيين، ولا فقراء مثل الاسبان والطاليان، ولا معقدين مثل الألمان، ويقال أن أرضهم لا تعرف لا البرد ولا الحرارة المرتفعة، جنة لا يمسها الجفاف. . . إنهم قوم جمعوا كل حسنات الدنيا، وأرفع حسناتهم أنهم يعطون ولا يأخذون، ألا ترى معي أنهم يعطون للسمك والحوت أكثر مما يأخذون منه: مشوي وبسطيلة ؟

غير أن الطاهر لم يرد عليه لأنه كان قد أخذ يبتعد وهو في الطريق إلى بيته، فلم يسمع سؤاله. وقف حميد ونادى بأعلى صوته:

–السر أعمي الطاهر، لا تطلع عليه غير مفطومة !

أشار الطاهر بيده اليسرى فظن حميد أنه يقول له:

–السر في بئر لا يطلع منه من يفشي السر !

لما اختفى الرجل عن نظر الولد دخل الخبيث في نوبة ضحك حتى دمعت عيناه. ثم انصرف ليبحث عن أصحابه ويخبرهم بما رأى وسمع وفي نيته أن يحكي لهم قصة الأضواء والأصوات بكاملها ليستعين بهم على معرفة حقيقة أمرها، وذلك قبل أن يحكي لهم ما حدث له مع الطاهر ليضحكوا ويتندروا بقصة هذا الولد مع الرجل الطيب... بعد العشاء مباشرة خرج يبحث عن جماعته فوجدهم يشربون « عصير الجوارب » غير بعيد من دكان الرعدة... غير أنه لما شرع يحكي تلك المغامرة روى لهم ما وقع له مع الطاهر باعتباره عملا خيريا قام به إحسانا إلى رجل غلبه الجفاف فأصبح غير قادر على إعالة نفسه وزوجته مضيفا، طبعا أنه بمثابة أب له ! وكان قبل هذا قد أخبر أصحابه بأن المشوي والبسطيلة واقع شاهده بأم عينه وأنه مستعد ليدل كل واحد من الجماعة على مكانه ! واستخلص من كل ذلك أن الأمر يهم كل أفراد الجماعة الذين عليهم واجب أن يجدوا طريقة للاستحواذ على تلك الأطنان من البسطيلة والمشوي قصد المتاجرة بها وأن الذكاء يتطلب أن يقوموا بذلك في أسرع وقت، أي قبل أن يعرف الآخرون وبخاصة التجار، موقع الكنز ! إلا أنه، وهو يرتب روايته، نسي أن يذكر لهم شيئا عن قصته مع الأصوات والأضواء بالرغم من أنها ظلت تتراقص في أذنيه وعينيه وبالرغم من أنه تخيل تلك السفينة التي تنبعث منها أو تنعكس عليها تلك

الأضواء والأصوات في صورة امرأة رائعة الجمال لا يزيد عمرها عن الثامنة عشرة، وكان اسمها أجمل: سانتا ماريا !

صباح اليوم التالي بحث حميد عن الطاهر وعن زوجته. لم يكن لديه ما يقوله لهما أو يفعله من أجلهما أو معهما. كان يريد أن يراهما فقط ولو من بعيد. غير أنه لم يجدهما في أي مكان. ظل يبحث ثلاثة أيام متتالية قبل أن يقتنع بأنهما لم يرجعا من تلك النقطة النائية التي تلتقي فيها السماء بالأرض والماء ! خلال ذلك كان أصحابه يصنعون مركبا وكان في نيتهم أن يجهزوه بمحرك لأن حميدا قال لهم أنه سيدلهم على محل يسرقون منه محركا ضخما !

-تعني أن الطاهر المعزة ذهب إلى عمق البحر مع زوجته بحثا عن البسطيلة والمسوي ؟ سألت المهدي.

ابتسم هذا الأخير ابتسامة ساخرة، فلم أشعر بأي غضب تجاهه لأني اعتبرت الابتسامة المتهكمة مناسبة لكي يأخذ نفسه آخذ نفسي بدوري:

-وهل لديك فرضية أحسن لتفسير اختفاء الطاهر وفطومة ؟

فكرت قليلا وبارتباك:

-لا أعرف، حقيقة، لا أعرف، ولكن لا أحد شاهد ذلك بعينيه !

ارتسمت ابتسامته المتهكمة على الوجه بأكمله:

-هذه الأحداث، وأية أحداث مثلها لا يمكن أن ترى بالعين أو تسمع بالأذن كما تشاهد أو ترى أحداث أخرى في الواقع أو في التلفزيون، يحتاج المرء أحيانا إلى أذن داخلية وعين باطنية !

لم أستطع أن أعلق، أضاف:

-وعلى كل حال، الآن بإمكانك أن تشك في ما حدث، أن تعيد ترتيبه إذا شئت أو تضيف إليه بعض التفاصيل من عندك، أما الوقائع فهكذا حدثت، بل بدأت !

ظننت أنه ما زال يسخر مني:

-كيف، أضيف إليه تفاصيل من عندي وأعيد ترتيبه؟ والموضوعية ! ؟

ابتسم هذه المرة بلطف وكأنه يحاول أن يخفي تهكمه:

-الموضوعية هي أنا وأنت، فأنت مثلي جزء مما حدث، ومن الضروري إن لم تكن جزءا حتى الآن، أن تضع نفسك في الأحداث، إذا أردت حقا أن تفهم القليل مما يمكن أن يفهم... هذا ما أعنيه بإضافة تفاصيل من عندك وبإعادة ترتيب ما حدث، فالأحداث تعطى لنا دائما ناقصة وبلا معنى، فبالأحرى أحداث كهذه !

سكت لأني أردت أن أفكر قليلا في هذه الأحداث التي أقل ما يمكن أن يقال عنها إن الكذب أو الوهم قد اختلط فيها بالصدق وأنها من لا شيء أصبحت شيئا وكأن الكذب فيها هو الصدق والصدق هو الكذب واللاشيء هو الشيء:

-تدعي أنك شاهدت شهود عيان ما حدث للطاهر وزوجته، أين كنت ؟

أطفأ ما تبقى من سجارته وكأنه يطفئها في عيني:

-سؤالك بوليسي الصيغة، ولكن لا بأس... الحقيقة أني لم أشاهد ذلك بما تسميه أنت شهود عيان، وإنما رواه لي صديقي الصياد مبارك بوركبة، فشاهدته بعد ذلك... في ما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر . . . بوركبة نفسه لم يشاهد بأم عينه ما حدث للطاهر وزوجته... رواه له صديق من أصدقائه الصيادين فرآه هو أيضا بما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر... من المؤكد أن صديق بوركبة لم يعاين الحدث، وإنما روي له بنفس الطريقة فشاهده كما شاهدته وشاهده بوركبة... من المؤكد كذلك أن لا أحد رأى بغير هذه الطريقة... هذا كل ما أستطيع أن أؤكد لك والبقية يجب أن تأتي من عندك !

بدالي الأمر، كما قد يبدو لكل من يتوفر على حد أدنى من سلامة العقل، أقرب إلى الخرافة منه إلى الواقع المطابق للواقع. كلما أعملت النظر فيه بدا غير قابل لذرة واحدة من الواقعية... كدت ؟ أحسم المسألة بالقول إن كل الأحداث من خلق ذهن المهدي. إن السند الوحيد هو المهدي. ولكن كيف السبيل إلى التأكد من صحة روايته ؟ إنه يعتقد أن الأحداث واقعية ومعقولة بما فيه الكفاية وإلا لما رواها ودافع عنها على الرغم من قوله أنها غير كاملة وتحتاج إلى تفاصيل وإعادة ترتيب لكي تكتسب الموضوعية والمعنى. بعبارة أخرى: إن هناك شيئا صغيرا أو كبيرا، هاما أو تافها، لا أعلم ... لكنه غائب في رواية المهدي: من أين تستمد الوقائع إمكان حدوثها بهذا الشكل ؟ المهدي يذهب إلى أنه يجب أن أبحث عنه في نفسي، إلا أنه لحد الساعة لا يوجد إلا في نفس المهدي، في ذات المهدي وحدها وإن كان يشترك فيه مع ذوات أخرى، بل وأن يوجد في واقع ما، ولكن أي واقع وأين تلك الذوات الأخرى ؟.

-أين يمكن أن نجد صديقك الصياد ليأخذنا إلى صديقه فنسمح منه ما رويت ؟ سألت وكأني نسيت شيئا من الحديث السابق.

-في قاع البحر، وكذلك صديقه، لقد حدث لهما ما حدث للطاهر وزوجته !

ازدادت حيرتي: هل صار المهدي سفاحا ! ؟

-وكيف عرفت هذا ؟

-بما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر ! كل ما حدث في عين الفرس يظهر أني صرت أعلمه بهذه الطريقة الغامضة، يكفي أن يروى لي مرة واحدة، وأحيانا من غير أن يروى، كي أشاهده وهو يحدث... كان هذا في البداية، أما الآن فإني لم أعد في حاجة إلى أن أسمعه من أحد... صرت أراه بما يشبه العين الباطنية وأسمعه بما يشبه الأذن الخفية !

قلت لنفسي: لاشك أن الرجل قد جن !

إلا أنه نشر ابتسامته المتهكمة على وجهه:

-غير أني أتحقق من الواقع فيما بعد !

-كيف !؟

-أبحث عنهم في كل مكان فلا أجد أحدا ... ولا واحد من هؤلاء عاد !

-قد يكونون في سفر أو مهمات خاصة أو مرضى !

لم تتغير ابتسامته:

-سافروا إلى عمق البحر، إلى سانتا ماريا... البغي اللعوب !

أحسست بان المهدي يلعب لعبة غريبة وخطيرة إما بوعي وإما بلا وعي وإما بهما معا، لا شك أنه أصبح سفاحا أو أحمق وأنه يختلق الوقائع الغريبة للتستر على نفسه، وربما يكون ذلك بمجرد شعور حاد بالوحدة ! غير أني لا أملك حتى الآن ما أستطيع تعريته بواسطته:

-إذن لا أحد يمكن أن يشهد على ما حدث ! ؟

انطفأت ابتسامته:

-لا أحد مع الأسف غيرك !

أيتوهم أنه يستطيع أن يصل باللعبة إلى هذا الحد ؟

-ولماذا أنا بالضبط ! ؟

-لأنه لا أحد، جميع الذين حدث لهم ما وقع للطاهر وزوجته لم يرجعوا بعد، ولا أمل في رجوعهم، ولكن هناك من كاد يحدث له ما حدث لهؤلاء فنجا بأعجوبة، أنا من نجا بأعجوبة، أنا الوحيد الذي نجا، وأنت الوحيد الذي سمعني !

تصورت لحظتها أنه يتعمد إضافة عنصر غرابه آخر:

-أية أعجوبة ! ؟

قال وقد عاد إليه بعض الارتباك:

-لست أدري، ليتني أدري، لقد وجدتني فجأة أعود إلى الشط بعد أن اقتربت من موقع المأدبة المزعومة وكأن صوتا عميقا -من داخلي أو خارجي، وربما من عمق البحر أو قلب السماء- يوجهني بالقوة نحو الشاطيء، يجرني جرا خارج الماء، وهذا عين ما حدث لكل الذين كادوا أن يهلكوا فنجوا... مرت بذهني فكرة:

-كانوا موظفين مثلك إذن !

تقلصت قسماته:

-كيف عرفت ! ؟

سعيت أن يتحول إلى مستوجب:

-ليس مهما، كنت تبحث عن البسطيلة والمشوي بدورك!؟

عادت الابتسامة المتهكمة إلى وجهه:

-ربما، ولكني أذكر أني كنت أبحث عن بوركبة !

عدت إلى موضوع الذين نجوا:

-هؤلاء الذين نجو أين يمكن أن نجدهم لنسمع منهم ما حدث ؟

أجاب بما يشبه الحياد:

-في قاع البحر !

-هلكوا أم نجوا، ما هذا التناقض ؟

-نجوا في المرة الأولى، ولكنهم هلكوا في المرة الثانية أو الثالثة، كل من عاود الكرة منهم هلك، وقد عاودوها جميعا إلا أنا... لم أعاود بعد !

-شعرت بالغضب إذ خيل إلي أنه يتصرف بطريقة تجعل منه الشاهد الوحيد، ذلك الشاهد الذي يستطيع تقييم الأحداث ليظل سيد روايته، إلا أني فكرت:

-إذن لم يبق غير شاهد واحد: حميد ولد العوجة، نذهب إليه ونسأله لنتأكد مما حدث، لعلي بمقارنة روايته مع روايتك أقتنع أو أفهم !

ظل محافظا على حالة الحياد:

-فعلت هذا قبلك، ولكن حدث له ما حدث لغيره، أي للطاهر وزوجته قبله، رآه أصحابه يذهب إلى البحر ليأتيهم بعينة من البسطيلة والمشوي حتى يقتنعوا ويذهبوا معه... انتظروه ثلاثة أيام كاملة ولم يرجع...

أضاء أمل لم يكن متوقعا:

-إذن نسأل أصحابه !

لم يتخلص من حياده:

-هلكوا الواحد بعد الآخر وبنفس الطريقة !

-ومن قال لك إنهم هلكوا ؟

-إذن قل إنهم ذهبوا ولم يرجعوا !

حاولت أن أحافظ على الأمل:

-قد يكون مختفيا خوفا في انتظار أن تهدأ الأمور ! ...

أضاف ببعض الشماتة:

-أو هلك خوفا أو انتهى إلى تصديق ما رأى أو اعتقد أنه رآه، قد يكون وجد بالفعل ما رأى، وقد... الله أعلى وأعلم ! أما الأمور فإنها لا تهدأ !

تصور أنه حتى الآن مازال الناس يذهبون إلى هناك ولا يعودون ! أصبح الوضع أكثر غرابة في رأسي:

-كذبة تفعل كل هذا في الناس!

احتج:

-ومن قال لك إنها كذبة !؟ كذبة... الله أعلى وأعلم!

لم يعد أمامي سوى أن أقبل معه أن ذلك لم يكن كذبة، أنه ربما كان كذبة غير عادية، كذبة هي الواقع أو الحقيقة أو تشبه شيئا من الواقع أو الحقيقة، ولكن كذبة بالنسبة لأي معيار: الواقع الذي لا يراه أحد وإلا سمي كذابا ! ؟ لست أدري!

استأذن المهدي وانصرف. إلا أني خلال ما تبقى من الليل رأيتني أقف على شاطئ عين الفرس وأشاهد نزول ثلاثة شبان إلى البحر. انتظرت عودتهم حتى مطلع الفجر فلم يرجعوا. قالت لي أمي التي استيقظت للصلاة.

–لكم تشخر، يجب أن تتوقف عن الخمر والدخان !

هل كنت أحلم ! ؟ ولكن الشمس جعلتني أفتح عيني وأنا أقف على تلك الصخرة المتوسطة الارتفاع والتي قيل لي، ورأيت الشبان الثلاثة عليها، إن الجميع هبط منها إلى البحر ... كانت ثيابي مبللة! والأغرب من ذلك أني خلعت ثيابي ونزلت من ذات الصخرة إلى البحر.. أخذت أسبح في ما اعتقدت أنه نفس الاتجاه الذي قصده الآخرون قبلي... بعد حوالي الساعة والنصف من العوم الذي تخللته فترات استراحة على الظهر بدأت أشعر بقوة عجيبة تقف في طريقي وتسد كل منفذ إلى ما ظننته المكان الذي ذهبوا إليه... لم أستطع سوى العودة، وبسرعة غريبة، إلى الصخرة التي كنت قفزت من فوقها... ارتديت ثيابي وانصرفت بعيدا عن الشاطئ. تذكرت أني موظف في السلم العاشر. إلا أني لم أفهم لماذا كان البحر غير عاد بذلك الشكل أم ترى أن الخوف هو الذي سد في وجهي الطريق؟ لقد جرى كل ذلك في ما يشابه الحلم أو الرؤيا أو التذكر، تماما كما وصفه المهدي، بل إني توهمت أني رأيت المهدي هناك يتجه بدون صعوبة نحو المكان المعلوم وهو يصرخ في أذني:

–ارجع قبل فوات الأوان، إن من يصل يعاود الكرة إذا رجع !

شعرت بخوف مثل الحمى من هذا الواقع –الحلم أو الرؤيا أو التذكر واعتكفت في بيتي يومين متتاليين. إلا أني بقيت أعيش طيلة اليومين ما عشته في اليوم السابق: الناس يتساقطون من فوق الصخرة ! فقررت أن أخرج إلى المقهى لعل تواجدي حيث يكثر الناس يحميني من ذلك الكابوس أو... هذا الذي لم أعد أجد له أسا !

غير أني ما كدت أشرب قهوتي وأبدأ في تصفح الجريدة حتى وقف المهدي على رأسي، طلب أن أمسك لساني وأن أتبعه في حذر، كان متنكرا في ثياب جبلية. حين وصلنا إلى الحديقة العمومية المهجورة توقف تحت عمود ضوء معطل وأخرج بعضا من صفحة من جريدة:

–اقرأ واحذر!

كان من الصعب قراءة الورقة لكثرة الثنايا وانعدام الضوء، سحبها من تحت عيني وأخذ يقرأ: « هذه الأيام، لا حديث للمواطنين، في عين الفرس وخارجها، سوى عن إخوانهم بعين الفرس الذين ينزلون إلى البحر ولا يعودون منه».

نظر إلي لحظة قد تساوي بالنسبة له دهرا وكأنه يسألني في تحد:

–هل صدقت الآن ! ؟

ثم طوى الورقة وأعادها بعناية إلى جيب جلابيته بينما بقيت جامدا لا أعرف ما أقول ثم جاءني صوته، وربما كان صدى صوته، وكأنه آت من أعماق البحر:

–هذا ما تعتقده الصحيفة الوحيدة التي تحدثت عما حدث !

توقف قليلا ليسترد أنفاسه ولكي يتأكد من أني أستمع:

–ولكن تحرياتي الخاصة قد قادتني إلى ما يلي: هناك قوى تستغل جوعنا وقد نذهب جميعا ضحية هذه المؤامرة !

لم أفهم جيدا:

-أية قوى وأية مناورة ! ؟

قال مقهقها:

-حمار، حمار... أنت حمار !

سخرت في محاولة لا نتشال نفسي من الظلمات:

-كفى، كفاك هراء، إلى أين ستؤدي بك هذه الهلوسة ! ؟

صمت إلى أن هدأت:

-إنني على الأقل أحاول أن أبحث، أما أنت...!

وسمعت، بعد ذلك، وقع قدميه وهو يمشي مضطربا فخيل إلي أني أسمع رجليه تخبطان في قاع البحر. تبعته، وأنا أستمع إلى وقع قدميه الذي لم أستطع تمييزه عن وقع قدمي، إلى أن دخل إلي بيته وأتاني صوت المفتاح يدور في الباب.انقطعت عني أخباره ما يزيد عن العشرين يوما وهو عدد الأيام التي كنت أجدني من خلالها كل صباح على تلك الصخرة بشاطئ عين الفرس حيث ظل الناس، خاصة الشباب، ينزلون إلى البحر ولا يعودون منه.

وأنا عائد ذات يوم من تلك الصخرة التقيت بأخيه الأصغر فسألته عن أخباره، قال:

-لم يعد يغادر البيت وقد أضرب عن الطعام والكلام... من حسن الحظ أني وجدتك. لقد أرسلني منذ يومين في طلبك. يقول لك إنه مستعد للقائك بعد صلاة العشاء في نفس الحديقة وتحت نفس العمود.

هناك في الحديقة المهجورة، تحت ضوء قمر باهت، أبصرته يتجه نحوي بخطى ثابتة وعينين باسمتين، ليقف في عيني ويقول:

-في البحر بسطيلة ومشوي، يا محمد، في البحر بسطيلة مفروشة بالمشوي، محشوة بفواكه البحر، في البحر أطنان من البسطيلة اللذيذة التي لا يستطيع أن يراها من مازالت بعقله ذرة عقل !

وعاد من حيث أتى ببطء وهدوء، كان وهو يبتعد يتوقف بعد كل خطوتين ليلحس أصابعه بلذة وشهية عظيمتين، ثم يخطو خطوتين وهو يقهقه، ثم يتوقف ويبدأ يلحس أصابعه...

-لكن كيف شاهدت البسطيلة في البحر ؟

حدست أنه كان سيجيب:

-بتلك الطريقة الغريبة التي تعرف ... إن من يذهب يعاود !

لما اختفى تماما عن بصري علقت صورة أصابعه الطويلة ذات الأظافر الحادة في عيني. ظلت الصورة على هيأتها أكثر من أسبوع إلى أن قررت أن أتحرى ما حدث بنفسي ولنفسي إذ زعمت لي هذه النفس أن ما حدث لا يمكن أن يكون أكذوبة أو خدعة تنطلي على هذا العدد الهائل من الناس، ومنهم من كان آية في الذكاء مثل المهدي ! .

صرت أذهب كل يوم إلى تلك الصخرة لأجلس بجوارها أو فوقها اليوم كله وأحيانا الليل والنهار، أشاهد الناس ينزلون ولا يعودون أو يعود بعضهم ليذهبوا في اليوم التالي ولا يعودون ! وأكثر من مرة في الليلة، منذ أن تعانق السماء البحر ولا يسمع غير صوت أعماق الماء يداعب همس الليل أو صدى أصوات السماء وحركة السمك والحوت، منذئذ، أرى المهدي طالعا من البحر كعمود نار وخلفه كل الذين هلكوا أو غابوا، إن لم يكن هلك أحد، يلحسون مثله أصابعهم الطويلة ذات الأظافر الحادة القذرة.

وذات ليلة أحسست بإغراء البحر فدخلت البيت وأنا أقول لنفسي:

-ما زال أمامـك ما يكفي من الوقـت فـلا داعي للتسرع، قد ينكشف السر !

وجدت ورقة صغيرة بالباب:

-مات المهدي من الصيام ولم يبكه أحد !

ابتسمت:

-بل مات قبل ذلك بكثير، مات حين قر في نفسه، بتلك الطريقة الغريبة أنه يملك ما يشبه السر العظيم أو الرسالة... لا أعرف كيف أصف ذلك !...

واستدركت:

-بل ذهب... ذهب كالآخرين ولم يعد !

ورميت جسدي في السرير وبدأت أصغي وأنظر إلى الأصوات والأضواء التي تملأ البحر:

-هكذا نبدأ الرحلة !

ونمت وأنا على يقين من أني سأركب البحر عما قريب!...

وبعد، هذه يا مولاي هي الحكاية التي وقعت في تلك المدينة البعيدة جدا عن إمارتكم، هذه هي الحكاية كما رواها لي محمد النفال صديق المهدي السلوكي، محمد الذي التقيت به في أحد قطارات العجم والذي بلغني أنه هلك كما هلك الآخرون. حفظ الله مولاي الأمير وأبعده ورعيته عن كل مكروه!

-ن-

لا أيقظ الله أحدا كما أوقظت -ذلك الصباح- وجررت إلى ديوان الأميرال، وأنا لم أنل بعد حظي من النوم ! ...

كانت الحكاية قد انتهت قبيل الفجر في ما يشبه النشوة والحسرة في نفس الوقت، أمر الأميرال إحدى مغنياته بأن تختم الحفل بأحلى ما لديها لكي لا تبقى إلا النشوة زادا لمواجهة النهار. غنت المغنية فأطربت وأسالت غزير اللعاب والعرق. كذلك فعلت راقصة والعازفون. ونودي لصلاة الفجر فاغتسلنا بسرعة وتخشعنا في رهبة ثم تفرقنا في اتجاهات أسرتنا لندخل -كالعادة- ظلمات الليل في النهار... لكن ما كدت أغفو حتى اقتحموا غرفتي، طرحوا زوجتي أرضا وانتشلوني كما ينتشل جنين بينما الأطفال يتصايحون كالخرفان: خمسة رجال كالبغال، كل واحد منهم ينافس الآخر في تطبيق الأوامر بأكثر ما يمكن من الصرامة والخشونة:

-مطلوب إلى ديوان الأمير فورا!

بعد بالغ الرجاء أمهلوني إلى أن أستر عورتي، كانوا يريدون اقتيادي عاريا وكأنهم يبرهنون بذلك على أنهم قاموا بواجبهم خير قيام...

رأيت الأميرال غاضبا مرات عديدة، أحيانا لأتفه الأسباب، إذ يخرج عن هدوئه ويصير أقل من أقلنا حكمة. إلا أني لم أره من قبل في مثل غضب ذلك الظهر:

-أحضروا السم والسياط !

لم يعد لدي شك في أن الأميرال ناقم علي لأمر خطير يظن أني اقترفته:

-السلام على مولاي ورحمة الله وبركاته!

لم يرد السلام، وهو المعروف برد السلام بأحسن منه، ولكنه نظر إلى كبير المؤنسين وعيناه بركانان هائجان:

-بالسياط يقول كل الحقيقة. . . قطرة، قطرة حتى تتساقط أشلاؤه جزءا جــزءا !

أنا الذي تقاطر جسده لذة...حبة حبة...في فم الأميرال!؟ لا يفاجئنك من دهرك شيء !

خرج الأميرال تتقدمه حاشيته وبقيت وجها لوجه مع كبير المؤنسين... لا شك أن الكبير من برج الأرنب الذي يميل نحو الأسد أو الثعلب عندما تنحو الأبراج منحى التمازج، وإلا فما معنى ذلك الشعور الغامض الذي جعله يضطرب وهو يحاول أن يستأسد ! ؟ أحقر ما في الدنيا أن يسقط حر في يد حقير !

-يا سيدي الكبير، أنت لساننا عند الأمير، وأنت أذن الأمير... بدونك لا نتكلم ولا يسمع الأمير أو نسمعه، أفهمني الأمر ! ... أعرف أنك كلفت بأن تصير قدم مولاي، ولكن أفهمني لربما جنبتك تعب الركل !...

-ومن قال لك، يا عجوز، إن في الركل تعبا ! ؟ إنه رياضة... أجلدوه مئة جلدة! ...

أمر الجلاد بالتوقف عند الخمسين:

-رأفة بسنك يا لعين، إذا تكلمت، طبعا... !

خفت من الكلام، فهم لا يريدون منه إلا ما يسلي ويطرب، وأحيانا يطلبون جيده، ولكن إن قلته غضبــوا: ماذا يفعل إذن من لا يطلب منه إلا الكلام ! ؟

-أتريدون حكاية أخرى ! ؟ إني على استعداد تام ولو أن الوقت نهار...

تقمص الأرنب الأسد من جديد:

-تابع أيها الجلاد حتى المئة !

لو أستطيع أن أعرف ما يغضبكم بهذا الشكل!

-يا سيدي، أخبرني، على الأقل، بما جنيت!

بقيت أستعطفه حتى الجلدة الواحدة والسبعين:

-أحقا لا تعرف ماذا جنيت يا رجيم ! ؟

لا يمكن أن أقول له إني أعرف وإلا اعتبر ذلك احتقارا لشخصه العليم:

-أعرف، أعرف... إلا أني أرجو أن يساعدني أحد بالسؤال، إني رجل هرم الذاكرة والعقل، كما تعلم، إن لم تسألوني عن التفاصيل وتساعدوني على تذكرها صعب علي الاعتراف...

-سنساعدك على الفور، تابع جلاد!

يئست وأمسكت عن الاستعطاف، لعلهم تعودوا عليه وصاروا يعتبرونه دليل إدانة... من يدري: لعلهم يجلدونني للتسلية! ؟ ألست الحاكي المسلي من زمان... زمان...!؟ غير أنه أوقف الجلد عند الثمانين وهو يحاول أن يستخرج من الأرنب الثعلب:

-أتريد حقا أن نساعدك بالأسئلة! ؟

لم أعد أثق في أسئلته:

-سأكون شاكرا لكم جزيل الشكر!

استكمل لبس قناع الثعلب:

-وبماذا تساعدنا أنت ! ؟

من أين لي أن أعرف؟ لو كنت أعرف:

-بكل ما أستطيع، بالأجوبة الصحيحة مثلا!

حرك الثعلب أذنيه وكأنه لا يفكر إلا بهما:

–طيب، لنجرب!

أجلسوني على أريكة ومسحوا دمي بسائل زاد جراحي ألما ثم قدموا إلي عصير برتقال وعصير تفاح وعصير موز وعصيرا آخر لم أتبين طعمه لأني آنئذ شعرت بالخازوق ينتصب تحتي:

–أين توجد عين الفرس ؟

يا للسؤال البليد! أيمكن أن يطرح مثل هذا السؤال من كبير المؤنسين! ؟

–لا توجد في أي مكان، قلت لكم إنه في كل الدنيا لا يوجد مكان بهذا الاسم وإذا وجد فعلا فأنا أعرف أن ذلك مجرد صدفة!

هم يظنون أننا نحكي لنتحدث عن مكان معين ونحن نذيب المكان لتكون الحكاية ممكنة:

–نحن على يقين بأنها توجد في مكان ما، وفي مكان غير بعيد عنا! بالطبع، مكان الحكاية، كزمانها، أقرب إلينا من حبل الوريد، ولكن...

–في رأس الفرس، الحيوان الذي اسمه الفرس!

لم أمزح، فقد حاولت أن أكون في مستوى تفكيره، إلا أنه غضب حتى اختلط الثعلب برفيقه، فحاولت أن أستدرك:

–في بيت الأمير، هي الآلة الصغيرة التي في بيت الأمير !

ضحك بخبث بليغ هذه المرة:

–تعرف إذن أنها توجد في هذين المكانين: رأس الفرس وبيت الأمير !

لا بد من إرضائه:

–أجل، ولو أني لم أنتبه إلى ذلك من قبل !

تابع بعد أن اصفرت ضحكته:

–هناك مكان ثالث توجد فيه، هذا بالضبط ما نريد أن نعلمه منك !

ماذا أقول له ؟ لن أكذب فهو يجعل من الكذب حجة ضدي:

–مكان آخر: ثالث ! ؟ والله لا أعلم !

انفجر ضاحكا حتى خيل إلي أن وجه الحيوانات الثلاثة تضحك وراء بعضها البعض: الأرنب، ثم الثعلب، ثم الأسد ! لكنه أوقف ضحكته فجأة:

–إنها اسم سري لإحدى المدن الشاطئية بالإمارة !

لم أصدق طبعا:

–اسم سري لـــ... !

سلط عينيه على وجهي كما لو كانتا مصباحين هائلين:

–تماما، هذا ما اكتشفناه اليوم !

لم أقدر حجم الفرح الذي جعلني أقفز من مكاني وكأني لا أعاني من أي ألم:

–أرأيت، يا سيدي ، كيف تكون الحكاية واقعية أحيانا ! ؟ أنا والله ما صدقت يوما أن الحكاية خرافة أو وهم، كنت أظن أن الحكاية، كهذه التي رويتها لكم، تاريخ أعم وأشمل وربما أدق من كل تاريخ يكتبه المؤرخون اليوم !...

مازالت وجوه الحيوانات ضاحكة وراء بعضها البعض:

–نعرف ذلك ... نحن أيضا !

تصورت أنه لم يفهم جيدا كعادته:

–وها أنت ترى يا سيدي أن هذه الحكاية، حكاية عين الفرس، ربما بفضل الصدفة، كما أظن، وربما بفضل شيء يجري على الدوام، يوجد لها مكان لم أكن أعرف لا أنا ولا أنت ولا الأمير اسمه ...

ظلت عيناه تضيئان كل ثنايا وجهي:

–احذر... ستكسر الخازوق !

انتبهت إلى أني كنت واقفا والأريكة معلقة بمؤخرتي فعدت إلى الجلوس بعد أن أدركت أني ربما أكون في ورطة حقيقية:

-إن ما حدث من معجزات الأمير !

تخلت الحيوانات عن الضحك:

-الأمير يظن، بل نحن على يقين من أنك كنت تعرف من قبل بوجود هذا الاسم، إلا أنك أخفيته عن الأمير !

تذكرت كيف أبصر طيف محمد تلك الآلة الصغيرة التي تشبه رأس الفرس ذات العين الواحدة وكيف قال لي: « سندخل الولد الضال والرجل الطيب في عين الفرس ونجعل منهم حكاية ! » ولكنه لن يفهم:

-يستحيل، يستحيل أن أخفي اسما سريا لأحدى مدن مولاي عن مولاي !

قال:

-هذا شيء ثابت ضدك !

عليك اللعنة يا محمد بعدد المرات التي لعن بها المهدي حميدا:

-تمزح يا سيدي ! ؟... وماذا كان سيحدث لو وقع شيء، لا قدر الله، بسبب وجود هذا الاسم في تلك المدينة؟ ... الأسماء، كما تعلم يا سيدي، قوى خفية كالعفاريت ولا يمكن لمدينة أن تختار اسما، سواء في السر أو العلن، لا تكون له انعكاسات على مصيرها... مثلها في ذلك مثل الأفراد، إن الاسم يؤدي إلى حدوث ما تتطلبه كيمياؤه !

عيناه تملكان طاقة لا تنفذ، بل تتجدد:

-وقد وقعت حوادث من هذا النوع في عين الفرس !

ظننته يمزح، بينما كان يستدرجني بالمفاجآت، فنحن الذين نحكي قد نقول أشياء لا نعلم بها فقط لأننا نتكلم، نحكي... وقد يجد فيها غيرنا ما لا ندري:

-أية حوادث يا سيدي تعني! ؟

غريب هذا الضوء الذي ينبعث من عينيه: هو شاحب في العادة كوجه سمكة مجففة !

-كل الحوادث التي جاءت في حكايتك عن عين الفرس !

مرة أخرى قفزت من الفرح ناسيا آلامي والخازوق:

-ها أنت ترى مرة أخرى، يا سيدي، وبما لا يدع مجالا للشك، أن الحكاية التي تبدو مجرد خرافة قد تتحقق، أنها لا تكف عن التحقق !

لكنه أشار إلى مؤخرتي فعدت إلى الجلوس إذ تذكرت الخازوق:

-وعلى كل حال، فهذه معجزة أخرى من معجزات مولانا الأمير !

الضوء يزداد تجددا وكثافة في عينيه:

-الأمير يظن، بل نحن على يقين من أنك كنت تعلم بوقوع هذه الحوادث قبل وقوعها، أي قبل أن نعلم بوقوعها اليوم !

لأول مرة لم أتمالك نفسي من الغضب:

-أنتم تخلطون بين الحاكي والعراف كما تخلطون بين المؤرخ والمداح...

انطفأت عيناه:

-احذر يا خائن، إنك تشتم الأمير، إنك تشتمه بعد أن خدعته وبعد أن هزأت منه في حكايتك !

عليك اللعنة يا محمد... مليون مرة !... عليك وعلى كل أصحابك... أكلما حكى أحد شيئا من هذه الحكاية سقط في شباكها الرهيب! ؟...

كنت قد عدت إلى الجلوس:

-عيب، عيب أن تخلطوا بيننا وبين مخبريكم... ثم لماذا كل هذا العدد الهائل من المخبرين إن لم تكونوا قادرين علىٰ معرفة ما يجري في إمارتكم! ؟

احتمى وراء عصا الأمير:

-قلت لك احذر، إنك تشتم كل الأمراء!

خفت أن يقول « إنك تشتم الله! ... ».

-أنا أشتم الأمراء! ؟ عيب يا رجل، إني لا أقدر على شتم واحد من اعوانهم فكيف أشتم كل « الوطن الكئيب »! ؟

كان الأمير قد دخل:

-لقد اعترف، يا مولاي، بخيانته العظمى لكم وصدق حدسكم العظيم فيه، إنه يهزأ بكم ويخدعكم، ولقد شتمكم في آخر التحقيق!

حاولت أن أحتج، أن أبين حقيقة الأمر، أن أقول... قال الأمير الذي بدت صفحة وجهه كالبحر الهائج حين يرى من بعيد:

-أمرنا، نحن الأمير وارث حظه أبا السعد بنسعيد، بما يلي:

أولا، عزل عين الفرس عن بقية مدن وأنحاء الإمارة إلى أن تطهر.

ثانيا، تكميم فم حاكينا الأسبق، محمد بن شهرزاد الأعور، ونفيه إلى عين الفرس.

ثالثا: يقضي محمد بن شهرزاد الأعور، في عين الفرس مدت تسعين يوما مكمما معلقا السم في عنقه، ثم يحمل إلينا، بعد انقضاء هذا الأجل، ليتجرع السم في حضرتنا.

رابعا، يمنع حضور الحاكين في مجلسنا ابتداء من هذا اليوم.

وخرج الأمير تتبعه حاشيته بينما بقي كبير المؤنسين والجلاد. كنت مطرقا، وكذلك كان الجلاد، بينما كبير المؤنسين ينظر إلي بعينين لم تعودا تبصران شيئا، فرفعت إليه نظري أسأله:

-بربك قل لي: كيف خدعت وهزأت وشتمت! ؟

اشتعلت عيناه من جديد:

-أجل، خدعت وهزأت وشتمت أيها الصعلوك !

مازال يبالغ إذن في ممارسة دوره:

-وكيف ذلك يا سيدي! ؟

حاول أن يجعل صوته أكثر خشونة:

-كيف! ؟... أما الخداع فثابت من إخفائك الاسم السحري لتلك المدينة اللعينة وعدم إخبار الأمير بالوقائع قبل وقوعها!

أشفقت عليه:

-ولكنا لا نحكي إلا لنخبركم بما يقع أو وقع وإن كنا لا نعلم أين ولا متى وقع أو يقع ونشير إلى ذلك في مدخل كل حكاية أو نهايتها...

يا ولد العوجة... يلعن!

-وأما الهزء فواضح من أنك رويت له حكاية أبطالها صعاليك مثلك...

يا محمد... تضحك يا ابن العانس!

-ولكن هؤلاء الذين تسميهم الصعاليك، يا سيدي، أكثر خلق الله معاناة وأغربهم رؤوسا وقلوبا وأحسن ما يتسلى به أمير أو سيد مثلك...

خرج الكبير بعد أن أوصاني بالصبر وحسن السيرة:

-ربما يعفو عنك الأمير بعد توبة نصوح !

أردت أن أقول له: « قل لمولاي الأمير: أنا لم أشهد حدثا واحدا من تلك الحوادث التي وقعت في تلك المدينة التي لم أكن أعلم، والله، بوجودها من

قبل.. كل ما في الأمر أني لم أجد ما أحكيه لكم، والدليل على هذا محاولاتي لإطالة المقدمات وتنويعها، ولكن رغبة الأمير لا ترد... وبينما أنا على تلك الحال إذا بالرجل الذي اسمه محمد النفال يدخل إلى المجلس ويجلس بجواري، يقول لي: تذكر، لقد التقينا في أحد قطارات العجم وحكينا لبعضنا البعض حتى صرنا أصدقاء... ثم يهمس في أذني ما حكيت لمولاي الأمير ! »...

لكنني كنت آنئذ في الكيس الذي أمر الجلاد بوضعي داخله قصد إلقائي ليلا في شاطئ عين الفرس... والكمامة حول فمي !

وفي الكيس قلت أيضا، ولكن لنفسي:

-الحمد لله على أن الحكاية انتهت بهذا الشكل: لو اكتشفوا أني لم أعد أقدر على الحكي، بعض الشر أهون من بعض !

آنئذ ظهر طيف محمد النفال من جديد:

-الحكاية لم تنته بعد يا ابن شهرزاد !

فأخذت ألعن وألعن وألعن... وهو يضحك !...

الذيل والتكملة

- ع -

«عين الفرس » مدينة شاطئية صغيرة مرتفعة قليلا عن سطح الماء، في شكل هضبة تناثرت البيوت البيضاء الناصعة على جهتها المطلة على البحر، بحيث تبدو للناظر إليها من جهة الشاطئ وكأنها تتدلى، مثل باقات من الورد الأبيض، من عنان السماء. ولأن السماء تختلط بالبحر، بالنسبة للناظر إليها من إحدى الهضاب الأقل ارتفاعا الملتصقة بها، فإن المدينة تظهر آنئذ وكأنها البياض الذي يربط بين عمق البحر وارتفاع السماء، كما لو كانت جبل ثلج عظيما يشكل سلما يصل بين ما تحت وما فوق وما حول...

وعلى كل حال، فهذا هو انطباعي الأول عن تلك المدينة... لقد أخرجني بعض الصيادين من الكيس، ولما رأوا حالي رقوا لي ونصحوني بأن أبحث لي عن مكان، في الدور المهجورة أو مخازن السمك أو المغاور، أستقر فيه إلى أن تفرج. تركتهم ورحت أقطع الشاطئ طولا وعرضا مرات عديدة محاولا أن أملأ نفسي بهذا الفضاء الجديد، ثم صعدت إلى الهضبة التي تحمل البيوت فإذا بها تبدو لي، وأنا في منتصف الطريق، وكأنها عناقيد من الورد الأبيض، ثم كالزربية الهائلة الناعمة إذ صرت وسط البيوت... طفت بجميع الأزقة والبيوت والمحلات وكدت أتوقف عند كل بناية أطرق بابها وأسـأل عن أصحابهـا. ثم جريت نحو الهضبة الزرقاء – وهي واحدة من تلك الهضاب الخمس الصغيرة التي تظهر كسوار تحمل المدينة – ثم نحو الهضاب الأربع الأخرى، وكنت أجلس على قمة كل هضبة أتأمل «عين الفرس » التي بدت

لي –من جميع هذه القمم الخمس– كما لو كانت سفينة بيضاء بين زرقتين صافيتين... وذلك إلى ما بعد العصر بقليل. ثم عدت إلى الأزقة والمنازل والمحلات أتفحصها فتبين لي– بما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر– أني أعرف الكثير منها ! ولقد فوجئت بالناس يحيونني ويذكرون اسمي وكأني واحد منهم، وكثيرا ما كنت أسمعهم يحكون لبعضهم البعض قصتي معلقين على ذكري –أو مجرد رؤيتي– بعبارة قصيرة من نوع « هذا هو الرجل الذي توهم بأنه صديق الأمير ! » أو « لم يعرف المسكين أن السلطة لا تحتاج إلا إلى خدم !» و« دارت الآلة والمغفل عنها غافل !» أو«أنه رجل غلبه لسانه !» الخ...

وجدتني إذن أرد تلك التحيات بأحسن منها... فاكتشفت أني أستطيع أن أتكلم: كانت الكمامة متقوبة ! وأخذ رد التحيات يجرنا إلى الحديث عن تلك الوقائع الغريبة، فلم أستغرب من أن يؤكدوا لي جميعا أن الوقائع كلها حدثت بالفعل كما رويتها تلك الليلة وإن أضاف الكثيرون أنها تجري كل ليلة ! ... كنت أصف وأنا أتصور أن محمدا يختلق ليجعلني رواية خيالية وينقذني من غضب الأميرال الذي كان سيكتشف أني لم أعد قادرا على الحكي !...

إن ما يدعو للغرابة حقا، في موقف هؤلاء الناس مني –هو نظرتهم إلى الكمامة: لم تثر لديهم أي تعليق وكأنها أمر طبيعي ! على عكس ذلك الأنبوب الصغير الذي كنت أضعه بثقب الكمامة كلما أردت أن آكل أو أشرب شيئا:

كانوا يضحكون بهستريا كلما أخرجت الأنبوب من جيبي ! غير أنه كان لهذا الأنبوب الفضل في نسيان الوقائع بعض الوقت. ذلك أنهم صاروا يضحكون كلما رأوني، ولو بدون أنبوب، فلم يعد بإمكاننا الحديث عن تلك الوقائع ! أضف إلى ذلك أني صرت أمنع نفسي من الكلام فيها كلما تذكرت

أني منفي، فصارت عوامل المنع أربعة: ذلك الأمر بالنفي، والكمامة، والأنيوب، وقارورة السم التي لا ترى تحت الجبة، ناهيك عن تذكر المآسي !

أما محمد النفال فإن طيفه اختفى إذ أكثرت من لعنه: مرة جلست في مقهى ولعنته مليار مرة !

مع اقتراب الليل كانوا يدعونني للنوم عندهم، ولكني فضلت خلال الليلة الأولى التي قضيتها هناك أن أنام في الشاطئ لعلي أسمع الأصوات وأرى الأضواء اللعينة أو أشاهد شخصا ينزل إلى البحر ولا يعود منه ...

لم أسمع سوى أصوات البحر ولم أر سوى الأضواء ومراكب الصيادين تذهب أو تعود كما تسمع الأصوات وترى أضواء المدن ومراكب الصيادين في كل مدينة شاطئية... أشياء عادية جدا !

ولم تمض الأربع والعشرون ساعة حتى كنت ملأت نفسي من هذا الفضاء العادي جدا، جدا... ما عدا جماله !

- ي -

لم يتجدد اهتمامي –فيما بعد– بقضية « ضحايا » البسطيلة المفروشة بالمشوي والمحشوة – كما يمكن أن أتصور – بكل ما لذ وطاب – كما قلت –إلا بفضل الصدفة – فيما أعتقد – أو فضول أخذ يتطور – والله أعلم – بالرغم مني...

فلقد وجدتني –إثر التطورات الخطيرة التي عرفتها تلك الحكاية بفعل عوامل كانت أقرب إلى المصادفة واللامعقول منها إلى المنطق والواقع وبسبب نتائج هذه التطورات في الواقع وفي حياتي الشخصية المتواضعـــة الهادئة، على الخصوص، ونتيجة لكل ما تعلمون، فأنا لا أقدر على تذكيركم بكل شيء –ألتجئ– تحت تأثير ذلك النوع الخفي من الدوافع الذي كان يحرك الحوادث – إلى بيت الطاهر وفطومة لأستقر فيه من غير ما اعتراض– حسب علمي وقدرتي على العلم– من طرف أهل عين الفرس... حتى أنني –خلال المدة القصيرة، بل الدهر، التي قضيتها بينهم باعتباري غريبا عنهم ! –شعرت– أو هكذا خيل إلي – بأنهم يعاملونني كواحد منهم وبأنني– وقد أكون مخطئا في هذا التقدير– أعاملهم معاملة مختلفة–تمام الاختلاف– عن تلك التي كنت أعامل بها جيراني في المدينة الكبيرة !...

ولقد حاولت تبرير هذا التغير الذي طرأ على مزاجي برده إلى أن الواحد منا –والواحد هنا بكثير من التجاوز لأننا إنما نكرر بعضنا البعض – يعيش في المدينة الكبيرة– والأحسن تعبير القرية الكبيرة– تحت رحمة العديد

من المنبهات التي تحيله -في كل ثانية أو أقل- من حالة إلى حالة -من غير أن يعي ذلك أو يكون لديه الوقت- وهو عادة لا يفعل شيئا -ليشعر بها شعورا كافيا... إضافة إلى أن كل أفراد المحيط يعانون هذه التغيرات العاصفة بأمزجتهم -إذا بقيت لهم أمزجة- إلى حد أن كل واحد منهم -الواحد هنا مثل الحلقة في سلسلة- يساهم في نقل العدوى إلى الآخر والرفع من درجتها حوله -وحوله مهيأ- بحيث لا يجد هؤلاء الناس عند بعضهم البعض إلا العداء ونفاذ البصيرة والصبر: ليتأمل المرء « حركة » السير في إحدى المدن -القرى الكبيرة !...

أما في «عين الفرس » فعدد السيارات يفوق عدد السكان أعني عدد البيوت، ولكن الغالبية العظمى من السكان في الخارج -والخارج هنا أقرب من البحر والنفس التواقة إلى الماء بفعل تناقص الهواء- ولا شيء يزعج إلا سرعة بعض السيارات والهرج الذي قد يحدثه الكلاكسون- لدى الكثير من الراجلين الذين يصرون على احتلال قارعة الطريق-... أما الباقي فلا فرق فيه بين القرى الكبرى وما يسعى بالمدن، إلا أننا في البداية نميل إلى إدراك الاختلاف: تماما كما يحدث لنا مع بعض الناس قبل أن يصيروا مثل الآخرين، نسخا طبق الأصل !... لا شك أنه كان بإمكاني أن أدفع التحليل، وكذلك المقارنة، إلى أبعد من هذه الدرجة، ولكني اكتفيت بها لأنها كانت كافية لإعطائي تبريرا لحالة الهدوء النسبية التي سادت علاقتي -في بداية الأمر- مع أهل عين الفرس، ولأني -كما أستطيع أن أتصور -لم أكن في حاجة إلى أكثر من هذا القدر من الفهم لاستيعاب تلك الحالة حتى لو كان الفهم مجردوهم!... وبطبيعة الحال، فإن هذا الفهم كان شبيها بانطباع سائح غربي يحل ببقعة من الشرق، وكأنه يعكس رغبة أو حاجة بداخلي أكثر مما يعكس واقعا، وكان دوامه إذن مرتبطا بمدى قدرتي على الاحتفاظ بعدم التصادم بين

تلك الحاجة وما يسميه الناس بالواقع. غير أنه معروف أنه لا أحد يقدر على هذا الأمر دائما، إضافة إلى كونه غير مطلوب على الدوام لأنه إذا تمكن من النفس أدى إلى ما يشبه البله أو الجنون إن لم يؤد إلى بله أو جنون حقيقيين !... إذن كان علي أن أقاوم على واجهتين متناقضتين خوفا من هذا البله أو الجنون، ولكن... هكذا بدأت علاقتي بعين الفرس الفعلية-الفعلية أو الخيالية! ؟- وأنا أخشى أن أكون مخطئا أو مبالغا في تقدير تلك العلاقة - لسبب أو لمجموعة من تلك الأسباب التي تدفعنا أحيانا إلى الشعور بالأمن في مكان أو حضرة إنسان معين أو جماعة قبل أن نكتشف زيف مثل هذا الشعور، ناهيك عن كون كل علاقة أولى بأي شيء من الأشياء، علاقة خادعة في أغلب الأحيان... ناهيك عن إمكان اختلاط الواقع بالحكاية، عن إمكان تحول الواقع إلى ذيل للحكاية أو العكس ! ...

على كل حال، كانت علاقتي بهذه المدينة الصغيرة علاقة صدفية، وهذا سبب كاف وحده للشك في طبيعتها... علاقة مختلفة عن علاقتي بأهل المدينة الكبيرة - العاصمة- وهذا سبب ضروري لعدم لاطمئنان إليها... فقد منحوني - وأنا الغريب الطارئ- بيتا بعد أن شردت، وعوضوني عن أهلي -وأنا خادم الأميرال - بعد أن تخلى عني أهلي خوفا من بطش السلطة، وحموني من تعسفات أعوان السلطة -بعد أن كنت واحدا من هؤلاء- وكأني ابن عم لهم... أبعد كل هذا أطمئن إلى هذه العلاقة ولا أشك فيها! ؟ صحيح أن كل المشاكل التي تعرضت لها كانت بسبب وقائع عين الفرس، ولكن ما دخل أهلها؟ هل يحق لي أن أخلع التهمة عن الوقائع، عن نفسي عن شيطان الحكاية، لألصقها بالناس الأبرياء -الضحايا- المتورطين! ؟ هل أستطيع أن أتدرع بكون الناس يصنعون الحوادث لأحملهم مسؤولية ما وقع لي بسبب هذه الحوادث؟ أيصنع الناس حقيقة مثل هذه الحوادث في زماننا؟ ألا يعانونها كما أعانيها الآن ؟ وأنا

... هل أعانيها بالفعل، ألم يكن لي أي دور في صنعها، ولو عن طريق هذه المعاناة ذاتها ؟... لقد تنكرت نفسي لنفسها... حين صرت مثل الأحمق بفعل اهتمامي غير العادي، وغير الإرادي في الظاهر، بتلك الوقائع الغريبة... ولكن، ألم أكن أريدها، ألم أكن أريد كل هذا الذي حدث، ألم أكن أبحث عنه وأسعى إلى تحقيقه بشكل من الأشكال بحيث لم يقدم لي ما حدث –عن لسان محمد– سوى الظروف التي شكلت المناسبة الملائمة للبدء في تحقيقه! ؟ ألا نحقق ما نحلم به أو نريده... وكيف أبرر حكايته أثناء وقوعه من غير أن يخبرني أحد بأنه كان يحدث فعلا قبل وأثناء روايته! ؟ أحيانا –وأنا أفكر في هذا السر– اللغم –بهذا الشكل– أشعر بأن مصائرنا بداخلنا وأن ما نسميه القدر–أو الصدفة– يوجد في أعماقنا وأننا نقضي عمرنا في البحث عن الظروف الملائمة لتحقيقه... كل الأشياء الغريبة –النافعة والضارة– التي تحدث لنا تأتي من داخلنا... الآلهة! ؟ من قــال إنها توجــد في داخلنــا، ولكنا اضطررنــا إلى جعلها في الأعالي، إلى رفعها إلى أبعد ما نستطيع لأننا لا نملك من المعرفة والإرادة ما يجعلنا قادرين على حملها وتحقيقها في ذواتنا ومن ذواتنا، لأننا تبدو أصغر على حمل كل تلك القوى الهائلة التي تسكننا! ؟ أستغفر الله العظيم !... أغرب ما في الإنسان أنه يتقدم بهــذا الشكل العظيم في تحصيل مختلف المعارف بينما معرفته بذاته –ورغم كل المظاهر– لا يبدو أنها قد تقدمت كثيرا عن معرفة حيوان بجحره ! لو كان للنحلــة أو النملة عقل ! لو كان للعنكبوت عقل... لأدرك أنه هو صانع تلك الخيــوط البديعة، ولكن ماذا كانت ستفيده هذه المعرفة، في ما يخص نفسه! ؟ ...

لا شك أن هذا التعميم يخفي بدوره تحايلا على النفس التي لا تريد أن تتحمل مسؤوليتها في ما وقع، التي ترفض أن تكون مسؤولة، أي راشدة، أي حرة، أي... لو كانت هذه النفس جبلا لهد! ... هل حكيت ما وقع أم وقع ما

حكيت؛ ماذا تستطيع النفس أن تعرف عن نفسها وعن خارجها إذن! ؟... مخيف حقيقة عدد الحيل التي نستعملها للتحايل على أنفسنا، ليس فقط لتبرئتها وإنما كذلك لتوريطها، الحيل التي نلتجئ إليها لمسح أيدينا ليس فقط من الآخرين ولكن كذلك من ذواتنا! ... إنني لا أبالغ إذن في تقدير دور الإرادة، فالإنسان لا يستطيع أن يريد كل ما يريد ولو أراده! ... إني أريد أن أقنع نفسي فقط بأنها لم تكن ضحية بهذا الشكل الذي تتصوره، وإلا فإنها ستهلك في اللامبالاة... أنها حقا إذا كانت ضحية بهذا الشكل فإنها لن تستطيع أن تتجنب الموت أو الجنون إلا بتحمل قدر معين من المسؤولية في ما حدث. ذلك أنه مهما قيل عن مسؤولية الإنسان، أو عدم مسؤوليته، في ما يحدث له وحوله، فإن حياته لن تكون قابلة لأن تعاش، ولن يكون بمقدوره أن يشعر بحد أدنى من قيمته، إلا إذا تحمل بعض المسؤولية في ما يقع له وما يقع حوله، على الأقل بقدر ما يرتبط ما يقع له بما يقع حوله أو ينعكس هذا على ذاك... ما الدليل على صحة هذا القول؟... العقل! ؟ لا... إن العقل ليس مقياس كل شيء، ليس المقياس الوحيد على كل حال، ولا هو أعدل قسمة بين الناس ليكون كذلك... ما المقياس ؟ إنه ... الشعور بالحرارة، بالقوة، بالنشاط، بالقيمة، بالمعنى الذي أحس به يجري في كل ذرة من كياني حين أصل إلى مثل تلك القناعة، ذلك الشعور الذي يبدو أنه يميزني عن النملة أو النحلة وحتى العنكبوت، عن أحقر وأجل حيوان في ذات الوقت... أستطيع، فيما بعد، أن أعقلن هذا الشعور، لكني لا أفعل ذلك إلا لأوصله إلى غيري، ولكي أوصله إلى الغير بهذا الشكل أكون مضطرا إلى التضحية بجزء هام منه، ولن أستطيع أن أستعيده كلا أو جزءا إلا إذا شعر غيري بمثله. إنها العدوى... مثل تلك التي تنشرها الابتسامة أو التثاؤب أو الحنان... تفقد بعضها بإيصالها إلى

الآخرين، ولكنك قد تستعيدها أقوى مما كانت في الأصل عندما يبتسم معك الآخر أو يتثاءب أو يبادلك الحنان ! ...

بعض الناس يتصورون أني أتفلسف الآن... الآن... أبدأ، إني مازلت أحكي، وإذا كانوا عاجزين عن إدراك الحكاية في شمولها فهذا ليس ذنبي! ...

إني مازلت أحكي... لقد انتقلت إلي عدوى الاهتمام بوقائع عين الفرس، والانخراط فيها، كما ينتقل أي شيء آخر: الابتسامة أو التثاؤب أو... ما حدث لمن سبقني يحدث لي الآن، إني لم أعد أختلف في شيء عن حميد والآخرين! ... العدوى... وكما ينتقل المرض أو الصحة عن طريق العدوى، فإن المرء يحس بالأعراض قبل أن ينتقل إلى الفهم عن طريق العقل، مع العلم أن العقل ليس ضروريا للفهم إذ يمكن الاستغناء عنه، كلا أو جزئيا، بأدوات أخرى كالمخيلة مثلا... من يعقلن فيكم الحب أو الكراهية! ؟ [illegible]، أولئك الذين لا يحبون سوى أنفسهم! ؟... أما الأعراض فإني أعوم فيها، وأما الفهم فإنه الشط الذي أسعى الآن للوصول إليه، إنه... بقعتي الضوئية النائية العميقة التي أحاول أن أسبح في اتجاهها... تدركون إذن لماذا يفرض السؤال التالي نفسه علي: ما طبيعة الأداة التي أستطيع أن أفهم بواسطتها؟... لقد استعمل الضحايا –الأبطال– كما يسميهم البعض هنا في عين الفرس –أجسادهم للفهم، وحاولت أن أفعل مثلهم فلم أفلح... لا ريب أن الجسد هو أكمل أداة للفهم، والمعرفة عموما، خاصة إذا عمل ككل، فلماذا يعجز جسدي عن القيام بهذا العمل؟ يبدو لي أن ذلك مرده إلى ثلاث مسائل:

أولاها، إني لم أقتنع بعد بشكل تام بهذه المعرفة الكلية التي تتم عن طريق الجسد لأن معاناتي للوقائع ومضاعفاتها لم تبلغ بعد الحد الذي يؤهلني لهذه المعرفة، فأنا أعرف، كما يعرف عاشقان، أن هذه المعرفة أصعب وأعلى

ما يمكن أن يصل إليه طالب علم، على الأقل من منظور بعض المتصوفة والمجانين والعشاق، أي كل المحبين!.

ثانيها، إن الإرهاب الفكري –العاطفي الذي مارسته على جسدي منذ الولادة، وربما قبلها، إلى الآن، عن طريق أنواع الكبت والمنع وباقي السموم المادية أو المعنوية، قد أضعف جسدي وشوهه إلى درجة العجز التام، وأنه يلزمني، بالتالي أن أعمل على إعادة تربية وإصلاح بعض ما أفسده الدهر لعلي –متعللا في ذلك بكون المعرفة عن طريق الجسد أصعب وأرقى أنواع العلم –أستطيع ذات يوم، بمعونة الله، التوجه إلى معرفة وقائع عين الفرس بجماع جسدي!

ثالثها، أن وسيلتي المعرفية التي سعيت إلى تطويرها، بواسطة الدراسة والتدريب، وأعني الحكي، قد تكون أضعفت الوسائل المعرفية الأخرى، إذ من الطبيعي، في مثل هذه الحالة، أن يتم تطور الجزء على حساب الكل وأن يقوم ذاك مقام هذا!

وعلى ذلك، فإني، لكي لأتمكن من بلوغ تلك الغاية، أي المعرفة التامة، مضطر إلى إخضاع جسدي لنوعين من الرياضة:

الأول، السعي، ما أمكن، إلى أعلى ما أستطيع من معاناة الوقائع والتشبع بها ماضيا وحاضرا ومستقبلا!

الثاني، فحص كل الأفكار التي يمكن تفحصها والشعور بكل الأحاسيس التي يمكن الإحساس بها لا من أجل استعراضها استعراض المتأمل شبه النائم، الأمر الذي يقود إلى نوع آخر من اللامبالاة أو الموت أو المرض، وإنما من أجل التجديد الدائم لعالم جسدي والتخلص التدريجي من كل الأفكار والأحاسيس وألوان السلوك التي اكتسبتها عن طريق التقليد الأعمى والتي قادتني إلى هذا العجز الذي يشل الآن جسدي. إذن سأسعى إلى إنجاز كل

التمارين والممارسات التي تستطيع أن توصلني إلى إحداث دورة دموية متجددة على الدوام ودورة فكرية وحسية تتجدد على منوالها! أعرف...أعرف كذلك أن هناك عوامل أخرى، مثل شعوري بوجود نوع من التسرع في استعمال أداة الجسد من طرف أولئك الأبطال-الضحايا الذين عايشوا الوقائع أو يعايشونها الآن... من الثابت أن عوامل كهذه قد لعبت ومازالت تلعب دورا كبيرا في تحديد ضعف جسدي... غير أني بقدر ما آخذ هذه العوامل الخارجية بعين الاعتبار بقدر ما أرفض أن أجعل العوامل الخارجية، بصفة عامة، مسؤولة عن وضع جسدي، ليس لأنها بريئة من كل مسؤولية، فهذا مالا يمكن أن يقبل، ولكن لأن مثل هذا التحليل يقلل من قيمة القدرة التي أشعر بها بداخلي، وقد يؤدي بي إلى تلاشي الإرادة... هذا هو أخطر مرض يعاني منه الناس اليوم لكثرة ما ألقوه من المسؤوليات على الآخرين، أي خارج ذواتهم، كالأسرة أو المدرسة أو الدولة أو أية مؤسسة أخرى... كالطب مثلا! .

لكل ذلك أحمل نفسي مسؤولية ما وقع لي ومسؤولية الخروج منه، غير أني، كما قلت، لا أريد أن أرتكب الخطأ النقيض بأن أجرد تلك العوامل الخارجية من كل مسؤولية ... أحاول فقط أن أضعها في الدرجة الثانية بوضع مسؤوليتي -الشخصية والوراثية- في الدرجة الأولى، وذلك بالقدر الذي يجنبني الوقوع في مخاطر الطرح المغلوط للمسؤولية، مخاطر مثل الشعور المرضي بالذنب أو الإحساس المخرب بالتفوق ونرجسية التفرد أو السقوط في رومانسية أو صوفية تتستر وراء الواقعية والمسؤولية...

باختصار، هكذا أتصور ما سأقوم به لأجعل عدواه تنتقل تلقائيا أو إراديا إلى الناس المحيطين بي، وهو أمر، حين أدقق النظر فيه، لا أجد فيه أكثر من استبطان للعدوى التي انتقلت إلي تلقائيا من هؤلاء الناس ومحاولة إعادة إطلاقها عليهم من جديد انطلاقا من وجهة نظري أو... على الأصح... من

وضعي الشخصي قبل وأثناء العيش معهم، بفضل الحكاية أولا، ثم بفضل قرار النفي. . هذا الوضع يشبه من استيقظ ذات صباح ليجد السكان يحملون السلاح بعد أن تفرقوا إلى عدة طوائف... ماذا يفعل ؟ ينتظر حتفه؟ يحمل السلاح؟ مع أية طائفة؟ يختار؟ من؟ الذي على صواب ؟ والوقت، هل يسمح له الوقت بالتفكير؟ هل تنتظره الأحداث ليفكر؟... غالبا ما يجد المرء نفسه في هذا الفريق أو ذاك مرميا فيه بالرغم منه، ولكنه في خضم الأحداث يضطر إلى أن يفكر، قليلا أو كثيرا، من أجل إيجاد مبرر ومخرج! كيفما كان الأمر، إني عندما أفكر في وضعي، من هذه الزاوية، أشعر بأني حققت تطورا كبيرا، ولكن...ما أوسع الهوة بين وضعي الراهن والغاية، وكذلك الوسائل، التي حددت لبقية حياتي القصيرة، وما أكثر العراقيل التي تعمل على تعميق تلك الهوة! ... إني مثل إنسان أصيب بداء عضال لم ينتبه إليه إلا حين أشرف على الهلاك أو أصبحت حالته تتطلب إدخاله إلى المستشفى وإخضاعه لعلاج طويل وشاق من غير كبير أمل في الشفاء... غير أن مريضا كهذا ليس في حاجة إلى إقناع نفسه بأن العلاج لن يفيد في الحالة التي وصل إليها، لأن هذا يعني حتفه، وإنما هو في حاجة إلى أن يردد في كل لحظة مع نفسه لمساعدة الجسد: « لقد خطوت أهم خطوة بقبول فكرة العلاج، وها حالتي تتحسن في كل هنيهة ببطء، ولكن بشكل أكيد! »، لأن مجرد ترديد مثل هذا الكلام يجعل حالته تتحسن بالفعل، ولأن الشعور بالتحسن، ولو البطئ جدا، يساعد الدواء، وقد يحل محل الدواء! ... إن الصحة، مثل السعادة وتحصيل النجاح والمعرفة، مسألة إرادة واعية بإرادتها، ومن علامات الإرادة الواعية إدراك أن الإرادة تلعب في ذلك الدور الكبير إن لم يكن الحاسم!

لهذا كله فإن هذه الصفحات لا يجب النظر إليها بأكثر من أنها علامات إرادة تبحث عن ذاتها، وذلك بالمعاني التالية:

الأول، إنها إرادة تسعى إلى ممارسة ذاتها من خلال خيوط عنكبوتية لا حصر لها ولا تاريخ.

الثاني، إنها إرادة تسعى، من وراء تلك الممارسة، إلى معرفة أحسن بشروطها الخاصة داخل الشروط العامة.

الثالث، إنها إرادة تحارب الموت، ولو بتأجيله، فأنا أعرف أن ما تبقى من العمر قليل، أو نسيانه، فأنا أدرك أن هذا القرار المعلق في عنقي لا ينبغي أن يمحو كل شيء آخر: أنا رجل منفي في انتظار الموت، ومن نسي هذا لن يفهم شيئا مما يمزقني! رجل كهذا لابد أن تكون المتناقضات زاده اليومي، جحيمه... أنا من يحكي ومن يحكى له في الآن نفسه، أنا الــراوي والمروي له، كمن يكون في ساحة المعركة وخارجها في الوقت ذاته، في الحمام وخارجه، في بيته وفي الشارع... أنا الكذب والصدق، الزيف والحقيقة، الخرافة والواقع، أنا ... لا شيء غير متناقضاتي وهذه الحزمة من العجز، بل... هذه إرادتي! ... أنا منفي، محكوم علي بتجرع السم، لكني مازلت متمسكا، أو أصبحت، بالبحث عن إرادتي! ... من أحس ذات يوم، في عمق البحر، أنه يغرق ... يفهمني!

تأملوا مثلا سلوك سكان «عين الفرس» تجاهي، فلقد وقف هؤلاء السكان، على العموم، وقفة رجل واحد إلى جانبي في وجه رجال السلطة الذين جاءوا لإخراجي من بيت الطاهر وفطومة بحجة أن للبيت صاحبا سيعود وبحجة أن المنفي يجب أن يخضع للتشرد وغيرها من الحجج التي تستعمل ضد الضعفاء والمحرومين، فجمع السكان مبلغا من المال وقدموه رشوة، بل حرروا شهادة عدلية تثبت أني الأخ الشرعي الوحيد للطاهر !...

أسجل أن هذا الموقف بدا لي غريبا ومخيفا إما لأنه جديد تماما في حياتي وإما لأني شعرت على إثره بأن هناك قوة أو ما يشبه القوة الخفية التي

تتدخل في حياتي وتسير بطريقة تجعل زمامها يفلت من يدي، ولو أنه كان شعورا بدأ منذ التطورات الأولى لهذه القضية، ولو أني لا أذهب إلى حد اعتبار تلك القوة نوعا من القدر أو المكتوب، ولو أنه ظل بداخلي صوت يصرخ أحيانا كثيرة ليقنعني بأني مازلت سيد نفسي وممسكا بإرادتي بالرغم من كل ما حدث ويظل يحدث بذلك النوع من الصدفة أو اللامعقول...

وللتاريخ أقول إني كثيرا ما طرحت على نفسي هذا السؤال الذي طرحه من قبلي أولئك الأبطال -الضحايا: ما الواقع وما اللاواقع؟ ما المعقول وما اللامعقول؟ من يعرف الحدود الدقيقة الفاصلة بين هذا الزوج من الحدود؟ أكثر من ذلك: كم عدد الذين صار بإمكانهم، أو مازال، أن يتعرفوا على تلك الحدود وأن يصرحوا بالفروق القائمة بينها؟... سؤال واحد يفرخ كالسرطان، بإمكاني أن أضعه على رجال السياسة، إلا أنهم سيجيبونني بالخطب التي لا تبلى، وبإمكاني أن أسأل الناس البسطاء، ولكنهم يكادون أن يجعلوا من هذا الأمر وضعا طبيعيا، أستطيع أن أسأل الأدباء، ولكنهم، وهم لا يكتبون إلا عنه، لا يعرفون ما يكتبون، أفضل أن أسأل التاريخ لأنه لا توجد حقيقة واحدة في التاريخ ولأن الكذب والهوى هما عماد التاريخ، على الأقل كما يكتب اليوم، في سنة 2081 ! ... الكذب مريح وعظيم الكسب !

أما للحقيقة، وأنا أشك كثيرا في ما يسمى بسذاجة « الحقيقة »، فإني أضيف أني لم أكن مقتنعا بشيء من ذلك على وجه الدقة... أن أقتنع باللامعقول، وليكن معناه هنا ما لا يفهم بعد ! ؟... ولا اسطعت أن أحسم في أمر من هذه الأمور اللاواقعية، وليكن معنى اللاواقعية ما لا ندرك بعد، إذ كثيرا ما كانت تصير كل هذه الأشياء واضحة ودقيقة بشكل تام في ذهني وكأنها الواقع الذي ليس بعده واقع... فأتشكك تلقائيا في وضوحها ودقتها وكأن هاتين الصفتين هما ما يلازم الغموض الذي ما بعده غموض... بينما تصير

أحيانا متشابكة ومعقدة إلى حد الشعور بنوع من الضباب الكثيف أو الدخان السميك الذي يملأ رأسي بكامله وكأنه حجاب ما علي سوى إزاحته لرؤية ما خلفه كما ترى الشمس بعد مرور سحابة: الحقيقة! أحيانا أخرى يبدو لي الضباب وتشابك الأشياء داخله هو الحقيقة التي يجب أن تؤخذ فورا ومباشرة! ... لم يعد الواقع واقعا، زالت نشوة الحكاية، ولا المعقول معقولا، إذا انفلت مني خيط الحكاية، فما يجري في ما نسميه «الواقع» لم يكن كذالك، وما يجري في ذهني لم يكن معقولا، العقل صار ممزقا والواقع أصبح مفككا، وكلاهما يتغذى من الآخر، يجد في النفي بهارا! ...

وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي كان بإمكاني المجازفة بتأكيده –من غير الوقوع في أخطاء كبيرة أو تناقضات غير محتملة –هو أني كنت دائما ممزقا بين الصدفة والمنطق، بين الغموض والوضوح، بين البساطة والتعقيد، بين الواقع واللاواقع، بين المعقول واللامعقول، إذن بين التفاؤل والتشاؤم، بين الفهم والجهل، بين القدرة والعجز... ما أكثر المتناقضات، ليتني أستطيع إحصاءها!

فأين العقل، من أين أجيء بالعقل الذي يدرك كل هذه المتناقضات، بل الجسد الذي يحيط بها إحاطة عليم قدير! ؟ لقد كانت تتناسل هذه المتناقضات وتتزاحم في جسدي إلى درجة تجعلني أعتبر أحيانا أن الشيء الواقعي الوحيد، بالرغم من أنه لم يكن معقولا تماما، هو هذه المتناقضات التي تخرب ذهني... أو تعيد بناءه ...أو تقويته... لست أعلم حقا، فأنا لم أكن قادرا على التأكد من أي شيء من تلك الأشياء، لا الأحداث... ولا مشاعري...ولا مشاعر الناس نحوي...في «عين الفرس»! ...

عقل تعود على التبسيط والتجزيء والأحكام المسبقة... وجسد من كثرة الاحباط مارس الجنس مع نساء مختلفات بطريقة واحدة لم تتغير...عاجز عن

معاناة التعدد اللانهائي في الواقع والأفكار والمشاعر... هذا كل سلاحي في مواجهة ما خيل إلي منذ البداية أنه دوامة، وإلى عهد قريب جدا، أنه عدم نعومة اللامعقول واللاواقعية... كنت كمن توحي له عينه وحركة جسده المحدودة أن ما يراه من نجوم وفضاء هو نهاية العالم التي ليست وراءها لا نهاية، وكما يشعر مثل هذا المرء بالخوف والقلق إذا حدس نقطة لا متناهية في الكبر أو الصغر من تلك اللانهاية، خفت وقلقت... لقد خفت من كل ما كان حولي وبداخلي. لذلك، كما أتصور الآن، بدا لي موقف عين الفرس مني نذير شؤم وعلامة حظ سيء: ألم أكن منفيا ! ؟ لماذا يعاملونني بالحسنى ! ؟ كنت مستعدا لتقبل ذلك الموقف على أساس أنه عقاب إضافي من السماء أو امتحان خاص، إن لم يكن تواطؤا، على طريقة بعض الناس الذين لا يفهمون جيدا كل ما يحدث لهم أو فيهم أو حولهم ! ثم صرت أعتبره جزءا من خطة مدبرة بعناية جهنمية ضدي ولا يشكل فيها أهل الفرس إلا عناصر عميلة بالرغم منها، عناصر أقل عددا من العناصر العديدة المنتشرة في البر والبحر: إننا نهلك ولا نعلم، بل نظن أننا نتطور ونزداد قوة ! ... لم أكتف مثل حميد بالتفكير في المريكان، وإنما فكرت في الروس واليابان وأذناب هؤلاء وأولئك، وتصورت أن الروس والمريكان يخوضون الحرب العالمية الأخيرة سرا فيما بينهم بشاطئ عين الفرس، إنني سأذهب ضحية هذه الحرب اللعينة لأني الوحيد الذي يعرف تفاصيلها بعد أن ذهب الضحايا -الأبطال بسرها ولم يعودوا... خيل إلي مرة ... يا للخجل ! ... أني ربما كنت السبب الذي من أجله يتصارع أنصار الكتلتين، من أجل سد فمه ! إذن أنا خالق هذه الحرب السرية، وإلا ما معنى أن أكون أول من روى للملأ بعض وقائعها ! ؟...

حتى عرض الرعدة الذي كان من الممكن تفسيره مثلا بحس تاجر يعرف كيف يستميل الزبناء: «الدكان دكانك أسي محمد إلى أن يفتحها الله

...لا تقنط من رحمة الله، فقد عرفنا الغربة والتشرد قبلك، وقد نعرفها مرات أخرى، فلا أحد بقادر على ضمان غده في هذه الأيام الثقيلة !» ، حتى هذا العرض ظهر لي سخيفا وخبيثا، وقد تصورت أنه يريد أن يشتري به ذمتي، ثم تصورت أنه عميل أو شريك في كل ما حدث لي ولغيري لأن عقليته كتاجر – وكأن لكل امرء عقلية ثابتة تولد من ممارسته لمهنة معينة– قد تدفعه إلى أكل أرواح البشر إذا كان أكلها يدر عليه مالا، إلى خدمة الشيطان إذا كان في خدمة الشيطان نفع لتجارته !

والواقع–وكأن الواقع هو هذا السديم الذي نطلق عليه هذا الاسم ! –أن كل ذلك كان يحتمل أكثر من معنى وأكثر من تأويل أو تفسير... ولكني كنت قد انتقلت من عالم لا أحد يعرف فيه الآخر أو يهتم به إلا ليستغله أو يتجسس عليه إلى عالم يعرف فيه كل واحد الآخر معرفة حقيقية بسبب الفقر والبطالة والمآسي المشتركة... كنت كمن انتقل من السوق إلى المسجد أو الحانة لأول مرة في حياته !

والحقيقة –الحقيقة! ؟ يا للسخرية... ما أشد أثر الكتب الفارغة فينا! – أني ربما وجـــدت آنذاك كل هذه التأويلات ملائمة... الملاءمة... أخيرا أجد الكلمة! ... هذه هي الكلمة التي قـــد تكون أكثـــر ملاءمة من غيرها لإعطاء كل أمـــر من هذه الأمور، لكل شعـــور من هذه المشاعـــر، ولكل حدث من هذه الأحداث جانبه المطلق وجانبه النسبي، الخاطئ والصائب، الواقعي واللاواقعي، الخ...

كل ما حدث ويحدث ملائم... ملائم فقط! لذلك فهو صائب وحقيقي وواقعي ومعقول، الخ...! ... أخيرا أجد تلك الكلمة السحرية! إلا أني لم أكن قادرا على التمسك بها دائما لأنها بدورها غالبا ما تحتاج إلى معيار يحدد ملاءمتها، إلى ما يحدد معناها إذ لا أحد بإمكانه أن يزعم أنها واحدة في كل

الظروف وفي كل الأمور؛ كان لابد من حصر دقيق لمعانيها ومجالات استعمالها. وهذا ما لم أقدر على إنجازه كاملا، ما لم أستطع التأكد منه كلما أنجزته بشكل جزئي، وكأني قد وجدت من الملائم، فيما بعد، ألا أجد معنى دقيقا للملاءمة! ... فقد كان باستطاعتي مثلا أن أرد تصرف الرعدة معي إلى رغبة دفينة في رد الجميل إلى من أسدوا إليه جميلا حين كان متشردا وغريبا، أي إلى تحقيق رغبتين متكاملتين لديه: تجسيدي المصغر للذين تشردوا بعد العز، من جهة، ومناسبة الرعدة للتخلص من ضرورة رد الجميل، من جهة أخرى، وهما شيئان كافيان لرد الاعتبار إلى ذات الرعدة وجعله يشعر بالمساواة مع الآخرين ومسح يديه منهم...وربما شكلت فقط مناسبة لنفس الرعدة من أجل أن تنتقم لذاتها من أيام المحنة، أو كنت المناسبتين معا...

كان بمقدوري كذلك أن أرد سلوك أهل «عين الفرس » معي إلى مجرد الحاجة إلى الاعتناء بالضحايا –الأبطال وضرورة التكفير عن شعورهم بالذنب تجاههم عن طريق الاعتناء بي شخصيا لأنهم قد ينظرون إلي على أساس أني الروح الجماعية التي نجت من الكارثة وعادت لتسكن جسدي الغريب، الروح التي كانت في كل واحد منهم... إلا أن هذه الزاوية من الاعتبارات كانت ستؤدي بي إلى النظر إلى نفسي على أساس أني مجرد ظل لحقيقة ما وفي أحسن الأحوال أني شخصية مزدوجة، تجسيد لي ولغيري، للواحد والكل، أي للاشيء ! وهكذا فإن تفسيري لعرض الرعدة بهذا الشكل الأخير كان سيجعل مني مجرد نسخة باهتة من هذا الرجل الغريب الأطوار... أمر كان سيزيد من غربتي ويضاعف من تشردي، إذ كنت سأضيف غربته وتشرده إلى غربتي وتشردي الشخصيين، فأتحول بذلك إلى شبح، وأعود إلى ما أراد الخروج منه: خيوط العنكبوت !... ومع ذلك يظل واضحا أني كلما تعمقت في محاولات غزل خيوط الأشياء المتشابكة للوصول إلى معايير لتحديد معاني ملائمة

ازدادت الخيوط تشابكا وتعقيدا وارتفعت درجة معاناتي بداخلها وكأني بنلوب ! من غير أن أنتبه إلى أنه قد تكون في ذلك بداية الخروج من الدوامة !...كان بإمكاني أيضا -للتأكد من معاني الوقائع وأسبابها والتمييز بين الصدق والكذب فيها، بين الظاهر والباطن منها -أن أنظر إلى كل أمر من تلك الأمور من زوايا متعددة، بهدف تعميق التحليل عن طريق المقارنة، فانظر مثلا إلى عرض الرعدة من زاوية طفولته التي لم يكن له خلالها أخ ولا أخت ولا صديق، من زاوية غربته خارج الوطن حيث عانى أقصى درجات الوحدة، ومن زاوية عقمه الذي طلق بسببه عدة نساء، ومن زاوية عمله في السفن كمنظف للمطابخ، ومن زاوية عودته إلى عين الفرس وما وجده من صعوبات للاستقرار بها قبل أن يفتح الدكان، ومن زاوية وضعه كأهم تاجر في المدينة وما يفرضه عليه هذا الأمر من علاقات خاصة مع السكان، ومن زاوية علاقاته مع التجار الآخرين وما تفرضه عليه من احتياطات، ومن زاوية وضعه الاجتماعي وما يتطلبه من مسؤوليات خاصة تجاه السلطة والسكان، ومن زاوية حماقاته ونزواته، ومن زاوية أوهامه، ومن زاوية تطلعاته السياسية ومعتقداته الدينية... من كل الزوايا الكبرى أو الصغرى التي تفيد في إلقاء بعض الضوء على شخصيته !

وكان باستطاعتي كذلك أن أفسر تصرف أهل عين الفرس بنظرتهم إلى الغريب الذي قد يكون وليا من أولياء الله الصالحين، أو مغتربا جمع قدرا من المال وعاد -منفيا- يبحث عن مكان ومساعدين لتوظيفه، أو موظفا في المخابرات متنكرا أشيع أنه منفي ليأمنه الناس، ومن زاوية تطلعهم إلى قدوم رجل عليم قدير على مساعدتهم من أجل وضع حد للكارثة التي تعصف بأبنائهم وأقاربهم، أو من زاوية حاجتهم إلى من يعلم أبناءهم أسرار التسلق

بواسطة علوم الدنيا أو علوم الدين، أو من زاوية تعاطفهم مع شخص مسكين لم يفكر في تقلبات الزمان...

ومع ذلك، فإن الزوايا كانت تبدو لي كل مرة لانهائية إلى درجة الإحساس بالدوخة، ومن ثمة بالعجز عن الوقوف على أقل قدر واف منها بمقصودي...

خلال هذه اللحظات -بعد أن أرى في هذا الوضع دليل صحة وألحظ فيه الثمرة الأولى لتمارين أقوم بها لإعادة تربية نفسي- رحت أتهم الفترة السابقة من حياتي بحجة أنها شوهت فكري -وأعمت بصري وبصيرتي- بتعويده على المجردات التي تشبه الكلمات المتقاطعة أو غيرها من الألعاب الفكرية السخيفة. رحت أقنع فكري بأن الفكر الذي يفكر بهذا الشكل لا يمكن أن يفكر ولو ابتدع أغرب النظريات وأكثرها جاذبية وأجمل الحكايات وأقواها احتمالا !

إذن الإحساس الوحيد الذي ظل بإمكاني التمسك به كمعطى واقعي أو زائف - لا أعرف - حقيقي أو وهمي - لا أعلم- والذي ظل بإمكاني التأكد منه باستمرار -لأنه ثابت أو متكرر أكثر من غيره - هو هذا الإحساس بالتمزق، بسيطرة المتناقضات اللانهائية، بما يشبه العجز، أي بهيمنة قوة خفية، أو تكاد، قد تكوني من داخلي -أومن خارجي أو منهما معا -على مجرى الوقائع والأفكار والمشاعر. وبطبيعة الحال، فإني كنت عاجزا عن إدراك أن ما أبحث عنه من خلال تلك المعاناة هو تلك القوة ذاتها -لأجعلها قوتي الشخصية- وغير قادر على الانتباه إلى أن كل جسدي يتحرك -ربما لا شعوريا- في هذا الاتجاه الأخير... كنت مثل الغريب الذي يتخبط في كل ناحية لينقذ نفسه، ولكن الغريب الذي يريد أن يحول التخبط من قوة مهدورة إلى قوة يستطيع التحكم فيها من أجل تسخيرها على الوجه الأحسن !

علاقتي مع معدتي ذاتها طغى عليها هذا الإحساس، فقد يمر علي الأسبوع من غير أن آكل إلا السمك الذي أصطاده بنفسي والنباتات البرية التي أجنيها بيدي، أي أعيش آنئذ من الطبيعة كما يمكن لأي بدائي قادر على صنع حد أدنى من الأدوات أن يعيش، بينما يمر علي مثل الوقت أو أكثر لا آكل خلاله ولا أشرب إلا مما ما أستدينه من الرعدة أو يتبرع علي به أهل المدينة... الشيء الوحيد الذي ظل يحدد ما آكله وما أشربه هو هذا الإحساس بالتمزق، بعدم القدرة على الاستقرار على رأي أو فكرة أو شعور أو موقف. ولا أظنني في حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على أني لم أكن أرى في عدم الاستقرار هذا أية فضيلة وأني –أنذاك– كنت أشعر بنوع من الضعف أمام دوامه، كنت أعانيه ككارثة حين أقارن بينه وبين وضعية الاستقرار الكامل التي عرفتها سابقا حيث أكلت نفس الطعام وشربت نفس الشراب وكرهت أو أحببت نفس... ما عدا حين أكون في مجلس الأميرال، طبعا.

حتى علاقتي بالنوم تغيرت إذ صرت أنام في الغالب ست ساعات تقريبا بينما كنت أنام تسع ساعات على الأقل يوميا، بل صار يمر علي اليومان من غير أن أذوق طعم النوم أو أشعر بالحاجة إليه بينما كان مثل هذا الحدث في حياتي السابقة يعتبر مأساة توجب زيارة الطبيب والتوقف عن العمل فورا من أجل الخلود إلى الراحة التامة... هكذا إذن استمرت علاقتي بأهل عين الفرس وعلاقاتي مع ذاتي، علاقات متقلبة، متناقضة، غير مستقرة على حال من الأحوال أو وحدة، تنظيم التشتت...

كان ذلك كفيلا، في أول الأمر، بدفعي إلى الشك في كل شيء –كما أسلفت– في نفسي، في الناس الذين حولي، في كل الأمور وبدون استثناء، ولقد وقفت أكثر من مرة في وجهي أتهمه: «أنت المسؤول عن كل حوادث عين الفرس ومضاعفاتها... لا بد أن تقدم نفسك قربانا لهذه القوة التي تتحكم في كل

شيء –مادمت موقظها بالحديث عنها– إذا أردت أن تكفر عما فعلت... ولا شك أنك متواطئ مع عناصر مشبوهة في عين الفرس وخارجها... قدموا أنفسكم قربانا لإنقــاذ ما تبقى من أبرياء في عين الفرس ! ». ويأبى البحر أن تهدأ أمواجــه وتسكن ريحــه وتصمت حيتــانه لأطمئن إليه وألقي بنفسي في أحضانه !...

ربما كان مثل هذا الإحساس هو الأصل في نشوء الأسطورة، ولكن من أين لي أن أعرف –آنذاك– أني كنت أساهم في تحويل الواقع إلى أسطورة، وأنا أجهل الحدود الفاصلة بين الواقع واللاواقع، وأنا أراقب قوتي تتفتت في كل الأنحاء، برا وبحرا، خارجا وداخلا: ألم أكن أظن أني أحاول أن أفك الواقع من أسر الأسطورة! ؟

الأحداث نفسها لم تترك لي الوقت لمثل هذه الغاية، فقد أخذ الأشخاص يختفون من جديد، كل أسبوع بمعدل اثنين أو ثلاثة. وهذه المرة بدأت تتدخل عناصر جديدة لتعقيد الوضع. من ذلك مثلا أني رأيت الناس، وأغلبهم شباب، يذهبون ولا يرجعون كما رآهم غيري من قبل، بأكثر من رؤية العين، بما يشبه الرؤيا أو الحلم أو التذكر!

من ذلك كذلك أن رجال الدرك صاروا يأتون، بعد أن كان الأمر محدودا في الشرطة، ليستنطقوا الكثيرين منا، وقد يشتبهون في أحدنا فيعتقلونه أياما معدودة، كما تفعل الشرطة، لمزيد من التحقيق قبل أن يخلوا سبيله سراحا مؤقتا أو يحتفظوا به في الحبس الاحتياطي، الأمر الذي زرع خوفا آخر بيننا ومزيدا من عدم الثقة بين العديد من السكان: الدرك أحيانا أشد استفزازا وقسوة حتى من الشرطة السياسية خاصة في القرى والمدن الصغيرة! هذا بالضبط ما حدث معي شخصيا إذ اعتقلني رجال الدرك بدوري أسبوعا كاملا وحققوا معي بمعدل مرة في اليوم وكأنهم لم يكونوا يعرفون بأني منفي في عين الفرس بأمر

من الأميرال. إلا أني خوفا من أن يؤولوا المسألة تأويلا خاصا، كأن يفهموا بأني رجل انقلابي مثلا، كتمت سري... سألني أصغرهم في اليوم الأول بعد التحقق من هويتي:

-هل توافقني إذا قلت لك بأننا نحن الشباب نستطيع -خاصة المتعلمين منا- أن نتفاهم بسهولة وبوسائل أضمن؟

سبحان مدبر الخلق: لم أر وجهي في المرآة منذ زمان، أأكون بصدد استرجاع شبابي من جديد! ؟

-بكل تأكيد!

-إذن سأسألك بدون لف ولا دوران... إذا وعدتني بالإجابة الصريحة الكاملة!

-إسأل!

-ماذا تعرف عن أحداث عين الفرس؟ قل أي شيء تعرفه، فكل شيء يمكن أن يكون مفيدا بأكثر مما تتصور...

-أناس ينزلون إلى البحر ولا يعودون...

-فقـــط! ؟

-هذا كل ما أعرف!

-ماذا يحدث لهم في نظرك ؟

-يختفون!

لا يعودون... يختفون... لا يرجعون... هذا لا يكفي!

-من المفروض أن تكونوا أعلم!

-ولكننا لم نكن في عين المكان مثلك... ثم إنني أنا الذي أسأل، أجب!

-هذا كل ما أعلم: يختفون، يذهبون ولا يعودون!

-هل تظن أنهم يذهبون ضحية شخص معين أو شيء ما؟

-يذهبون ضحية البحر!

-سألتك عما تظن، عن رأيك... أما اختفاؤهم في البحر فهو أمر يعلمه الجميع... أنت مواطن، يجب أن يكون لك رأي، على الأقل ظن...

-في ماذا ! ؟

-في ما يحدث بعين الفرس!

-إن بعض الظن إثم، والرأي كثيرا ما يكون مجرد ظن!

-هذا كلام عـــام، كلام مثقفين... إننا نريد آراء واقعية، ولو كانت ظنونا !

-أنا اجتنبت الظن لأن ديننا نهى عنه ولأن الظن ضد العلم، لا علم بظن!

-طيب... قلنا إنهم يذهبون ضحية البحر... وماذا أيضا غير البحر؟

-قد يذهبون ضحية أنفسهم !

-جيد... مثل هذا الكلام يساعدنا كثيرا... وماذا أيضا؟

-قد يذهبون ضحية صوت ما أو ضوء ما -خارجي أو باطني- وقد يذهبون ضحية بريق.

-ماذا تعني بالضبط ! ؟

-البحر يهمس، كالنفس، بأصوات غريبة، وهو يضيء كذلك، كالنفس، قد يشع منه بريق، نور جذاب كذلك الذي يشع من النفس، أحيانا، أو من العدم...

-تقصد بالعدم الشيطان ! ؟

-لا أعرف ما أقصده بالضبط... إني أقول لسيادتكم شيئا مما يمكن أن يغريني بركوب البحر وعدم الرجوع منه، بركوب النفس وعدم الرجوع منها... والنفس أحيانا قد تضيق فترتمي في أي شيء لتتنفس أو تختنق !

-تقصد السحر إذن ! ؟

-قد يكون سحرا... بالفعل !

-إنك لست واثقا مما تقول، سأساعدك... هل تعني السياسة ؟

-صدقوني، يا سيدي الدركي الشاب، إن الأشياء من الغموض والتعقد بحيث تصير أكثر تشابكا كلما حاولت الإمساك بها...

-أفهم جيدا... لكن اعمل عقلك، شغل ذاكرتك على الأقل...

-أحاول أن أستعمل كل قواي... إلا أنها تقودني إلى أشياء متناقضة، غاية في التناقض والتداخل... وبشكل أعجز معه عن تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود...

-ماذا تعني ! ؟

-عدم القدرة عن تبين أين تبدأ الحوادث وأين تتوقف وكيف تتداخل وتتجاذب أو تتنابذ...

-أية حوادث تقصد ؟

-حوادث عين الفرس، طبعا...

-عنها أريدك أن تحدثني، تكلم !

-وهل أستطيع أن أتبين فيها شيئا معينا لأحدثك عنه؟ لا أرى سوى أشخاص يذهبون إلى البحر ولا يعودون منه !

-حاول أن تشغل كل قدرة من قدراتك بمعزل عن الباقي، الذاكرة مثلا وحدها ... وسترى !

-حاولت ذلك بالرغم من شعوري بأنه غير ممكن... المهم أن هذا ما أعجز كلّ العجز عن جعله يوصل إلى نتيجة، وكأن كل واحد من مصادر المعرفة يفتح أمامي بابا ضخمة لا تؤدي إلى الباب التي يفتحها المصدر الآخر ولا توصل سوى إلى جدران من الإسمنت المسلح...

-حدثني عما تقوله الذاكرة... إلى أي حائط أوصلتك ؟

-إلى حائط الحكي !

-حائط الحكي ! ؟

-هذا حائط كحائط المبكى !

-وأين يوجد ؟

-في مكان لم تسعفني الذاكرة بعد بتذكره !

-طيب... طيب ! معنى ذلك أنك مهتم بما يحدث في عين الفرس! ؟

-بالطبع، كبقية أهلها، ولكن ماذا بإمكاننا أن نفعل! ؟

-ولماذا تريد أن تفعل... ماذا تريد أن تفعل! ؟

-أن أفهم ما يحدث، أن أعمل أي شيء من أجل إنقاذ نفسي والناس المحيطين بي...

-مواطن! ؟... هذا ليس شغلك!

-شغل من إذن! ؟

-شغل الحكومة، ولا تسأل بعد الآن... أنا الذي أسألك... أنت تجيب فقط!

-حاضر، ولكني أتساءل فقط: ماذا بإمكاننا أن نفعل... هل نستطيع أن نفعل شيئا لتجنب الكارثة !

-قلت لك: لا تسأل ولا تتساءل... أجب فقط !

-عن أي سؤال ! ؟

-أحذرك... لآخر مرة... لا سؤال ولا تساؤل! أجبني: عن أي كارثة كنت تتحدث ؟

-ألا تشعر بأن هذه الوقائع الغريبة تتضاعف بشكل ينبئ بحصول كارثة! ؟

-أترك صيغة السؤال، قلت لك !

-ولكني إن لم أتساءل لا أستطيع أن أعرف شيئا ولن أستطيع أن أفعل شيئا !

-تستطيعون أن تفعلوا الكثير...

-صحيح ! ؟

-أن تمدونا بكل التفاصيل حول الوقائع، بكل غريب يثير انتباهكم، بكل ما يجول في فكركم وقلوبكم...

-لا أريد أن أسأل، ولكني أريد أن أعرف كيف !

-الذاكرة والعين فقط... تشاهد... تختزن... ثم تتذكر لتحكي لنا ما شاهدت!

-نحن في خدمتكم يا سيدي !

وانتهى التحقيق الأولي بالتأكيد على ضرورة وأهمية تعاون المواطنين مع رجال السلطة وبالتحذير من مغبة تجاوز العين والذاكرة واتخاذ أية مبادرة أو الدخول في مغامرة ما... وكذلك مر تقريبا التحقيق الذي أجراه معي كبيرهم في اليوم التالي باستثناء تعهدي له كتابة بالتزام الحكمة والتعقل...

وعلى هذه الصورة مرت جلسات التحقيق الخمس الأخرى التي كنت أمضي عند نهاية كل واحدة منها نفس التعهد...

الغريب في الأمر حقا أني لم أتذكر خلال ذلك الأسبوع بأكمله شيئا عن البسطيلة والمشوي أو عن أسماء الأشخاص الذين كانوا يختفون... كان كل شيء يحدث في ذهني وكأن الحوادث تجري في مسرحية بلا حدث ولا أشخاص، «مسرحية خارج الإطار المسرحي تبحث لا عن مؤلف ولكن عن متفرجين يملكون شيئا آخر غير العين والذاكرة !

لهذا السبب، كم فكرت في اختلاق حوادث لا واقعية ولا معقولة، تكون مجرد إنشاءات شخصية، لأن الحوادث الواقعية والمعقولة ظلت تبدو لي لا واقعية ولا معقولة بشكل تام، وكأن الأمر يتعلق بحوادث وراء هذه التي نضيع وقتنا في الاهتمام بها، وكأن هذه الحوادث التي تظهر لنا حوادث هامشية وسطحية وضعت لنا وضعا، ولكن بإتقان، لكي تلهينا عما هو جوهري وحقيقي، وكأن الحوادث الواقعية -المعقولة فعلا من خارج هذا الكوكب- الذي يبدو لنا ساكنا- وتخضع لمنطق مخالف لكل أنواع المنطق السائد على وجه الأرض، لمنطق غير العين والذاكرة!

ولكن كيف أستقر على فكرة كهذه رغم بريقها ! ؟

كل الأفكار البراقة أفكار سهلة، وكل الأفكار السهلة أفكار خادعة! ...

لقد رحت أتصور أحيانا أن هناك كائنات فضائية تخدع الناس وتخطفهم، كما يحدث في بعض أفلام الخيال العلمي، وأحيانا أن هناك جماعات -بشرية أو مائية- تعيش في عمق البحر هي المسؤولة عن الاختطافات، وأحيانا أن البحر مجرد وهم لأنه قد يكون تبخر أو تجمد أو ملئ بالنفايات فأصبح يابسة لا تختلف عن يابستنا، وأحيانا أن هؤلاء الناس الذين اختفوا قد كرهوا الأرض إلى الحد الذي أوحى إليهم بأن يتركوها ولو إلى العدم... كم من الفرضيات تصورت !

غير أني كنت دائما أصطدم بالعجز عن التحقق منها حتى كدت أتشبث بالشك في كوني إنسانا فعليا ما دمت لا أعيش على غير الفرضيات! ... لكن ما أجمل هذه الفرضيات حين تنبثق الواحدة منها وتبدأ تتفتح كالوردة في الذهن، ثم تأخذ في الانتشار كالشمس حين تبدأ تشرق تدريجيا وتصعد إلى عنان السماء! ... ما أشد حرارتها في القلب والعين حين تبدأ تبرد وتنطفئ كالنجمة ! ... أي سعادة أكبر من تلك، وأي شقاء أشد من هذه ! ؟

هذه الحالات المتكررة من السعادة والأمل، من الشقاء وخيبة الأمل هي ما جعلني أفهم الإغراء الذي مارسته الفرضيات على المهدي -وربما حتى على الطاهر والآخرين، من يدري! ؟- والعذاب الذي سببته له... أفهم سر حماسه، سر ارتباكه، أفهم سر انهياره -أو إقدامه- إذ يجب أن يكون المرء مثل الأطلس لكي يستطيع حمل مثل هذا الثقل! ...

لقد انتقل المهدي بتفكيره، وبسرعة غريبة حقا، إلى مستوى الواقع اللاواقعي الذي قد يصبح واقعيا إذا ما تجاوزنا الأحداث السطحية، الهامشية، المضللة، فلا غرابة إن بدت لي آنذاك فرضيات ساذجة ولا معقولة: رجل يقرأ قصاصة جريدة قديمة تستحيل قراءتها -لقدمها- وفي الظلام! كان كمن يقرأ في كتاب لم يكتب بعد! ... لتغفري يا عين الفرس لي... لنا... فنحن لا نجيء إليك أو نذهب منك إلا منفيين أو معوقين! ...

وها قد مضى على استقراري بها شهر، وكان آخر زمن الشتاء، ثم جاء الربيع، فبدأ السكان يقيمون حفلات ليلية لاستحضار الغائبين، لاستعطاف البحر الذي كانت قد بدأت تصله نسائم الربيع...

يوقدون نارا قوية كل ليلة سبت وسط المدينة، يذبحون خروفا ويضعونه فوق تلك النار ليشوى ببطء، يأتون بأطباق البسطيلة التي تهيأ بالبيوت، ثم يصنعون الشاي، ثم يشرعون في العزف والغناء والرقص حتى منتصف الليل، إلى أن يسمع نفس المرح آتيا من البحر ليختلط بمرحهم الحزين... حينئذ ينادى على عشرات الفتيات ليصنعن دائرة بأجسادهن حول النار، ثم تتقدم إحداهن، وهي عادة أكبرهن سنا، لتقطع لحمة من الشواء، فيطلب منها بصوت جماعي، يشارك فيه الرجال والنساء، أن تذكر بأعلى صوتها اسم الفتى الغائب الذي سيكون لها زوجا بعد رجوعه من البحر، ثم تعطى لها شمعة داخل فانوس أخضر وإناء أزرق تضع فيه اللحم، ثم تسير الفتاة نحو الشاطئ يتبعها

عشرة شبان يحملون أطباق البسطيلة الصغيرة ووراءهم رجلان يحملان الخروف المشوي بينما بقية الفتيات يمشين وراء الرجلين وخلفهن النساء ثم الرجال يتقدمهم الشباب...الكل يغني أو يعزف ويغني... ثم يتوقف الموكب على بعد أمتار من الشاطئ من غير أن يتوقف العزف والغناء... ثم تتسل الفتاة يتبعها بقية الفتيات... تجلس الفتيات على رمل الشاطئ وهن يغنين... تصعد العروس إلى الصخرة التي يظن أن الجميع قد ارتمى من فوقها في أحضان البحر... يشتد إيقاع الغناء وتحتد الأوتار والبنادير... تدخل العروس في حالة جذبة عميقة، ثم تبدأ تدور فوق الصخرة بسرعة... تتصرف الفتيات... يرمي الفتيان والرجلان بالشواء والبسطيلة في البحر... ينصرف الجميع بينما العروس تدور بسرعة هائلة فوق الصخرة... عندما تصبح العروس وحدها تماما تتوقف عن الدوران وتدخل في نوبة نحيب... تعود الفتيات وحدهن ليجلسن حول الصخرة... تشرع العروس في النداء على عريسها باسمه واسم أمه وجدته بينما الفتيات يرددن النداء حتى مطلع الفجر... تظل تتكرر نفس الطقوس من طرف العروس ومرافقاتها طيلة الأسبوع أو إلى أن تسمع عريسها يرد على ندائها من أعماق البحر... تحل محلها فتاة أخرى ومرافقات أخر إذ تزف الفتاة الأخرى إلى عريس آخر والأخريات ينتظرن دورهن... وكان من هؤلاء الفتيات من أعلنت أن عريسها يزورها كل ليلة محملا بالعطور واللآليء... ومنهن من أعلنت أنها حامل!

كم أغبط هؤلاء الناس، لكم أتمنى أن أكون في مكان أي عريس، وحتى في مكان أية عروس! ...

إني أشعر بالحاجة إلى فعل أي شيء، أن أقتنع بأي شيء لأسند ظهري إليه فأعمل عملا ما لفهم ما جرى ويجري، للوقوف ضد ما جرى ويجري...

مرحبا نفي الذاكرة !

مرحبا نفي القلب !

مرحبا نفي العقل... الجسد !

مرحى أيها الأميرال... أعوان الأميرال !

كنت أريد أن أقتنع بشيء أتكيء عليه، ولم أنتبه إلى أني أهرب من المشكلة، من المواجهة، فأقــول لنفسي: ولكن ما جدوى أن تقتنع بشيء لتدرك، بعد ذلك، وغالبا بعد فوات الأوان، أنك أخطــأت وتعجلت وعليك أن تبدأ الاختيار من جديد، أنك أخذت جانبا في الاعتبار ونسيت جوانب أخرى قد تكون أهم، غلبت زاوية نظــر أو فرضية على زوايا نظر وفرضيات أخرى... لمجرد أنك في حاجة إلى أن تتصرف أو لمجرد أنك تعبت من التمزق، من فوضى الشك والتردد!؟

ما أدركت آنذاك أن من يفكر بهذا الشكل لن يستطيع، بأي وجه من الوجوه، أن يتصرف أنه إنما يعمق العجز ويبرره، فالإنسان، ومهما أوتي من القوة، بل من العلم والذكاء، لن يستطيع أن يحيط بكل جوانب الأشياء التي تخصه أو تخص العالم الذي يعيش فيه، ولو فكر كل الناس بهذا الشكل لتجمد العالم وانقرض البشر !

كنت أقول لنفسي: ما جدوى كل ذلك إذن إذا كنت ستعرف فيما بعد أنك قفزت فوق الصواب والخطاء معا، فكل ما يفعل إنما يتم على ضوء معنى ما من معاني الملاءمة، من المفاضلة، بعد أن أجتزيء تعسفا وأعطيت له قيمة المعيار ! ؟

إذن كان من الإلزام –أو من العبث– في علاقتي بعين الفرس، وفي علاقتي مع ذاتي، إما القفز فوق الصواب والكذب، من أجل الفعل، وإما التمزق بين مختلف الفرضيات وزوايا النظر من أجل الفهم الذي أصبح نوعا

من الذريعة لتعميق العجز أو تبريره، ناسيا، بطبيعة الحال، أن الفهم فعل، أن معرفة الحوادث هي نوع من إعادة صنعها !

مع ذالك بقيت أتساءل: ولكن لماذا لا أستطيع أن أفهم برغم كل هذا الجهد وكل هذه المعاناة، ألأني أبحث عن الحقيقة، أي الحقيقة المطلقة، وهي عين ما أشك فيه، أم لأني أفصل بين الفهم والعمل وأكاد أعدهما نقيضين لا يرتفعان معا ولا يجتمعان معا، أم لأني لا أعرف بالضبط ما أبحث عنه، الأمر الذي يجعلني أتيه بين الزوايا والفرضيات وما بينها من أشكال وألوان ! ؟

فاتتي، والحال هذه، أني أبحث عن ذاتي خارج ذاتي، وأني مشوه ومخادع وضعيف إلى درجة عدم القدرة على اقتحامها والاكتفاء بالدوران حولها، وإلا ما معنى أن أبحث فقط في الوقائع « الخارجية » ؟

فلا غرابة إذن أن أعيد عشرات المرات طرح السؤال ذاته: عن أي شيء بالضبط أبحث، وما هي الكيفية التي سأصل بواسطتها إليه، هل هي الفهم أو العمل أو هما معا ؟ وماذا أستطيع أن أفهم أو اعمل ؟ وما معنى الفهم والعمل ؟

ظل من السهل، نسبيا، أن أجيب عن هذا السؤال الواحد المتعدد، وقد أجبت عنه جزئيا، عبر ما سبق. غير أني اكتشفت، بعد كل إجابة، أن كل ما فعلته هو مراوغة المشكلة... فأنا أعرف أنه في المدارس وحدها تطرح المشاكل خارج سياقها الحياتي المعقد، وأنه في الكتب وحدها، خاصة في بعض الروايات، تصاغ المشاكل معزولة عن تسلسلها وتشابكها اللانهائي أحيانا وتعدد مظاهرها وأوجهها لكي يتم تجريدها والوصول بشأنها إلى حل - حل! ؟ -وأنه لو رام أحد المعلمين أو المؤلفين أن يضع المشاكل في إطارها الكامل لعجز عجزا تاما عن حلها لأنه سيدوخ في متاهاتها، وقد يتخلى عن مهنته أو يفشل فيها !

فهل ألتجئ، مثل هؤلاء، إلى تبسيط المشكلة، وأنا أعلم أني لا أعرفها بعد على وجه الدقة، وأني بذلك أحولها إلى جثة كي يسهل إعمال المبضع فيها، وإلى استعمال مفاهيم -من تلك التي يسمونها إجرائية، وهي ملائمة فقط لأهداف محددة مسبقا في الغالب- وأنا أعلم أني إنما أقوم باختزالها إلى ما يجعلها مشكلة نظرية لكي يسهل الانقضاض عليها ؟

قد يبدو الآن للبعض أني كنت أفتقر إلى أهداف واعية وإلى ما يكفي من التحكم في النفس، وهذا أمر لا شك فيه لأني لم أكن بلا أهداف، في البداية، ولكن كانت لي أهداف أخرى، قبل النفي، ثم صارت لي أهداف مضببة، بعد النفي، وهشة تعكس حال نفسي ذاتها في تلك الفترة، وإن كان كل سعيي من أجل إصلاحها وتقويتها... كيفما كان الأمر، فإن تلك «المراوغات» أو الحيل لم تكن خالية من القيمة، ولا كانت عديمة الجدوى، كما أتصور الآن، إنها على أقل تقدير علامة على وجود إحساس، ولا أقول الوعي، لدي بأن هذه المشكلة يجب أن يحافظ لها على طابع المشكلة. ولكي يتم هذا فإني يجب أن أمتنع عن كل محاولة تهدف إلى تحويلها إلى مشكلة نظرية، أي مشكلة زائفة. ثم إنها دلالة على أني أحدس ميلي إلى ما هو نظري وأني أعمل، ولو بلا وعي، على مقاومته والحد من غلوائه، فربما كنا نقتل كل مشاكلنا بسبب ميلنا الطاغي إلى أن نجعل منها مشاكل نظرية. وهذا لا يعني أنها ليست في حاجة إلى قدر ما من النظرية لإضاءتها، ولا أن كل تفكير نظري- فكل تفكير، كيفما كان، نظري بقدر ما- في المشاكل تفكير خاطىء من الأساس، وإنما يعني فقط أن الميل إلى النظري قد يحول أحيانا -خاصة عندما يزيد عن حده- المشاكل إلى مشاكل زائفة- أي عامة لا خصوصية لها-فتأتي الحلول بدورها حلولا زائفة- أي عامة تحل كل شيء ولا تحل شيئا بالضبط -كما يعني أن كثيرا من ألوان التفكير النظري- أو المسماة كذلك، سواء في الصياغة أو النقد أو التطبيق-ما

هي في الواقع سوى ألوان من أحلام اليقظة أو الهلوسة، في أحسن الأحوال، أو تمارين مدرسية تافهة، في أسوء الأحوال...

أوكد مرة أخرى أني لا أتفلسف، وإنما أحكي، أحكي فقط !... المشكلة العويصة التي تعترضني بعد ذلك هي التالية: ما هو القدر الضروري من النظرية، وكيف أمنعه أن يزيد عن حده، لتبقى المشكلة حقيقية، بمعنى واقعية، ويأتي الحل حلا واقعيا، لا حلا نظريا، سطحيا أو زائفا أو عاما، وكيف يمكن، بالتالي، تجنب النظرية التي ليست أكثر من حلم يقظة أو هلوسة أو تمرين مدرسي ؟

أعرف أن البعض يملك جوابا جاهزا عن هذا السؤال لأنه لن يتردد في شهر كلمات –من نوع: الممارسة أو التجريب أو وجهة النظر– في وجهي. لن أقسو على هؤلاء أكثر مما يقسون على أنفسهم: لماذا –ورغم هذا الحل السحري، هذا الحل الجاهز الذي يجلدون به وجوهنا –يعانون من هذا الفشل الذريع، يبدون وكأنهم يتأخرون بدل أن يتقدموا، لماذا يتشردمون ويقتتلون ما دام الحل جاهزا وبسيطا إلى هذه الدرجة! ؟

إن هذا بالضبط ما أخشاه، إنه ما يؤرقني ويؤدي به إلى التردد والحيرة وعدم الإقدام بالرغم من أني لست على يقين كاف بشأنه، إذ ربما تكون وراءه أسباب أخرى، ولاشك أن وراءه الكثير من الأسباب، تغيب عن ذهني الآن...مثل ماذا! ؟

مثل أن يكون الخوف من الخطأ هو الدافع إلى الخطأ، وهو الخطأ، كما يكون الخوف من الموت هو الموت... أن يكون الخوف من الخطأ آتيا من عدم القدرة على المغامرة التي لا يمكن لأي فهم أو فعل أن يتم بدون قدر منها...

فأنا لا أفهم جيدا كيف باعت، لحد الآن، كل المحاولات التي قام بها الناس -هنا في عين الفرس- بشكل فردي أو جماعي، بالفشل إذ لم تؤد أية واحدة من تلك المحاولات إلى الوقوف على حقيقة ما حدث ويحدث ولا إلى وضع حد له ولا إلى تغييره...

مزعج، بل مروع، هــذا الإخفــاق !... وليس من المستبعــد أن يلعب دورا معينا في تحديد الحالــة النفسية والفكرية التي أوجد عليها طيلة فترة النفي !

إني لست ضد محاولات الناس، فأنا أدرك أن هذه المحاولات لم تكن بدورها عديمة الجدوى تماما، ولا هي ذهبت سدى بشكل كامل، إذ مكنت الناس، على الأقل، أفرادا وجماعات، من تجريبها والتأكد من أنها غير صالحة، ولو في الظروف التي أنجزت فيها وبالطرق التي تمت بها. إلا أن إصرارهم على المحاولة بنفس الصيغ، واكتفائي برؤيتهم يحاولون، فيخطئون، ثم يحاولون، فيخطئون، يدفعني باستمرار إلى مواجهة هذه القضية ذات الحدين: هل من الأحسن أن نحاول، فنخطئ، ثم نحاول فنخطئ، إلى أن نصيب أو لا نصيب، أو أنه من الأحسن أن نتحرك ونتروى، بما فيه الكفاية، أي إلى أن تصبح النتيجة مؤكدة أو شبه مضمونة، على أقل تقدير، فنربح بهذا الكثير من الضحايا والمفقودين ؟

أعترف أني لم أستطع حل هذه المسألة بما يكفي من الوضوح والحسم، فأنا لم أدرك، أني إنما كنت أتابع تسميم نفسي عن طريق الاهتمام بقضايا خاطئة أو ناقصة أو هامشية لكي يتسنى لي الحفاظ على ذلك الشعور بالعجز كذرع واقية ضد الانخراط في أية محاولة ترمي بي في خضم الحياة، أو الحوادث، كما فهمت من طرف أكثرية الناس وقتها... لم أفكر في الشيخوخة... لم أتذكر مرحلة الزهد التي كنت بدأت الدخول فيها قبل العودة

إلى مجلس الأميرال... لم أفكر في سنوات القطيعة الطويلة بيني وبين الناس عموما... لم أفكر ولا تذكرت أشياء كثيرة... ولكن ماذا كان بإمكان هذه الأشياء أن تفعل غير ترسيخ الشعور بالعجز! ؟

لذلك بقيت على موقفي الأول، أي محاولة الاحتفاظ للمشكلة على طابعها كمشكلة حقيقية وواقعية، ولو بمعنى لا واقعية ولا حقيقية، هذا المعنى الذي أشرت إليه سابقا. وغير خاف أن هذا الاختيار لم يزد وضعي إلا تأزما، وقد لا أحتاج إلى التأكيد مرة أخرى على أن رؤية الناس وهم يحاولون ويخطئون، ثم يحاولون ويخطئون قد ضاعفت من شعوري بالأزمة إلى حد الإحساس بالدونية واللاجدوى أحيانا، ذلك الإحساس الذي يبدو أنه يريح ضميرك -إذ يشعرك بلا جدوى عمل شيء ما دمت عاجزا عن القيام به وما دام كل شيء يتجــاوز قدرتك- ولكنه يعذب الضمير أيضا- ما دمت ترى كل تلك الكوارث ولا تستطيع أن تقدم للناس شيئا يخفف من وطأتها عليهم أو يساهم في وضع حد لها- فليس هناك ما هو أشد إيلاما للضمير من رؤية الناس -وكأنهم النمل- يحاولون، فيخطئون، فيؤدون ثمن أخطائهم بحريتهم أو حياتهم، ثم يحاولون فيخطئون، فيؤدون ثمن أخطائهم... بينما أنت جالس في مكانك أو وسطهم تقلب المشكلة على جميع وجوهها فلا تقدر على إيجاد حل لها وحدك ولا على المشاركة في محاولاتهم وأخطائهم ودفع الثمن معهم... لا أنت معهم ولا أنت ضدهم، عمليا... إنه شعور ليس فقط بالدونية والذنب، وإنما بالغربة التي قد لا تطاق، ومهما كانت قدرة هذا الشعور على تبرير عجزك فإنه يجعل بعضك يأكل بعضه كما في الأمراض الخبيثة، وربما كان أخطر الأنواع الخبيثة لأنه قد يقتل بسرعة لا يمكن أن تتصور! ...

أنا لن أنس أني كنت منفيا، وأن المنفي ليس كبقية الناس، غير أني اكتشفت أن ذلك الإحساس هو النفي الحقيقي، فالأميرال لم يكن يهدف إلى

عزلي في المكان والزمان، وإنما إلى عزلي فكريا وشعوريا بوضعي بين أناس لا أستطيع أن أفعل من أجلهم أو معهم أي شيء ولا أستطيع أن أشعر نحوهم ومعهم بأي شعور حقيق عقابا لي على إحساسي، قبل النفي، ببعض ما كانوا يحسون به وجرأتي على ذكره له، عبر الحكاية، في مجلس مخصص للأنس والإمتاع! ؟... الفضل في هذا الإحساس قد يعود إلى حالة الزهد التي كنت شرعت في الدخول فيها... ألا يقول المتصوفة إن الله يكشف الحجب ليروه؟ ربما، لم يكن ما رأيت وحكيت سوى ثمرة إزالة بعض الحجب، فشكرا لك، ربي، على إزالتك الحجب حتى أرى بعض الحوادث التي تعصف بعبادك... لو أمهلوني في عزلتي وقتا طويلا !

ولكن أن ترى الناس يحاولون، يقاومون بهذا الشكل... أمر لا يريح الضمير! أكثر منه أن ترى بعضهم، أو جلهم، مقتنعا بأن المحاولات قد أوصلت أو قد توصل إلى غاية !

(-معذرة أستاذ !

-خيرا إنشاء الله ! ؟

-أرجو مساعدتك !

-على أي شيء ! ؟

-حميد، يا أستاذ !

-حميد، من ! ؟

-حميد ولد العوجة، ألا تذكره، ذلك الذي ذهب إلى البحر مع رفاقه ولم يعد، تذكره ! ؟

-هل عاد ! ؟

-نعم، يا أستاذ !

-صحيح ! ؟

-ليس تماما !

-يعني ! ؟

-تركته غير بعيد عن البر !

-كيف ! ؟

-أنا خطيبته، يا أستاذ، وأنا أذهب كل ليلة إلى البحر أقدم إليه الهدايا وأنوح وأغني وأرقص لعله يعيد إلي حميدا... استجاب لي البحر هذه الليلة، فأعاده إلي...كان ثقيلا جدا، وأنا لا أملك من القوة ما أستطيع به أن أحمله إلى البيت...لقد مد إلي يديه أكثر من عشرين مرة، حاولت أن أنتشله من الماء، إلا أني لم أقدر...بل كاد يجرني هو إلى الماء !

-وأين هو الآن ؟

-مازال حيث رماه البحر، ولقد طرقت جميع الأبواب، كل الناس نائمون، نحن على موعد مع الفجر عما قريب، إلا أنت، فهل تذهب معي إلى البحر وتساعدني على استخراج حميد... إنك إن فعلت لن أنسى لك هذا الفضل ما حييت... هل تذهب معي يا أستاذ، إن حميدا لن ينسى لك هذه الخدمة، والبحر لن ينساها لك، وأهلي، كل أهل عين الفرس لن ينسوها لك، هل تذهب معي يا... أستاذ! ؟)

لا أثر لحميد ولا لغيره، لا قريبا ولا بعيدا من البر، وحده البحر يهدر بينما عينا البنت نهر يربط في السر بين البر والبحر...

(-آسفة جدا على إزعاجك... يبدو أننا تأخرنا... كان علينا أن نعود إلى هنا قبل أن يشرع الفجر في الطلوع، ولكن الفجر قد بدأ يطلع منذ دقيقة أو أكثر... دقيقة واحدة أضاعت مني حميدا، لن يضيع مني بعد الآن !

-طبعا، طبعا... لن يضيع منك في المرة المقبلة !

-هل أستطيع أن أطلب منك خدمة أخرى بدل هذه التي لم تستطع تقديمها إلي بسبب طلوع الفجر ؟

-إذا كنت أقدر عليها، بطبيعة الحال !

-تستطيع، وإلا ما كنت طلبتها منك !

-قولي وسنرى !

-أنت تقرأ الكتب ! ؟

-كنت !

-قرأت كثيرا من الكتب ! ؟

-قرأت !

-تعرف الكثير إذن عن البحر ! ؟

-لا، ليس كثيرا!!

-تعرف أكثر مني، على كل حال!

-لا أعتقد !

-تعرف أكثر من أهل عين الفرس !

-لا أظـــــن !

-أنا لا أقرأ، وهم لا يقرأون، تسعون في المئة منهم لا يقرأون، والعشرة في المئة الباقية أخذهم البحر... لا أحد يقرأ مثلك، قرأ ما قرأت !

-ربمـــــا !

-معرفتك بالكتب، ومعرفتك بالبحر من خلال الكتب أحسن من معارفنا جميعا !

-قد أكون على بعض المعرفة بما تقولين !

-أريد إذا سمحت، يا أستاذ، أن تستعمل هذه المعرفة في تسخير العفاريت التي تسكن البحر لتساعدني على استخراج حميد، وسأعطيك كل ما تريد !

-ولكني لست ساحرا، وحتى لو كنت...

-حاول، فربما نستطيع ذلك إذا تعاونا، أنا مستعدة لأكون أمتك !

-وكيف يمكن أن نتعاون ! ؟

-أول عفريت يطلع لك من البحر سأعرض عليه نفسي، أغويه... يضاجعني أو يتزوجني... كما يشاء... شريطة أن يستخرج حميدا من البحر !

-ولكنك مخطوبة لحميد ! ؟

-لن يغضب لا حميد ولا العفريت، نساء كثيرات متزوجات بواحد من الإنس وآخر من الجن! ... أنا المهم عندي حميد... المهم أن أحاول !

-آسف، لن أستطيع أن أساعدك بهذا الشكل !

-كلا، إنك تستطيع أن تساعدني بالكثير !

-مثل ماذا ! ؟

-تحاول القيام بما طلبت منك، أنا أساعدك... أقول لك ما تفعل!

-قلت لك إني لا أقدر!

-ألا تقدر على المحاولة ! ؟ نحاول، نجرب، يا أستاذ، قد يأتي الفرج على يديك أو على أيدينا معا!

-أعرف أن ذلك لن يفيد !

-وهل جربته ! ؟

-لا، طبعا... إلا أني أعرف !

-وماذا ستخسر إذا حاولت معي! ؟ إننا لن نخسر أكثر مما خسرنا الآن! ثم تصور... تصور أن محاولتنا قد كللت بالنجاح... إننا سنعيد جميع الذين

ذهبوا ولم يعودوا، ستصبح أهم شخصية في عين الفرس، وربما يأتيك الناس من كل الأنحاء !

-قلت لك إني لا أقدر !

-سأنتظرك هنا غدا، بعد العشاء مباشرة... في هذه المغارة العميقة نخوض حرب إغراء العفاريت...

-قلت لك...

-لا تقلها مرة أخرى أرجوك يا أستاذ، أريد أن تحاول معي، معنا جميعا... لا تفكر في الخسارة فقط ... فكر في النجاح... لن نخسر أهم مم خسرنا... نحن نحاول والله القادر!)

قد تأتي غدا وتقول لي:

-يا نبي !

-أو:

-يا رب !

-بدل:

-يا أستاذ !

ولكنها حتما ستهشم رأسي كما فعلت تلك الليلة! ... تلك الليلة لم أنم، ليس لأن النهار قد طلع، ولكن لأن خيالا اعرفه ولا أعرفه أخذ يطاردني:

- « نحن نختلف عنك بكوننا لا نريد أن نربح شيئا من غير أن نخسر شيئا آخر، أنت تعودت على الربح، تريد أن تربح من غير أدنى احتمال للخسارة، ربح مضمون الحقيقة... وكأن الحقيقة منفصلة عن المغامرة والخطأ ! أتظن أن مكتشفي الحقيقة معوقون! ؟ لهذا أنت ضدنا بالرغم منك! »

أمد يدي، كمن ليست له يدان، لا أمسك بأية عصا أتكئ عليها أو أهش بها:

« هذا التمزق حقيقة، هذا العجز حقيقة، وهذا الشعور بالذنب، وهذا الإحساس بالدونية، هذه الحقيقةِ التي تجعلني في صفكم بالرغم منكم، فلماذا لا ترون سوى أنفسكم !

يبتسم وجه الخيال فأتذكر وجه جدي الذي مات في حركة:

-« إن ما يدفع إلى الانهيار، سواء كان شعورا بالذنب أو بالدونية أو بالعجز ليس حقيقة، الحقيقة إيجابية، دافعة، مقوية، الحقيقة تمنح الإرادة، ولو بمعنى الصحة النفسية والمحافظة عليها ! »

أحاول أن أتماسك لأن العصا تهشمت أو لأن يدي تهشمتا:

-« وهل هناك قوة أكبر من هذه التي تجعلك تقف فوق العدم، هل هناك إرادة أصلب من هذه التي تسمح لك بالبحث في حطام الأشياء ومتاهة المتناقضات وتعدد الزوايا؟ هذه الحقيقة، فهل أنت مبصرها خارج نفسك؟ »

يغضب الخيال ويختفي هابطا وكأنه يتهاوى، أتهاوى بدوري وكأني أريد أن أتبعه أتذكر أني منفي وأعود إلى نفسي ألومها على حماسها...مصيبة هذا الحماس، أتمنى ألا أتحمس لشيء أبدا، أن أكون بهدوء الموتى، بالطمأنينة المزعومة لدى بعض الحكماء، أن يخترق كياني سهم أو ذخيرة، مدفع وأظل ساكنا في ذروة تأملي السعيد !

-« ترفض الاعتراف بأنك تعبت، بأنك تتمنى لو يأتي أعوان الأميرال وتقاد إلى تجرع السم... الاعتراف بأن فكرة محبطة، مليون فكرة وإحساس من هذا النوع، لا تساوي فكرة واحدة، إحساسا واحدا... محفزا... إن أفكار الإنس والجن مجتمعة لا تعادل ذرة تحفز أو تجربة اكتشاف إيجابي، إن الناس تحتاج إلى أفكار محركة تقوي لديهم الإرادة ولذة خوض معترك الحياة، تفتح شهيتهم للسعادة... إن كل الأفكار السلبية أمراض أشد فتكا من أشد الأمراض خبثا... من كل الكوارث التي تلم بهم... إنك ضد الناس، ضد نفسك لأنك

تتمسك بذلك التفكير الذي لا يشبه غير الهذيان الموصل لا محالة إلى الجنون الموصل حتما إلى ذروة العزلة الموصلة إلزاما إلى الموت...

هذا شعورك الدفين، ولكنك تدينه وفي نفس الوقت تحوله إلى قيد إضافي لنفسك التي تأكل نفسك ! »

ولكني منفي، كيف تنسون أني منفي، لست مثلكم؟

-« لسنا أحسن حالا منك، كلنا منفيون، لن تجد واحدا منا يشعر بأنه حر طليق في هذه المدينة أو خارجها، غير أنا نحاول... »

يا أبناء المدن اللعينة... يا شياطين... وتتظاهرون بالمسكنة! ؟ ما بقيت لي بينكم سوى أيام... مع الأسف الشديد!

(- تعــرف يا أستــاذ. . . لــو استطعنـــا أنت وأنا أن نذهب إلى عمق البحر! ؟

-لفعلنا ماذا ! ؟

-لعرفنا أين يذهب هؤلاء الشباب ولوجدنا حميدا !

-تعرفين أننا لن نعود !

-أشدك إلي بحبل طويل !

-فعل ذلك قبلنا غيرنا وما عادوا !

-نركب أحد قوارب الصيد!

-ذهب أقوى الصيادين وما عادوا !

-تفتح أحد كتبك، تجد لنا وسيلة لصنع قارب لا يقهره البحر !

-لا أعرف كيف تصنع القوارب !

-تقرأ لي وأنا أصنعه !

-لن تستطيعي وحدك !

-تقرأ لأهلي وهم يصنعونه !

-ليس عندي كتب تنفع !

-وما هذه الكتب التي معك ! ؟

-هذه كتب للتفكير في الوجود، في... كيف أشرح لك! ؟ ... في معنى الحياة والموت!

-أنت تفكر كثيرا إذن، أما كفاك ما تفرضه الحياة من تفكير وهم، ألا تعلم أن التفكير الكثير يؤدي إلى الذبول! ؟ واضح إذن لماذا أنت حزين، مريض على الدوام الله يأخذ بيدك... اللهم خذ بيده يا رب!)

آمين... يا رب العالمين! فها أنا قد علمت الآن معنى النفي الذي أراده الأميرال... ولماذا لم يعزلني عن الناس، ولماذا... الكمامة المثقوبة والأنبوب الصغير الضيق و... تأجيل تجرعي السم... لا شك أن القارورة فارغة كما الكمامة مثقوبة! ... كما الجسد... كما العين والذاكرة والقلب!

- ن -

في هذا الجحيم الذي أخذ فجأة يطل على إحدى نوافذ الجنة، في هذا المنفى الذي اتسع كما يتسع البحر حول جسد السباح... قضيت التسعين يوما المحكوم بها علي... ما أقصرها ! ...

مر على أجلي ثلاثة أيام، تصورت نفسي الجاهلة أن الأميرال قد نسيني إذ لم يأت أحد ليأخذني إليه، لو أنه أمرني بأن أذهب إليه بنفسي! ... لم أكف لحظة واحدة خلال تلك الثلاثة أيام عن تلمس الكمامة والقارورة ! ...

صباح اليوم الرابع جاءنا الخبر الذي لم يفرح أحدا بالرغم من أنه خفف قليلا من الحزن الجاثم على ذرات دمنا:

« أطاح الأمير صانع حظه أبو المجد بنسعيد، بمساعدة الأمير سعيد حظه أبي العـــز بنسعيد، بنظـــام الطاغية، وارث

حظه أبي سعيد بنسعيد، في إطار استكمال مسلسل التحرر الوطني. واستكمـــالا للمسلسل ذاته تم اقتسام الإمـــارة بين أبي

المجد وأبي العز. أما عين الفرس فقد أصبحت عاصمة لإمارة أبي المجد في إطار تقريب الإدارة من المواطنين، ذلك الإطار الذي نتمنى أن تخضع له كل المدن في المستقبل القريب! »

توقفت عملية اختفاء الناس في البحر طيلة الأسبوع التالي. وذلك لكي تعود إلى ما كانت عليه من قبل !

أما أنا فلم يتوقف شعوري بالنفي لحظة واحدة. لذلك لم أخلع الكمامة ولم أكسر قارورة السم، وإنما قررت أن أحكي في كل مدينة أو إمارة أستطيع التسلل إليها، حكاية قديمة -جديدة كهذه التي حكيتها في عين الفرس، عفوا، عن عين الفرس، فلا شك أن مثل هذه الحكاية، أي نفس الحكاية، تقع في كل إمارة وتحتاج فقط إلى من يعيد حكايتها...

وإذا أمهلني العمر قليلا، ولم يطلني أي قرار أميري، فإني سأروي للناس نفس الحكاية عندما تصبح كل قرية، بعد المدن، إمارة، إن لم يروا بعد أن كل التجمعات السكانية في طريقها إلى أن تصير إمارة، وإن كل فرد في طريقـه إلى أن يصبح أميرا !... وهممت بترك المدينة، فإذا طيف محمد النفال يتوجه نحوي تسبقه ابتسامته العريضة الخبيثة:

-نركب أحد القطارات إلى أنفسنا ! ؟

قلـــت:

-وما رأيك في القوارب الصغيرة ! ؟

قـــال:

-كما تشـــاء !

وأمسكت به من ذراعه اليسرى، ثم سرنا نحو البحر !

مسالك الزيتون

القسم الأول:

مسالك الماء

تحذيـــر

« ... وربما يفهم المعترض من اللفظ ضد ما قصده لافظه كما وقع لشخص من علماء بغداد أنه خرج يوما إلى الجامع فسمع شخصا من شربة الخمر ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولت   فواصل شرب ليلك بالنهـــار
ولا تشرب بأقـــداح صغـــار   فإن الوقت ضاق عن الصغار

فخرج هائما على وجهه للبراري إلى مكة فلم يزل على ذلك الحال إلى أن مات فما منع من سماع الأشعار والتغزلات إلا المحجوب الذي لم يفتح الله تعالى على عين فهم قلبه إذ لو فتح الله تعالى على عين فهم قلبه لنظر بصفاء الهمة وسمع بثاقب الفهم ونور المعرفة وأخذ الإشارة من معاني الغيب واتبع أحسن القول بحسب ما سبق إلى سره...».

عبد الوهاب الشعراني

الطبقات الكبرى

قــوس قــزح
(مسلك تمهيدي)

قال ميم متابعا حديثا قديما: -« ثم اشتق له منه شخصا على صورته سماه امرأة، فظهرت بصورته فحن إليها حنين الشيء إلى نفسه، وحنت إليه حنين الشيء إلى وطنه... فظهرت الثلاثة: حق ورجل وامرأة، فحن الرجل إلى ربه الذي هو أصله حنين المرأة إليه. فحبب إليه ربه النساء كما أحب الله من هو على صورته» !

زعق جيم فبانت أسنانه المهترئة السوداء: -أنا والله على دين هذا الرجل: لم أحب يوما واحدة بعينها، كانت كلهن، بدون تمييز بينهن لا في السن ولا في القبح، موضع حبي حين كان... جاه المال والمنصب عصا موسى أتكيء عليها وأهش بها على سريري... أما اليوم فالحمد لله لا أحب سواه: باخوس ربي !

علق كاف غاضبا: -كثر المنافقون، تجد أكثرهم بين لصوص الأمس وانتهازيي اليوم وكأن الدنيا لا يضاجعها ولا تحبل إلا من القراصنة !

ثم استدار نحو ميم ليعتذر: -أولاد الشيخات لا يفقهون في الدين... حرك الوترتر !

تدخل جيم ليتقي الجد بالهزل: -لا... حرك البطن... تفطن !

فقال ألف لميم: -حدث ولا تهتم، فهؤلاء قد خربت فتحاتهم الثلاث ولم يعد بإمكانهم أن يضبطوا الهواء !

تابع ميم:- « ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح » !

تدخل لام وهو يهتز وكأنه وصل الانتعاظ: -امرأتي طالق طلاق الثلاث !

قال ألف لميم: -ها أبناء البغايا بدأوا يفتضحون، علامتهم أنهم يبيحون زوجاتهم لعمالنا في الخارج ولأشقيائنا في الخليج !

تابع ميم: - «... ولم تكن الشهادة إلا في مادة، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله. وأعظم الوصلة النكاح، وهو نظير التوجه الإلهي إلى من خلقه على صورته ليخلفه فيرى فيه نفسه، فسواه وعدله ونفخ فيه من روحه الذي هو نفسه، فظاهره خلق وباطنه حق» !

زعق جيم مرة أخرى: -إذن في ذلك العدد الهائل من الفتحات النسوية المختلفة الأشكال والأحجام والألوان لم أكن أضاجع سوى الرب... سبحانك كما عبدتك ! سبحانك كم بحثت عنك... وها قد وجدتك في الزجاجة... أتسكن زجاجة والكون كله ملكك ! ؟

غضب كاف مرة أخرى وضرب الطاولة برجله في ذلك الركن الذي يحتله دائما وحده:

-أنت ليس لك ما تضاجع به كالرجال والزجاجة هي التي تشربك... كيف تزعم مضاجعة الرب يا أقل من امرأة!؟

استنجد جيم بالهزل مرة أخرى: - ربي باخوس... ولي تمثال، بل تماثيل عديدة له تجسد كل الصور الممكنة للنساء !

قال ألف لميم: -الكبث أكل عقول الأغبياء... من كثرة ما رأوا من رجال يركبون أمهاتهم وما يمر أمامهم في المقاهي من نساء... والله ما فيهم واحد يقدر على أن يفعل مع امرأة أكثر من التبول !

تدخل نون الذي يقف وحده على رجل واحدة يشرب وحده ويتكلم وحده ليقول هذا المقطع الشعري بأعلى صوته:

« ففي النشأة الأولى تراءت لآدم

بمظهر حوا قبل حكم النبوة

وتظهر للعشاق في كل مظهر

من اللبس في أشكال حسن بديعة

ففي مرة «لبنى» وأخرى «بثينة»

وآونة تدعى «بعزة» عزت»

صاح الجميع بصوت واحد ما عدا ميم: -الله، الله... يا أستاذ!

طوى ميم الورقة التي كان يقرأ منها وأعادها إلى جيبيه بينما كانت أصوات عديدة تستزيد نونا الذي كان قد عاد يقف على رجله اليمنى ليشرب وحده ويكلم نفسه.

قال ألف لميم: -تابع... كلهم نائمون على دجاجة يحسبونها امرأة... حرك الفستان تظهر لك الدجاجة ... تابع أرجوك !

قال ميم: -ما عادت بي رغبة بعد سماع ذلك الشعر... يبدو أن الساكتين أعلم وأشد ألما من الناطقين !

قال ألف: -تعرف القول السائر: ساكت على خنزة ! ؟ اقرأ من تلك الورقة لنفجر مجاريهم الحارة... دع القذارة تخرج من المجرى، من كل مجرى، ليختنق هؤلاء المغفلون الجالسون على دجاجة وأسنانهم على الزجاجة!

اعتذر ميم ثانية: -لاحظ... هؤلاء الصامتين... يبدون وأكنهم يسخرون من سذاجة ألسنتنا!

وكان ميم قد أشار إلي وكأنه يعاتبني على صمتي فابتسمت له برفق وكنت أتمنى لو أنه ما توقف عن القراءة ولا توقف نون عن قول الشعر... لست أدري من أين يأتون بذلك الكلام الجميل الذي تمنعني بقية إيماني من أن

قال ألف: -اشهدوا... إنهما يسبان الدين !

قال ميم: -اتركهما وشانهما... لست عليهم بمسيطر!

قال ألف: -والإرهاب... من يمارس الإرهاب في هذا المكان ! ؟

قال الشيطان مهددا: -أنا... أنا المكلف به... بالأمن... أعني... وأنت تراقب فقط وتكتب التقارير...

قال جيم: -ها أبناء الخونة يتنافسون في الخيانة !

ثم مال على ألف وهمس له: -السكر لا ينبغي أن ينسينا حدود العمل!

فجأة تبادل الثلاثة، الشيطان وألف وجيم، ابتسامة عتاب، وسأل ألف جيم:

-ماذا رأيت أيها العراف العظيم... قل بربك ماذا رأيت!؟

قال كاف: خمر قليل... قليل جدا... وربما جفاف !

قال جيم: -أفصح... يا عراف قرن ربعطاش !

قال كاف: -أرى أحد عشر نجما يجرون في كل اتجاه...

قال جيم: -ماذا ! ؟ أحد عشر...! ؟

قال كاف: -انتظر... إنهم يتساقطون كحبات تراب!

قال باء الذي يأتي دائما بكامل بذلته الرياضية: -ذلك يعني أن فريقنا سيسقط إلى القسم الوطني الثاني، وربما الثالث... إذا صحت العرافة!

قال جيم: -ياللكارثة... وماذا سيكون مصيرنا بدون كرة القدم ! ؟

قال باء: -لنا الخمارات أو المساجد...

قال جيم: -ولكنهم سيغلقونها إذا سقط الفريق إلى القسم الثالث !

قال ميم: -ليس لكم إلا شيخ عظيم كشيخي تسكنون إليه كما يسكن الماء إلى مجراه.. والبهائم إلى مرابطها... والرضيع إلى أمه...

قال ألف لميم: -أسكت أنت... أنت صديقي... اتركهم يتكلمون بما نريد!

قال كاف: الناس غير على سبة... العرافة هي أمكم!

أخذ كاف يهتز على الفور من القهقهة حتى اهتز زجاج المكان. قال الشيطان: -أسيادنا... الزجاج شديد الحساسية!

لكن كاف لم يتوقف عن القهقهة إلا عندما صاح نون خارجا من وحدته: -يا عباد الله، هذه آخر الساعة... علامات الساعة ألا تبقى لا في الكأس ولا في الزجاجة... لاثمالة ولا حباب... لا لون أصفر ولا أحمر... وكذلك أن نشرب بلا عقل.. فلا... فلا يسطيع الإنسان أن يسكر ولا أن يصحو... ولا أن يذكركم زجاجة شرب... هاكم ها كأسي... انظروا فيها... وها بطني... قولوا لي كم شربت!

قال الشيطان: -اثنتين وثلاثين زجاجة... بالصحة والعافية !

أخرج نون بطاقته الوطنية، تأملها طويلا، ثم قبلها وأعادها إلى جيبه قائلا: -الحمد الله أننا مازلنا على أرض الوطن!

اقترب منه ألف ليسأله: -أنا متفق معك... خيرات الوطن يجب أن نقتسمها فيما بيننا بالعدل... ومن لا يملك شيئا... إذا احتاج يشرب مثلا... مثلا فقط... بدون مقابل... كما في... أين... الصين أو كوبا أو...

كان نون قد عاد إلى عزلته بينما هدد الشيطان: -الداعية إلى الفتنة أول من يموت أو يقتل... وقد يجلد قبل ذلك !

ابتسم ألف ابتسامة صفراء وعاد إلى مكانه قرب ميم الذي قال له:

-إزيك يا جميل! ؟

قال ألف: -زي الملوخية بالأرانب!

قال جيم: بس بشوية سودانية!

لكن ألف لم يسمعه إذ كان قد تشاغل بمشهد في باب المكان بعد أن قال لميم: -انظر... الله يخرجها بخير!

قال ألف: قدر فقط... إنك تعرفني منذ أكثر من أسبوع... صديق!

قال ميم منافقا: -وجه صبي لم تتحدد ملامحه بعد... أنت في حوالي الثلاثين!

تظاهر ألف بالعجب: -غريب! ... كل من سألته يجيب مثلك! ... هل تعرف يا مولاي العزيز كم عمري الحقيقي؟... خمسون سنة بالتمام... هكذا أنا يا عزيزي... رجل في الخمسين ومن يراه يجده في الثلاثين أو أقل ... السر؟ هل تريد السر! ؟... الستاشيات... ليس يشيب من يأكل البذري... عندي الآن منهم ثلاث يتقاطرن لذة فتية وكأنهن صنعن من حليب أمي... وعندي رابعة للشتاء فقط... سوداء كأنها من شكلاط سويسرا... فكيف أشيب... يكون لي عمر... أفهم كاف الغبي! ؟

تدخل الشيطان الذي كان يسترق السمع:-الدجال يفضل الرجال... الفتيان... طبعا... على النساء... حتى على الستاشيات منهن!

لم يفهم ميم قصد الشيطان، لكن ألف حاول أن يشتري صمته:-أنت ضيفي هذه الليلة... واحدة لك... الثانية لميم... الثالثة لي... طبعا!

قال الشيطان: الستاشيات! ؟ بنتي عمرها عشرون سنة يا ق...!

تصطاد الأغبياء بالأبرياء... قـــ...ا... ق... و ...قـــ...ي!

علا الغضب وجه ألف فغطى الخوف الغضب، لكنه قال: -أبوك... قاقوقي! وأشار الشيطان إلى الزبانية الخمسة الذين اجتمعوا قرب الباب فسكت ألف. قال الشيطان في هدوء:-سنشرب على شرف أبي وشرف أم ألف التي كانت تشتغل معه، هات البيرة...

تجمع الغضب بين حاجبي ألف، لكن الشيطان أشار مرة أخرى ناحية الزبناء فقال ألف لراء:-أعطه بيرة!

حدست راء الموقف: وأنا! ؟

قال ألف حقيرا:-خذي بيرة أنت أيضا!

وأرادت أن تستغل الموقف:-كاف لم تعد معه نقود...!

قال ألف غاضبا:-أعطه بيرة!... والله لن أؤدي غيرها ولو...!

وعاد إلى ميم:-حدثني عن شيخك... فربما يثوب علي الله على يديك فأنضم إليكم بدل الانضمام إلى حزب مفضوح الهوية!

قال ميم: يكفي أن تفعل مثلي: تصلي ستة أشهر وتسكر الستة الأشهر الباقية... أكيد أن إبليس سينهزم أمام الله!... وإذا أكثرت من الصوم...!

قاطعه ألف خائبا:-لا... حدثني في الأول عن الشيخ، أرجوك...!

كانت موجة عالية من الضحك قد غطت كل الأصوات. كان الزبناء قد انقسموا إلى أربعة مجالس: مجلس حول جيم يتبادل النكت والنوادر، مجلس حول عين الشاعر يتبادل الملفات حول أعراض المثقفين، مجلس نون الذي يشرب وحده ويتكلم وحده، مجلس راء والشيطان يتبادلان السخرية من غزل كاف براء... بينما شكل ألف وميم حلقة منفردة غير بعيدة من الزبانية الذين يسدون الباب بظهورهم...

رغم ضوضاء مجلس الشاعر كان ضحك مجلس جيم يطغى من حين لآخر على المكان كله... مرت موجة الضحك فعاد ألف إلى ميم:

-أرجوك... أريد أن تحدثني عن شيخك... ربما...!

قال ميم: شيخي مريض هذه الأيام... الله يأخذ بيده!

تصنع ألف الحزن:-ما به.. مم يشكو سيدنا ؟

قال ميم:-ضاعت منه مرآة!

كتم ألف ضحكة:-مرآة! ؟... مسكين... ماذا يفعل من غير مرآته!؟... وماذا كان يفعل بهذه المرآة! ؟

حاول ميم أن يوقفه:- عيب يا... أخي!

تابع ألف:-بقرة الدجال... هذه هي بقرة الدجال... سمينة لا يحتويها مكان... وسيمة وما هي بالجميلة... تدر لبنا بالقطران... تبول بولا خاليا من الماء... كأنه غاز أو هواء... كهذه الخمرة التي تشرب يا حقير... يا حبيب! كلكم أشباه لكاف... لذلك تزداد حقارتكم... محبتكم!

أوقفه الشيطان:-أحبابنا... أصحابنا... إنها ساعة الحزم... الآن سيظهر الرجال الحقيقيون... أخرجوا... أيها الأسود... اتركوا الحمير والقردة... والزواحف... كم رجلا ضيع نفسه في مثل هذه الساعة... وكم...

قالت راء: انتهى درس اليوم يا أطفال... إلى الغد!

قال كاف:-لن أخرج إلا وأنت معي!

أحاط به الرجلان العظيمان الخلقة، فقال له أحدهما:-مازالت مريضة!

قال الثاني:-هذه حانة وليست مبغى!

قال نون:

«بكى عاذلي من رحمتي فرحمته وكم مسعد من مثله ومعين

ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني»

قال ألف لميم:-تعال معي... الليلة تبيت مع الشكلاطية أو... إذا شئت... عندي زجاجة ويسكي... تعال!

تبعه ميم وهو يردد:-تعال... تعال!

بدا كأنه يجر نفسه وراءه أو يجر ألف. آنئذ نظرت إلى الثمالة فأبصرتك تبتسمين وتقولين لي هامسة:-وأنت أيضا تعال... تعال...تعال!

قلت للزبانية:-اعطوني كأسا أخيرا لكي أطير... جناحاي مازالا ثقيلين... لا ترفضوا: إني أستطيع أن انتفخ حتى أملأ هذا المكان كله... فلا تستطيعون إخراجي... هاتوا الكأس الأخيرة... ما قبل الأخيرة!

تدخلت راء التي كانت تستعد لإتمام سهرتها خارج هذا المكان:

-البوغوص لا خوف منه ولا عليه.د. اتركوه لي!

انصرفـوا فقالت راء بعـد أن صبت لي ولها:- تسهر الليلة معي!؟... كل شيء... أينما تريد... على حسابي!

قلت:-افرغي... آسف... عندي موعد... أحبك... يا... سيدة الحسن، ولكن...!

ورأيتك في الكأس تستعجلينني:-تعال... تعال... النوم سيغلبني!

فتبعت نفسي خارجا من الباب الخلفي وراء... تجرني من الدخان والماء إلى شظايا الكأس... فما أحسست بالزجاج في حلقي!

قالت راء: ويحك... ستقتل نفسك!

في رأس الشارع كنت تستعجلين:-تعال... تعال... خفت أن يغلبني النوم فخرجت...!

أخذت أجري نحوك:-عا... و...عوعا... و... عا...و!

غضبت وقلت:-تماسك... تعقل على الأقل!

ولست أدري كيف صرت بومة فقلت لي:-اصعد!

صعدت على كتفك ومنقاري على حبل وريدك، قلت: إهدأ !

كم شارعا وزقاقا قطعنا ! ؟ هتفت فجأة: قوس قزح !

همست فرحا: حزام للافاطمة الزهراء... نركبه! ؟

وركبناه: صعدت عليه كما يصعد الإنسان على درج وأنا على كتفك، ثم نزلت عليه كما ينزل الإنسان على درج وأنا على كتفك منقاري على حبل وريدك... كان ينتهي في غرفتك... وسط السرير...عبر النافذة... تمددنا... تعانقنا... ثم... قلت:-نركب قوس قزح مرة أخرى!

فركبنا نزولا وصعودا عشرات المرات. ولما تعبنا قلت:

الزيتـون الأحمـر

كم أديت من أجل كسرة حنان!

همزة القطع، كهمزة الوصل، كياء النسبة ونون الهوية...

كل منها يقطرون، كل منها يسطرون... أولئك هم الشعراء...

وهؤلاء هم الغاوون... هم في كل مكروفون... يمدحون أو يهجون... وأمثالنا عند كل طلل، وعند كل باب مغلقة، يبكون... عند كل مفترق... (والله لو رأيت الأرز في عينيها، والعنب في خذيها، والنعناع في شفتيها، والله لو رأيت البسمة الفاجرة التي تسبقها... ما بكيت على أندلس أو بردى، على منبت رأس، أو مسقط كأس ولا على حلم من أوهام النفس !).

لمكناس سبع أبواب، ومراتب الشمس فيها كمراتب الماء، كمراتب الصحراء ومراتب الجبال ومراتب النصال... اغسل نظاراتك ! وترى أبواب مكناس المشرعة لا تتسع لصدرك ولا لبطنك من كثرة ما شربت من ماء ! وترى الشمس تهرب منك والصحراء إلى المخازن لشدة مطاردتك للضياء ! وترى قارة في نفسك، إذ ترى قارة تسرج الثلج كل مساء، إذ ترى السفراء في القبة يبتاعون قوارير الهواء، إذ ترى الصهريج عطشان وهو المليء كل الامتلاء...

لمكناس سبع أبواب لم تفتح لي منها إلا باب واحد: باب الماء !... ذلك أني لما وصلت إلى هذه المدينة كان بوفكران قد امتطى ظهر الأسوار الحزينة وذهب إلى الكروان وكانت الكيرة من شدة الصهد أو كثرة البرودة تجري في قنينة !...

حظك... حظك يا ابن ناحية البيضاء !أن تصل والنفس مثقلة بقديم الأهواء أن تجد سايس يهرب من زرهون بتواطؤ مع الزيتون !

(والله لو عرفت أنك من هناك، أنك غاوية قدور العلمي، لجئت يومذاك، قبل أن يزداد ألمي !).

سألت البنت التي كانت تغسل ساقيها في النهر فوق باب كلية الآداب والفنون الجميلة:

-يا مليحة، أين الطريق إلى إفران، والله بي رغبة في واحدة من البربر أو الرومان لأكتب عنها رواية ! ؟

قالت البنت وهي تعري ركبتيها:

-الطريق من هناك !

وأشارت إلى عينيها:

-وهذه الطريق ! ؟

وأشرت إلى المسلك الضيق في صدرها:

-إن شئت أن تكتب عنه يجب أن تحمل الرواية اسمي وأن تكون شبيهة بالقصيدة !

وأخذت تكحل عينيها، فرأيت الأرز يترجل ليشرب من العينين:

-أسميها زكية، أليس هذا اسمك ! ؟

وأشرت إلى الزهور المتفتحة حول باب الكلية:

-ويحك، قالت، وقد عضت على خصلة من شعرها بالكرز، حتى اسمي أضعته ! ؟

(كانت لمكناس كل الأسماء الحسنى فاقتسمتها الكتب الصفراء وحين وصلت إليها عطشان وجدت أبناءها بباب منصور يتخاصمون حول جرعة ماء وقيل حفنة هواء خالية من الهواء).

-سأسميها النعناع !

وأشرت إلى الحقل المقاوم الذي مازال يربط بين حمرية والزيتون:

-فهو، أضفت، لا يستقيم بدونه شراب !

(قبل أن يشقوا الطريق المارة من هناك، من بعيد، نحو فاس، كانت مكناس غارقة في الأشجار وكانت الحقول كالييوت إذا جاء الليل تزهر وتنير كما تنير الأزهار وفتحوا الطريق من هناك فأصبحت فاس عقدة مكناس ونسيت الصحراء والجبال).

-سميني الملوخية !

ظننتها تمزح، فتصنعت الجد:

-ولم لا، فهي تتسايل مثل الخليع! ؟

فاهتزت ضحكا بينما الشعر البني يهزه أريج الضحكة الوردية:

-كأنك من جمعية الأندلسي أو الملحون! ؟ قالت وهي تمسح شفتيها من الطين.

وتذكرت أني حمدوشي وإن كان يهزني السنيتر والبندير كما يهزني الهيت والعيطة !

(في مكناس حزن دفين منذ زمان عتيق لا أحد يعرف لماذا لا يهدأ كل عام إلا بالدم والبكاء، حزن كالعطش الذي يغص صاحبه بالماء).

-تعرفين، سأسميك العنب! ؟

وأشرت إلى أسنانها فأخذت تلحس أصابعها وهي تضغط، وكأنها تعصر، أسنانها البيضاء:

-سميني الزيتون... أو لا شيء !

ومرت بكفيها على الخذين فتسايل الزيت الأخضر منهما مسالك دسمة تشبه مجاري المعاصر:

-طيب، سأسميك مسالك الزيتون، ففي هذي المسالك كل ما تشتهين !

(بمكناس كان في كل بيت مخازن للقمح، ومخازن للزيتون، وذات يوم جاء الزلزال من لشبونة فاختلط القمح بالزيتون وصار لبنات المدينة لون البشرة الذي تعرفون !).

-قبلت، قالت وهي تقفز من فوق النهر.

ورأيت أمامي زيتونة لا هي بالشرقية ولا هي بالغربية، لا هي من الشمع ولا هي من المرمر، لا هي كاليمامة ولا هي كالقطة، لا هي تخجل من فرط جمالها ولكن الأرض التي أنا منها، تلك التي تعطي القمح كما تعطي الزيتون، تخجل من أنها أضافت إلى عيوبنا الكثير العيون !

-عندي درس في النحت، أضافت وهي تبتعد في هدوء، تمشي وكأن الأرض هي التي تتحرك في الاتجاه الذي تريد !

-عندي رجاء أخيرا !

توسلت، أنا العبد الحقير، الذي ازدادت حقارته وكأني أتوسل إلى السماء:

-اتركي لي ثوبك أكتب عليه مخطوطتي !

تلمست ذيول الفستان:

-عيب والطلبة... والأستاذ المسكين! ؟

تخيلتها عارية تدخل الفصل:

-تدخلين جاهزة، لن يجد موديلا أروع منك، وستكونين خالية من الإثارة الجنسية، فالجسد العاري جميل ولكن لا يغري غير المكبوتين !

(أنا حين وصلت إلى هذه المدينة رأيت الناس متراكمين خلف زجاج المقاهي مشدودين إلى ثياب النساء والأصباغ كما في كل المدن التي لا تمارس

العرى إلا في الخفاء، لو كنت امرأة لخلعت ثيابي وأصباغي ومشيت في الشوارع عاريا !)

–وهل فيكم رجل واحد غير مكبوت! ؟ إن الرجل سيلبس المرأة الثياب الفاخرة ولو كانت عارية، لكني سألبي رغبتك لأرى !

تظاهرت بخلع الثوب ورميه نحوي، وتظاهرت بالقبض عليه وانتشاله من هوى الريح!

(لما وصلت إلى مكناس صبيحة ذلك اليوم الممطر وعلمت أن الثلج يتساقط عليها من إفران خلعت كل ثيابي القديمة وتصورت أني سأبدأ فيها من جديد كما ولدتني أمي إلا أن الناس التفوا حولي: ارتد ثيابك، أيها البدوي، نحن في مدينة ولسنا في هضبة من هضاب الشاوية!).

بسطت الثوب، حين غابت عن نظري، وأخذت أكتب على ياقته العنوان: «مسالك الزيتون» ولكن الحرس أحاطوا بي:

–ماذا تكتب... لا فتة! ؟، سألني الحارس الصغير ذو الشارب الرفيع

–لا، عنوان قصيدة أو رواية، أجبت وأنا أطوي الفستان

–بطاقة الطالب! ؟ قال الحارس الأسمر الأبيض العينين

–تفضل، قلت وأنا أضع الثوب والقلم بين يديه!

–طيب، تحرك! وغمز لرفيقه الذي احمرت وجنتاه وقال:

–تحرك يا جبان، ألا تسمع ؟!

–صبرك، قلت مرتعشا، أنا... أنا تمثال، نحتتني تلك اليمامة بنت القطة بنت الارزة بنت القمح والزيتون... لكي يكتمل الفضاء بكلية الفنون!

قال الحارس الصغير وقد ركبته موجة ابتسام:

–تصور، تـــ... تـــ... تصور أن العميد رآه !؟

قال الآخر:

-مجنون، أتركه... إن تحرك نحو الباب نأخذه!

(قيل لي إن مكناس كانت لا تزرع غير القمح والزيتون، وذات سنة جاء الرومان وأقوام آخرون، كانوا يحملون السيوف والرماح والنقود، فشهر أهل المدينة في وجوههم سيقان القمح وأغصان الزيتون، وبعد حرب طويلة دامت مئات السنين قال الوافدون: نتركهم وشأنهم، إنهم مجانين! منذ هذا التاريخ بدأ التخطيط للطريق الرابطة بين الرباط وفاس المارة بعيدا من مكناس).

قال الحراس بصوت واحد: -تحرك، هيا ابتعد !

أخذت أمشي، مشيت ساعات، وربما أياما أو سنوات، ولكنني كنت لا أبرح مكاني... نظرت إلى الباب: لا تزال هناك كلية الآداب والفنون الجميلة!

نظرت إلى السور: مازال النهر يجر الجبل والأشجار عبر الحاجب وإفران!

نظرت إلى نفسي: لازلت تمثالا تفوح منه رائحة الماء!

(حين وصلت إلى مكناس ورأيت كل تلك الأسوار بسطت يدي فانهمر الطين دماء ودموعا وجرفني إلى بوفكران فعرفت أن هذا النهر يصب في الكروان الذي يشربه الناس أكثر مما يشربون الماء وكأن مكناس المتنكرة في الأخضر لا تحب سوى لون الدماء!).

قلت في سري:

سأبقى هنا إلى أن تأتي لتنتشلني من الماء أو أغرق في بوفكران فيشربني سجناء قارة في الكروان أو تقوم الكيرة من جديد فأصبح من المقاومين القدماء فأعلق سورا على صدري أو بابا من هذه الأبواب التي يأكلها الوباء وإذا احتاروا في أمري أو شكوا في النية أسمي لهم الكلية: كلية الآداب والعلوم الإنسانية!

(نزلت بساحة الهديم، قيل لي: ماذا تفعل هنا منذ كل هذا الوقت؟ قلت: أنتظر! قالوا: مرحى، لا تقنط فكل الناس في هذه المدينة ينتظرون! قلت: ماذا! ؟ قالوا: لا أحد يعلم!).

وانتظرتك، كم انتظرتك، فما اجتمع فينا المستحيلان، على العكس، تفرقنا ... أنا في نفس المكان وأنت في ألف مكان!

حتى ذلك اليوم بعد درس النحث وشروقك علي حطت المرسديس كما تحط الطائرة ... ركبت وجلست بين الشاب والبنتين شبه العاريتين وفتحت زجاجة الويسكي قبل الفترة الفاصلة بين فتح الباب وإغلاقه:

-سأعود قريبا!

قلت:

-ساعات إضافية... لم تعد تكفي المنحة كما لا يكفي الراتب! لو أردت لتغيرت، قبل أن يرتد إليك عقلك آتيك بأضخم ثروة، فهو لم يكن أذكى مني، ولا شيء يميزه عني سوى قلبه الحجر، ولكنك أصررت... وصار عددهم لا يحصى! (لا أريدك أن تتغير، فالحب والثروة لا يجتمعان، مستحيل، أنت الحب وهو الحياة... هم حيلي وكيدي ضد هذا الزمان!).

-تعنين الرومانسية ....أنا... وهو المتاع، الواقعية؟

- أعني العواطف الطيبة... وهو متاع الدنيا سقط !

وغيرت ألوان العواطف الطيبة بقدر ما غيرت ألوان وأشكال السيارات؟، بينما بقيت عند مدخل القصيدة التي لم تستقم بعد لا شعرا ولا رواية!

(كانت مكناس كما تراها الآن لا هي بالحاضرة ولا هي بالبادية، وكان أهلها إذا تمدنوا وصلوا إلى إحدى المدن الكبرى، وإذا غلبتهم البداوة عادوا إلى الضواحي،وإذا بقوا على ما هم عليه زادوا من عدد مخازن القمح والزيتون).

أنت الآن تذوبين كالشمعة، وأنا أنتفخ كالبالون، أنت من شدة العطش، وأنا من الإفراط في شربِ الماء!

إذا أنخرط في جمعية الملحون لأحفظ قصيدة الشمعة وقصيدة الدار بعد أن حصلت على الجنسية التي تعطيني الحق في ممارسة الجذبة... وإن غدا كالأمس ملئ بالانتظار بين سيقان القمح وحبات الزيتون والعنب! ؟

كم هربت مني وكم جريت وراءك! لم أكن أطلب منك غير بعض الحنان كي أدفئ الماء الذي يملأ جسمي، كي يخف وزني ! رنين السهام التي في صدري... ما أطلقت سهما إلا ورجع إلى نحري... فكيف لا أطلب الماء، مزيدا من الماء، وأنا لا أعرف كيف أصوب سهما إلى غيري،إليك،إلى اللصوص ومصاصي الدماء، إلى القراصنة الممتطين السيارات الفاخرة التي وقودها دمي، إلى أي خارج! ؟ إني أجمع القهر في رئتي، والقهر يشتعل كالبركان... الماء، الماء، الماء للطيبين المقهورين في هذا الزمان! (من لم يقتل ولو مرة واحدة في حياته لا يمكن أن يحفر لنفسه مكانا بين المتدافعين وقوفا أو جلوسا، الناس ترهب أو ترغب، كما ترغب الفيلة أو الذئاب، ولا أحد منهم يحب إلا ساعة التعب، وكأنهم آنئذ يصابون بالحنين إلى العهود السابقة لغابات الرعب، وأنت الوحيد ضمن الآحاد الذي لم يقتل أما ولا زوجة ولا ابنا،لم يقتل أبا ولا ربا، ولا عقلا ولا قلبا... أنت التي أتعب فأهرب لأسكن إليك).

وإلا إلى من أسكن في قهري ورعبي؟ إلى خيالك الهارب، إلى انتظاري الدائم أم إلى حضورك العابر؟ (تقتل نفسك، الرعب يمكن أن يفرغ إما بالداخل وإما بالخارج، جرب الداخل ما دمت عاجزا عن التفريغ الخارجي:

تموت، طبعا تموت، لتولد، ما دمت لم تمت ولو مرة واحدة فإنك، وهذا مطابق لرأيك، لن تولد، بل ستهلك)ربما... ولكني أريد أن أعيش،أريد القوة بالرغم من أني أفلح الضعف (ماذا دهاك! ؟ تبدو وكأنك لم تعد تفهم رأيك: أنا أعني أن تزهد في الدنيا مثلا،أن تأكل مخ الضبع أو تذهب إلى أحد أمكنة

غسل الدماغ لتعود إلينا مطهرا لا تلوثك رغبة أو فكرة أو إحساس مما يلوث نفوس الناس...).

سأذهب إلى مكناس، لا حل إلا مكناس، فهي هناك ولو كانت كالوهم،كالجن لا تظهر إلا في ساعات معينة من الليل (حذار من الذهاب إلى مكناس، فالخارج منها هالك والداخل إليها هالك، ولا أمل لك في الرجوع).

نساؤنا أضاعهن الغزاة، شوهن منذ عهد الفنيقيين إلى عهد قراصنة بحار الزيت ألا ليت، ألا ليت...(أنا أقصد المدينة لا المرأة، مكناس مدينة الموت البطيء كمدن أخرى كثيرة، وأهلها قد تعبوا من المقاومة واكتفوا بكراهية فاس منذ قرون عديدة).

ما أفضع جرائم التاريخ، فهو لم يزرع في هذه المدينة سوى الموت! الخصب لعنة،أما تأملت مصير النساء الجميلات! مدينة للمتقاعدين (أنا لا أتكلم عن التاريخ، وعلى كل حال حتى المتقاعدون يموتون بسرعة في تلك المدينة...الناس تموت بسرعة وتفسد بسرعة في مكناس بسبب كثرة الماء وعذوبة الهواء،أما فكرت في خبث الطبيعة في أماكن كثيرة كمكناس!؟).

أنا يبدو لي أن المدن تتشابه كالبحار، الفرق بينها في طبيعة ركابها (ركاب مكناس قد ارتجلوا ليمشوا في البحار وما عادت لهم رغبة في ركوب أي قطار، البقية الباقية من فرسانهم تمتطي الشعر والنميمة).

هذا الوصف يصدق على كل مدينة، على كل أنحاء المعمور،فلماذا تخص به مكناس! ؟ (لأنها ليست ككل المدن، مكناس مدينة حولت إلى قرية،مدن كثيرة حولت إلى قرى فاندثرت،؟إلا مكناس فإنها ما زالت قائمة تحلم بأن تصبح عاصمة كما تحلم عجوز شمطاء بأنها سيدة النساء ومنتهى مطلب الرجال).

أنت ابن لهذه المدينة وتقول ...(لو لم أخرج لرأيت رأسي داخل بطني وبطني كرة في الهواء، وأنا أريد القوة،أنا مؤمن بالله وأعرف أنالمؤمن القوي خير من الضعيف،وأنا أريد أن أدفع بموتي إلى نهايته،لذلك لن أجد أفضل من مكناس!).

الزيتون المجفف

جاء المطر، هذي علامات المطر، هذي علاماته يا صاحبي (أن تحلق عصافير النفس قريبا من التراب بحيث تطأها الرجل ظانة أنها تمشي فوق سحاب ليس سوى عرق الرجل أو بخار التراب) فما بال مكناسة لا تزال تحلم بالبوغاز وما بال البوغاز لا يزال ممسكا بأطراف الجزيرة الخضراء وكأن لا خضرة هنا ولا ماء!؟

(أنت عندما قر عزمك، في نهاية الأمر، على المجيء إلى مكناس لم تكن قد قررت بعد الهروب من عاصفة مضاعفات تلك الأحداث الرهيبة التي أدت بك إلى ما يشبه الانهيار التام...).

انظر إلى الكلاب كيف انتعشت، والسهول كيف انفتحت، والجبال كيف انبسطت، والجباه كيف انقبضت، والقطط كيف تهيبت، والعيون كيف تمططت، والأنوف كيف انبجست وتساقطت...

(لم تكن، والحالة هذه، تملك القدرة على تقرير الهروب هكذا من تلقاء نفسك، فلقد فقدت هذه القدرة ذاتها، فقدت كل قدرة من هذا النوع، ولا داعي للادعاء الآن...).

انظر إلى الروامزين كيف استنفرت، انظر إلى الخمرة كيف سكبت في حمرية وترقرقت، إلى الأبواب كيف أغلقت، إلى أقفالها كيف أحكمت... (كانت ثلاثة أحداث رهيبة قد تزامنت في تلك المرحلة من حياتك بما يشبه الصدفة المتواطئة أو الضرورة الخبيثة...).

انظر إلى النفوس كيف كممت، إلى القلوب كيف أغلقت، إلى الأفواه كيف فغرت، وانظر إلى الحافلات كيف صممت، إلى الأجسام كيف كورت...

(موت والدك الذي أحرق نفسه ببنزين سيارة الأجرة التي كان يكسب بواسطتها قوت العائلة وما ترتب عن هذا الموت من فساد وانحلال في العلاقات بين أفراد العائلة خاصة بينك وبين البنات وبينك وبين زوجتك التي تأثرت بهن على إثر واقعة الضيوف الأشقاء الذين « تزوجوا » بالبنات...).

انظر إلى الجهات الأربع في مكناس كيف انبطحت، ولا تنظر إلى كأسي التي انتشلت من حلقي، ثم كسرت، وهي لا تزال ملأى منذ أفرغت، انظر واترك النميمة التي شتت، في الهواء، كما القصيدة بعثرت...

(ولا شك أن الحدث الثاني كان أفظع، أعني إفلاس الشركة التي كنت تدير قسم حساباتها وخروجك للانضمام إلى أفواج العاطلين، فالإنسان يظل صلبا ما دام يعمل...).

انظر ها قد جاء المطر وقل لي، يا ابن العافية، أنت الذي مارست التجوال، بين أماكن الزمان، من أوقف النسمة بين الحاجب وإفران، من علق الخضرة بين زرهون والسماء، من أوحى لسايس أن تعاف ريق النساء، للكروان أن تيأس من اشتهاء الماء، للزيتون أن يعزل بني محمد عن البرج وأكدال، بعشرات الكيلومترات من الأسوار!؟

(ثم جاء فشلك في التجربة السياسية التي دخلتها بلا وعي سياسي ولا وعي انتهازي والتي لم تكن نهايتها بالقساوة التي تتصور إذا ما قارنتها بتجارب أخرى...).

قل لي يا ابن العافية، يا صاحبي، من أوحى لي بأن مكناسة متاهة من الأسوار، بأني تارك في قارة ما لم أتركه في العلوى أو الكارة!؟ قل لي يا من تلفعت بالزيتون: كيف الخلاص من أسر الزيتون وما ثمن الرحلة من تامسنة موطني إلى دار سيدي قدور العلمي، قل لي ولا تعاتبني على الإصرار، كيف أنتشل بقايا كأسي من هذه الأسوار؟

(أنا أظن أن سبب مأساته الانتظار، لقد انتظر طويلا بدل أن يقدم، لست مؤمنا مثلك ولكني أومن بفكرة العبد الملحاح إذا كان العيد مقداما، والإقدام هو الحد الوحيد الذي يجمع بين حسنات المبالغتين: الانتظار والتهور. لذلك لا أستطيع أن أوافق على مبدأي الانتحار والقتل. كل عيب صاحبك أنه انتظر بدل أن يقدم، انتظر أشياء كثيرة بدل أن يذهب إلى الأشياء. وها هو ينتظر الآن شيئا واحدا: تلك المرأة الزانية... تلك عاقبة الانتظار الحتمية: أن تنتظر شيئا واحدا يتحول بالتدريج إلى لا شيء!).

صباح مساء أنظر إلى هذه الأسوار، صباح مساء... كلما نظرت إلى الأسوار، بدل الفخر يملأني الإحباط... أربعون كلمترا من الأسوار فوق الأرض، ترى كم طول ما في الأرحام؟

(لقد كنت أتحدث عن الأسباب الخارجية، أما بخصوص الأسباب الداخلية فإني قد أذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه، إلا أني أفضل أن أقول ذلك في كلمة واحدة: غياب العقل. هذه نتيجة من لا يغلب العقل. والعقلانية هي السلاح الأفضل في مواجهة ظلمات القهر!).

لحبس قارة أكثر من لسان، ولهذه الأسوار أكثر من خطيئة لن يغسلها لا صابون تازة ولا شعر الحطيئة، مطرا... مطرا... مطرا... يا سماء!

(صحيح، إلا أنك تتحدث عن العقل كما لو كان يأتي من العدم، إن ما نسميه العقل ليس سوى خلاصة التجربة الفردية والبشرية، ورغم أهمية هذه فإنها لا معنى لها بدون تلك، أما صاحبنا فمن أين تريد أن يأتيه العقل؟ خذ مثلا تجربته مع النساء، إنه لم يعرف غير هذه الزانية، أعني: لم يحب. وهل تعرف لماذا أحبها كل هذا الحب؟ لأنها امرأة عالمة بفنون المضاجعة. أول امرأة تعرف من أين تؤكل كتف الرجل. لكن، من سوء حظه أنها بغي!).

ما حمل أبي خطيئة جدي، حملت خطيئة أبي وجدي وسيحمل أبنائي هذه الخطايا بعدي، ليتني أحمل كل الخطايا بعدي، ليتني أحمل كل الخطايا وحدي،... لأعفي كل الأجيال التي تأتي من ذنوب جيل كثرت خطاياه... مطرا.. مطرا يا سماء!

(إن الرجل لم يجد ما يكفي من الأصدقاء، وكيف يمكن لأمثاله أن يحافظوا على الأصدقاء!؟ إني أتصور أن هؤلاء الأصدقاء قد حاولوا أن يفسروا له أن حالته ناتجة عن تفاقم الأزمة التي عمت المجتمع، وربما العالم، والتي كانت تعصف بحياة أولئك الذين لم يكونوا يتوقعونها أو لم يتهيأوا لها بما يكفي، ولا شك أنهم نصحوه بالصبر والتبصر على أساس أن ما كان يحدث له هو نفسه الذي كان يحدث لآلاف الأفراد والعائلات من أولئك الذين لم يعد الواحد منهم يعرف يديه من رجليه...).

ليكن ما سيكون رثاء، إني سأعدد خطايا الآباء، هل أعدد خطاياكم أيها الآباء؟ ليكن ما سيكون استفتاء، ولتجمع الكأس شظاياها خوفا أو حياء...لتكن بيني وبينكم السور بدل الأسوار: باسم الله الرحمان الرحيم، تبدو زرقاء اليمامة في الزيتون، وبنلوب في الروامزين...

باسمك يا رب العالمين، سارت الأسوار أمامنا، صارت الأسوار في الفراش، في الأكل واللباس... وباسمك يا عظيم يا معين، صارت للأسوار أيدي وعيون!

(أكثر من ذلك: تصور الأصدقاء أن انهيار الرجل لا يشكل خطورة عليه وحده وإنما هو أشد خطورة عليهم، لأن الانهيار معد كأي وباء، ولا بد للمرء السليم من محيط سليم، أما إذا أصيب واحد من المحيط بهذا الداء فإنه يهدد أهله وأصدقاءه كما يهدد المجتمع بأكمله. لذلك سعوا جميعا إلى تقوية

إرادته، ثم إن مقاومة صديق ضد داء كهذا يعتبر رمزا لمقاومة كل المحيط. كأنهم اذن يذكون فيه روح مقاومة جماعية...).

غفرانك يا ربي، من أوحي لهذا المتشرد المسكين بأن مكناسة بركة من زيت الزيتون؟ (أستطيع كذلك أن أتخيل أن أصدقاءكم قد ينسوا من أمره وتفرقوا، في نهاية المطاف، من حوله، أليس كذلك؟).

سيخرس هذا الحلق شرقا بالماء وتعود غيمته إلى الضياء فتركبني فرس الحقد بعد فرس الرثاء أخت فرس البكاء... مطرا... مطرا... يا سماء!

فإن الأسوار تزداد أسا، تزداد عرضا وارتفاعا، ولم أعد أتبين لمكناسة علوا أو قاعا... إني أنظر إلى الأسوار مرتاعا! (أنا كنت واحدا منهم، وماذا كنا نستطيع فعله لصالح رجل تخلى على الرغبة في الحياة؟ إن مصائرنا تأتي من داخلنا، كل فرد يحمل مصيره بداخله ويغديه سلبا وإيجابا - في اتجاه الموت أو في اتجاه الحياة فليس لمصيرنا سوى أحد اتجاهين - ونحن نستطيع، بناء على ذلك، أن نصنع الذي نريد كيفما كانت الظروف المحيطة بنا. لهذا لا يجب أن نندهش إذا حل بنا ما ندعي أننا لم نرده ولا يجب أن نعجب إذا حل بنا دائما ما نريد وليس غير ما نريد!).

الزيتون العتيق

الخيول نائمة في « الروى »، ما عاد لكل امرئ ما نوى، ولا قتل القلب هذا الهوى، أو أتعبته شدة الطوى، فاستراح من البكاء والنوى، قد لا يقتلك غير هذا المطر الذي ما أنبأك بأن السماء تقطر من بخار دمك لتموت والجفاف من حولك (علمنا بكامل الغبطة والسرور بما حدث لكم من انهيار وبسبب رفضكم التاريخي أن تكونوا واحدا من الكلبيين الأوفياء...

ولأنكم صرتم كلبيين بالرغم منكم، فإننا نعرض عليكم أن تنظموا إلينا بوعي وإرادة هذه المرة. تعالوا إذن بمجرد توصلكم بهذا الكتاب لكي تتأكدوا بأننا كنا ولا نزال في انتظاركم. وتقبلوا فائق الاعتذار عن تنكركم لنفسكم. لا عليكم فقد حدثت هذه الهفوة لأسيادكم الحكماء قبلكم. والله ولينا جميعا...

جمعية الكلبيين – المكتب المركزي– مكناس).

يا رفيقي في الزمن الكلبي، أيها الكلبي يا أعور، يا أعرج، يا... منهار، يا متعب...

تعب، تعب، تعب... جاء المطر... أخيرا جاء المطر... تعب، تعب، تعب... يأتي المطر، يذهب المطر... ومازال الكلبيون كما ولدوا... غرقى في التعب، غرقى في العطش... غائرين في الصهد...ماذا فعلوا!؟ لا أرضا زرعوا، ولا قمحا حصدوا... لا فاس اقتحموا، ولا الرباط حرروا... تعب، تعب، تعب...

(يحق للمرء أن يتساءل: أليست هذه طبيعة هذا الرجل!؟ ألم يكن ذا نزعة كلبية منذ كان طفلا؟ كانوا ثلاثة، كنا زملاء في الكلية والسكن، كانوا يلقبون أنفسهم بالكلبيين، ويفتخرون بهذا اللقب، ساخرين أو جادين، بينما

أقرانهم يناضلون... كانوا يقولون لكل من يسألهم من الزملاء عن معنى الكلبية وعما إذا كانت مشتقة من المذهب الفلسفي الذي يحمل هذا الاسم «منهما معا ومن الاسم الذي سيعطى للبشر بعد سنين في العالم الثالث». أحيانا كانوا يقولون : من كائن أسطوري له عشرون روحا، وقيل مائة... لا يموت أبدا مهما لقي من العذاب. غير أنهم حين أفحمهم الطلبة المناضلون صاروا يقولون: مارس تعرف، سلم تسلم، ولا تهتم بالأصول والمسار إذا أردت أن تكون حسن المآل).

كل عام يأتي المطر، ثم يذهب المطر...

كل عام يأتي أو يذهب هذا المطر

ويبقى الكلبي حبيس مكناس...

تبقى مكناسة تحلم بالأبدي (كل عام تحلم مكناسة بفاس، عقدة مكناس فاس، بئس العقدة وبئس الحلم!)...

ويبقى الكلبي معلقا جرثومة اليأس وعنكبوت التعب...

معلقا بين حبل ظل البخار وحبل صدى الكلم، ولا أتعبه هذا التعب... تعب، تعب، تعب... يا أزهار عشرين عاما من التعب، جاء المطر، ذهب المطر، ومازال التعب... تعب، تعب، تعب... جاء أو ذهب المطر، عطش الكلبيين لا يرويه مطر...

(إني أذكر كيف انضم إليهم، كان انطوائيا وخائفا من العلم والسياسة معا، وكانوا قد صاروا حديث العام والخاص، النكتة التي لا يملها أحد، مجرد رؤية أحد الكلبيين قادما كانت تسيل الدموع ضحكا... قامت تلك الزانية التي اسمها زكية- هي التي يعبدها - بتدوين مبادئ الجماعة في دفتر أعطته العنوان التالي: « نهاية الطلب وبداية الأرب في شرح آيات التعب من منظور الكلبيين العرب». وكان صاحبنا أول من قرأ هذا الكتاب. فلما تأكدت البغي من

قراءة المسكين لسفا سفها أصرت على أن تناقشه معه في جلسة خاصة كتبت خلاصاتها في الفراش. لعلكم تذكرون جمال تلك الفاسقة، الجسد الذي قد من فتنة و...).

شربوا، شربوا، شربوا... آبارا شربوا وما سكروا...

تعب، تعب، تعب... رحلوا بعيدا، مشوا طويلا، وقوفا، جلوسا، زحفا.. سافروا وما وصلوا إلى حيث كانوا، من حيث بدأوا...

تعب، تعب، تعب... أكلوا كثيرا... يا ربي كم أكلوا في انتظار الأكل وما شبعوا، ولا عافوا أو سئموا...

الكلبيون يسئمون ولا يسأمون، يتعبون ولا يتعبون... ينبتون الحقد ولا يحقدون... (بغي تفعل فيه كل هذا!؟ تقضي الليلة كلها في أحضان ذلك الثور البدائي، يمتص دمها كل ليلة ويظل صاحبنا في انتظارها إلى أن تأتي - إذا شاءت- مع الفجر ذابلة صفراء كأنها خارجة من القبر. آنئذ تكون الخمر قد أكلت منه العقل والإحساس. يجرها إلى الفراش، وهي تضحك ضحكتها الاصطناعية الفاجرة بينما هو خارج وعيه، وينامان كميتين يغطيهما الليل الأصفر... قبح الله قلة النفس والعقل!).

قالت لي إنها تحبني، تدخرني للأيام الصعبة، ولا أحد منهم صدقها، الأصدقاء... ليس فيهم واحد لا يحلم بمضاجعتها، ولكنهم جميعا يكرهونها لأنها... زا...ني... ة متحدية! لا أحد يحبها والكل يريدها... الكل يريد الحب ولا أحد يحب... إلا الكلبيون فإنهم بلا تناقض: يكرهون كل شيء حتى الماء الذي لا يتعبون من شربه لا يأملون في شيء... الذي لا يحب امرأة له شيء آخر يتمسك به، يحبه: وظيفة أو ثروة أو صورة أو وهم! وأنا لم يعد لي شيء أتمسك به سوى هذه المرأة، وهي من كثرة ما لديها من رجال، من أصحاب المال والجاه، خاصة ذلك البغل الذي بنى ربع دور الوطن المهددة في كل

لحظة بالسقوط فصار أغنى وأقوى مما يتصور عقل... شاوش يصير بمثل هذا الغنى والجاه!؟... من يستطيع أن يحبها من هؤلاء الرجال ومن تستطيع أن تحب من هؤلاء الرجال... معلمة التاريخ والجغرافيا الزانية!؟ وأولئك الأصدقاء، من منهم يستطيع أن يدفع ثمن قهوتي أو قنينة مائي!؟

حفروا...

ومازالوا بأظافرهم وجلدهم، بأسنانهم وقلبهم، بأيورهم وعقلهم، بفروجهم وشعرهم، بذيولهم وصبرهم...

ولا شيء اكتشفوا... لا شيء إلا التعب... تعب، تعب، تعب... سواء تفاعلوا أو تشاءموا...

(لم يعد رجلا، كيف يقبل أن يسكن في بيت تلك الفاجرة وأن يعيش من مالها الحرام، يشرب حتى آخر الليل ويدخن أغلى السجائر... ثم يدخل إلى بيتها لينتظرها حتى تفرغ أو يذهب إلى حيث يعرف أنها مع أحد عشاقها المتزوجين الذين عليهم أن يدخلوا إلى بيوتهم بعد شرب دمها... يجلس كالكلب بعيدا عن مكان متعتها في انتظار أن تخرج ليتبعها!).

مكان متعتها!؟ إنهم يعرفون أنها لم تعد تعرف المتعة... أن متعتها لا تختلف عن متعتهم، متعة السكارى المدخنين الذين يشربون وهم يشتمون أنفسهم وكأن هذا الشعور بالحقارة ضروري لكي يشربوا مر الخمر... متعة زوجاتهم بعد عودتهم إليهن الملأى بالماء والدخان والقرف، هل فكروا في متعة هؤلاء النساء؟ وهل من كان مثلهم يظن أن له أشرف النساء؟ أنتم لا تصحون أبدا، لا ترون أبدا،... ولكن بعض الظن إثم، أيها الرجال!؟

أما تدخيني لأغلى السجائر فلأن زكية تكره رائحة الأولمبيك الممزوجة برائحة الماء، ربما لأن ذلك البناء مازال يدخن أولمبيك ولأن هذه السجائر قد نخرت صدري... ربما... وأما أني أسكن في بيتها... من منكم فتح لي بيته

لأكثر من ليلة أو أكثر من وقت غذاء لأكثر من مرة في السنة... لأطول من حاجته إلى نديم!؟

أشرب وآكل من مالها الحرام؟ غريب أمر الضمير البشري : كم تصرفون كل ليلة في شراء الماء والهواء، كم تنفقون على أولادكم وزوجاتكم، وعلى سياراتكم، وعلى نديماتكم... أتريدون أن توهموا رئيس قسم حسابات سابق بأن هذا المال كله حلال وكأنه لا يعرف رواتبكم!؟...

تريدون الخلاصة؟ لست أحقر منكم ولا أنتم أحقر من غيركم ولا غيركم أحقر من غيره... دعونا نشرب بلا هم يكدر صفاء الماء المر الزلال، بدون أن نعمق أسباب الانهيار...

تعب،تعب، تعب...

سكتوا، سكتوا، سكتوا...

يعني تأملوا...

تكلموا... ما أكثر ما تكلموا!

يعني صرخوا...

تعب، تعب، تعب...

هذا الصراخ،... وذاك السكوت... تعب، تعب، تعب...

ظنوا أنهم فكروا... فكروا!؟

(تقارن بيننا وبينك!؟ يجب أن يكون المرء أحمق ليقارن بين وضعين مختلفين تماما...

ماذا تملك أنت بالمقارنة مع ما يملك أقلنا!؟)

أملك أني لا أملك شيئا، ماذا يمكن أن أخسر غير هذا؟

وماذا يتبقى لدي إن خسرته؟

شيئان عظيمان: حب زكية وهذا العود، لا أملك غير هذا العود، بل إتقاني للعود وتعلقنا ببعضنا البعض: أنا وزكية!

(الكلاب على بعضها تقع، ولكنها لا تحب سوى عودك، إنها تكفر عن خطاياها بالاستماع إليه والغناء معك، قد تجد غيرك، أفضل من عزفك...)

أفقد زكية؟ يبقى لي هذا العود... أفقد العود؟ أصنع عودا من أي شيء... من قصدير، كذلك الذي تعلمت عليه العزف... أستطيع أن أكسب به ما قل ودل من الطعام والماء... وأنتم ماذا يتبقى لكم إذا فقدتم رواتبكم!؟

أين ذهب الكلبيون تلك الليلة وتركوني مع هؤلاء المعوقين!؟

(الكلبية بدعة... أهلها مخلدون في النار ولا يشفع فيهم النبي عليه الصلاة والسلام وهي، ككل الأفكار الدخيلة...).

كان يخلط بين الإسلام والأدب الأصفر... هذا الأدب الذي حفر الأرض سنينا طوالا ليطلع منها أبناء منحرفين جميعا إلا الخريج الجامعي العاطل... ربما لشدة طيبوبته، بسبب هذه الطيبوبة قد يكون كلبيا ذا نزعة صوفية... ولكنه لا يعرف ما يكفي من تاريخه... كأغلب المتدينين... إنما من أين عرف الكلبية؟

قد يكون ابنه الجامعي العاطل الذي يبدو متمرسكا: « لا شك أنك متأثر بالمنفلوطي، أيها الرفيق، بتلك الرومانسية الطفولية المرضية، وإلا ما معنى أن تحاول إنقاذ هذه الساقطة من غير أدنى اعتبار للظروف الاجتماعية - الاقتصادية- السياسية الراهنة!؟».

كان يتوجه إذن إلى أبيه!...

يا أسوار مكناسة، حين تعلق بك الكلبيون، كان يغويهم هذا التعب، ومازالوا لم يتعبهم تعب، تعرفهم حواجز أول النهار بقية السوق، تعرفهم مسارب آخر الليل بحمرية، لا تعرفهم الشمس، يعرفهم القمر، لا يعرفهم دين ولا مذهب، يعرفهم العطش، ولا يعرفهم المطر، تعرفهم ثمالات النفوس، تعرفهم نفوس الكؤوس، تعرفهم فيك أيها الكلبي إذا ترى نفسك يغزوها التعب، إذ ترى الهواء يحفر الوجوه يسد شوارع الليل، يوقف مسالك النهار وينظر إليك متحديا كما الكلب الطريد يلتفت إلى المطارد في آخر الشارع، تعرفهم كما يعرفهم هذا التعب، سواء شربت أو صحوت، سواء صمت أو أكلت، سواء

اشتغلت أو اعتكفت، سواء جلست أو قمت، فالتعب آيات بعضها متشابهات لا يعرف تأويلها إلا الكلبيون والراسخون في التعب، تعب، تعب، تعب...

(وهل أنت واثق من حبها، من حبك لها حتى تطلب يدها من أهلها، من غير موافقتها، هل تعرف حقا ما تفعل : تطلب يدها وهي رافضة!؟).

هي تعتقد أن الوقت لم يحن بعد، وأنا أعتقد أن الوقت قد فات، أنه آن الأوان لإيقاف تيار الزمن الذي يجرفنا نحو الهلاك، أنا أحبها، لا أشك في ذلك، وهي تحبني، ولكني أحيانا كثيرة أكرهها وأكره نفسي، وأظن أنها تفعل ذلك مثلي...

كما أريد خلاصها أتمنى أن تصاب بمرض جنسي قاتل أو تقع لها حادثة مع أحد عشاقها فيموتا معا... هذه طبيعة الحب في الغالب، ولكن ما أدراكم أنتم، هل أحب أحد منكم غير نفسه ذات يوم!؟

تضاحك الكلبيون، تكاشروا، تشامتوا، تساكنوا، ثم تثاءبوا... وافترقوا.. تعب، تعب، تعب،... اغتابوا، تنابزوا... من شدة التعب، كما اجتمعوا الليلة، البارحة افترقوا، لم يروهم مطر، لم يحيهم أمل، لم يقتلهم تعب... كما افترقوا الليلة، غدا اجتمعوا، يصاحبهم هذا التعب، تعب، تعب، تعب،...

(أي خلاص وأنت عاطل!...) ؟

خلاصنا معا يبدأ من إيجاد عمل، أي عمل،... ضد التعب!

كنت أتفرج على ألف وميم، كل واحد منهما كان في الركن المقابل للآخر حول الكونتوار. لم يتبادلا نظرة واحدة أو كلمة منذ دخلا، ميم أولا، ثم ألف، لم يأت ألف إلى الحانة منذ زمان طويل، ميم نفسه كان قد اختفى، حوالي شهر، منذ تلك الليلة التي صاحب خلالها ألف إلى بيته. أثار اختفاؤهما فضول الجميع، خاصة جيم، وربما كنا قد افتقدناهما حقا! قال جيم في الليلة الثالثة على اختفائهما :

– للستاشيات ثمن غال، لابد أنهما يمارسان التزحلق على الجليد في البنيقة!

قال كاف: – لسانك أطول من بقية أعضائك... هما قد يدخلان هناك بسبب ستاشيات، أما أنت فدخلته بسبب الشذوذ... هل تذكر السيدة مصطفى المصابة بداء فقد المناعة!؟... ألا تذكر الأسبوع الذي قضيته هناك في ضيافة رجال الله!؟... لولا ألف كنت ستقدم إلى المحكمة ومؤخرتك المنخورة لا تطيق البلاط ولا نزوات الرؤساء من المساجين!

احتج جيم: – دعاية... والله... وشاية... تشهير... تبين أنها مكيدة من ألف ليثبت أهميته ويخلق لنفسه سلطة وهمية يخيفكم بواسطتها... ولنفرض أنه حدث بالفعل... أنت تسميه شذوذا... وماذا كنت ستسمي ممارسة ألف المتصابي مع الستاشيات!؟... أتنكحون بناتكم يا... قوم!؟

قال كاف: – ليس لي بنات، والحمد لله... أولادي كلهم ذكور كالثيران... ولو لم أكن متأكدا من هذا... كما أنت متأكد من شذوذك... لما شربت معكم كأسا واحدة... لو طلع منهم واحد شاذا كنت... قتلته!

ضحك جيم: - كم أنت ساذج!... هذه مسألة لا تحدث بالضبط في عمر معين... ولا أحد يمكنه أن يتنبأ بها... اللي ما خرج من الدنيا ما خرج من عقايبها... أنت نفسك...!

سخنت رأس كاف: - أنا أظن أن المسألة وراثية... أحيانا أخرى: الذي يدمن النساء بلا حب في أول عمره... ينتهي به أرذل العمر إلى هذا الوضع...

تدخل الشيطان: - آسي... كاف... أنا أعطيك سرهم... وشرفي ليس هناكلا ستاشيات ولا سيدة مصطفى... هذه أكاذيب... تعويضات... أحلام... استيهامات... أنا لما عرفت الحقيقة سألت صديقنا الطبيب عن سرها فقال لي ذلك... مات الحوت... ولكن مازال يتركل... ها الطبيب... إسأله!

قال الطبيب بدون أن يسأل أحد منهم: - أنا شغلي أعلى الجسد : الصدر فقط!

قال جيم: - أنت دائما سكران... كيف تميز بين أعلى وأسفل!؟

قال الطبيب: - لا أستطيع في حالة واحدة: عندما يتعلق الأمر بأمثالك!

وتحرك الزباينة فعاد كل واحد إلى مكانه، قال الشيطان:

-حديقة حيوانات في حاجة إلى حراسة مشددة... سأجلب قردا من جبل طارق لحراستكم... إنكم تزدادون وحشية يوما بعد يوم... يبدو أن المدنية لم تنفع معكم... هل تعرف يا... جيم... كاف...كيف يقوم هؤلاء القردة بالحراسة!؟

قال جيم: - لم أزر جبل طارق بعد... أنت زرته مرات للتهريب... تعرف إذن هذه القردة بشكل جيد!؟

تحسس كاف مؤخرته بعصبية. قال الشيطان:

-هذي عندك، خلص شي قرعة!

فكر جيم وتردد طويلا: - اشربها... بالبواسير إن شاء الله!

ما مرت ليلة دون أن يتم ذكر ألف وجيم. قال باء إنه سمع أن ألف راود ميم عن نفسه... فنفخ ميم عين ألف وكسر ضلعتين من ضلوعه! قال جيم : إنهم يحكون، ويقصد ألسنة السوء، أن ألف تحايل، تلك الليلة، على ميم، حتى أخذه ميم معه إلى بيته... أن ألف أساء الأدب مع بنت الشيَخ! وزعم نون، فيما يشبه الهذيان، أن ألف سعى إلى تسجيل كل ما كان ميم قد كتبه حول المرأة في تلك الورقة... أن ميم انتبه إلى ذلك فكسر المسجلة على رأس ألف... أن المعركة بينهما قد تطلبت تدخل الشرطة! قيل الكثير عن هذا الاختفاء... كل ما قيل كان يتعرض لأخذ ورد...

كان يتحول إلى مشاداة كلامية إما بسبب كاف وإما بسبب جيم وإما بسببهما معا... ولكن وجود ألف وميم بيننا تلك الليلة، وفي ذلك الوضع الغريب، لم يسمح لأحد بأن يقول عنهما شيئا... حتى الشيطان كان يعاملهما بلطف وعناية فائقة... وبينما الكل واجم بعد تدخل الشيطان أطلت راء في كامل زينتها: جلباب أحمر فاضح، عطور قوية نفاذة، حذاء يدق على الأرض بعنف واستفزاز... كان الرجلان العظيما الخلقة قد أعلنا عن وصول سيدة الحسن... ولكن لم ينتبه إليها أحد، غير كاف، قبل أن تنتشر عطورها ودقات حذائها في المكان... قالت: بونسوار أحبائي الصغار... هل أنجزتم كل التمارين بالبيت!؟ ومن خلف الكونتوار انعطف وجهها نحوي حتى لامس أنفي: - إزيك حبيبي... بوغوص ديالي!؟

قلت وأنا أبعد أنفي: - سعيد بسعادتك... بدون عطرك وابتسامتك... لا أسكر!

قالت بما يشبه الجد: - الليلة آخر لياليك... سأغتصبك!

فكرت في أنه لا مجال لتمييز الجد عن الهزل في سلوك هذه المرأة، وربما يكون جدها قد أصبح كله هزلا لتعودها على هذا الأخير... لاستنجادها به على الدوام من أجل تأدية وظيفة « المربية »! قلت: - سمعت بالخبر... مبروك... أنا سعيد!

رفعت صوتها: - اسمعوا أيها... المشاغبون... هذه آخر ليلة لي معكم... سأذهب إلى زيارة بيت الله... يظهر أن الله قد تاب علي... لذلك أريد أن تكون أجمل ليلة... أن تكونوا في غاية الأدب... كي أحتفظ بها في ذاكرتي!

قال جيم لنون: - ذاهبة لتحج... هذه الفاسقة!؟... بعد كل ما خربت من عقول وجيوب وبيوت!؟... أتقبل توبتها!؟... أم تراها ذاهبة للفساد هناك... لتغيير المهنة... بل لتطويرها!؟

قال نون: - إنما الأعمال بالنيات... والله يغفر الذنوب جميعا... لاحظ عظمة ديننا الحنيف... هل تأملت هذا الأمر... ولو مرة واحدة في حياتك!؟

أحرج جيم: - أي دين... هذا الذي يغفر لمثل هذه... يقبل توبتها!؟

قال نون: - اذكر الله يا... أخي!

تحسس جيم قلبه، دلكه قليلا، ثم قال: - أستغفر الله العظيم... من يدري!؟... قد يقبل توبتنا... نحن أيضا... يهدينا إلى الخروج من... حديقة الحيوانات هذه!

قال نون:- من مدرسة المعوقين!

قال جيم:- من المارستان... وخلاص!

قالت راء:- أرجو أن تكون مسك هذه الليلة...هل تخيب رجائي!؟

قلت: - أرفض أن أبول في امرأة، أية امرأة... فبالأحرى أنت!... هذا الماء الذي ندمن شربه لم يترك فينا حاسة سليمة... إلا حاسة الموت!

قالت: – أنت الوحيد... عندما أكون هناك... في بيت الله الحرام... سأطلب من الله تعالى أن يثوب عليك... أن ينقذك من سوء العاقبة... من أن تصير مثل ألف أو جيم أو ميم أو... كاف المسكين... نون... عالم مثل نون!؟... حرام!

وقالت بصوت مرتفع وهي تخفي انفعالها لتمنع الدمع من الظهور :

– أيها الشاعر... لماذا لا تسمعنا شيئا من كلامك الجميل!؟... هيا... أنشدنا شيئا... هدية إلي!

وقف « الشاعر » وأخذ يقرأ.

توقف فجأة : حلقي ناشف... بيرة... لم يستقم صوتي بعد!

وجلس، فقالت لي: – لماذا لا تطلب منه أن يكتب عني شيئا... تلحنه أنت... وأغنيه!؟

قلت: عيب... أنت ذاهبة إلى بيت الله!

قالت: أستغفر الله العظيم!... الشيطان ولد الحرام!

قال الشيطان: أنا عبد الزين... خاصة الحاجات!

قالت: فاتك القطار... يالعين... تأخرت!

وتوجهت نحو ألف الذي طلب بيرة بإشارة من سبابته!

كان كاف قد وضع كأسه قرب كأسي. كل ليلة، بمجرد وصول راء، يحمل كأسه ويأتي ليقف إلى جانبي... يكون ذلك بداية صمته... يستمع إلينا نتهامس أو نضحك... كأنه هو الذي يهمس لها ويضحك معها! ولكنه كل ليلة يطلب مني مرة أو أكثر نفس الشيء: – أنا أحبها... هي تحبك... أنت لا تحبها... لماذا لا تشفع لي عندها!؟

عندما طلب مني ذلك أول مرة قلت له: – أنت مخطئ... إنها تحبك... ولكنها لا تريدك!... وأنا أحبها... ولكني لا أريدها!

قال:– لا أفهم كيف لا يريد رجل امرأة فاتنة مثل راء!... ولا أفهم كيف لا تريد راء رجلا مثلي!... إني خال من العيوب والأمراض!

قلت: – لا أشك في ذلك... فأنت بدائي... ولكنك طيب... ساذج... طاهر!

قال: – العفو... العفو... يا أخي... أنت أفضل... ولو أنك... مسكين!

تابعت: – أما لماذا لا أريدها... فلأني أحترمها... أفهم ظروفها... ولا أريد أن أحتقرها... أن أدنسها... بالتبول!

قال: – لماذا... ألست رجلا مثلنا... مثلي!؟

قلت: – إن الإدمان يقتل... ماذا أقول لك!؟... النفس!

قال: – أنا ما زلت... كالحمار... آه... كالحمار تماما!

لم أرد أن أعلق فتابعت: – وأما أنها لا تريدك... فذلك لأنها ترفض أن تشارك زوجتك فيك... أن تبتز رزق أولادك... إن راء امرأة طاهر!... ولو أنها خلف الكونتوار... ولو أننا نتعامل معها كـــ... ونريد أن تكون... قـــ... نا... جميعا!

قال نون يخاطب « الشاعر »: – أرجو... أن... تكمل... إنها أول مرة أسمع لك... أرغب في معرفة... ما يموت... بداخلك!

قال « الشاعر» : بل، ما يقاوم!

وأنشد: للشعراء تواضع الأنبياء وهم يستحيون من المعجزات وللشعراء ظل الأولياء وهم يستغربون من الكرامات فكيف لا يحبب إلينا مما يحبون أكثر من ثلاث: الطيب والنساء والصلاة ؟

توقف «الشاعر»: – بيرة... بسرعة... رجاء... حلقي... جرح... الجفاف!

قال جيم: – هذا شعر... هذا!؟... الله يرحم الشيخة الرويضة!

قال نون: - سكين اجبير... هذا... آش يفهم الحمار...!؟... أن تحاول شيئا... أن توهم... ولو... نفسك بشيء...

واسترسل في شرح أهمية الايمان بموهبة، أي موهبة... ولو لم تكن متوفرة!

قال كاف: - أظن أنه يرثي نفسه... يبكي خيبة أمله أي... هزيمته الشخصية... هو عالم بلا عمل... بلا إنتاج!

قلت: - أتركه وشأنه... وهيء نفسك لخيبة أملك أنت... لهزيمتك الشخصية!

قال: أنا لم أنهزم إلا أمام زوجتي... ترفض أن أضاجعها... أن أقترب منها... أن أعود إلى البيت... وأنا سكران... أو... والأطفال لم يناموا بعد... أبيت في أي مكان... بباب العمارة... كثيرا!

قلت: - هؤلاء الناس جميعا... لهم مشاكل معينة مع زوجاتهم... مع النساء... مع الناس... ومع أنفسهم... فلا تلم نفسك... ولا زوجتك... إنك تشرب مثلي ومثلهم... لتملأ شرخا... ولكن الماء يزيد الشرخ عمقا!...

قال: - لا أفهم... لماذا تشرب... مع كل هذا الوعي... والثقة في النفس!؟

قلت: - أنا مثلك... مغلوب على أمري... ورغم كل هذه الثقة في النفس... فإني لم أستجمع بعد كل ثقتي بنفسي... قد نحتاج إلى مساعدة... أو معجزة!

قالت راء: -أيها الشاعر... هات... إبكنا من فضلك... إبكني... فإني راحلة!

وقف الشاعر، قرأ مقطعا آخر: ترحل في الخيال لتبقى في البار...

توقف وأخذ يبكي: - ضاع صوتي... ضاع... اسقوني... لأموت... أريد أن...

قالت راء: - لا... الله يحفظك!

قال نون: - ضع... إذا شئت... أي... مت... ستترك شعرك... بالرغم من أنه ليس شعرا تماما... إنه أثر... على الأقل... قد يذكرك البعض به... حتما سنذكرك... أما... نحن... كلنا... سنموت من غير أن يعلم أحد بموتنا!..

قالت راء: - سأدعو للشاعر عندما أكون هناك... بأن يحفظ الله صوته... ويطيل عمره!... هل تقبل أن أدعو الله لكما معا... أنت وهو... قد يساعدكما ذلك على إنجاز أعمال مشتركة!؟

قلت: افعلي... سيكون لك أجر عظيم!

قال نون: - زدنا... يا شاعر!

قال «الشاعر»: - لا أستطيع... صوتي!

قال نون: - تسمح لي بأن أقرأ مكانك!؟

قال «الشاعر»: - يحصل لي الشرف!

قال جيم: - أما تعبتم من هذا الكلام الفارغ!؟... أليس فيكم واحد يحكي نكتة أو طرفة... هذه الليلة... ماذا أصابكم!؟

كان بصر جيم قد تركز على ألف فأشاح ألف بوجهه، وكذلك فعل ميم وكأنه توأم، بدأ نون يقرأ.

توقف نون: - حلقي... لماذا ينشف هذا الشعر الحلق!؟

قال جيم: - قديد... مالح جدا!

قال كاف: - يبدو أنك من برج الأسد!؟

قلت: - لماذا!؟... تدرسون الأبراج في الطب البيطري!؟

قال: - الأسد مترفع... كبرياء... تجبر... إلى جانب تواضع... وتسامح... وربما خوف أو خجل... إنه يخاف من الديك... هل تعرف أن الأسد يخاف من الديكة!؟

قلت: - أنا من برج الكلب!؟...قال: أعرفه جيدا!... «الكلب بين الأسد والبهيمة... فلو كان فيه طبع البهيمة كاملا ما ألف الناس... ولو لم يكن فيه طبع البهيمية ما أكل لحم الحيوان »...

قلت: - إذن هو مثل الإنسان!؟

قال: - تماما!

قلت: - مع فارق أن الكلب لا يأكل اللحم البشري ولا يشرب دمه!

قال: - تماما...، والكلب نوعان : أهلي وسلوقي!؟

قلت: وكذلك بني آدم...أكثره سلوقي وأقله أهلي !

قال: - بدون شك... ولكن طبع الأهلي والسلوقي واحد... «مثلا في طبع الكلب الاحتلام لو تحيض إناثه»!

قلت: - وذلك نادر... في الإنسان اليوم!

قال: - «ومن ذلك أن أنثى الكلب تحمل مدة ستين يوما فقط... وعندما تضع جراها لا تفتح جراها عيونها إلا بعد اثني عشر يوما»!

قلت: - ستون يوما فقط... ونحن...!؟... وأولادنا يزداد بعدسات مكبرة للرؤية!؟

قال: - «وبين الكلب والضبع عداوة شديدة... بل إنه إذا أكل لحم الضبع أو شم رائحته أو دهن بشحمه جن واختلط».

قلت: - في هذه يشبه الكلب الإنسان شبها كاملا!

قال: - وإذا حمل إنسان لسان ضبع لم تنبح عليه الكلاب!

قلت: وكذاك سادتنا ونساؤنا الذكيات!

قال: - « وغالب نوم الكلب في النهار... وإذا نام كسر أجفان عينيه ولا يطبقها لخفة نومه... وسبب خفته أن دماغه بارد »...

قلت: - هل يسكر الكلب!؟

قال: - لا... لا أعلم... لماذا!؟

قلت: - لأنه في نومه نهارا... وبهذا الشكل... وبدماغه البارد... يشبه أمثالنا من المدمنين!

قال: - « ومن طبعه أن يكرم الأجلة وأهل الوجاهة من الناس... لا ينبح أحدا منهم وربما حاد عن طريقهم... ولكنه ينبح الأسود من الناس والدنس الثياب والضعيف الحال »...

قلت: - مثله مثلنا نحن المدمنين المياحين... في هذا المكان العظيم!

قال: - معك حق... « فإنه تعرض للكلب أمراض وسوداوية في زمن مخصوص... ويعرض له الكلب (بفتح اللام دائما)... وهو داء يشبه الجنون وعلامة ذلك تحمر عيناه وتعلوهما غشاوة وتسترخي أذناه ويندلع لسانه ويكثر لعابه وسيلان أنفه ويطأطأ رأسه ويتحدب ظهره ويتعوج صلبه إلى جانب ولا يزال يدخل ذنبه بين رجليه ويمشي خائفا مغموما كأنه سكران »...

قلت: - بل... هو السكران بذاته وصفاته... أنا الكلب... أنا الكلب الأهلي... وهذه صفاتي كما ذكرها كاف!

قال: - لا... كما ذكرها كمال الدين الدميري في كتابه « حياة الحيوان الكبرى »...

قلت: - ومذكور في الكتب... في كتاب « حياة الحيوان الكبرى »!... يا سلام!... ما أجمل حياتنا الكبرى...! ... حياة... كبرى!... عاو... عاوعاو... عا...

قال جيم: - أتاه الكلب!... يأتيه الكلب... هكذا... في أوقات معينة!

قال نون: - بل أتاه الوعي الكلبي... وما أدراك ما هو... لأنه لا يصيب إلا الكلب الأهلي... أما السلوقي... خاصة القلطي منه... وهو نوع صغير الجسم قصير القوائم جدا... فلا يحظى بمثل هذا الشرف!

قالت راء: -بوغوص... صافي... بركة... الرجوع لله!

قلت بأعلى صوتي: - عا... ا... ا... ا...!

وقف « الشاعر»: - القصيدة... مشروع القصيدة... عفوا... الذي قرأت عليكم... أنا والأخ نون... وجدت لها عنوانا الآن: برج الكلب!

قال كاف: - لاحظ أننا... بكل تواضع... نلهم الشعراء!

تابع « الشاعر »: - وهذه نهايتها... عفوا... لا... ليس النهاية... إنها ستكون طويلة جدا... إن شاء الله... ها كم ما بقي من المكتوب منها...

وقرأ المقطع الأخير منها.

أنهى القراءة... لكنه ظل واقفا... الصمت يخيم على المكان... ينتظر أن يتابع « الشاعر » تلاوته... بعد فترة... أخذ ينظر إلى كل من ألف وميم على التوالي... كرر ذلك مرات عديدة حتى وجدنا أنفسنا جميعا نفعل مثله... حتى اصطدم نظرا ألف وميم... نظرا إلى بعضهما طويلا... وفي لحظة واحدة قاما واتجه كل منهما نحو الآخر... تعانقا وأخذا يبكيان!

قالت راء: - حرام يا أولاد... النحس... ذكرتموني بلحظة الفراق!

وأخذت تبكي فقلت لها: - لا... يا سيدة العطر... أنت ذاهبة إلى بيت الله!

أخذت تمسح دموعها وقالت: - ومع ذلك... الفراق صعب... موت!

خجلت من أن أقول لها: موتي... بأي شكل تريدين... تستطيعين... لتتجنبي الكلب!

قالت: - تشربون كأسي... على حسابي... جميعا!

شربنا نخبها...

قال ألف: - ونخبي... جميعا... على حسابي!

وكذلك فعل ميم بعده... وجيم... حتى جيم أخذته رقة مباغتة بالرغم من أنه ظل يزعق... وكذلك فعل نون الذي لم يسبق له، ربما طوال حياته، أن دفع على أحد...

قال كاف: - أنا آسف...آسف... ليس معي سوى مصروف البيت... إذا عدت بدونه سأبيت خارج الدار!

قال جيم: - نشرب نخب كاف... جميعا... على حسابي!

قال الشاعر: - وأنا... إذا أمهلني الشيطان إلى آخر الشهر... وأخبركم، بالمناسبة أني أنتظر زيادة منذ عشر سنوات... تشربون نخبي!

قال نون: - نشرب نخب الشاعر ورفاقه... على حسابي!

قال الشيطان: - وهذه كأس الدار... كلكم تشربون كأسا... على حساب الدار!

قالت راء: - الآن نشرب نخب البوغوص... على حسابي أنا!

لم أفهم ما كان يحدث بالضبط : لم يبق منا من لم تأخذه رقة... مودة... على غير العادة... حتى الزبانية... دخلوا معنا في ألفة... وسمح لهم بأن يشربوا معنا في العلن!

قال الشيطان: - الليلة... بصفة استثنائية... سنتأخر بنصف ساعة عن الموعد المعتاد للإغلاق... كي تشبعوا من توديع راء... استغلوا الفرصة واطلبوا شرابا كثيرا... كي يفرح رب المحل معنا!

خرجت راء من وراء الكونتوار، بدأت تقبلنا وتبكي... الواحد... بعد الآخر... كنت الأخير بعد الشاعر... لما رآها كاف مقبلة نحوي همس لي :

- الليلة... بصفة استثنائية... رجاء... سترضيها!

عانقتني... أحسست أنها تعصرني... حتى العظام مني... خمس دقائق أطول من ساعة!

قال الشيطان: - أحبابنا... أصحابنا... السيرك يغلق... عودوا إلى الأقفاص!

راء وأنا... يتبعنا كاف... كنا آخر الخارجين... قالت: - لا أطلب سوى أن تؤنسني... تضمني وتنام جنبي!

قلت: - سأحاول... إذا لم أجد قوس قزح!

وجدته في باب الحانة... من باب الحانة إلى غرفتها... مباشرة!... قلت لكاف: - خذ راء من فضلك... ولا تتبول!

قال: - « في الكلب من اقتفاء الأثر وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات... والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض... يأكل العذرة ويرجع في قيئه!».

قالت راء: - يا أولاد الجيفة... الحمد لله أني سأحج... اذهب لزوجتك يا كاف!

خاتمة المسلك الإضافي
(وفيها فائدة كلبية عظيمة)

قال عبد الوهاب الشعراني في «الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية»: «وقد تناظر كلب السوق مع كلب الصيد فقال كلب السوق لكلب الصيد مالك لا تقنع مثلي بكسر المزابل وتستريح من مخالطة الملوك والأمراء وإني أراهم يغرونك ويكرمونك ويهينوني ويطردونني فقال كلب الصيد أنا وإن خالطتهم فإني معزوز مكروم لأني إنما أصطاد لغيري وأنت لما كنت تصطاد لنفسك أهنت وحقرت وطردت على المزابل».

قال الراوي:

وخاف كلب السوق من الاستمرار في المناظرة فالتجأ إلى المداهنة قائلا إنكم تقطعوننا في كل مناظرة وهذا دليل آخر على العز والإكرام الذي منحتم إضافة إلى العلم الذي لا تعلمون وهو أن المزابل مضرة بالصحة، أي أن فائض الغيرية فيكم يدفعكم إلى طردنا عنها محافظة على صحتنا التي لا نعرف كيف نحافظ عنها نحن الجهلة.

فقال كلب الصيد الذنب ذنب الطبيعة خلقتنا لغيرنا وخلقتكم لأنفسكم فلم يجد كلب السوق ما يضيفه إذ بدت له كل الإضافات الممكنة خطرة فاكتفى بهز رأسه موافقا فقال كلب الصيد بإمكانك أن تأكل من المزابل كما تشاء إني سأحميك فشكره كلب السوق وانصرف إلى المزبلة التي كانت فيها كلاب أخرى كثيرة... كثيرة جدا حتى أن بعضها كان يأكل بعضا!... ولكن لما وصل كلب السوق أوقفت الكلاب المعركة وهاجمته جميعا... قطعته وتقاسمته بعدل... كأنهم بشر!... خاصة إذا علمنا أن كل واحد منهم قد صب على قطعته زيت الزيتون بغزارة... قبل أن يلتهمها!

هـامش وعـبرة

لكل مسلك نهاية، ونهاية كل مسلك تعب أو هداية، والتعب شرط الهداية، لكن التعب ليست له دائما غاية، قد يكون هو الغاية... ألا نرى الأشجار والأقمار والحيوانات... تتعب... فتموت!؟... من رأى كلبا يموت يملك صورة عن أصعب المسالك!... أكثر الناس كالكلاب حياة أو موتا : إما تعب قاتل وإما كلب قاتل... للكلب سبعة أرواح، تقول العامة عندنا... تموت بالتدريج، الواحدة بعد الأخرى!... أحسن الأحكام ما يصدر عن المرء نفسه... فيما يلي علامات على نهاية أكثر المسالك، وهي نوعان:

1- مسالك سعيدة:

-الشاعر أحب وتزوج... انقطع عن الخمر والتدخين و... قول الشعر!

- كاف عاد إلى زوجته وأولاده، صار ينام في البيت... زعموا أن أولاده شكلوا عصابة لتأديبه... خاصة بعد أن طرد من عمله... وزعموا أن العصابة كانت تضربه بقساوة على مرأى ومسمع العموم!

- نون تفرغ لكتابة مؤلف عن البحث عن الفقدان... يشرب في بيته مرة في الأسبوع... كل سبت... صحبة زميلة له... حتى يفقد الوعي تماما!

- ألف انخرط في زاوية شيخ ميم وتنازل عن كل ما كان يملك... لأنه حرام... أحيانا كان يرى وهو يتسول في الساحات العمومية!

-لام انخرط من جديد في السياسة... يحدث، وهو نادر جدا، أن يوقف سيارة المرسديس 190 قرب الخمارة ويبقى هناك وقتا طويلا ينظر إلى الخارج منها والداخل إليها!

-راء يبدو أنها استقرت هناك... الأخبار متضاربة بشأنها : البعض يقول إنها تزوجت والبعض يقول إنها وجدت عملا... لم تعد إلا مرة واحدة إلى البلد! ودعت الأهل... جاءت إلى الحانة ولم تغادرها، طيلة يومين، إلا لتذهب مباشرة إلى المطار صحبة الزبانية الذين قيل أنها وعدتهم بخير كثير!

– الشيطان حج بدوره بمساعدة راء... صار اسمه في الحانة : الحاج الشيطان! لا يشرب الخمر... ولكنه يقبض الحساب ويزعم أنه سيعود إلى الحج مرة أخرى ليطلب التوبة عن... قبض الحساب!

2-مسالك شقية:

وهي القاعدة في الغالب... لكن سنذكر منها اثنين فقط... للذكرى أو... العبرة!

– ميم اغتصب بنتا عمرها أربع عشرة سنة واختفى... ألسنة السوء تقول إنه يرى من حين لآخر غير بعيد من الحانة أو من بيت الشيخ وأن الشرطة ستقبض عليه طال الزمن أو قصر!

– جيم... منذ تأكد من إصابته بداء فقد المناعة التزم بيته... يقال والله أعلم أنه يكثر من الخمر والصلاة ليستعجل خروج الدجال!... هناك من يدعي أنه استبدل الخمر بالحشيش!

كل النهايات... أو على الأصح علاماتها... تكون شبيهة بالعلامات المذكورة... وما بقية القصة إلا للتأكيد على هذه المسألة: إننا نتوب ولا نتوب، إلا نادرا... ومع ذلك فبإمكان كل واحد أن يقرأ الأحداث كما يريد... فأنا لست سوى الراوي: أقرأ كما أريد... إلا أنني لا أستطيع أن أريد كل ما أريد.. وها هو المؤلف يحتج ضدي... يحاول أن يقول شيئا... ماذا تريد!؟... أنا حر!... حي!... قتلتك... أنا السيد الآن... أفعل ما أشاء... ستقطع هذه الأوراق... كلها!؟... طيب... قل!

قال المؤلف: إن الراوي ليس سوى شخص ساذج يتظاهر بفهم ليس في حقيقته كذلك... ونحن المؤلفين نحب هذا النوع من الرواة لنشرك القراء بواسطتهم في كتابة أعمالنا... ولكنهم - كجميع السذج - يصابون بالغرور الذي ليس سوى تعبير عن قصر في النظر... إذا منحناهم بعض ملامح من يفهم!

قلت: - إنك تتملق... القراء... خاصة النقاد الجدد... هذه حيلة للتظاهر بأنك تكتب رواية جديدة... هي رواية أخلاقية... تقليدية... إذن لي فيها حق استخراج العبرة!

قال المؤلف: - نحتكم إلى القراء... إلى النقاد!

قلت: - ها... لهذا كنت تتملقهم! أرفض الاحتكام إليهم!

قال المؤلف: - وإلى من تريد أن نحتكم!؟

قلت: - لا نحتكم إلى أحد... إلى أنفسنا... كل واحد إلى نفسه... أم تفضل الرقابة!؟

قال المؤلف: - أعوذ بالله...!

قلت: - إذن اتركني وشأني... أعدك بأني سأتخلى عن استخراج العبرة... مؤقتا!

نشيد الكلبية الزيتون

(وقد كتبه الشاعر معارضا قولا مقفى للراوي)

من لم يقتله تعب لا يحييه أمل من لم يتعبه حلم لا يرويه مطر تعب، تعب، تعب، ليذهب أو ليجيء هذا المطر جفاف في الحلق وفي العمود الفقري لا يرويه زيت ولا عنب لا يرويه تبغ ولا كلم وأرض يباب ما أتعبها يأس ولا عطش فما أتعبها أمل أو تعب تعب، تعب، تعب، يا زهاء العشرين عاما من التعب ما أصلبك كيف لم يتعبك التعب تعب، تعب، تعب، يا مطر هذا العام أغرقتنا في العطش ليتنا نتعلم منك كيف تجيء وكيف تذهب علنا نعرف عما نبحث أو كيف نصل تتعدد فصولك وفصلنا أبدا واحد نفرح بك حين تقبل وندير ظهرنا إليك حين تدبر تجيء وتذهب ولا نراك إلا حين تذهب ليت الكلبي الذي لم يرك لا مقبلا ولا مدبرا إليك يستمع ليته يرهف القلب قليلا فينصت إلى ما تقوله الشقوق للأرض والوجوه وما بينك وبينها يدور ما تقوله الغيمة للحي والدود والفؤوس ليته دودة تستمع إلى ما يقوله الانتظار للتعب والتعب للنفوس ما يقوله اليأس للترقب أو ثمالة الكأس لثمالة النفس ليت الكلبي يتوقف دقيقة واحدة عن اليأس / الأمل تعب تعب تعب نشرب، نشرب، نشرب، ما ليس في الكأس ما ليس في النفس ما ليس في اليأس ما ليس في الرأس التي ابيضت من التعب ما لا يقال لا بالجهر ولا بالهمس ما لا تسمعه النفس فتسمعه الكأس تلك التي نملأها من معتق التعب تعب تعب تعب سواء جئت أو ذهبت يا مطر عن أي شيء نبحث؟

هل نعرف هل تعرف عما نبحث في شوارع الليل ومسارب النهار ونحن نحتسي كؤوس التعب ونضاعف وقت الليل؟ قال لي الذي وصل إلى نهاية الشارع « عما يجعل الغبار ضبابا والضباب غبارا عن السر في دوام

الليل في صيعة النهار عن لحمة الانشطار عن سدى الانكسار عن ذاك الذي حضر وغاب فينا فأسميناه الانتظار وأسماه الفلاح المطر عن شيء كهذا المطر ولكنه ليس هذا «المطر» قلت كفاك الآن تسعفني العبارة وهذه الإمارة عن مطر المطر المطر عن ضياء الضياء عن نهار الليل عن قمر النهار الذي حبسته أسوار مكناسة وتكلس في حبسٍ قارة فيا أربعين كلمترا من الأسوار كيف نقطعك في عشرين عاما ويا سبعة أبواب المدينة كيف نفتحك في عشرين عاما؟ تعب تعب دوخنا التعب سواء جلسنا أو مشينا سواء بكينا أو غنينا دوخنا التعب سنينا لأنا ولدنا معوقين من آباء معوقين امتلكنا قبل أن نفقد ما بأيدينا لأنا شربنا ثمالة الكأس قبل شرب ثمالة النفس لأن كل هذا الفشل أزهر فأعطانا التعب بدل التفاح والعنب تلك الليلة كنا ثلاثة ابن العافية وابن طريف وابن عطية تلك الليلة كنا نرى الأسوار في الكأس والأبواب حبيسة في القنينة تلك الليلة شربنا كما لم نشرب من قبل وما انتشينا لم تعد الخمرة تروينا كما لم يعد هذا المطر يسقينا كل ليلة نشرب نشرب نشرب لا نشرب غير التعب تلك الليلة ككل ليلة ارتوت مكناسة من بولنا كما شبعت من روث الخيول مازلنا نبول ومازال روث الخيول حين يمزج بالبول سمادا للعنب والزيتون علفا للخيول التي تملأ الروى بالصهيل وإذا نحاول أن نسكر أو نشبع لا نجد سوى هذا الزيت والعنب الذين يصنعان التعب مازلت أيها الكلبي مصدرا لأفظع التعب سواء جاء المطر أو ذهب.

ومازال صهيل الخيول يشد النفس إلى هذا القتيل الذي يرتدي قناع التعب عبثا أحاول يا مكناسة أن أسمع ما يقوله الزيتون للنخيل ما يقوله الأفق المشرع للصهيل ما يقوله العنب للنعناع عبثا أحاول ما يهمسه في عينيك هذا القادم من وجدة أو الناظور / هاربا بالسلع أو بالنفس من عيون العسس أو هذا الهارب من وجهه المشطور في الرباط أو البيضاء ما يسر به زرهون للبرج

وما يرويه البصير للأعرج/ والأعرج السكران من سكر مني أبيه يغني للفرج/ عبثا أحاول أن أتكىء على عصاي أو عصى الأصدقاء كل العصى هشة هدها البول أو العنب هدها طعم النعناع ورائحة الزيتون المرة كل الوجوه انشطرت إلى اثنين وصار غربة كل اجتماع وفرقة كل التقاء فما بال الكلبيين الثلاثة يبحثون في مسارب مكناسة وشوارعها القفرة عن عصا لا تهش ولا يتكأ عليها وما بال هذا الرأس يركب رأسه ويحاول أن يجد في كؤوسهم كأسه جاء المطر عنب هذا العام سيكون في حجم تفاحة آدم / الأب دائما يبدأ تاريخه بخطيئة سببها الأم وكذلك الزيتون والملوخية وكذا حالات الشرق ونماميل التعب لا تندهشوا إن لم يسلم منا أحد ها قد جاء المطر أخيرا جئتهم يا مطر لماذا جئت قبل أن يعم التعب وأخيرا جاء المطر لنا أحباب هجرناهم من شدة التعب / جدتي والمعزة والكلب والقطة والحمار لو لم تجئ لماتوا يا مطر غسل وجه الأرض وجه الطير وجه البشر كل الوجوه ولم يغسل جدام النفس / آثار الذباب المرابط على الوجه والذي لا أعلم ما كان يلحس ولا المقاهي والبارات ولا الشوارع وقاعات الدرس وأعلم أن الطفل مازال مشلولا يقول: اش / من اليأس والتعب / ليس الفتى من يقول كان جدي بالأمس ولكنه من يملك أحسن ضرس جاء المطر وارتويت يا مكناسة الحمقاء الضعيفة الحالمة بعودة أمس الأمس.

لكن الكأس مازالت عند الثمالة والقصيدة عند البيت ما قبل الأول والشعراء قد امتطوا لحيهم واستعدوا للقول الذي قد يكون الأخير « واش ماشي عار عليكم أرجال مكناس ... مشات صحتي في حماكم يا آهل لكرايم » الحب إن لم يكره يصعب أن يستمر أو يعرف لمن تمطر هذه السماء من كان سيعرف أن العلمي ورثته مكناس لولا الدار!؟ من أسأل من يسمع إذا سألت؟ أهلك يا مكناسة قد شدوا الرحال إلى الجبل حيث تحلم القصيبة بالبيضاء أو إلى

البحر حيث تحلم البيضاء من القصيبة وبقيت مجرد محطة لعابري السبيل وبقيت فيك وحيدا ألعن تعبي يحاول أن يطمئنني الأخ الدكتور « إنك لم تر بعد مكناسة الأصيلة » وأتفاءل من قول الدكتور لكني أظل ممسكا بيد ابن العافية كل صباح مع الكأس الأولى « هل رأيت وجهك؟ » لا وجه لي لا وجه لك كل الوجوه في هذه الحانة مجذوعة في البدء كنت أنظر إلى وجه ابن عطية وأجيب: «مثل وجهك الذي لم يغسله مطر وجدة ولا بركة الناظور» والآن صرت أكتفي بالنظر إلى وجهه من غير أن أقول شيئا مخافة أن ينظر إلى يده فيراها كوجهه مجدوعة ثم أفرغ الكأس في فتحة الرأس وأفتح باب المكابدات الممنوعة من كتاب التعب ما رأيت تعبا كهذا الذي ابتليتني به يا مكناسة / زكية / القهر / ضيق اليد / ضعف البصر هل تريدين اختباري أم لأنني فتحت صدري لك ابتليتني بما يبلى به العاشق أم لأنني تركت ورائي كل ما يمكن أن أعطيك وما رأيت من قبل ثقوبا وكؤوسا ملأى بالعشرين عاما كما رأيت فيك هذا الزمن الكلبي هذا الزمن الأصفر كالتعب وها قد جاء المطر زال الوسخ ومازال هذا التعب الذي منه ما أغرفه من عينيك فلمن تريدين تسليمي؟

أنا الذي جئت هاربا من التعب إليك أتعبيني إذا شئت ومزيدا من التعب إذا شئت لكن قربيني إليك فأنت المحبوبة ما قبل الأخيرة وأنا قد سئمت التجوال صدقت يابن العافية إن المولد على الأبواب وما علي إلا ان أختار كيف أعشق مكناسة زكية/ القهر/ الأزمة الرومانسية/ الأغلال جاء المطر مازال التعب ذهب المطر بقي التعب حتما سيذهب المطر حتما سيبقى هذا التعب الشتاء يقترب الصيف يبتعد كالعادة يبتعد الشتاء يقترب الصيف يبتعد كالعادة يبتعد كالعادة يبتعد ربيعك المضطرب تعودت على العنب والزيتون حتى صار نعناع مكناسة يجرح حلقك وأصبحت كلما تمددت تمدد حلقك جنبك وإذا تشرب أو تدخن يقولون هذا الحلق ليس حلقك/ رأسك/ عقلك/ قلبك حلقك/

تعودت على السائل والغازي حتى صرت اثنين أنت وبطنك وثالثكما حلقك من حمل أزرو فشلك/ المدينة/ الأصدقاء فشلك من حمل مكناسة يأسك من التاريخ/ الطبيعة/ الناس/ يأسك/ من حملك الثلاثة أنت وحلقك وبطنك ولا أنت هما ولا هما أنت/ لا اختلاف/ لا وحدة/ لا تشابه أنت/ هيولي أنت كواكب ثلاثة تدور في مجرة وبينهما رأسك المشطور الذي يشبه الصخرة من حمل الصخرة حركة المجرة غير ذلك الذي يجهل أن بين السائل والغازي لا ينبت بيت ولا تنبت زهرة وأن المطر قد يفيد تلك الأرض ولكنه لا يفيد هذي المجرة هذه المجرة من حمل بوفكران عطشك من حمل إفران بردك من حمل زرهون فصولك الأربعة المتداخلة من حمل شجرة الفشل ثمارك المرة من رمى إليك في ذروة الفيضان بهذه الكسرة المتاكلة إلعب أيها الطفل بالأصبع في فمك ليشغلك عن رؤية المجرة المتحولة وهي تصبح أرجوحة للصخرة وهي تتشرك في اللانهائي ذرة تبحث عن طعم أيام تعبها المرة/ تشبت

وأثبت فلا أصل لك في ما قد ينبت ما حدث حدث واليوم لا غدا اخر الوقت تعب تعب تعب كم أريد أن أفرح بالمطر لله تاغنجة يا أم الرجى كبرنا فين الرجى لكم أريد أن أفرح لفرحكم بالمطر كم أحاول أن أقنعني بأن الجرح في العين ما ترى لا ما ترى العين فالعين كليلة من فرط التعب ولكنى اختزنت على مدى الأعوام العشرين ما يكفي من الصور الدفينة لتخريب مجرة كهذي المجرة أو على الأقل مدينة لأنفجر يأسا أو جفافا عما قريب القاتل أول من يموت فارغا من الأمل أو أغتسل بالزعتر والنار وربما بالعنب والزيتون ثم أعود إليك يا مكناسة سعيدا حاملا لكل صديق مجذوع لفافة من النعناع والهواء الجبلي وقد أعود إليك مع أبنائك الراحلين إلى البحر أو الجبل لنحتفل بالمولد أجمعين على طريقة السمك أو الحجل فوداعا مكناسة وداعا هل تذكرين يوم جئتك أحبك أهلك فكرهتك لأنهم أحبوك أكثر من نفسك كنت في ذروة التعب

فحلمت بك رأيتني مكسوا بالعنب والزيتون والنعناع والملوخية النعناع البور الوحدة بريال قالت الوالدة الشيخ الكامل يناديك كانت بيدي قبضة تيرس من العلوي حملتها إليك لوثتها في أماكن ملوثة لوثتني قلت سأنثرها بأقوى ما أستطيع على تربتك بدل أن أحمل للولي شمعة أنثى علامة ذكورة كزكية القلب المشطورة وهل تلوث قبضة مشطورة كل سايس لكن التيرس الملوث ارتد إلى وجهي ومازال الأصدقاء المجذوعون مازالوا يسألون هل رأيت وجهك ومنهم من لازال يقول ذلك الذي لا يفرق بين البؤس والخيلاء جاء منتفخا كالطاووس فأخجل من مؤخرتي وأمد يدي أغطيها بدل أن أغلق بها فمي ناسيا أني حبيس طليق قتيل لعين قتيل سنوات الفشل العشرين التي جعلت الصقر المكسور الجناحين يهز ريشه الباقي من الريش كما يفعل طاووس مسكين من كثرة التعب فقد ما كان لديه من ريش.

القسم الثاني: أصوات الهواء

سيد الزيتون

- السلام أيها العاشق المتعب!

- وعليك السلام أيها الشيخ، أيها العاشق الذي أحب فما أتعبه عشق ولا أتعبه تعب!

- العفو يا ولدي، لكل عمر إفراط وتفريط كما لكل جيل وجنس وكوكب ... لابد من بعد العرض والفشل وسوء الحظ!

- يبدو الاقدمون دائما أحسن حظا!

- يبدون دائما كذلك ولكن ما جلوسك يوم المولد والعشاق يجذعون ما يجذعون؟

- جذعت ما جدعت قبل الآن وقبل أن اجيء إلى هذا المكان حتى إني لم أعد أرى ما يمكن أن أجذع مع العشاق والخلان. وصلت مكناسة وأطرافي في كل مكان، خاويا من كل أرب!

- تبدو عدما من شدة التعب، لكم أهلك التعب من رجال ونساء كانوا أصلب من الحجر!

- أظن التعب نتيجة!

- ولكن النتيجة تصبح دائما سببا. سنطرد عنك إذا أردت هذا التعب!

- آه لو تستطيع ذلك فأنتم أهل التجربة، وأصحاب الدربة والموهبة، ونحن ذوو علل كثيرة، ليس لنا آباء!

- إذن تعال... اجلس إلى جانبي، لأتبين العلل!

- ها قد جلست وهذا وجهي، كتاب عللي!

- كتاب ضخم حقا... باب الجذع... باب الدم... باب الندم... باب التعب... باب العدم... قرعة النساء... قرعة الأهل... قرعة الأصدقاء... قرعة الفقر... قرعة العمل... باب الخواء... باب الفشل... فهرست كتاب التعب... إنه حقا كتاب التعب!

- هل وجدت الدواء!؟.

- أبشر!

- هاته إذن!

- لا تستعجل، إنه ليس عقارا، وليس مرهما أو مصلا، لن تجده عند الطبيب ولا عند العطار، إنه ممن بخل عليكم به الآباء!

- قلت لك إنا ولدنا من غير آباء وإننا في لحظة لا نذكرها قتلناهم جميعا لكثرة خطاياهم!

- بسم الله نبدأ يا ولدي، أقصد تبدأ!

- لنبدأ إذن يا ولدي، أعني أبدأ!

غصن الزيتون

سنصعد معا الدرج، إلى بيتك، درجة درجة سنصعد، تمهل، اغمض عينيك أولا ثم تنفس بعمق... تصور الحركات التي ستقوم بها وأنت تصعد... تصور نفسك تصعد هادئا ومرتاحا... هدوء طبيعي... راحة طبيعية... استمتع بالأحاسيس الجميلة التي تنتشر في كل خلايا جسمك، في كل ذرة من ذرات جسمك، نتيجة شعورك بالهدوء الطبيعي... والراحة الطبيعية... شعورك بالراحة والهدوء يزداد كلما صعدت درجة... تستطيع أن تتأكد من إحساسك بالهدوء والراحة من خلال شعورك بارتفاع درجة حرارة جسمك التي ترتفع قليلا مع كل درجة لتصبح طبيعية... تستطيع أن تتأكد منها كذلك بشعورك بالطمأنينة والأمن والثقة في النفس... إنك تقدر على الصعود من غير أن تفتح عينيك، ولكن بفتح بصيرتك... لاحظ أن بصيرتك تتفتح بهدوء... مازالت تتفتح... نحن الآن في الطابق الثاني... لقد ازدادت درجة هدوئك وطمأنينتك... إنك لم تعد في حاجة إلى الجهد لتحرك رجليك، فكل جسدك يتحرك بلا أدنى جهد... بتلقائية تامة... مازالت بصيرتك تتفتح بهدوء كامل... الآن كل جسدك يبصر، يوجهك بهدوء وارتخاء تام، بتلقائية كاملة إلى الموقع الملائم والفكرة الملائمة... لاحظ أنك تزداد هدوءا وطمأنينة وثقة في النفس... كما تزداد حركاتك تلقائية... لقد وصلنا إلى الطابق الثالث... توقف قليلا عن الحركة...

تأمل الهدوء والطمأنينة والثقة في النفس بداخلك... استمتع بالأحاسيس المريحة التي تملأ كيانك الآن... تصور كل الحركات التلقائية الملائمة لفتح باب الشقة... تصور أن شقتك مليئة بالهدوء والأمن والراحة، كل مكان كل ركن فيها مليء بالهدوء والراحة والأمن: المدخل، المطبخ، الحمام، الصالون،

مكتبتك، غرفة النوم، السرير الغطاء، الشرفة... كل شيء، كل إنسان في هذه الشقة يتمتع بأحاسيس الهدوء والأمن والراحة: زوجتك، أمك، بنتك، ابنك، حتى الضيوف والأقارب والأصدقاء الذين يزورونك من حين لآخر يتمتعون بهذه الأحاسيس الرائعة مثلك... استمتع بهذا الوضع العذب... أخرج المفتاح من جيبك بهدوء... تمهل، تمهل في كل حركة تقوم بها، راقب بكل هدوء كل حركة يقوم بها عضو من أعضاء جسدك... ضع المفتاح في الباب أدره بهدوء، بكل الهدوء الذي يسود كيانك، يوجه يدك التي تدير المفتاح بتلقائية... ادفع الباب بتمهل، بتلقائية من غير شعور ببذل أي مجهود، أدنى مجهود... لندخل كما صعدنا ببطء، بهدوء، بتلقائية، كما صعدنا، إلى هذا البيت الذي تسوده مشاعر الهدوء والأمن والراحة... ولنغلق الباب كما فتحناه، بكامل الهدوء والتلقائية... توقف قليلا الآن، تنفس بعمق، بأعمق ما تستطيع، شم رائحة الأكل المنبعثة من المطبخ... دعها تنفذ إلى كل ذرة من ذرات جسمك، تصورها مادة لطيفة تنفذ إلى أنفك، إلى حنجرتك، إلى كل نقطة في رئتيك، تنتشر في معدتك، في أمعائك. تصور هذه المادة اللطيفة الساخنة تنتقل إلى دمك وتنتشر معه في كل خلايا جسمك خذ وقتك للاستمتاع بذلك... زوجتك الآن في المطبخ تهيء تلك الأكلة اللذيذة المفضلة لديك، استمع إليها فإنها تغني، إنها تغني، إنها في منتهى السعادة...

تقدم نحوها مبتسما، هادئا، إنك سعيد لسعادتها ثم غن معها، ردد معها لازمة هذه الأغنية التي كنت كثيرا ما ترددها معها وأنت تساعدها في المطبخ، ثم اعتذر لها عن عدم مساعدتها اليوم لأنك ستذهب إلى الصالون للسلام على أمك... امش بهدوء، بتلقائية، براحة... نحو الصالون... انظر كم هو واسع وهادئ ودافئ، انظر إلى الفواكه الشهية التي اشترتها زوجتك اليوم... انظر إلى باقة الورود التي تحب... شم هذه الروائح الزكية التي تملأ الصالون،

رائحة الورد... رائحة السمك الذي تحبه أمك... هاهي أمك تصلي هادئة مطمئنة... إجلس وتأمل هدوءها... راقب تلقائيتها، خشوعها الهادئ وهي تصلي... هاهي تلتفت نحوك... اترك الحرارة المنبعثة من جبهتها تنفذ إلى عينيك، إلى وجنتيك، إلى وجهك كله، إلى جسمك كله... استمع، إنها تدعو لك بالخير والعافية والسعادة بهذه اللحظة الجميلة... والآن قبل جبهة أمك بهدوء واعتذر لها عن عدم المكوث طويلا لأنك ستذهب لرؤية ابنتك في غرفتها... تحرك في هدوء، في أمن وطمأنينة وثقة في النفس والمستقبل... كم هي هادئة وجميلة وجادة... ما أسعدك يا رجل بهذه البنت... إنها لم تنتبه بعد إلى وجودك... اقترب منها بهدوء وقبلها قبل أن تفطن إليك، انظر إلى فرحتها بك... الأولاد زينة الحياة الدنيا والبنت الجميلة الذكية الجادة جوهرة الزينة... لقد أنهت كل واجباتها منذ لحظة، كانت قد بدأت تقرأ كتابا حين دخلنا عليها... انظر إنها تطلعك على ما كانت تقرأ... إقرأ معها، إنه كتاب جميل في الهدوء والطمأنينة والأمن والثقة في النفس... ما أجمل هذا الكلام الذي تقرأه صبية في هدوء وأمن وطمأنينة وثقة تامة في النفس، في المستقبل... وما أسعدك أيها الأب الذي تملأه مشاعر كهذه.

استمتع بهذه المشاعر اللطيفة، إنك أسعد الآباء... قبلها الآن وقل لها كلمة طيبة لأنك ستذهب لرؤية ابنك في غرفته... احتفظ بأحاسيسك اللطيفة، إنك أسعد الآباء... رائع! رائع! هذا الولد!! تأمل هدوءه وأمنه وطمأنينته وثقته في نفسه وهو يرسم... إنه أسعد طفل في أسعد بيت! ما أجمل هذه اللوحة التي انتهى في رسمها الآن وما أعمق رضاه وهو يتأملها!... تأمل ألوانها وكيف تنبعث منها مشاعر الهدوء والراحة والطمأنينة والثقة بالنفس والحياة... هذا ولد في غاية الصحة والسعادة، ما أسعدك به!... اقترب منه... لقد انتبه إلى وجودك، تأمله وهو يطير نحو عنقك، يمطرك بالقبلات الحارة... إنك تبادله

القبلات بنفس الحرارة، بنفس السعادة... إنه يطلب أن ترسم معه... اجلس إلى جانبه... خذ كامل وقتك... ارسم بتلقائية مثله... إنكما هادئان ومطمئنان.. تملأكما الثقة في النفس والحياة... انظر جيدا، ولكن بهدوء إلى لوحتك ثم إلى لوحته... إنهما مثلكما، مليئتان بالأمل... بالأمن.. بالثقة، بالطمأنينة... استمتع يا رجل بهذه السعادة... قل للولد كلمة طيبة قبله... ثم تعال نذهب إلى الشرفة... تحرك بتلقائية وهدوء... استمتع برحابة هذه الشقة ودفئها... وروائحها... وأطعمتها... وألوانها... كل ما تحب النفس وتشتهي.. كل ما تطمئن إليه وتفرح به... ها نحن في الشرفة، لا تفتح عينيك، حافظ على كل الأحاسيس التي تغمر كيانك، بكل ما بداخلك وكل ما من حولك... انظر إلى الجبل... انظر إلى البحر... اسمع أصواته الهادئة استمتع بألوانه وكائناته... هدوء... طمأنينة... استمتع... أمن... سعادة... راحة استمتع... بداخلك... من حولك... داخل البيت... خارجه... في الجبل... حوله... في البحر... بعمقه... بسطحه... استمتع... تصور سريرك... الدفء... الراحة...

إنك تتجه في هدوء وطمأنينة إلى فراشك... تأمل هدوءه ودفئ غرفة النوم... إنك تقترب من السرير بهدوء وطمأنينة... إنك ترفع الغطاء... تستلقي... تنشر الغطاء على كل جزء من جسدك... دفء... راحة... استرخ، دع الاسترخاء ينفذ إلى كل ذرة من ذرات جسدك الدافئ... المرتاح... ينتشر في شعر رأسك، في جلدك، في خلايا الرأس... في جبهتك... في حاجبيك... في عينيك... في الأذنين... في الوجنتين... في الأنف... في اللسان... في...

لـذة الزيتون

– صباح الخير أيها الشيخ الجليل!

– عم صباحا يا ولدي، أرى مشاعر الهدوء والراحة والأمن والطمأنينة والثقة تشع في وجهك.

– نمت نوما طويلا وحلمت أكثر من مرة أحلاما مدهشة، هل أحكي لك أحلامي؟

– لم يحن وقت هذا بعد، احتفظ بهذه الذكريات الطيبة لنفسك ودعنا نستعد لشيء آخر جميل!

– من أين نبدأ هذا الصباح، كما أبدأ عادة؟

– نبدأ بالتثاؤب... وتثاءب بقدر ما تستطيع!

– ولكني تعودت أن أبدأ بالقهوة والسجائر!؟

–إذن ازفر، إزفر بقوة وفي هدوء عشر مرات... والآن تثاءب عشر مرات... وتمطط، افعل مثل القط بهدوئه وحركته، تعلم كيف تراقب القطط وتقلدها!

– ولكني أفضل عليها الكلاب وأحب أن أتعلم منها!!

– حياة الكلاب ليست جديرة بالتقليد، وحذار ثم حذار من تقليدها خاصة في حياتها العملية وفي مفهومها للحركة والسكون، تعلم كيف تقلد القطط إن حياتها أجدر بالتقليد خاصة مفهومها للحركة والسكون، وركز كل انتباهك في ما تفعل!... يكفي أخرج من الفراش وتعال إلى الشرفة!

– صباح رائع أليس كذلك أيها الشيخ؟

– كل صباح رائع لا مثيل لروعته!

- الهواء منعش وأشعة الشمس التي لم تطلع بعد تظهر كضوء سحري ينبعث من لوحة رسام يرى الشمس تشرق من ذاته لا الخارج، قد تكون أجمل الشمس هي تلك التي تطلع من داخلنا لنضيئها وتضيء الكون!

- تذكر أننا هنا لنعيش الصباح لا لنفلسف!...

أخشى أن تضيع منا متعته وفي أحسن الأحوال أن نستبدلها بلذة أخرى!

- قد يكون الحق معك!

- إذن استمتع بالأحاسيس اللذيذة التي تخلقها عناصر الصباح بذاتك: الأشعة السحرية... الهواء...

-أشعر بطاقة هائلة في داخلي!

- أعرف ما تشعر به، فلا حاجة بك إلى وصفه لي إلا عندما أطلب منك ذلك!

- ولماذا تريد ألا أصفه لك، هل يزعجك ما أشعر به!؟

- كلا ولكن أخاف أن يضعف الوصف من درجة إحساسك به أو أن يجرك إلى ثرثرة على هامشه... الآن تفطر... تصور طعم الحليب، طعم القهوة ورائحتها، طعم الزيت، طعم العسل، طعم الخبز، كل هذه الأطعمة اللذيذة التي ستضيفها إلى اللذات الأخرى: ذكريات الأمن السعيد، ذكريات أحلامك المدهشة، أحاسيس هذا الصباح المنعشة، حركات القط الذي حاولت تقليده... تصور كل هذا وابتسم... نعم ابتسم للأحاسيس اللطيفة، للأطعمة التي ستعطيك لذات أخرى، ثم ذكريات، ثم عادات أخرى، ابتسم لأن الابتسامة تضاعف من هدوئك، وراحتك وطمأنينتك وأمنك وثقتك في نفسك وفي الناس والعالم من حولك... أرأيت كم هي سهلة... هذه الابتسامة الرائعة

على شفتيك، على كل وجهك، على جسدك!؟ [إن الأمر غريب حقا... أن أستطيع الابتسامة هذا الصباح... إني لا أذكر منذ متى لم أبتسم في الصباح!].

- [.....]

- وتستطيع أن تضحك إذا شئت، شريطة ألا تفسد راحتك وأمنك بمثل هذه الصور والذكريات السالبة، بهذا النوع من التفكير المحبط كل صباح، تذكر إنك قررت أن تطرد الكلب من داخلك ولا تصر على إخباري بكل ما يجري بذاتك، فأنا قلت لك إني أعرف كل هذه الأمور من غير أن تصفها لي!

- يعني أستطيع أن أتغلب على كل الصور المحبطة والأحاسيس السالبة؟!

- أجل لأنك تستطيع أن تتغلب على الكلب بداخلك... أما كفاك إحباطا!؟ أما رأيت إلى أين أوصلتك أحاسيسك الرذيئة وإلى أين تسرع بك؟

- كلا، لقد تعبت، أتعبتني، بعد الفشل ها هي توصلني إلى العجز!

- تستطيع أن تعيد شحن نفسك بنفسك ومن جديد بطاقة متجددة على الدوام، طاقة محفزة...

- كيف!؟ لا أخاف من التجربة، ولكن من الفشل... لا ليس من الفشل... من الانتكاس!

- الأمر في غاية السهولة والصعوبة معا، كل شيء متوقف عليك لأنك يجب أن تقنع نفسك بقدرتك على ما تريد ثم تعمل على استبدال الأحاسيس والذكريات والصور والأفكار المحبطة بأخرى محفزة!

- تعني تأثير البيت، تأثير العمل، تأثير الشارع، تأثير الراديو، تأثير التلفزيون، تأثير الجريدة، تأثير الثرثرة الفارغة مع الأصدقاء والزملاء، تأثير...! ؟

- إذا شئت، ولكني أعني تأثير نفسك السلبي، تأثير تاريخك الشخصي والجمعي الذي أوحى لك بأن هذه الحياة جنة، إن الحياة جهنم، أجل كل شيء فيها محبط إذا لم تقو نفسك وتصنها على الأقل بحد أدنى من الطاقة المحفزة!

- الطاقة المحفزة، أين ما يحفز في حياتنا!؟

- إنه بداخلنا، دائما بداخلنا، في كل زمان ومكان كان الناس يستمدونه من داخلهم ليجدوه خارجهم!

- إحذر أيها الشيخ، إنك قد بدأت تتقلب، تتهاني عن التفلسف وتمارسه...! ؟

سامحك الله!

- إني أنهاك عما يضعفك، عما حط من استعدادك الطبيعي، عما خربك ولم تعرف كيف تستعيد استعدادك له!

- ليكن، أستطيع إذن استبدال كل هذه المحبطات!؟

- تستطيع على الأقل التخفيف من ضغطها لاسترجاع بعض طاقتك إلا أنك لن تستطيع إلى ذلك سبيلا إذا بقيت تفكر فيها... انظر إلى إحدى نتائج هذا التفكير: إنك لم تمد بعد يدك إلى طعام الفطور!

- سأفطر فورا!

- لا ليس فورا، خذ وقتك، كل ما تستطيع من الوقت! ثم اغتسل وارتد ثيابك بهدوء...!

سأنتظر في الخارج، تجدني أمشي في الشارع...

- انظر أمامك... وحولك... وتأمل!

- أحس بالخفة، لا، بالرشاقة، بالقوة، بالطمأنينة!

- احتفظ بمشاعرك بداخلك فاحتفاظك بها يقويها ولا تتكلم عنها فإن كلامك عنها يبددها، كلم عنها نفسك إذا شئت فهذا أفضل على كل حال، واستمتع بها فأنت أهل لها!

- ماذا نفعل الآن؟

- سنمشي، نمشي بهدوء لنستمتع بالأحاسيس الطيبة التي يبعثها فينا المشي... تلك التي يأتي بها الصباح إلى الشارع... التي تملأ الناس الذين حافظوا على بعض طاقتهم المحفزة... تلك التي تنبلج من ألوان وروائح الكائنات التي تستيقظ باسمة كل صبح... استمتع، فكر فقط فيما هو جميل ومنعش ومحفز ولا تصف لي شيئا مما تحس به، صفه لنفسك أحسن، صف لنفسك هدوءك في صمت، صف لها الشعور بالطاقة التي أخذت تستيقظ بداخلك، وامش، تباطأ، اترك يديك تتدليان، وكذلك كتفيك وامش لا تجر، امش، بهدوء...

اجلس، هاهنا، إلى جانبي فوق هذا الحجر... تمطط... تثاءب، تنفس بعمق، اعط لنفسك كل الفرص التي تحقق استرخاءك، تخيل ذاتك وردة تتمايل بلطف، بفعل ريح خفيفة مداعبة، وتخيل رائحة الورد تنبعث منك، إنك تشمها، رائحة زكية كأنها الحياة ذاتها، لطيفة منعشة، خفيفة،... ابتسم لهذه الرائحة، للوردة، وأنت تتمايل بلطف استمتع بابتسامتك، برائحتك، بالأحاسيس الجميلة التي تنشرها الرائحة والابتسامة بداخلك وحولك... احتفظ بابتسامتك كبيرة وهادئة وتصور أنك تقوم، مازلت تبتسم، لقد قمت، مازالت الرائحة تنبعث من

كيانك وما زالت الابتسامة تكبر ويكبر معها هدوئك... وها أنت تعيش... مازلت تبتسم، مازالت الابتسامة تثير الأحاسيس الرفيعة بداخلك وحولك... مازلت تمشي مبتسما هادئا، مطمئنا، مرتاحا، واثقا من نفسك... إمش، إمش، واستمتع بكل هذه الأحاسيس المريحة... ستظل معك هذه المشاعر طول النهار والليل، في جميع الأحوال والأوضاع... لن تفارقك ابتداء من هذه اللحظة، ابتسم أكثر... هذه باب كبيرة أمامك، ابتسم... الباب هادئة مثلك، بلا مقاومة، إفتحها، ستفتحها بأقل مجهود ممكن... لقد فتحتها... حافظ على ابتسامتك واستمتع بهذا الفعل التلقائي...أغلق الباب وراءك، مثلما فتحتها بدون مجهود زائد... ابتسم واستمتع بنتيجة هذا الفعل الذي أنجزته بتلقائية تامة، إنك تستطيع إنجاز كل أفعالك بمثل هذه التلقائية، في هدوء تام، في راحة تامة، في طمأنينة وأمن، في ثقة تامة بالنفس لا، انظر أمامك، من الداخل...هاهو البحر قرب قدميك... انظر إلى الأطفال من حولك... إنهم يسبحون... في هدوء... انظر إلى البواخر والقوارب... انها تسبح... في طمأنينة... انظر إلى السمك والحوت... إنه يسبح بدوره... في هدوء... في طمأنينة... في راحة.. في أمن وثقة بالنفس... انت تستطيع أن تسبح مثل هؤلاء... انظر إلى هذه السمكة الصغيرة الملونة ما أجملها... إنها أختك، إنك مثلها الان، سمكة صغيرة ملونة رائعة الجمال، انظر اليها، إنك تستطيع السباحة مثلها...

– ولكني لا أعرف السباحة، لم أتعلمها!؟

– أنت الآن سمكة صغيرة ملونة ورشيقة وتستطيع أن تسبح كما تشاء، هيا إغطس... ستقودك السمكة الصغيرة الملونة الرشيقة...

– لقد اختفت السمكة!

– كلا، هاهي بجانبك، ثم أعطها يدك!

– اليمنى أو اليسرى!؟

- أجمل يديك!

- اليسرى إذن!

- اليسرى أجمل، لقد أمسكت بها السمكة الصغيرة الملونة الرائعة، إنها تسير بك في اتجاه العمق، انظر في داخلك وقل لي ما ترى كل ما ترى صفه لي الآن...

- لا أرى سوى الظلام، ظلام كثيف جدا!

- انظر جيدا، من الداخل، من كل داخلك!

- لا شيء غير الظلام!

- إنك تستطيع أن ترى عبر الظلام، وهناك ضوء خفيف يأتي من الأعماق ويتسع مداه بسرعة كبيرة جدا هل تراه؟

- إني أراه ولكنه باهت، ثم اني أشعر ببرودة هائلة وكأني في منطقة جليدية!

- اتبع السمكة الملونة الجميلة لتنزل أكثر، فهناك الماء أشد دفئا، أمازلت تمسك بيدها؟

- لا أنا الآن أمسك بظهرها وأخشى أن أقتلها؟

- لا تخف، تذكر أنك هادئ ومطمئن مرتاح البال تماما في البحر لأنك أصبحت سمكة ملونة رشيقة تملك ثقة عالية في النفس ثم استمتع بالأحاسيس المنعشة التي يثيرها الماء الدافئ، في كيانك، استمتع بالدفء وحافظ عليه بداخلك ومن حولك ثم قل لي ماذا ترى!

- لقد هربت السمكة ولم أعد أعرف إلى أين أتجه!

- إنها ستعود فورا، ولكنك لم تعد في حاجة إليها الآن فأنت تتجه نحو عمق البحر وتقدر على أن توجه نفسك وأن تمسك بأية سمكة أخرى!

- أرى قرشا رهيبا يتجه نحوي شاهرا أسنانه!

- إن القرش يحب السمك الصغير الملون، إنه يتسلى بمشاهدة جماله!

- ولكنه يبدو جائعا وكأنه لم يأكل منذ أعوام!

- السمكة الصغيرة الملونة مثلك أذكى من القرش وأسرع!... لذلك يحب القرش أن يلعب معها!

- سأذهب!

- استمر في النزول بهدوء وثقة في النفس وسترى القرش يبتعد عن طريقك!

- لقد توقف، وكأنه يريد أن ينقض عليها!

- أتركه وشأنه واستمر في النزول فهذه السمكة أختك تقف قربك لتطمئنك.

- هل أغير اتجاهي بعيدا عنه!؟

- لا، تستمر في النزول باتجاهه فذاك اتجاهك نحو الأعماق!

- إنه بدوره ينزل في نفس الوقت والاتجاه ورأسه مصوبة نحوي!

- إنك بقفزة صغيرة تستطيع الإفلات منه ثم إنه لا يريد مهاجمتك، هل تتصور قرشا كهذا يأكل سمكة مثلك؟! ماذا سيقول عنه الحوت الآخر إذا رآه يأكلك!؟

- لا شيء، إنه على العكس سيفرح لأنه سيخلو له الجو لأكل السمك الأكبر وحده!

- ولماذا لم يأكل السمكة أختك التي تسبح إلى جانبه؟ ألا ترى أنه يلاطفها؟

- لقد انشغل بالسمكة الصغيرة، هل أتركه يأكلها؟

- قلت لك إنه لن يأكلها، وهي تعرف ذلك، وأنت تعرفه!

- لقد ابتعد الآن عن طريقي، ولكنه مازال ينتظر إلي بعدوانية!

- اتركه وشأنه واستمر في النزول، انزل أكثر، استمتع بالأحاسيس الدافئة التي ينشرها دفء الماء بداخلك وحولك... هكذا، استمتع وقل لي بماذا تشعر الآن!

- أشعر بأني أختنق، بأن زادي من الأكسجين سينفذ فورا!

- من هذه الناحية لا داعي للقلق، جسمك مجهز بشكل يجعله ينتج تلقائيا... ما تحتاج إليه من الأكسجين!

- إني أرى الضوء، نعم أرى شعاعا من الضوء يتسع بسرعة غريبة... ها هو أصبح دائرة عظيمة... الأسماك!... آلاف الأسماك الجميلة... أسماك بكل الألوان، من كل الأشكال والأحجام، إنها تتجه نحوي، وها هي تحيط بي، الأسماك تلعب معي، وهاهي... وها هي بعضها يقدم إلي أشكالا عجيبة من الصدق! إنها ترقص... تدعوني إلى الرقص!

- إذن أرقص معها كما تشاء، إلعب معها كما تريد فأنت تستطيع كل ما تستطيعه وأكثر!

- إني أقوم بألعاب بهلوانية عجيبة، بحركات غريبة يعجب لها السمك نفسه ويحاول تقليدها!

- بإمكانك أن تقوم بما تريد من الحركات!

- ولكني لا أستطيع أن أغني!

- كلا، وتستطيع أن تغنى كما تشاء!

- أجل إني أغني أعذب الأغاني وأحبها إلى نفسي... الأسماك من حولي تغني وترقص... البحر كله أصوات رخيمة، موسيقى عذبة وكأنه جنة... كأنها ليالي فيينا أو غابر ليالي الأعراس عندنا في قرية!

- استمتع برقصاتك، بأغانيك، بأصوات وحركات السمك حولك... استمتع بالأحاسيس الحلوة، بهذا الجو الناعم بداخلك ومن حولك!

- إنها العذوبة ذاتها!

- أجل ولكنك ستنزل الان أكثر!

- ولماذا تريدني أن أنزل وأترك هذا العالم الرائع ورائي! إني أرفض أن أنزل!

- ستنزل أكثر لتكتشف أجواء أخرى أعمق وأروع، حتى يصير بإمكانك أن تعود إلى أي جو من هذه الأجواء متى تشاء!

- إذا كان الأمر كذلك أستمر في النزول نحو العمق!

- إنزل إذن بهدوء وقل لي ماذا ترى؟

- آه إني أرى ذلك الحوت الضخم الذي يشبه الغواصة، إنه ينفث الماء من أذنيه كالعفريت... ولونه أسود، شديد السواد كالظلمة... إنه ينشر الظلمة... لقد نشر الظلمة في كل البحر وهو قادم نحوي بسرعة البرق!

- إنه لا يريد بك شرا. كل ما يريده هو أن يحملك على ظهره ويطوف بك في أرجاء البحر بهذه السرعة التي ترى ظانا أنه بذلك سيسعدك، لكنك لا تريد أن تطوف في البحر بهذه السرعة الكبيرة، وإنما تريد أن تتمهل، أن تأخذ كل وقتك لتستمتع أحسن بما ترى. قل له هذا وسينصرف!

- قلته له، وها هو ينصرف حزينا بعد أن كف عن نفث الماء من أذنيه وأنفه وعينيه!

- لقد ابتعد، فقل لي ما ترى الآن؟

- مازالت الظلمة كثيفة!

- إنك تستطيع أن ترى في الظلمة ذاتها!

- أجل انقشع الظلام... ولكني أرى شيئا غريبا ومخيفا... ذلك الحيوان البحري ذو الأرجل العديدة... هذا نوع ضخم جدا!

- تعني الأخطبوط؟

- هو بعينيه، ما أطول وأبشع قوائمه!

- إنه حيوان بريء ومهادن. بالنسبة إليك، اقترب منه وداعبه!

- لا أستطيع!

- قلنا إنك تستطيع كل شيء، هيا داعبه في هدوء!

- إني أفعل ولكنه يبدو ميتا قد يكون ميتا منذ ساعة أو ساعتين!

- إنها أنثى، لا شك أنها كانت في حراسة صغارها منذ شهر!

- طعمها ناعم مع ذلك!

- أتركها واستمر في النزول، إنك قريب من عوالم رائعة الجمال!

- لم أعد قادرا على الحركة، أشعر أن أعضائي قد تجمدت بما يشبه البرد... لا... ما يشبه الكهرباء!

- شعور عاد جدا بعد هذا الذي رأيت فاسترخ قليلا...

...استلق على ظهرك إذا شئت ومارس الاسترخاء...

- أستطيع أن أتحرك الآن؟

- طبعا إذا كنت تريد ذلك!

- إني أريده إلا أني لم أعد قادرا على الحركة تلقائيا!

- بالعكس بعد أن تعودت على أعماق البحر تستطيع أن تتحرك بتلقائية أكبر!

- إني أنزل!

- صف لي ما ترى!

- أرى عالما عجيبا من الألوان، آه... المرجان! غابات وحدائق من المرجان الزاهي الألوان... ألوان وأسماك ومرجان من كل الأحجام والأشكال!

- استمتع باكتشافك لهذا العالم... خذ وقتك... اجلس... امش... العب... غن... ارقص... داعب الأسماك والمرجان والألوان!

- أرى في هذه اللحظة قصورا عجيبة من المرجان والضوء تسكنها أسماك لم أكن أتصور جمالا مثل جمالها!

- حاول أن تدخل إلى أحد تلك القصور!

- سأدخل إلى أكبرها، هذا الذي يبدو كمسجد من الخارج...

- صفه لي!

- لا أستطيع، ليتني أستطيع! جمال لا يمكن أن يستوعبه وصف كما يقال!

- أين أنت في هذه اللحظة؟

- أنا في الساحة الكبيرة التي يؤدي إليها المدخل... حدائق أرضية وأخرى معلقة من المرجان والزهور والألوان تملأها أسماك لا حصر لأشكالها وأحجامها وألوانها... وها أنا أبصر الغرف، غرف كثيرة كل واحدة منها ذات لون مميز!

- أدخل إلى إحداها!

- سأدخل إلى هذه الغرفة ذات اللون البرتقالي... أشعر براحة هادئة... الباب مفتوح، إني وسط بهو عجيب... هذه باب أخرى... كل الأبواب مفتوحة في هذا القصر... وهذا بهو عجيب آخر وهذه باب أخرى... هذه الغرفة البرتقالية... فسيحة ومريحة... إني أبصر سمكة غريبة تبدو نائمة، قلبي يرتجف، كل جسدي يرتعش... إنها جنية البحر... نعم جنية البحر، سأهرب حالا!

- لا انظر إلى جمالها!

- هذا جمال يخيفني!

- انظر إلى صفاء وجهها، إلى هدوئها، إلى طمأنينتها!

- لا أستطيع أن أكون مثلها!

- تستطيع فأنت سمكة مثلها، وهي تحب السمك الصغير الملون وإلا ما تفعل هناك؟

- إنها تستيقظ، أحست بوجودي، سأهرب!

- لا، ابتسم، ابتسم، لها ابتسامة لطيفة!

- إنها تفتح عينيها!

- ابتسم : أرجوك، ابتسم، تستطيع أن تبتسم لها ابتسامة عذبة!

- إنها تنظر إلي وتبتسم!

- ابتسم لها بدورك!...

أزهار الزيتون

- قل لي أين أنت الآن يا ولدي هل تسمعني؟
- آه ربما غفوت أو نمت... أنا في جزيرة صغيرة غير بعيد منك!
- وأين صديقتك جنية البحر؟
- إنها هنا بدورها بجانبي، مستلقية في حالة هدوء تامة؟
- أتركها مستلقية وخذ وقتك لتأملها!
- لقد استيقظت... ها هي تفتح عينيها وتبتسم!
- ابتسم لها بدورك!
- إني أبتسم بشكل طبيعي!
- جميل، إنك تبتسم بتلقائية!
- وها هي قد وقفت!
- إنها تريد أن تتصرف يا ولدي!
- ولماذا تريدها أن تتصرف؟ من قال لك أنها تريد أن تتصرف أيها العجوز؟
- يجب أن تعود إلى الماء فهي لا تتحمل البر طويلا!
- حولنا الماء من كل جانب، ليس هذا ما ينقصنا!
- لكنها تحتاج إلى ماء الأعماق، إنها قد تموت إذا ابتعدت كثيرا عن الأعماق!
- إذن أعود أنا معها!
- وأنت لا تستطيع أن تظل طول الوقت في الماء!
- ولكني سمكة!
- أعرف، إنها سمكة لا تقدر على الابتعاد دائما عن الشاطئ!

- إذن إذهب معها إلى مكانٍ غير بعيد لا عن الشاطئ ولا عن العمق؟

- هناك حل أحسن: تضرب لها موعدا غدا، أترك لها فرصة أن تشتاق إليك واترك لنفسك فرصة أن تشتاق إليها!

- إني ما صدقت أني التقيتها وأخشى ألا أجدها مرة أخرى!

- كلا، ستجدها، فأنت منذ الآن تستطيع أن تذهب إليها متى تشاء!

- ولماذا لا أذهب معها حالا!

- يجب أن تستريح وأن تستريح بدورها!

- وإذا ذهب إليها غيري في غيابي!؟

- لن يجدها، أنت الوحيد الذي يعرف مكانها وحتى إذا وجدها فإنها لن تخرج معه لأنها ستكون في انتظارك كما كانت في انتظارك طوال هذه المدة!

- هل صحيح أنها كانت في انتظاري؟

- إسألها إن لم تصدقني!

- إنها تبتسم!

- قل لها إذن أنك ستعود غدا في مثل هذا الوقت!

- إنها تبدو بئيسة!

- قل لها إنك ستعود إليها هذا المساء!

- إنها تبتسم!

- إذن ودعها وتعال!

- إنها تبدو بئيسة مرة أخرى!

- لا شك أنها تريد مصاحبتك إلى الشاطئ!

- إنها تبتسم!

- حسنا، خذها من يدها وامشيا نحو الشاطئ فالماء الذي يفصل الجزيرة عن الشاطئ ليس عميقا!

– ومع ذلك يظهر أنها تريد أن نسبح معا قليلا!

– اذن امشيا معا!

– ولكنها خجلى!

– بسببي... أنا أعرف!

– إنها تبتسم، لم أر من قبل ابتسامة في مثل هذه العذوبة!

– ابتسم لها وأنت تودعها!

– أتركها معنا قليلا!

– إني أريد أن تبقى معنا، ولكني أخشى عليها من البقاء طويلا بعيدا من الأعماق !

– إنها لا تريد أن تنصرف!

– ابتسم لها وذكرها بموعدكما هذا المساء!

– إنها تتجه نحو الماء باسمة!

– ابتسم لها بدورك!

– لقد غطست!...

– لقد اختفت!

– اجلس إلى جانبي فوق الصخرة!

– لقد جلست!

– انظر إلى الشمس، ولا تفتح عينيك!

– نظرت، كم الساعة الآن؟

– السابعة والنصف.

– لقد حان وقت عملي!

– احتفظ بهذه الذكريات العذبة.

– سأحتفظ بها كاملة.

- احتفظ بكل ما يساعدك على الاحتفاظ بها، واحتفظ بالابتسامة!

- سأحتفظ بها، وهل أستطيع أن أفارقها الآن!؟

- تصور أنك تتجه في هذه اللحظة نحو مقر عملك وبداخلك وحولك كل هذه الذكريات العذبة... وهذه الابتسامة اللطيفة!

- إني أتصور ذلك كله وأستمتع به!

- استمتع بالراحة...وبالطمأنينة... بالأمن... بالثقة التي بعثتها في كيانك!

- كل جسدي في حالة استرخاء واستمتاع!

- إنك تدخل الآن باب الإدارة وبداخلك وحولك هذه الأحاسيس!

- إني أفعل!

- وها أنت تصعد الدرج في هدوء!

- إني أفعل!

- وها أنت تدفع الباب بلطف لتدخل إلى مكتبك!

- إني أفعل!

- وها أنت تقول صباح الخير لزملائك والابتسامة اللطيفة تنير وجهك وكأنها مصباح لطيف!

- إنهم ينظرون إلي جميعا وكأن الطير على وجوههم!

- احتفظ بابتسامتك، استمتع بها!

- إنهم يبتسمون بدورهم، كلهم يبتسمون!

- استمتع بابتساماتهم... ابتسامة بنعيسى، ابتسامة علال... ابتسامة زكية!

- إني أشعر براحة هائلة!

- استمتع بشعورك بالراحة... اجلس على الكرسي... استمتع بجلستك... ابدأ عملك!

- زملائي مازالوا يبتسمون!

- ابتسم لهم!

- بنعيسى يقدم إلي قلما!

- خذه وأنت تبتسم!

- علال يقدم إلي ورقة!

- خذها وأنت تبتسم!

- زكية تقدم إلي وردة!

- خذها وأنت تبتسم!

- لقد انكبوا على ملفاتهم وهم يبتسمون!

- الآن ازفر بهدوء، ولكن بعمق، ثم استنشق بعمق وهدوء... افعل ذلك سبع مرات! والآن تثاءب. تمطط... افعل مثل القطط!

- لقد فعلت!

- تصور كل الحركات اللازمة للوقوف، قف!

- لقد وقفت!

- تصور كل الحركات اللازمة للمشي ثم امش!

- ها أنا أمشي!

- بهدوء... بطمأنينة... براحة البال... بابتسامة لطيفة ستتصور الحركات الضرورية لفتح عينيك ثم تفتحها!

- لقد فتحتهما!

- إنك في الطريق إلى عملك!

- لقد فتحتهما!

- إنك في الطريق إلى عملك!

-ومتى أراك أيها الشيخ الكريم؟

- متى احتجت إلي وفي أي مكان بإمكانك أن تنادي علي في سرك فأحضر!

- بارك الله فيك؟

- إلا أني أفضل أن يكون ذلك عند الضرورة القصوى فقط!

- ولم الضرورة القصوى؟ وما الضرورة...؟

- أنت من يجب أن يحددها!

- إذن إلى اللقاء!

- إلى اللقاء!

ريم الزيتون

ها قد وصلنا إلى حيث نريد، احتفظ بكل الأحاسيس الرفيعة بداخلك وحولك... استمتع بها... خذ وقتك، أطول ما تستطيع من الوقت... ثم انظر حولك من غير أن تفتح عينيك، انظر إلى هذه العصافير الجميلة... استمتع بزقزقاتها... إنها رقصات هذه الحركات وأنت تستمتع في نفس الوقت بزقزقاتها إنها أناشيد لطيفة هذه الزقزقات استمتع بكل الأحاسيس الجميلة التي خلقتها هذه اللحظة في كيانك... من حولك... ثم انظر إلى هذا الطائر الذي يشبه اليمامة، ولكنه أجمل بكثير من اليمامة... إنه يرتفع... راقب الطريقة التي يرتفع بها، إنه يدور في مكانه ولكنه يرتفع، إنه يرتفع بهدوء تام... بطمأنينة، بثقة كاملة في النفس... بدون مجهود زائد، لا يتحرك إلا بالقدر الذي يسمح له بالحفاظ على توازنه واتجاهه... لاحظ كيف بدأ يختفي في أعالي السماء... لقد اختفى... ولكنك مازلت تراه خلف السحاب وهو يعلو في هدوء، في طمأنينة، في ثقة بنفسه... راقبه جيدا، لقد دخل الآن وسط تلك الغيمة الكثيفة... وهاهو يرتفع فوقها، إنه يتجه نحو غيمة بيضاء... هاهو يقترب منها... وهاهو يصعد أخيرا فوقها، لاحظ أن الغيمة تشبه الفرس، إن الطائر يمتطي ظهر الغيمة ويتركها تسير به في اتجاه الجبل... إن الغيمة تركض بالطائر كما لو كانت فرسا... ما أجملها... الآن أتركهما يسيران في اتجاه الجبل وانظر إلى هذا الطائر الذي يقف غير بعيد منك .. إنه ينظر إليك بدوره! أنت لا تعرفه بطبيعة الحال لأنك لم تر من قبل طائرا بمثل هذا الجمال أو بمثل هذه القوة، أما هو فإنه يعرفك ويعرفك جيدا ويعتبرك صديقا له... سأشرح لك: هذا هو الطائر الذي كان ينافسك في البحث عن فتات

الموائد ومختلف البقايا في صناديق القمامة الهشة والمزابل العفنة والذي كان غالبا ما يسبقك فيأكل كل شيء ولا يترك لك إلا ما تكذب به على معدتك... هذا الطائر هو الذي كان يأكل الدود الذي كنت تضع للعصافير في فخك، يأكل الدود ويحرمك من الصيد على عكس أترابك... هذا هو الطائر الذي تشعر به على الدوام محلقا فوق رأسك خاصة عندما تذهب إلى البادية أو تسير في حديقة أو شارع أو تقترب من شجرة أو تمر بمحاداة سور قديم أو تعود وحيدا أو متأخرا كل ليلة... هذا هو الطائر الذي كان يتسلل إلى الكتاب أو قاعة الدرس لينتشلك من قبضة العصا أو قبضة الملل... هذا هو الطائر الذي كان يهبط كل ليلة ليخرجك من بين إخوتك ويطير بك إلى أجواء تعبق بالدفء والهواء النقي والموسيقى الصافية التي تجلب النوم العميق الهادئ... هذا هو الطائر الذي كان ينزل إلى ساحة اللعب أو الزقاق المكتظ ليحملك على جناحيه الناعمين ويريك ما لم يره أحد من أهلك أو أصدقائك أو أعدائك... هل تذكره الآن؟

– أجل، أذكره وأعرفه بالرغم من أني لم أره قط!

– لقد جاء اليوم ليحملك من جديد على جناحيه الناعمين ويفتح لك مشاهدة ما لم تره قبل!

– وماذا يريد وهو يحرك منقاره بهذا الشكل؟

– إنه يريد أن يسلم عليك فمد يدك وداعب منقاره!

– وما معنى هذه الحركات التي يقوم بها؟

– إنه يعبر لك عن فرحته واستعداده لخدمتك!

– وهذه الحركات الاستعراضية؟

– إنه يريد منك أن تتأكد من قوته وخفته لتطمئن إلى قدرته العظيمة على تلبية كل رغباتك!

- وماذا يفعل بجناحيه؟

- إنه يبسطهما ويدعوك إلى الصعود فوقهما، فتصور كل الحركات الضرورية للصعود فوق هذين الجناحين الناعمين القويين بكل ما يلزم من الهدوء والأمن والطمأنينة وبأقل ما يمكن من الجهد ثم اصعد!

- لقد صعدت!

- التزم بالهدوء واتركه يتصرف!

- لقد انطلق كالطائرة!

- لاحظ هدوءه وهو في ذروة انطلاقه!

- لقد أقلع وأخذ يصعد!

- لاحظ ثقته في نفسه!

- يبدو وكأنه لا يطير مع ذلك!

- ذلك ناتج عن هدوئه، عن طمأنينته، عن ثقته في نفسه وعن استعماله للضروري من الجهد، لأقل ما يمكن من الجهد بعيدا عن كل روح منافسة مع نفسه أو مع غيره!

- إنه يشبه الطائرة الصامتة!

- من شدة هدوئه!

- إننا نقترب من غيمة صغيرة!

- ستصلان بعد قليل إلى حيث الغيم الأكبر!

- إني أمسك الغيمة الصغيرة وكأني أمسك بصوف ناعم!

- استمتع بلمسها إذا شئت!

- هذه غيمة كبيرة تشبه خيمة من الوبر!

- الآن وصلتما إلى الغيم الأكبر!

- وهذه غيمة تشبه الفرس، إني أريد أن أمتطيها!

- تقدر إذا شئت!

- لقد امتطينا ظهر الفرس!

- خذ وقتك واستمتع بالأحاسيس الجميلة التي تشعر بها!

- الله!... إنها تركض عبر الحقول، عبر تجمعات البقر الوحشي، عبر تجمعات الطير، تستنفر الطير والبقر الوحشي... تركض...

- عبر الزهور فيمتليء الجو بالروائح المنعشة، بكل ذلك، خذ كل وقتك للاستمتاع.

- أريد أن أستريح قليلا!

- استرح كما تشاء واستمتع باستراحتك!

- هذا ليس ظهر الفرس، إنه أكبر بعشرات المرات وأرحب من ظهر أية فرس... إنه الصدر، نعم صدر الفرس!

- وأنت فوق أحد ثدييها!

- ما أجمل هذا الثدي، هل أستطيع مداعبته!

- تستطيع كل ما تريد!

- عجيب! فرس تركض بهذه السرعة وهذا الهدوء في مثل هذا الوضع!

- استمتع بأحاسيسك! !

- إنها قد عادت إلى الركض من جديد!

- إنها سعيدة بذلك!

- أنا أيضا سعيد، ولكني أخشى أن تزل ذاتي أو تغير الفرس من وضعها!

- لن يحدث مثل هذا لأنك في غاية الهدوء والراحة والثقة بالنفس!

- ولكني لا أثق في هذه الفرس الجموح!

- يعجبها أن تداعب صدرها، ولأنك تعرف كيف تداعب الصدر فإنها لن تتركك تسقط!

- ألا يجب أن أكون حذرا مع ذلك؟

- لا حاجة بك إلى مثل هذا الحذر... وعلى كل حال فهناك صاحبك الطائر الذي بإمكانه أن يساعدك في جميع الظروف!

- ولكن أين هو؟

- إنه بجانبك، فلا تهتم به، إنه طائر وصديق لك...!

- اهتم فقط بمداعبة ثدي الفرس!

- إنها تتمطط بعد أن توقفت فجأة عن الركض!

- داعبها، استمر في المداعبة، اجعل في يديك أكثر ما تستطيع من اللطف!

- إنها تتثاءب!

- استمر في مداعبتها وتذكر إنك هادئ، إن لمسك لها لطيف جدا!

- إنها تبتسم!

- ابتسم لها بدورك!

- إنها تتبسط أكثر في وضعها!

- تذكر: إنك هادئ ولطيف، إنك تبتسم لها بعذوبة!

- لقد أخذت تداعب وجهي بشعر ذيلها الناعم!

- لا تكف عن مداعبتها بلطف واستمتع بهذه المداعبة، استمتع!...

حلمة الزيتون

- أيها الشيخ!؟
- أين أنت، هل نمت مرة أخرى!؟
- لقد سقط صديقي الطائر!؟
- كيف، هل أنت متأكد!؟
- غيرت الفرس وضعها فسقط!
- وأنت، أين أنت الآن؟
- إني لا أزال على ظهر الفرس!
- وهل ترى صاحبك الطائر؟
- لا، ليس في إمكاني رؤيته!
- لا تشغل نفسك بأمره، إنه طائر، ولا خوف عليه في السماء!
- وأنا ماذا أفعل بدونه؟!
- أنت على ظهر فرس جميلة تركض بك في أجمل أماكن السماء، وأنت مسلح بالهدوء والطمأنينة واللطف... لا تفكر سوى في الاستمتاع بهذا الوضع، بالأحاسيس الرفيعة التي يخلقها بداخلك وحولك... أنت في حديقة من الهدوء والأمن!...
- يخيل إلي أني أنزلق من فوق ظهرها!
- تمسك بهدوئك!
- أظن أن الفرس تتفتت... لا، لقد أمطرت!
- ولكنك هادئ ومطمئن!
- إن السحاب يتقاذفني، وقطع المطر تؤلمني!
- إنك هادئ جدا ومطمئن!... بإمكانك أن تحلق كطائر!

- أريد ذلك إلا أني لا أجد جناحين!
- بمقدورك أن تركض على الأقل!
- وكيف أركض!؟
- لك أربع أرجل... استعملها!
- رجلان فقط... لي رجلان فقط!
- ويدان كانتا في الأصل رجلين!
- إني أركض لكني أهوي!...

... لا يمكن أن أركض بهدوء!

... أتوقف عن النزول، كيف!؟

- أركض بهدوء أكبر إذن!
- إني أركض في كل اتجاه!
- بإمكانك أن تركض في اتجاه تريده!
- إني أركض في اتجاه الجبل!
- أركض نحوه بهدوء لا داعي للعجلة!
- إني أركض في هدوء!
- في هدوء تام واطمئنان!
- نعم في هدوء تام، إنما بدون، بدون اطمئنان!
- تقدر أن تكون مطمئنا لأنك هادئ واركض كما تريد!
- أجل، إني أركض كما أريد!
- استمتع إذن بروائع الأحاسيس!
- أرى غابة كثيفة ومدينة جميلة!
- أزرو! بالتأكيد...
- استمتع بجمال المنظر وبالهدوء الذي يسوده!

- وهذه مدينة أخرى!
- استمتع!
- إنها عين اللوح!
- استمتع!
- وهذه بركة ويوان!
- انظر إلى ألوانها، إلى البط البديع، واستمتع!
- إني رغم هدوئي وروعة المشاهد لا أقدر على أن أكون مطمئنا... هل أستطيع أن أصير طائرا؟
- تستطيع أن تصير كل ما تريد شريطة أن تريده!
- إني أحلق، يدايا صارتا جناحين!
- وإذا شئت أن تحط حط في أي مكان يعجبك!
- لا، لا أريد أن أحط الآن، أريد أن أظل محلقا بين جبل وجبل، بين غابة وغابة، بين مدينة ومدينة، بين نهر ونهر!
- كما تحب!
- إني أبصر أم الربيع من هنا، هذا منبعه!
- إنها رائعة هذه العيون... استمتع!
- هل يمكنك أن تكف عن توجيهي لحظة!؟ إني أريد أن أطير كما أشاء وأن أحس بما أشاء... لا أخفيك أن كلامك كثيرا ما يزعجني، وكم مرة أفسدت متعتي.
- كما تشاء يا ولدي!

- أيها الطائر... يا ولدي!؟... أين أنت الآن، ألا تطمئنني!؟
- اطمئن أيها العجوز، أنا هنا!
- لقد انشغل بالي عليك أين أنت بالضبط؟
- أنا هنا على رأس الجبل أتفرج على مدينة القصيبة وحركة الغابة!
- حسنا فعلت، ولكن يجب أن تعود!
- إلى أين!؟
- إلى مكناس، بي رغبة في شرب كأس شاي بنعناع مكناس وفي أكل رغيف مع زيت أو زيتون مكناس! أنت تحب الحرشة!؟
- تستطيع أن تعود لوحدك!
- ألا تعود معي!؟
- إني أريد أن أبقى هنا!
- وبيتك وأهلك،... وأصدقاؤك، وعاداتك التي لا يمكن أن تعيش بدونها!؟
- أريد أن أستريح من كل ذلك، من ذلك التعب، ولقد أمرني الطبيب بالاستراحة... طيلة شهر!
- تعال نذهب الآن وأعدك بأن نعود إلى القصيبة متى شئت!
- لن أذهب معك!
- ولكني لا أقدر على العودة وحدي!؟
- كذاب، شيخ كذاب!
- أنا كذاب متى كذبت عليك يا ولدي؟

- لا تقل لي ولدي فأنا لست ولدك ولا يمكن أن أكون ولد شيخ كذاب مثلك!

- متى كذبت، متى!؟

- منذ تعارفنا، لم تكن سوى شبح فادعيت أنك حقيقي، كان هذا انطلاق عشرات الأوهام التي زرعتها في بكذبك!

- أنا لم أكذب مرة واحدة، لم أدّع أني حقيقي، أنت الذي كذبت على نفسك فإني لست وهما ولا شبحا!

- وعندما وعدتني بالعودة إلى جنية البحر، ألم تكن تكذب؟

- إنك تظلمني، أنا قلت إنك تستطيع أن تعود إليها بنفسك ووحدك متى شئت!

- وحاولت فلم أقدر، قضيت اليوم كله أحاول ذلك... فلم أستطع!

- الذنب ذنبك لأنك لم تستطع أن تكون هادئا ومطمئنا بالقدر الكافي لتمكينك من العودة إليها!

- ألم تقل لي أني صرت قادرا على ذلك متى أريده وما دمت أريده؟

- لم أكذب عليك: إنك لا تزال قادرا عليه شريطة أن تتهيأ للأمر بما يكفي من الهدوء والاطمئنان والثقة في النفس، شريطة ألا تبالغ في استعمال هذه القدرة التي اكتشفت سرها... وهل أنت على يقين من أنك لا تريد العودة إرادة كاملة؟

- لست أدري كل ما أعرف أني لم أنجح برغم محاولتي الطويلة، وأنا لا أريد أن أكرر محاولة تجربة الفشل مرة أخرى بقبول الذهاب معك، لن أترك هذا الجبل ولا هذه المدينة مقابل وهم، أكذوبة، إذهب إني لن أذهب معك، إذهب واتركني وشأني!

- كما تشاء ما دمت قد فقدت الثقة في!

- إذن انصرف بسرعة!

- ها أنا أنصرف!...

- أيها الشيخ!؟... أود أن أشكرك!

- تشكرني!؟

- على كل هذا الكذب، كل هذه الأوهام، إنها حقا جميلة جدا، جميلة...

- لذلك فهي حقيقة، فهي ضرورية!

- ممتعة أحيانا!

- ككل ما هو حقيقي أو ضروري عندما لا نبالغ فيه!

- لأنه حقيقي أو ضروري!

- لأننا لا نستطيع أن نعيش فقط بما هو حقيقي أو ضروري، بما هو موجود، بما نحن، تصور ماذا كنا سنكون بدون ما ليس نحن وبدون ما ليس موجودا !؟

- إني أتصور كل ذلك، لهذا أشكرك!

- على أي شيء!؟

- على ما منحتني!

- أنا لم أمنحك شيئا لم يكن لديك!

- على ما علمتني!

- أنا لم أعلمك ما لم تكن تعلم!

- على إطلاعي على أسرار استعماله!

- المعرفة برغم ضرورتها ليست كل شيء ولا معرفة سر استعمال شيء... لقد كنت تعلم ما كنت تدعي إني علمتك!

- جعلتني أكتشف الحاجة إليه!

- لقد تعود الإنسان على إخراج بعض ذاته من ذاته ليراه كشيء من الأشياء... أو في غيره... ليراه!

- وهذا وهم... تريد أن توصلني إلى أنك وهم!؟ انصرف... انصرف أرجوك... إنك تفسد علي متعتي!

- صدقت، استمتع، إني سأنصرف!... لكن الوهم غير موجود... مرض لغوي!

- انصرف بسرعة!...

- بسرعة، قلت لك!

- نعم، بسرعة، وداعا،

- وداعا... انصرف!

فرجة غابات الزيتون

للعين سعة الكتاب. للكتاب سعة المزهرية. للمزهرية عين الأفق التي تقرأ الكتاب/المجلة. وأنت الذي ينحت الشفق على ورق الأمل والأرق كم يسعدك أن تكون العين المزهرية في هذه النقطة النائية عين فتاة من العنق/ البرج/الشبق تعشق روائع الفنون من الكتاب والموسيقى إلى الطبخ والورد من الذي يقرأ في القرب والعين إلى الذي يقرأ في الهمس والبين من الذي يكلل رأس الجبل وسفحه إلى الذي يملأ صدر البحر وسطحه... هذه المزهرية هذه العين هذه المجلة فاكتب ولا تتوقف لحظة إن لك قارئا ومقروءا أينما يصبح الكتاب لحظا والمزهرية مجلة ويصير لغط التلفاز هدوءا... قد يقلقك أن الكتاب مفتوح كما المجلة ورأس الجبل وصدر البحر لمن مر عابر سبيل مثلك ولكـــن «الحب» لا يقدر أن يملك وإلا تمرد أو هلك... في الحب تعطي ولا تنتظر شيئا من غيرك في الحب كل ما تعطي لك لا لغيرك، فابسط ضلوعك واصرخ: خذيني يا لقصيبة!... أذكر العينين البارزتين دائما المفتوحتين دائما كفوهتي بندقيتين أطلسيتين... دائما سأظل أذكر ولو فقدت الذاكرتين (القلب والعينين) صوت حذائك العالي الكعبين كما أذكر صوت حلمة أمي بين الشفتين... دائما سأظل أذكر شعرك الليلي الرزين يقرأ المجلة أو يهيء الحساب كما يقرأ رأس الجبل أسرار الشفق والوديان كما تهيء الأرض حساب الطيور والديدان كما تقرأ منابع الأنهار مصائرها في المحيطات والمسافر قدره في الطائرات أو في مهجور المحطات.

دائما سأظل أذكر صديقي يحذر « المحيط في البيضاء وطنجة وأنت تكره الشطآن فكيف تلتقيان!؟».

دائما سأظل أذكر أني أنفجر « المحيط قد يكون قصيدة وقد يكون كتابا أو نبيذا فيصبح الشط في تازة أو في الزيتونة أو القصيبية كما يصبح الأطلس في مكناس أو البيضاء أو الصويرة يصبح البحر يابسة وتصبح الأرض جزيرة فلا ينسى الغذير نبعه ولا ينسى النبع غذيره كما هو الشأن بين البيضاء والقصيبية أو بين مراكش والصويرة...

دائما سأظل أذكر ولو فقدت الذاكرتين (الخيال والشفتين) أن طنجة في القصيبية ومكناس في البيضاء ولو حلت بالأرض مصيبة وانفصل الجبل عن البحرين...

دائما سأظل أذكر لحية الصديق تسخر «صدفة بعدها لا أثر وتنتهي القصيدة كئيبة تعود طنجة أو البيضاء من القصيبية فلا تجد غير الزيتونة بلا جبل ولا بحر».

دائما سأظل أسأل هو لماذا يريدنا أن نلتقي وكأنا افترقنا لحظة وكأن الناس تفترق لتفترق وتلتقي لتلتقي وكأنها لا تفترق لتلتقي ولا تلتقي لتفترق وكأن العين لا تحمل في العين أو الجيب كما يحمل كتاب أو صليب وكأن المسافر إلى أبعد مكان قد ترك وراءه كل مكان وتوقف في ساعته الزمان... ثم لماذا يريدنا أن نلتقي وكأنه يريدنا أن نتمالك ثم نتهالك كزوجين قتلا الخيال والأمل وحولا الحب إلى معارك فلا هما حبيبان ولا هما عدوان ولا هما شاعران!؟...

دائما سأظل أذكر وأسأل « هل الصدفة صدفة حقا أم محاولة تخف خبيئة يشعرنا القدر من خلالها أننا نملك أن نستشف ونملك أن نستحق كما تملك الشمس أن تتوارى خلف السحاب وفي أحضان الضباب لتشعر بالأهمية!؟...».

دائما سأظل أذكر أن القصيبة على شاطئ البحر وأن طنجة والبيضاء كانتا بالجبل وأني سواء صعدت الجبل أو نزلت البحر سأجد سفينتي مضاء طريقها بمنارة هائلة كلها بالبحر كلها بالجبل...

دائما سأظل أذكر وقع حذائك العالي الكعبين يدق على رأسي الجبلين (نهديك الغمازتين) ليؤكد لي متحديا أن ما يفصل بين الجبل والجبل بين النهد والنهد بين البحر والبحر لتجري بينهما الحقول والوديان كما تجري القصائد بين الشفتين ... واحد، هو هو!...

أبدأ سأظل أذكر سأظل أسأل أين يوجد الحد بين الحد... والحد بين النهد والنهد بين البحر والبحر بين الجبل والشط بين عينيك والشط بين الخط والخط بين رمشك والكتاب الذي تقرئين أو يقرؤك إن لم يكن في انتفاء الحد أو بين عينيك وذكرى عتيقة في خيال هذا السيء الحظ!؟...

ها هو البحر في القصيبة يحلم بالصحراء يتطاول على السماء يصل إلى املشيل عبر اغبالو أو البيضاء أو مكناس ليسترد ضفيرة الحبيبة...

ها هو أم الربيع كفراشة يفسح جناحيه للرمل والصدف المتجه إلى تنغير عبر أزمور...

تعب الرمل تعب السمك تعب الصدف من الماء والطحلب وانفصال البحر عن مرقده في الصحراء... من الطلب!...

تعب الأصل من الاشتياق إلى الأصل كما تتعب الأجزاء من الاشتياق إلى الأجزاء... من التكالب!...

وتسعى إلى الاندماج بين السماء والأرض...

تعبت السماء من العلو...

تعب الهواء تعب التعب في القصيبة وأطلق جناحيه للضياء كسمكة ملونة في عينيك اللتين تسبحان في شعرك الذي يسبح في الكتاب الذي يسبح

في صدرك الذي يسبح في نهدك حيث يتم مستحيل اللقاء الذي تهز به إليها نفسي ليتنافر حبات عنب وماء ورمل وضياء واشتهاء واستباق وارجاء وابتداء وانتهاء وارتقاء في الابتداء والانتهاء ثم ارتقاء في الانتهاء والابتداء ثم... في القصيبة يصير الجبل بحرا والأسماك طيورا والماء رملا والصدف أشجارا والرمل عنبا والعيون أفلاكا والأفلاك فراشات في القصيبة يصير الانتهاء ابتداء، والاشتهاء إشباعا والاستباق إرجاء والإرجاء زجاجة والزجاجة قصيدة تقرأ في الصباح والمساء...

على عكس الشعر الذي يكره أن يقرأ في غير المساء...

في القصيبة تنتهي الحدود بين الصباح والمساء بين كل الأشياء ويستيقظ الشاعر الميت منذ سنين من رماده ليؤذن في كل لحظة في كل حين وشيء للصلاة في العيون حي على الصلاة أيها الشعراء الميتون حي على القصيبة قبل أن تعود الحدود بين الأشياء إلى الانتشار ويتعالى سور الصين بين آخر وهم واقع وآخر واقع وهم فتلفني شرنقة الابتسار وأتذكر أني نسيت آيات التزوير والغلاء التي ما أنزل من قبلها شيء...

قبل أن يشعرني هذا الشعور بالشعور بالهباء وأتحول إلى ذرة خالية من آيات الرحمان المحكمات لا تقدر على الاشتهاء تحت ضغط المحبطات لا تقدر على الإعلاء ولا الابتداء ولا الانتهاء وهي الهباء الخواء والفناء والعياء الممات الذي لا يحييه ولا يعليه ولا يحليه ولا يجليه ولا يقويه ولا يعريه غير العين التي تصبح رملا جبلا بحرا خمرا سماء ظلا وترا تمارس كل التحولات صباح مساء...

يا أهل مكناس واش ماشي عار عليكم؟

ماذا تفعل هذه الفراشة... هنا... مع هذا العجل!؟

عيب... عيب أن يتحول بوفكران

إلى مجرى فضلاتكم
وأن تصير زكية مبولة
لأحقر قراصنتكم
عيب، تعب، عيب تعب...عيب
أن ينسى الشيخ الكامل القربة وأن تنسوا الكيرة!...
القصيبة هي ووامنة هي تغسالين وخنيفرة
هي مريرت أو عين اللوح
هي الطريق الرئيسية من طبقال إلى تور أو باريس
القصيبة أزرو
القصيبة هي انزل قليلا أو اصعد قليلا كما تشاء تجد القصيبة في العلوى أو سيدي عثمان أو العالية أو حجرة نكور
تجد القصيبة الأسطورة تلك التي يحكيها جبل
باسم عينيك الجبل البحر العائمتين في الكتاب. باسم الكتاب باسم القراءة باسمك وحدك أقرأ الجبل ولا أبوح لأني لا أعرف بكم باعت أو اشترت أصوات أبنائها القصيبة ولا كم تساوي البصقة في الفرج بالقصيبة ولا عدد الذين ماتوا فيها من العطش رغم سواقيها ولا إن كان الماء ينبع من قيح الفروج والذكور ولا إن كان من دم الأطلس الذي مازالت تقطع رجله كما لو كانت حكايته بنت اليوم ليست القصيبة بركة لا تفوح منها غير رائحة المني ويقصدها أصحاب العاهات كما يقصدون مولاي يعقوب مثلما ليست الخنيفرة «باتي مار كوني» لا يصدح بغير صوت رويشة ورفادات النساء وأنا منذ طلعت من العالية إلى المحمدية ثم العالية ومنذ طلعت من العالية إلى الحي الحسني ثم إلى العلوى منذ طلعت من العلوى إلى المحمدية ثم أزغنغن ثم

الناظور ثم مليلية ومنذ طلعت من مليلية إلى سيدي عثمان ثم إلى المحمدية العالية ثم إلى مكناس منذ طلعت من نفسي إلى البحر

ومن البحر إلى الجبل

ومن الجبل إلى الناس

لم أكن أغطس في غير الماء في غير الرمل في غير العرق في غير الكأس والطمي في غيرما يوحد بين الجبل والبحر كنت أنزل من الجبل إلى الماء وكنت أصعد من الماء إلى الرمل إلى الجبل فلم أحس يوما بما بين الجبل والبحر ومازلت أذكر أن في العلوي تتداخل السهول بالهضاب وتسبح هذه مع تلك في بحر قد يكون من عرق أو مني أو وتر أو خمر أو سراب كل هذه الأشياء كما تتداخل في جسد امرأة جبال وبحار...

القصيبة الأسطورة الواقع امرأة المرأة بحر وجبل البحر جبل القصيبة... جبل لم يصل إلى قمته أحد برغم ما يحكى عنه من خرافات

القصيبة بحر لم ير منه أحد أكثر من الماء بالرغم من كثرة الاستمناء من هؤلاء عابري سبيل اللذة رأى فيه الصدف والسمك والأطيار... ما رأيت في عينيك!؟ من من هؤلاء الذين يحملون أيورهم في عيونهم رأى ما في كتاب صدرك من مدن وأمصار من منهم عاد بطائر وأحد بسمكة واحدة لم تتحول في يديه إلى سقاية دم حيض. من من هؤلاء الذين يمارسون فيك العادة السرية قد نام واستيقظ كما تنام وردة أو قصيدة!؟

دعينا من هؤلاء وتعالي نصعد قليلا فوق الرمل والماء لنمشي على الجبل كما تمشي صغار الحجل

لنتبع الفراشة... أين سيحط عليها البغل وكيف سيتبول!؟...

انظري إلى رأس الجبل

غريب رأس الجبل إنه يشبه القضيب كما يشبه البظر كما يشبه الصقر كما يشبه رأس البحر كما يشبه قالب السكر كما يشبه السماء ويشبه الأنف الشامخ رغبة أو كبرياء...

تعالي أقرأ كتاب القصيبة في عينيك أو أقرأ كتابك في القصيبة

هذه القصيبة ماء زلزال وهواء دعيني أمد إليك يدي لأغسل فيه قصيدة أو ضفيرة فإذا فتحت القصيدة أو الضفيرة عينيها وجدت رجليها على رأس الجبل وسوالفها في الماء وعلى رأسها قد حطت السماء دعيني فليبحر من يشاء هاهنا يلتقي البحر والجبل والسماء ويلتقي الأنبياء بالفقراء خير ما أخرج للناس فإلى أين أبحر خارج عينيك اللتين تضمان كل هذه الأشياء إلى أين يسير بك هذا المخصي القلب!؟

أيها الكلبيون

عيرتني بالشيب والجنون وقلة النفس: «أنت رجل أنت!؟»

في القصيبة رأيت الله ولن أستغفره أو أستغفرك لكي لا تشكي ولا أشك أني قد رأيته في القصيبة صادفته يمشي فوق كوكب مضيء أو هو الذي كان يضيء وسط كوكب من الأسماك والفراشات والطيور والشعراء والأطفال والروائح والجبال والبحار تقدمت إليه ولم يعترض أحد طريقي لا أحد أو شيء ابتسم لي ابتسامة وأحنى علي كما يحني الأب الذي يعرف أن ابنه في ضيق قلب قلت له إني حزين قال أعرف قلت ليس من أجـــل نفسي فقط قال أعرف قلت ماذا أعمل قال ما تمليه عليك نفسك قلت توسوس لي بأن أبقى في القصيبة لحراستها قال ممن قلت لست أدري على وجه الدقة قال تعرف أن القصيبة جبل قلت أعرف قال فمم تخاف عليها قلت لا أعرف وأنت العليم قال من الانشطار قلت تماما قال ما رأيك في أن تنظم إلى هذا الموكب وتبقى هنا في الآن نفسه قلت ولكني لا أعرف كيف أبقى هنا وأكون بالموكب كيف أكون

من مكانين في نفس الآن قال أمنحك قوة ان تكون في مكانين أو أكثر وأمنح الأشياء والمكان والزمان تفضلا أن تكون في حيزين وأكثر قلت وما السبيل إلى ذلك فأنت لم تخلقني إلا في مكان قال أن تحب من غير ما رغبة في امتلاك ما تحب قلت سبحانك أيها الرب وانضممت إلى الموكب فأخذت بصيرتي تنفتح وبدأت الأشياء تأخذ تدريجيا أكثر من موقع وها أنا أعيش وها أنا أعيش في القصيبة والزيتونة وطنجة والبيضاء وباريز وتور من غير أن أحس بالحدود وها أنا أعيش في أماكن عديدة وأزمنة عديدة وكائنات عديدة كما علمني الرب أعيش داخل الموكب وخارج الموكب وكأن كل شيء بداخلي أو خارجي في نفس الوقت لأكون كما أرادني الرب آكل وأشرب وأرتاح وأتعب أعمل وأحلم وأكتب من أجل أن يذوب الجبل في البحر ويشرب البحر الجبل فتصبح القصيبة عينا...

على أثر مجرد سمكة في البحر أو طائر في أعلى الجبل لكي لا يحدث ما أخاف منه في القصيبة بين الجبل والبحر وبين عينيك ونفسي... ألا يقولون إننا في الزمن الصفر!؟

ولكن كفى من مديدك نحوي
فأنا لست ذلك البغل
أنا لم أعد ضعفك... أنا كنت أهبل...! ؟
صح...
عينيك يظيمو السور
من جهة الناظور!

القصيبة امرأة ولكني أرفض أن أضاجع القصيبة وسأظل أعلي من هذا الحب وأكتب إلى أن تتحول القصيبة إلى أعلى جبل أو إلى أعمق بحر لأثبت لنفسي أني قد بلغت من الكبر ما لا يسمح لي بممارسة العادة السرية مثل شاب

بلغ قدرا عاليا من النضج لم يعد يسمح له بالاكتفاء بصورة امرأة معلقة على الحائط لكي أتجنب هذا الواقع الذي يجعل الواحد منا يتسلل من فراش امرأة كما يتسلل كلب فالرجل لا يضاجع سوى نفسه مع امرأة كما لا تضاجع المرأة سوى ذاتها مع الرجل ولا يضاجع الجبل حين يضاجع البحر سوى الجبل كما لا يضاجع البحر سوى البحر وأنا نفسي ملت الاستمناء فلأتركها في غيها إلى أن تمل الإعلاء... أرفض يد امرأة لوط الممدودة نحوي تلك اليد التي مازالت تقطع قضيب أطلس وتضعه في أكياس نيلون لتقدمه للسواح على أساس أنه بلوط أرفض اليد لأن البلوط يغوي لأن القضيب يشبه البلوط لأنه يشبه الحلمة لأنه يشبه الرصاص فيا ويحكم يا قوم لوط حين تتحول الحدود إلى أعمدة من ملح وتنظرون خلفكم فتتجمدون ويحكم حين يصبح البحر الجبل أو الجبل في البحر وتتهاوى المسافات بين الرمل والسماء والطين بين الطيور والأسماك والأشجار والصدف بين الصدف والبلوط والقضيب والرصاص وما أسعدني أنا الدرويش الذي رأيت كل ذلك ذات ليلة كما يراه نبي أو شاعر أو رحالة لم يبرح مكانه في أي حين وإنما رآه بما يشبه الذكرى أو الذوق أو النجوى أو الحنين أو الجنون ولتهنأ زكية بأجساد الرجال...

وصداقة هذا الدرويش الذي صار من كثرة الإعلاء
واحدة من صديقاتها النساء
اللائي يمارسن الحب – الجنس
مع الطيور البحر وأسماك الجبال
لأن الشفاه خلت من الملح والشمس
من الزمن الصفر
الذي حول سيدي قدور إلى شاعر
بدل أن يملأ جيوبه بالبلوط

آه من هذا التعب الهجين!

معذرة مولاي الشيخ الكامل... ظننتك الرب! أستغفره سبحانه!...

أأفعل معك كما يفعل عباد الله المقهورين ...

وأرفض هذه اليد الممدودة إلي بالبلوط الهجين!؟

حـريق الزيـتـون

أقعدوني على كرسي فخم وقدموا لي القهوة وعلبة سجائر. كانوا ثلاثة. سألني ذو الشاربين الطويلين والصلعة الرهيبة.

- تعرف أساليبنا جيدا!؟

لم أتردد:

- سمعت بها، أعرفها إذن!

أضاف:

- وتعرف أننا نستطيع أن نحصل على كل ما نريد؟

وبتلقائية ورهبة أجبت:

- سمعت بذلك، أعرفه إذن!

أشعل لي السجارة التي لم أستطع إشعالها:

- ننتظر منك أن تتعاون معنا بقوة الحقيقة!

سقطت السجارة من بين أصبعي فأثبتها الرجل بينما:

- أية حقيقة؟ إني لا أريد سوى التعاون معكم!

ثار الآخران اللذان يشبهان فأرين نحيلين:

- أتركه إنه لا يعرف بعد ما نريد منه!

لم أنجح في حمل فنجان القهوة إلى شفتي:

- نعرف أنك لا تعلم بعد ما نريد منك، سأشرح لك الأمر، اشرب قهوتك!

وساعدني على إفراغ الفنجان نصفه في فمي ونصفه في ثيابي:

-كيف ولماذا أو متى، وأين، وبماذا، وفي ماذا، وعن ماذا... قتلت زكية!؟

وازداد اضطرابي (من تكون زكية هذه بالرغم من أن الاسم ليس غريبا على أذني!؟)

بينما لحس الرجل شاربيه وفتلهما وهو يجلس بين الفأرين. تبادلوا نظرات رهيبة ثم قفز الفأر الأصفر وأخرج غلافا كبيرا أخرج منه صورة كبيرة وضعها أمامي:

- تأملها بإمعان، قال بخبث ظاهر!

لم يكن يظهر من الصورة سوى العينين:

- لا أرى سوى عينين، علقت باستغراب!

قفز الفأر الأبيض ليقف ورائي:

- عن العينين بالذات نريد أن نسألك، ألا تعرفهما؟

فجأة قفزت العينان إلى مخيلتي من جديد:

- بلى، أعرفها!

وأمسك ذو الشاربين الطويلين والصلعة الرهيبة بالعصا التي خرجت من لساني:

- أين رأيتهما بالضبط لأول مرة؟

فكرت في ضرورة الهدوء (والطمأنينة) والثقة في النفس (والاسترخاء!؟):

- في القصيبة، في مكان ما من القصيبة!

قفز الفأر الأبيض من جديد ليجلس أمامي فوق المكتب مثبتا عينيه في عيني:

- في أي مكان بالضبط، بالضبط، قلنا؟

عبثا حاولت أن أتذكر:

- لا أعرف أين بالضبط، ربما في الجبل، ربما في السفح، ربما في الغابة، ربما في مكان آخر...

أوقفني الفأر الأصفر الذي كان قفز وأمسك بالصورة بين يديه يتأملها:

- نثق فيك، نعرف أنك لا تكذب، كذلك سنساعدك!

ووضع الصورة من جديد أمامي بعد أن كشف عن الصدر فيها:

- هذا الصدر، أين رأيته؟، لا تقل إنك لم تره!

بسرعة أجبت، ولكن باستغراب:

- إنه صدر الغيمة، صدر فرس السماء!

استدار الفأر الأبيض نحو صاحبه الأصفر:

- ألم أقل لك إنه يكذب!؟

ثم رفع الصورة وكشف عن الرجلين فيها:

- وهاتان الرجلان، هل تذكرهما؟

وبسرعة أيضا وبنفس الاستغراب أجبت:

- إنهما رجلا جنية البحر!

كانوا جميعا يبتسمون والفأر الأبيض يكشف عن شعر الصورة:

- وهذا الشعر!؟

بدهشة أجبت هذه المرة:

- إنه، إنه ما كان... ذيل فرس السماء!

- برافو عليك، علق ذو الشاربين الطويلين والصلعة الرهيبة وهو يقوم من مكانه ليمسك بالصورة بينما يعود الفأران إلى مكانيهما إلى جنبه:

- انظر الآن وقل لنا متى رأيت هذه الابتسامة!

بنفس الدهشة ولكن ببعض التردد أجبت:

- إنها ابتسامة جنية البحر!

كان الفأران يرقصان من البهجة فوق كرسيهما وهو يكشف عن كل أجزاء الصورة ويضعها أمامي من جديد:

- لقد انتهينا تقريبا، عليك أن تتعرف على الجسد بكامله!

تأملت الصورة:

- إنها صورة زكية!

فسألني الفأر الأبيض:

- ومن تكون زكية هذه؟

قلت في اطمئنان تام:

- إنها زميلتي في المكتب!

وأضاف الفأر الأصفر:

- وعشيقة رئيس أحد الأقسام بالإدارة!

- أجل!

فأضاف ذو الشاربين الطويلين والصلعة الرهيبة:

- وهي المرأة التي تعطف عليك وتعرف كل أسرارك لأنك كنت تحكي لها كل مشاكلك!؟

- أجل، هي الوحيدة التي كانت تعطف علي وتعرف كيف تواسيني!

ثم تابع بعد أن أشعل سجارتين قدم إحداهما إلي!

- وهذه الصورة كانت معك دائما في محفظتك منذ سرقتها من محفظة زكية!؟

- صحيح!

فقفز الفأر الأبيض وجلس أمامي فوق المكتب:

- وهذه رسائل حب بخط يدك موجهة إلى زكية!؟

- أنا الذي كتبتها!

وقفز ليفسح المكان للفأر الأسود:

- متى زرت القصيبة آخر مرة؟

- البارحة أظن!

فأضاف:

- وكانت زكية زميلة لك في الجامعة، ثم معلمة ثم طالبة في كلية الآداب بمكناس!؟

- أجل!

- وكنتما متزوجين، هي بابن عمها الأقرع وأنت ببت خالتك الصلعاء!؟

- أجل!

- ورغم إلحاحك الطويل لم تكن تبادلك سوى العطف!؟

- ربما كانت تحبني مثلما كنت أحبها وتخشى على حبنا من أن يتلوث وربما...

- المهم، أنها لم تعترف لك أبدا بأنها تحبك، ولم تستجب لإلحاحك، علق الفأر الأصفر!

- صحيح!

قال ذو الشاربين الطويلين والصلعة الرهيبة:

- نشكرك على تعاونك، منذ البداية توسمنا فيك الصراحة فقررنا أن نعاملك بلطف!

- أشكركم بدوري!

- وأضاف متوجها بالخطاب إلى رجل كان يجلس خلف ستارة بحيث لم نكن نرى سوى رجليه خاصة حذاءه الأسود الملمع بعناية فائقة:

- اختم التقرير بما يلي ثم اتركه يوقع:

« واعترف المتهم بهدوء وطمأنينة وراحة وأمن وتلقائية وثقة تامة في النفس بأنه ارتكب جريمة قتل زكية بهدوء وطمأنينة وراحة بال وأمن وتلقائية وثقة تـــامة في النفس حين رآها في غابة القصيبة عارية مع رئيس قسم الموظفين بالإدارة التي يشتغل فيها والذي كان بدوره عاريا قبل أن يختفي بصفة نهائية عن الأنظار كما أضاف المتهم بنفس الهدوء والطمأنينة والراحة والأمن والتلقائية والثقة بالنفس بأن الدافع إلى ارتكابه الجريمة كان هو الغيرة التي ركبته بهدوء وطمأنينة وراحة وأمن وتلقائية وثقة تامة في النفس انتهى».

ثم التفت إلي بهدوء وطمأنينة وراحة وأمن وتلقائية وثقة تامة في النفس:

- هل لديك ما تضيفه؟ !

فأجبته بهدوء وطمأنينة وراحة بال وأمن وتلقائية وثقة تامة في النفس:

- لا شيء، فقط أكرر شكري لكم على معاملتكم اللطيفة

وأخذت أستمتع بالأحاسيس الرفيعة التي كان يخلقها هذا الوضع بداخلي ومن حولي في انتظار أن يقدم إلي الرجل ذو الحداء الملمع بعناية فائقة التقرير للتوقيع عليه. ولشد ما كنت دهشتي كبيرة (كما يقولون في التعابير الأدبية) حين اكتشفت في ذلك الرجل ذي الحـــداء الملمع بعناية فائقة صاحبي الشيخ الـــذي كان يضحك ساخرا وهو يقدم إلى التقرير بهدوء وطمأنينة وأمن وراحة وتلقائية وثقة تامة في النفس:

- وقع ولا تستغرب فلا شيء يستحق الاستغراب في هذا الزمان!

- أنت... بخير...

وهممت بالتوقيع:

- موظف... !؟

- ألا تقرأ التقرير قبل توقيعه:

ولم أصدق عيني، لقد كانت التهمة تهما كثيرة وكانت كل التهم الموجهة إليه تهما خطيرة.

فقلت للشيخ:

- إقرأ!

قال:

- عندما تهدأ!

قلت:

- لقد هدأت، ها... ها... ــاه ألا ترى!؟

وبدأ يقرأ :

- التهمة الأولى : قتل النفس التي حرم الله بغير حق!

- أية نفس تعني... نفسي... نفس من؟

- عدم المحافظة على الطاقة الثمينة وصرفها في مال لا ينبغي وكيف لا ينبغي!

- أية طاقة أيها المضلل... طاقتي... طاقة من صرفت بهذا الشكل!؟

- التهمة الثالثة: التعود على البؤس تعود الميت على الموت!

- بؤس من... بؤسي الشخصي... بؤس من؟

- التهمة الرابعة: هتك حرمات المدن الجميلة واستباحتها كما تستباح الأعراض التي لا تجد من يدود عنها!

- أية استباحة وأي هتك وأية مدن يا رجل!؟...

اتقوا الله في!

- وهل اتقيت الله كي نتقيه فيك، ومع ذلك فإني سأتقي الله فيك وأتوقف عن تعداد التهم الباقية شريطة أن توقع على التقرير بهدوء وطمأنينة وراحة وأمن وثقة تامة في النفس.

قلت: – يستحيل أن أوقع على مثل هذا التقرير!

قال:

– إذن أنادي على الثلاثة ليستأنفوا استنطاقك!

قلت:

– تمهل، خذ وقتك يا رجل، كل ما يلزم من الوقت للتفكير في المناداة عليهم!

– قال مبتسما:

– لقد فكرت طويلا، على عكسك...

وعلى الفور أخذت أبتسم:

– وأنا أيضا قد فكرت طويلا مثلك!

فوقعت على التقرير بكل هدوء وراحة بال وأمن وطمأنينة وتلقائية وثقة في النفس... الخ...

كانت تلك آخر مرة أرى فيها الشيخ وكانت تلك آخر مرة أشكو فيها الشيخ وكانت تلك آخر مرة أشكو فيها من التعب، فقد اكتشفت...

وأنا أوقع على التقرير بهدوء وراحة وأمن وطمأنينة وتلقائية وثقة في النفس. إن حالتي، من جميع النواحي، تتطور من حسن إلى أحسن!

الفهرست

صدر عن

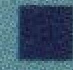


وزارة الثقافة

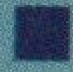
الأعمال الكاملة
الميلودي شغموم

الروايات

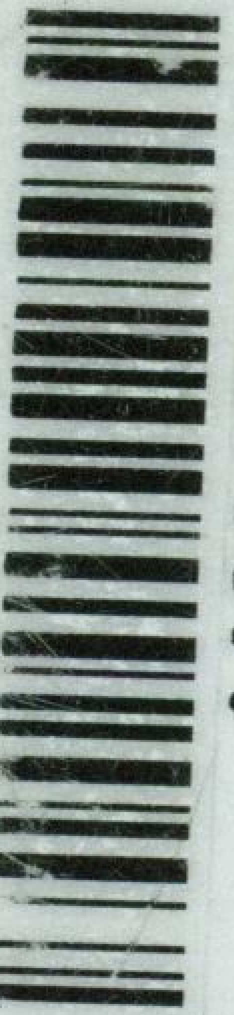
الجزء الأول



الجزء الثاني



الجزء الثالث



الثمن :
45 درهما